د. محمد المزوغي

في ضلال الأديان



٢٠١٩

د. محمد المزوغي

في ضلال الأديان



٢٠١٩

محمد المزوغي

في ضلال الأديان

مقدمة

كيف تكون الأديان سبب فتنة وضلال وهي التي من المفروض أن تكون، بحسب منطق المتديّنين، هادية للأخلاق الحميدة ولحُسن السيرة؟ لسبب بسيط، واقعيّ ومباشر، وهو أن الأديان لم تَجْلب للبشرية إلا العداوات والحروب، ولم تُفرز إلاّ الطغاة والإجراميّين، فتاريخها لم يَخلُ من سفك للدماء، منذ نشأتها الأولى إلى يومنا هذا[1]. إنّ العنف الثاوي في تعاليمها دفع العديد من الفلاسفة إلى اعتبار الأديان منظومة كُلّيانية، مُتهافتة، شرّيرة ولا أخلاقية. أن تكون متهافتة يكفي إلقاء نظرة فاحصة على كُتُبها "المقدسة"، ووضْع تعاليمها اللاهوتية على محكّ العقل؛ شرّيرة لأنها متعصّبة، إقصائية وعنيفة؛ لا أخلاقية لأنها مناهضة للطبيعة البشرية، وخالية من المبادئ الكونيّة المُشتركة؛ لا تعتَرف بالإنسان كقيمة في ذاتها ولذاتها، وإنما تُلحقه بالإله، كما يتصوّره المؤمنون، وإله المؤمنين، هو أكبر سفسطائي وشرّير في العالم.

فعلا، طبقا لجدلية الأديان، الله تكلم بشكل مختلف لكل شعب من شعوب الأرض، وبسبب هذا الاختلاف شتَّت الجنس البشري بدل أن يوحّده: فالهندي لا يَعتقد في كلمة واحدة مما قاله الله للصّيني؛ المسلم يَعتبِر حماقات كل ما قاله الله للمسيحي؛ اليهودي يرى، سواء في المسلم أو المسيحي، مُفسدان ومُدنّسان للشريعة المقدسة التي أعطاها الله لآبائه؛ المسيحي، مستكبرا بوَحيه الجديد، يَلْعَن الهندي والصيني والمسلم وحتى اليهودي، الذي يتبنّى كتابه المقدس[2]. وهذا في رأينا دليل على أن الأديان لا تصدر من أيّ قوّة متعالية وإنما هي صناعة بشرية محض؛ بل هي اختراعُ صِنفٍ من البشر ماكرين وشرّيرين، لا يحبّون لها الخير، ولا يرغبون في صلاحها وإنما يريدون هلاكها. كيف لا وهم يزعمون أن الحقيقة والصدق والقداسة مَوكولة إليهم وحدهم، ومَودوعة في كتبهم وأن الآخرين في أتمّ الضلال؟

إن هذه المفارقة لم تَخْف على قدماء العقلانيين في العالم العربي كأبي بكر الرازي الذي تَحدّى مؤمني الأديان وسألَهم: «مِن أين أَوْجَبْتم أن الله اختصّ قوما بالنّبوة دون قوم وفضّلهم على الناس وجعلهم أدلّة لهم وأحوجَ الناس إليهم؟ ومِن أين أجزتُم في حِكمةِ الحكيم أن يَختار لَهُم ذلك ويُشلِي بعضهم على بعض ويؤكد بينهم العداوات ويُكثر المحاربات ويهلك بذلك الناس؟[3]».

ولا يَخدعنا قولهم بأن الله هو الذي أمرَ بذلك وقرّره منذ الأزل، لأن ما يقولونه هو إهانة لله وطعنٌ في قدرته المطلقة، فهُم يُصعِّدون شرورهم إلى السماء ويُلقون بجنونهم على الله. يزعمون، مبدئيا، أن الله عليم حكيم، لكن في الواقع هو مُغفّل وجَهول لأنه لو كان حكيما، يقول الرازي، لألْهمَ عباده أجمعين «مَعرفة مَنافعهم ومَضارّهم في عاجلهم وآجلهم؛ فلا يُفضّل بعضهم على بعض ولا يكون بينهم تنازع ولا اختلاف فيهلكوا. وذلك أحْوَط لهم من أن يجعل بعضهم أئمّة لبعض؛ فتُصدّق كلُّ فرقة إمامها وتكذِّب غيره، ويضرب بعضهم وُجُوهَ بعض بالسّيف، ويعمّ البلاء ويهلكون بالتعادي والمُجاذبات، وقد هلك بذلك كثير من الناس كما نرى[4]».

صحيح، لقد هلك كثير من الناس بسبب الأديان، والتاريخ البعيد شاهد على ذلك، ولكن التاريخ القريب والراهن أيضا لا يقلّ مأساة عن السابق، فهو يُقدّم لنا يوميّا مَشاهدَ فظيعة تَصَدّر فيها المسلمون الساحة العالمية بعُدوانيّتهم الشاملة واضطهادهم لأهل الأديان الأخرى، خصوصا للمسيحيين، وامتدّت لتشمل حتى الفِرق الإسلامية المخالفة.

نحن لا نُنكر أنّ قوى خارجية، معروفة بتاريخها الاجرامي، لها يد في إثارة النعرات الطائفية وإذكاء الحرب الأهلية، كي يتسنّى لها تقسيم العالم العربي على أسس طائفية عرقية، كما حدث في السودان والعراق.

لكن جذور الفتنة موجودة بالقوّة في الدين، ولولا وجودها لما استطاع المُتآمِرُ النّبش عليها واستخراجها من النصوص "المقدسة"، وإعادة غرسها في أذهان المسلمين.

والمثقفون العرب المحدثون، المَحسوبون على العلمانية والعقلانية والانفتاح، كيف واجهوا هذه القضية المصيريّة؟ البعض بتَراخٍ تامّ أو بلامبالاة حتّى، والبعض الآخر بتحيُّز للموروث الديني الذي نشؤوا فيه، حيث إن عِلمانيّتهم وعقلانيّتهم لم تَمنعهم من التهجّم على الأديان الأخرى، واتّهامها بالكذب والتحريف والرذيلة، وإعلان الحرب عليها وعلى أتباعها. وقد ركّزوا حربهم خصوصا على المسيحية ـ (وجانبيّا اليهودية) ـ وعلى معتقداتها ورموزها الدينية وكتابها المقدس.

لم يُجابهوها من وجهة نظر عقلانية، لأن العقل يُكذّب الأديان كلّها، ولكن من موقع تقديسي ذاتي، يعني بالاعتماد على التراث الإسلامي، وعلى القرآن بالدرجة الأولى. فهُمْ غالبا ما يستخدمون في مُماحكاتهم ضد أهل الأديان كلمات عنيفة وتوصيفات مُهينة، من قبيل: المغضوب عليهم؛ الضالين؛ أهل الشرك؛ عبّاد الصليب؛ مُحرّفي الكتب؛ ... الخ.

لا يخفى على أحد خطورة هذا المنحى الجدالي وانعكاساته السلبية على المجتمعات العربية، خصوصا إذا جاءه الدّعم من طرف كُتّاب وفلاسفة ومؤرخين علمانيين حداثيين ذوي شهرة عالية في الأوساط الثقافية العربية والعالمية.

ولكي أتقاسم مع القارئ الوعي بهذه المسألة المحورية فقد اخترتُ من بين هؤلاء المفكرين العرب المحدثين أربعة: يوسف زيدان، يوسف الصدّيق، محمد عابد الجابري، ومحمد الطالبي، ولكنني لم أجد في الجهة المقابلة، مفكرين عرب مَرموقين، (من خلفية مسيحية) شنّوا حملة انتقاد وتجريح على الإسلام وقرآنه ونبيّه، كما فعل المسلمون مع المسيحية. ولِسَدّ هذه الثغرة التجأتُ إلى نصوص مُجادلين عرب وغربيّين قدماء، اخترتُ منهم أربعة، وهم على التّوالي: ثيودور أبو قرّة، عبد المسيح الكندي، ريكولدو دي مونتيكروتشي، وفيليب كوادانيولو.

الغرض الأساسي من هذا العمل ليس الدفاع عن أيّ دين من الأديان التوحيدية وإنما تفكيك خطاباتها ووضْعها على مشرحة التّمحيص الفلسفي، وخصوصا نقد المفكرين الذين يَتحيّزون إليها، وإظهار تهافُتهم الفكري الفظيع، والكَشف عن المنعرجات الخطيرة التي تتجرّ بالضرورة عن أفكارهم الطائفية الهدّامة، والتنبيه على خطرهم على التعايش السلمي بين أبناء الوطن الواحد، وبالتالي سَحْقهم وسحق أديانهم معهم.

I
يوسف زيدان وأقباط مصر

1. انفتاح القرآن على الكفّار والمُبالغة في القتل

للوهلة الأولى يبدو أن الجَمْع بين الانفتاح والقتل هو أمر مُنافٍ للعقل والأخلاق، لأن مفهوم الانفتاح يعني تقبّل الآخر مهما كانت ديانته وعرقه ومكانته الاجتماعية، أما القتل أو المبالغة فيه فهو فعل اجرامي ضد الإنسانية. المفكر المصري، يوسف زيدان، صاحب كتاب اللاهوت العربي، ورواية عزازيل، الذي سنتطرّق لأفكاره في هذا الموضوع، استطاع أن يجمع بين هذه المتناقضات. ابتدأ بأطروحة عامّة مفادها أن القرآن دشّن عهدا جديدا من الانفتاح على الآخر، لم يسبقه إليه لا التوراة ولا الإنجيل، حيث أنه عدَّ «الكفر دينا، حسبما تؤكده سورة الكافرون التي ورد فيها (لكم دينكم ولي دين)[5]». وهذا دليل ساطع، في رأيه، على أن القرآن يعترف بكل الأديان، ولا يستثني قبليّا أيّ منها، بما في ذلك الأديان الوثنية الشّركيّة، رغم أنه جاء لكي يقوّضها من الأساس.

لكن الرجل لم يلبث برهة على مبدئه هذا، ولم يذهب به إلى مداه الأقصى لأنه في نفس الصفحة، بل في نفس السّطر، يعود أدراجه لكي يُكرّس فكرة اقصائية شرّيرة، ويَنقض بالتالي، من الأساس، كل ما قاله عن انفتاح الإسلام وتسامحه مع الديانات الأخرى: «إلاّ أن آيَ القرآن أكّدت بوضوح (إن الدين عند الله الإسلام) (ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه)[6]».

إذن، دين أوحد، وإقصاء كُلّي لكل الأديان والملل الأخرى. أين الانفتاح على الآخر؟ أين الاعتراف بالأديان السابقة، وبالكفر والشرك والوثنية حتى؟ فالآيتان الأخيرتان واضحتان وصريحتان: الإسلام هو الدين الإلهي الوحيد، وهو الأحق بأن يُتّبع، وما عداه لاغٍ وغير مقبول. لم يكتف زيدان بهذا التناقض بل إنه ذهب أبعد من ذلك، وانتصب مدافعا عن الوثنية ضد اقصائية الأديان التوحيدية، بما فيها الإسلام، بالدرجة الأولى: «معروف أن الديانات المُسماة اعتباطا بالوثنية، كان كل دين منها يفسح مساحة لغيره من الديانات الوثنية الأخرى المختلفة عنه[7]». ديانة مسالمة، إذن ومنفتحة على التجارب الرّوحية الأخرى؛ لم تُكَفّر أحدا ولم تقتل شخصا من أجل

معتقده. السيد زيدان يعمّق الهوّة ويبالغ في مدح الوثنية، دون أن يتفطّن إلى أنه يَحفر لنفسه جُبّا عميقا. قال: «ولم نَعرف، تاريخيا، أن هؤلاء الوثنيّين تقاتلوا فيما بينهم، من أجل إعلاء ديانة وثنية فوق ديانة وثنية أخرى».

الجُبّ الذي حفره لنفسه هو أن الأديان التّوحيدية فَعلتْ العكس تماما، أرغمت بحدّ السيف، اضطهدت وقَتلتْ ودمّرت وأحرقت. السؤال ما الفائدة منها؟ ما الخير الذي قدّمته لنا حتى نواصل في التشبّث بها؟ أليس من الأفضل أن نتخلّى عنها ونتركها لمحكمة التاريخ؟ هذا الخيار، بالنسبة لزيدان، مستبعد مبدئيا، لأن الرجل يُعيد ويكرّر، دون تمعّن، الأحاديث العنيفة التي يَسير على هديها الارهابيون المسلمون منذ سيد قطب إلى داعش.

ورغم أن الموضوع المطروح ـ علاقة الأديان التوحيدية ببعضها ـ لا يمتّ بأي صلة لمسألة الغزو والقتل، فإن الرجل يعمد، بكل أريحيّة، إلى القول، دائما في نفس الصفحة، إن المسلمين «خرجوا في الغزوات والفتوح لنشر دين الله، انطلاقا من الحديث الشريف: "أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاّ الله"، ومن الآية القرآنية (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار)، والآية الكريمة (ما كان لنبيّ أن يكون له أسرى حتى يُثخن في الأرض) [8]».

ما معنى كلمة "يُثخِن"؟ لا أدري بالتدقيق، لكن من المحتمل جدا أنها كلمة قاسية، دمويّة لأنها وردت في سياق عنيف جدا، ومن الأفضل تفاديها. لكن السيد زيدان، للإفادة، يتوقف عندها لكي يفسّرها للقارئ، قائلا: «ومعنى يثخن في اللغة العربية: يطعن بالأسلحة، ويبالغ في القتل[9]».

المسألة إذن هي مسألة: "نشر دين الله"، "حديث شريف"، "آيات قرآنية كريمة"، شرح كلمة عنيفة بعبارات أعنف منها، بل إجرامية ومنافية للإنسانيّة، ثم المرور عليها مرّ الكرام دون أن تستفزّ مشاعره. فعلا، السيد زيدان لا يستنكر هذا العمل الوحشي المذكور في القرآن، لكنه يستنكر وحشيّة التوراة، ويُدين إله العبرانيين على مجازره، ويصمت صمتا رهيبا أمام عبارات القرآن الصريحة التي تُحرّض على قتل الأسرى، بل يتوسّع في تفسير كلمة "يُثخن" ويقول إنها الطعن بالأسلحة والمبالغة في القتل.

أنا لا أفهم خطاب هذا الرجل، ولا الأغراض التي يصبو إليها؛ لا أدري هل أوكِلَت له مهمّة تثقيفيّة صريحة، أم لديه نيّة مُبيّتة لبثّ خطاب سلفي عنيف. فمعلوم أن المسلمين الحداثيين يخجلون من الاستشهاد بحديث: "أُمرتُ أن أقاتل الناس"، البعض منهم يرفضونه تماما ويعتبرونه منافيا لروح الدعوة المحمدية، والبعض الآخر يُنَسّبونه في زمانه ومكانه، ولكن لا أعلم واحدا من الحداثيين أورد بكل أريحية آية (ما كان لنبيّ أن يكون له أسرى حتى يُثخن)، إلاّ يوسف زيدان في كتاب اللاهوت العربي، والاسلاميون في مؤلفاتهم الإرهابية.

2. لاهوت الوهابيّة

المُصادرة اللاهوتية الأولى التي بنى عليها زيدان فكرة "اللاهوت العربي" هي أن الإسلام هو أفضل الأديان على وجه الأرض، وبدون هذه المصادرة فإن كتابه يفقد من معناه تماما. ذلك أن هذا العمل، لا هو بعمل فلسفي منسّق يمكن تتبّع أفكاره والوقوف عند مراحل استدلاله، ولا هو بعرْضٍ كلاميّ كلاسيكي رشيق وواضح، وإنما فسيفساء من الخطابات المشوّشة يربطها رابط واحد: أفضليّة الإسلام على الأديان الأخرى.

اليهود والمسلمون والمسيحيون هم في صراع دائم لأن كل واحد منهم يُنكر الآخر ويُقصيه، لكن كرونولوجيا بروز هذه الأديان تَفتح باب التّفاضل. ذلك أنه إذا اعتبرناها من حيث التدرّج الزمني فإن الأفضل بينها هو الأخير، يعني دين الإسلام. فعلا، في الوقت الذي تعترف فيه اليهودية بذاتها فقط، والمسيحية تعترف بذاتها وباليهودية[10]، فإن الإسلام يتجاوزهما لأنه يعترف بكليهما. وكما يعلم الجميع فإن هذه المصادرة التبسيطية جدا هي، في الحقيقية، مصادرة سلفية وهابية قحّة، أعني الزعم بأن الإسلام يَفضُل على الدينين السابقين لأنه يُقرّ بهما ولا يُقصي أيّ منهما مسبقا.

وقد اعتمد زيدان هذه الأطروحة التي، كالتّابل، لا تغيب عن أي كتاب عقيدة إسلاموي، ولكن للتّنويع أو للخروج عن المألوف، طاف في البدء بالقارئ في دهاليز لغوية وجُمل مبتورة بلا معنى. لاحظوا الأسلوب التبسيطي السطحي الذي يستعمله في كتابٍ تنظيري، من المفروض أن يكون أكاديميا ومُوثقا بدقّة: «مَهما كان من موقف المسيحية الحانق على اليهود لأنهم أدانوا السيد المسيح ... ومهما كان من موقف الإسلام الذي أدان اليهود لأنهم حرّفوا الكلام الإلهي وقتلوا النبيّين بغير حق، وزعموا أن يد الله مغلولة ... وغير ذلك من عظائم الأمور[11]».

وبَعدها؟ لا شيء. لم يستخرج أي عبرة؛ لم يستنبط أيّة نتيجة منطقية، ولم يستخلص أية اعتبارات أخلاقية، إذ رغم هذه التهجمات المُتقاطعة والتكذيب المتبادل، فإن الرجل غضّ الطرف وقفزَ بسرعة إلى التّحقيب المعروف في كتب الاسلاميين وفي الوعي العمومي: المسيحية تَفْضُل على اليهودية، والإسلام يشترك معها في هذه الأفضلية، لأنهما «اجتمعتا على الاعتراف بالديانة اليهودية ونَظَرَتا بكل تبجيل إلى أنبياء اليهود (الكبار) ... وبتأكيد ارتباطهما بهؤلاء الأنبياء[12]».

لكن القرآن يسمو عليهما نظرا لموقفه المُنفتح على كليهما، والدليل على ذلك الآيات الأولى من سورة البقرة التي تؤكد على أن المُتّقين يُكوّنون وِحدَةً هم (والذين آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك). ليس هذا فقط، بل ثمة في القرآن تصريح واضح أن أنبياء اليهود والمسيحية هم (ذُرّية بعضها من بعض) «مؤكدا بذلك الطابع العائلي للنبوة والأنبياء[13]».

وكالعادة، لكي يَفسَخ كل ما قاله، ويبدأ في ممارسة الاقصاء والتعنيف، اكتشف زيدان هذا القانون العامّ الذي مفاده أن «الدين اللاحق يؤكد الدين السابق، بينما الدين السابق يُنكر اللاحق ويستنكره[14]». وهكذا عُدنا للفكرة الوهابية من أن الإسلام يعترف بالدينيْن السابقين في الوقت الذي لا واحد منهما يعترف به. وبالجملة، جدلية الأديان تتلخص في هذا المبدأ: «الجوهر الجامع بين اليهودية والمسيحية والإسلام، هو تأسيس اللاحق منهم لذاته على السابق، وتأكيد نبوّة الأنبياء (الأوائل) في الديانات الثلاث مجتمعة، مع بعض الاختلافات في صورة هؤلاء الأنبياء بين اليهودية والمسيحية من جهة، والإسلام من جهة أخرى ... المهم هو الاجماع على نبوّتهم، والتأكيد على جوهرية النبوة[15]».

أمّا علم مقارنة الأديان الذي اكتشفه زيدان وبدأ يُسطّر مَعالمه، في كتاب اللاهوت العربي، فقد بناه على مجموعة من المسلمات المختارة من قاموس الوهابية. العملية التي قام بها مخاتلة جدا: التوراة أمرُها محسوم دون رجعة، ولا ينبغي التوسّع في الحديث عنها، لأنها على المستوى اللاهوتي قد مسّت من التنزيه الإلهي وأنزلت الإله إلى منزلة إنسانية. في العهد القديم، يقول زيدان، الله يَظهر «قلقا، حسودا، حقودا، غضوبا، نادما، ناسيا، مُنتشيًا برائحة الشواء، مغلوبا ... وهي صفات إنسانية رديئة، ألحقتها التوراة بالإله بكل وضوح ومن دون أي مواربة[16]». إن اليهودية جعلت من الله كائنا أرضيا لا سماويا «فهو ينزل إلى الخيمة فيصير قريبا من الإنسان ويشاركه وقائع حياته».

غنيّ عن القول أن هذا التصوّر يمثّل سقطة كبرى في منظومة الديانة اليهودية، لأن الله، بالنسبة لزيدان، يسكن في السماء وليس في الأرض، وهذه بداهة يعرفها الجميع: «مع أن الله بداهة ينتمي إلى السماء لا الأرض[17]».

ما هي السماء؟ كيف يَصحّ استعمال كلمة "ينتمي" لوصف الكائن الأعلى؟ وفي أي مكان من السماء يتموقع هذا الإله؟ هل يُغطّي كل أطرافها وكل شِبْرٍ منها أم يَقبَع في موضع مخصوص؟ لم يطرح على نفسه هذه الأسئلة، بل لم تخطر بباله قطّ، لأن الرجل لا يتفكّر في ما يقوله، ولا يَضبط قَلَمه بإحكام، وإنما يصرّح هكذا بإطلاق أن الله "ينتمي" إلى السماء، يعني أن الله كائن ممتدّ يتموقع في مكان ما.

3. العرب مُوحِّدون بالطبع والمسيحيون مُشركون بالجِبلّة

بعد أن حسَمَ موقفه بسرعة مع اليهودية، التَفتَ إلى المسيحية، وهي موضوعه المفضّل والمرمى الأخير من كل تحليلاته: في البداية يجب أن يقول، عن مَضض، كلمة "معسولة" في حقها لكي يُخفي عداءه الدفين لها. المسيحية، حسب زيدان، تجاوزت التشبيه اليهودي «وأكّدت وجود الله مع الإنسان في الأرض[18]»، يعني أن المسيحية بدل أن تَقذف بالله إلى السماء أنزلته إلى الأرض، لكن مِن دون أن تُدخله إلى الخيمة، كما فعل اليهود. إلاّ أنها سُرعان ما انتشلتْه من مكانه الطبيعي ورمت به إلى السماء خوفا عليه من نور الشمس.

هذه الفذلكة، أقول، هذه الأمثولة الفُكاهية، هي لبّ المُصادرات العلمية التي تجشّم صاحبنا عناء تأسيسها وتقديمها للقارئ العربي. لقد أنزَلتْ المسيحة الله إلى الأرض «ثم رفعتْه ثانية إلى السماء، حيث الموضع الذي يليق به[19]».

لكن عالِمنا يخطئ، أو يجهل معنى كلمة "إنجيل"، حيث يقول إن الإنجيل: «يعني لفظه حرفيّا: البشارة». وهذا خطأ لا يمكن أن يقترفه أي طالب مبتدئ له معرفة بسيطة باللغة اليونانية، لا بل يكفي القيام ببحث بسيط في انترنت حتى نعلم أن "إنجيل" منحوتة من كلمتين يونانيتين: (ευ) وتعني "سارة، مُفرحة" و (αγγελιον) بشارة، وبالتالي إنجيل تعني حرفيا: بشارة سارة.

بعد الكلمة المعسولة، أخذ يستدرج القارئ بعبارات تبدو وكأنها محايدة، لكن سرعان ما سيكتشف أنها مخادعة، فضلا عن كونها خاطئة تاريخيا: فلسطين هي مهد المسيحية، وهذا أمر معلوم؛ لكن مِصر مَثّلت المهاد اللاهوتي الأوّل لنشأتها، يعني أنّ تصوّر الاله في المسيحية منقول حرفيا عن الوثنية الفرعونية، وبالتالي فإن هذه الديانة قد أسّست لاهوتها «على الفهم المصري القديم لعالم الآلهة ذي الأبعاد الثلاثية ... وإمكان تمازج البشر بالآلهة ... وجواز القيام من الموت وانتظار الحساب ... والانجاب من دون نكاح حسي».

وهذه طعنة في ظهر المسيحية، لأنه يُماهي اعتقادات المصريين القدامى باعتقادات المسيحيين في ألوهية المسيح، وكأنه يريد القول: الوثنية المصرية كانت الحاضنة الأولى للمسيحية لأنهما كدِيانتيْن وثنيّتين يتطابقان من حيث تأليه البشر والحيوانات ... الخ. لم يكتف بهذا، بل إنه

التَفتَ إلى أقرب الكنائس منه، الكنيسة القبطية، لكي يرشدها إلى هذه الحقيقة الفاقعة، طالبا منها أن تَقبلها وتَقتنع بأن أصل معتقداتها هي وثنية الفراعنة.

ماذا كان من نتائج هذا التماثل بين الوثنية والمسيحية الوليدة؟ يتساءل زيدان. الجواب: انسِيَاب المسيحية إلى القلوب «انسيابا سهلا، فتحوّلت البلاد المصرية فيما بعد إلى الديانة الجديدة، وبذلك تأسست على ضفاف وادي النيل أول دولة مسيحية في العالم».

الكلمات الأخيرة استقاها من الكاتب المصري منير شكري: "قراءات في الكنيسة المصرية"، والذي وصفه زيدان بأنه «معروف بصلابة عقيدته الأرثوذكسية القبطية[20]».

إذن، شهادة قَيّمة من قبطي متعصّب، نزلت لكي تؤكد موقفه، وتُتيح له استدراج القارئ لتقبّل نتائج فكره اللاهوتي. إلاّ أنه لا يوافق تمام الموافقة على خاتمة كلام المؤرخ القبطي: «لا نوافق على ما جاء في خاتمة هذه الفقرة، من ذلك الانسياب المسيحي في مصر، وأنها الدولة الأولى للمسيحية![21]». هو لا يوافق على البعد التاريخي السياسي أمّا البعد العقائدي، أي التماثل اللاهوتي بين الوثنية والمسيحية، فهو يقبله بكل سرور، ويعتبره كسبا ثمينا يُبرّر ضرْبه للمسيحية في العمق: «بقيّة ما جاء في الفقرة من مماثلةٍ بين الديانة المصرية القديمة والمسيحية، نراه صائبا تماما ومؤَكَّدا بشواهد إضافية كبيرة[22]».

ثم مِن المصريّين حوّل قِبْلته شطر اليونانيين القدامى، وقال إنهم أكثر الشعوب استعدادا لتقبّل فكرة التجسّد المسيحي، وذلك واضح من خلال كتابهم الميثولوجي الإلياذة، وحكاياته المَلحميّة التي تجمع «بين البشر والآلهة، وبين العمالقة وأنصاف الآلهة، حيث نرى كثيرا من آلهة جبل الأولمب، خاصة كبيرهم زيوس، يغرمون بنساء من بني الإنسان، ويعاشرونهنّ فيلدن لهم (أنصاف الآلهة)[23]».

وهكذا، عن طريق كُتب التاريخ المدرسيّة واستذكار ما تَعلَّمه في صباه وسَردَه بطريقة طفولية، يريد السيد زيدان أن يقنع قرّاءه بأن اليونانيين القدامى كانوا، عبر تاريخهم، مجموعة من البُله السذّج، الذين يعتقدون في آلهة تعشق النساء وتلد منهنّ أبناء وبنات. لم يُعرّج على أفكار الفلاسفة الأيونيّين الذين انتقدوا الوثنية وآلهتها، ولا انتقادات أفلاطون للاهوت هوميروس، أو تصوّرات أرسطو التنزيهيّة في كتاب اللام من الميتافيزيقا، ولا ثيوفراسطس، ولا ستراتون المشّائي الذي "أحال الآلهة على التّقاعد"، كما يقول شيشرون.

لكن على القارئ أن يعلم شيئا واحدا، وهو النتيجة العملية المباشرة التي يريد الوصول إليها زيدان. بعد أن مَاهَى بين المسيحية والوثنية، قال إن الديانة القديمة في الجزيرة العربية والهلال الخصيب «تُعلي من مرتبة الآلهة، وتتصوّرهم مفارقين تماما لعالم البشر[24]».

هذه هي النتيجة النهائية، ولبّ الأطروحة التي يريد زيدان أن يمرّرها إلى قرائه: العرب لا يمكن أن يكونوا مسيحيين بالطبع، لأنهم استقروا منذ آلاف السنين على فكرة التعالي الإلهي «اعتقدوا بوجود مسافة شاسعة بين الله والإنسان». ولكن الفراعنة واليونانيين، على العكس من ذلك، ونظرا إلى أنهم متمرّسون بالوثنية وطُبعوا عليها، فقد تقبّلوا المسيحية بانسياب وسهولة.

إن الخطورة العملية المباشرة لهذه الأطروحة تتمثّل في التّحجير التام على الإنسان العربي اعتناق المسيحية، ومَنْعه مَنعًا باتّا من الإيمان بإله متجسّد، وبعذراء أنجبتْ إلهًا. لكن إذا اعتُرض عليه بأن العرب تقبّلوا المسيحية منذ بدايتها الأولى، وآمنوا بألوهية المسيح وبعُذرية مريم أمّ الله، وهم متشبّثون بمسيحيّتهم إلى اليوم، فإن زيدان يستخرج المورد الوحيد من جعبته، والسلاح السري للمسلمين قاطبة: التّحريف.

صحيح أن العرب تقبّلوا المسيحية، يقول زيدان، لكن عقليّة العرب تدخّلت لكي تُقوْلب حتى المسيحية ذاتها: «نرى العقلية العربية التي شاعت في هذه المنطقة من العالم، تتلقّى المسيحية بفهم آخر يخالف الفهم المصري اليوناني[25]».

ويَجب التذكير بأن الفهم المصري اليوناني للمسيحية، هو الفهم الوثني، يعني بِلغة المسلمين، الشرك بالله، عبادة الأصنام، أي أن المسيحية التي يؤمن بها المسيحيون الآن، وآمنوا بها عبر تاريخهم هي عين الوثنية.

لكن مِن رَحم المسيحية العربية الصافية النقيّة وُلِدت فِرَقٌ هرطوقيّة، مثّلت الإرهاصات الأولى لبروز الإسلام، ومن صلب الهرطقات الأصلية، ولدت المسيحية المحرّفة التي يؤمن بها المسيحيون الحاليّون، خصوصا الأقباط في مصر.

اللخبطة على الشكل التالي: الفَهم الوثني للمسيحية هو الفهم القويم الأرثوذكسي (فَهْم المسيحيين الحاليّين)، أما الفهم العربي المتعالي، فهو الصحيح، رغم أنه اعتُبر من طرف الأرثوذكسية غير صحيح: «ولأن الفهم الأخير هو القويم، فقد صار الفهم المخالف له، هرطوقيا[26]».

والشاهد الأقوى على أنّ الفهم المتعالي للإله قبْل الإسلام كان مُتَجذّرا في أذهان العرب، هو الشِّعْر الجاهلي، وقد تجلّى ذلك في مُعلّقة زهير ابن أبي سلمى «حيث نقرأ من أبياتها المشهورة، ما يدلّ على صورة الله التي تطابق التصورات اللاهوتية العربية، وسوف تشابه الصورة الإسلامية المثلى لله[27]».

لكن، أليس الشعر الجاهلي، كما أثبت طه حسين، كله منحول وأنه اصطُنع ما بَعديّا من طرف العرب لكي يفسّروا ما استُغلِق من القرآن؟ ألم يخترعوه في الحين لكي يُبرّروا تناقضاة

القرآن أو يجدوا مخرجا لأخطائه اللغوية؟ صحيح، لكن طه حسين هو هرطوقي، بإجماع شيوخ المسلمين، وعلى كل حال، فقد تاب في آخر حياته، وعاد إلى الإسلام وصَلُح حاله.

لكن لا ضير، إذا لم تؤمنوا بالشعر الجاهلي وبالمعلقات الكبرى، فهناك وثائق أقدم منها، تغور في غياهب التاريخ، حيث أنّ «في زمن أقدم من ذلك بكثير، وإلى الشمال من منطقة الجزيرة العربية، عاشت في أذهان الناس أساطير وخرافات كثيرة، صاغتها ملاحم كانت قبل سيادة الثقافة العربية هناك، مشهورة، وفيها نرى عالم الآلهة مستقلا تماما عن عالم البشر، حتى لو كانوا ملوكا[28]».

والآن أصبحت الأساطير والخرافات حجة تاريخية ولاهوتية، لإثبات أن العرب القدامى كانوا مُوحّدين قبل التوحيد (الإسلامي)، وكانوا دائما يتصوّرون الله ككائن مُتعالٍ، يسكن السماء.

إن القارئ العربي الذي كان ينتظر من مفكر شهير، أن يتقيّد بالحدّ الأدنى من المنهجية العلمية، وأن يبرهن على أقواله ويدعّم تحاليله بحشد من النصوص والاحالات الدقيقة، وإذا به يجد أمامه حطاما من الأفكار وجردا من الأحكام الاعتباطية، والتخمينات المشوّشة القابعة في الهواء. فالسيد زيدان لا يعبأ بالقارئ، ولا بمطلب التدقيق والتّحقيق، لأنه يستنتج دون أن يُقدّم أيّ نص، دون أن يذكر أيّ شهادة من التراث القديم، بل طفق يَشرح كلمة خرافة فكتب في أسفل الصفحة: «الأصل كلمة خرافة قصّة عند عرب ما قبل الإسلام، مفادها أن رجلا من قبيلة جُهينة، كان اسمه خُرافة، اختطفته الجن زمنا، فعاش بينهم حينا من الدهر ثم عاد إلى أهله، فأخبر الناس عمّا رآه هناك، فوصف العربُ كلامه وما يشابهه مما هو غير معقول، وغرائبي بأنه: حديث خرافة».

الخرافة ليست خُرافة وإنما اسم عَلَم: وسلّملي على الدقة والموضوعية العلمية.

العرب القدامى، إذن، كانوا موحدين أقْحاح، لم يؤلّهوا أحدا من البشر، على عكس ما سيفعل المسيحيون في وقت لاحق، أو مثلما فعل وثنيّو العصور القديمة من غير العرب، كالفراعنة واليونان. إن أميز ميزات الذهنية العربية، وهذه ثابتة يُعيد ويكرّرها زيدان إلى حدّ الهوس، هي أنها تَنفر من التجسد الالهي ولا تعترف إلا بالنبوّة، يعني بالوسيط الذي يتكلم مع الله، مثل الملك حامورابي الذي استمدّ شريعته من الله. هذه هي روح الثقافة العربية التي سادت في جزيرة العرب وصولا إلى الشرق، ما عدا مصر الفرعونية واليونان الوثنية، حيث أن الذهنية العربية «تحتفي بالحكماء من البشر، وبالكهنة المُلهمين من الآلهة. وهؤلاء جميعا كانوا في وعي العرب، بمنزلة أدلاّء يُعرّفون الناس بالإله، ويملؤون المسافة الهائلة الفاصلة بين اللاهوت والناسوت، ... بعيدا عن أي ادّعاء من هؤلاء الوسطاء بأنهم هم والله شيء واحد[29]».

إلى من يوجّه زيدان خطابه هذا؟ دون أدنى شك إلى المسيحيين الأقباط المُقتنعين بأن دينهم المسيحي هو الدين الأصح وإلههم هو الإله الحق، وأن تصوّرهم للألوهية المتجسدة في المسيح هو

تصوّر متطابق مع الإيمان القويم.

لكن زيدان يريد أن يحطّم هذا المعتقد المسيحي بكل الوسائل، يريد أن يَمْسَحه من ذاكرة العرب وأن يقصي كليا أي معتقد مناف لدينه. لن أشطّ إنْ قلت بأنّ هذا الرجل يُبدي حقدا وازدراء وعنفا تجاه الأقباط لا مثيل له، وكأنه كُلّف عن قصد للقيام بهذه المُهمّة، وكأن طرفا ثالثا حرّكه لفعل ذلك. ولا يمكن أن نفسّر "عزازيل" و "اللاهوت العربي" و "كلمات" إلاّ بهذه الخلفيّة.

4. أنت عربي إذن أنت مسلم موحّد

نعود إلى أطروحة زيدان: الثقافة العربية الأصيلة هي مبدئيا ثقافة توحيدية، مضادة للمسيحية في الجوهر، لأنها تُعلي الإله، وترفض فكرة التجسد، وتحصر التواصل بين الله والبشر في أشخاص الأنبياء. وإذا غابت الأدلة والشواهد النصّية الصريحة، فيمكن الالتجاء إلى "الانثربولوجيا"، للبرهنة على أن العقلية العربية كانت دائما متشبثة بفكرة التعالي الإلهي. فالعرب، بالنسبة لزيدان، ليس من اليوم أو من وقت بروز الإسلام، بل من القرن الخامس قبل الميلاد، يعني منذ ثلاثة آلاف سنة، لهم عقلية براغماتية، مصلحية، تعتبر الحق والصدق والجمال، معايير ظرفية محايثة للواقع ومرتبطة بالحياة العملية المباشرة، بحيث إن كل ما يجلب المصلحة هو حق، وكل ما ينفيها هو باطل.

ومن فضائل هذه البراغماتية العربية هي رفض فكرة تجسّد الله: «السّمات الثقافية العامية المميّزة لمَا يمكن أن يُسمّى العقلية العربية هي سمات، تمتاز بأنها: ثقافة عمليّة (براجماتية) ... لا تقبل فكرة الامتزاج والتداخل بين الآلهة والبشر، وتعتقد بوجود كائنات وسيطة بين العالمين الإلهي والإنساني، كالجن والكهّان والأنبياء المُلهَمِين[30]».

عَوِّضوا كلمة "آلهة" بكلمة "الله"، فسَتَحْصلون على الإسلام الصحيح: الله مُتعالٍ ومفارق للعالم، لا يتواصل مع البشر إلاّ عن طريق وسائط، وهم الأنبياء، وويح لمن يقول إن الله تجسّد في إنسان (يسوع المسيح) أو حملت به امرأة بالجسد.

لكننا، نعلم أن هذا التصوّر النبوّي موجود عند اليهود قبل الإسلام بقرون، وبالتالي ليس مخصوصا بالعرب وحدهم. السيد زيدان لا يقدر أن يُنكر مُعطى تاريخيا من هذا القبيل، ولذلك فإنه اضطرّ إلى توسيع الرقعة الجغرافية والإثنية للموحّدين، وإدخال اليهود في حضيرة العرب، فأصبحوا عربا أقحاح، أو على الأقل يتقاسمون أعزّ ما يملكه العرب في التاريخ، ألا وهو فكرة التوحيد، والتعالي، ووساطة الأنبياء. قال: «ومن هذه الزاوية، واعتمادا على شواهد كثيرة تُميّز العرب من غيرهم، فإنه لا مناص من الاعتراف بأن الجماعات العَربية والعِبْرية، كانت تُعنى بالنبوّة والأنبياء[31]».

لكن لا تعتقدوا أن اليهود اكتشفوا شيئا جديدا، يستدرك زيدان، رغم أنه أكّد أن «فكرة النبوة في أساسها عبرانية الروح والمنشأ[32]»، لا ليس صحيحا، بعدها بكلمة واحدة، قال إنهم جلبوها «إلى نصّهم المقدس، استنادا إلى موروث شفاهي سابق على تدوين التوراة، وامتدادا لما كان معروفا زمن أسرِهم الشهير بأرض بابل، حيث عاشت من قبلهم هناك، أفكار مماثلة عن أنبياء الفرس القدماء، خاصة النبي الفارسي الشهير: زرادشت[33]».

لاحظوا، أرجوكم، الأسلوب الذي يستخدمه الكاتب لعرْض أفكاره، والفَقر المدقع من حيث الدقة العلمية، وغياب الاستشهاد بالمراجع، والمصطلحات التقنية والفحص الجّدي. بعد دخول اليهود في لعبة التوحيد والنبوة، وانضمامهم إلى العرب الأقحاح، الآن زاد في توسيع الدائرة وأدخل فيها الفرس، الذين هم آريون ـ كما صنّفهم علماء الأنثروبولوجيا ـ في حضيرة العرب. لكن الرجل متأكّد، ومُصِرٌّ على موقفه، ـ دون أن يتفطّن إلى تناقضاته حينما يحصر فكرة الاله المتعالي ومفهوم النبوة في العرب (والعبرانيين) ـ من أن فكرة النبوّة «عاشت وعشّشت زمنا في وجدان اليهود بتأثير الزرادشتية الفارسية».

لكن اكتشافا باهرا يفيدنا به للتوّ وهو أن النبوة انسابت من اليهود إلى العرب «انسربت الفكرة من الثقافة العبرانية إلى العربية[34]». هكذا، بضَربة سِحريّة، خلعَ العرب من الصدارة، وانحدر بهم إلى الدرجة الثانية، أو الثالثة، لأن السلسلة هي: فُرس، يهود، عرب.

أنا أعجب حقا، كيف يمكن لشخص يكتب أشياء بهذا القدر من التناقض والاختلال، أن يَحوز على شهرة واسعة في العالم العربي؟ كيف يمكن للقارئ أن يتحمّل هذا الكم الهائل من الأخطاء المسترسلة، والخرافات، والبلبلة الفكرية، والأسلوب المتهافت؟

لو كنتُ من أصحاب فكرة المؤامرة لقلتُ بأن هذه الشّهرة تمّ فبْرَكَتها بعناية وحذق، وتسويقها من طرف الصحافة الوهابية، نظرا إلى أن هذا الكتاب قدّم لها خدمة ثمينة، في وقت أصبحت فيه محلّ لعنٍ من طرف العالم أجمع. وهذا دليل على أن الوهابية تتدخل في ميدان الثقافة، ولها اليد الطّولى في تشريط انتاجاتها، حيث تَصطفي من يخدمها، وتُغيّب من يُعارضها.

***

الدليل الذي يُثبت اثباتا قاطعا أن العرب لهم باع في ميدان النبوة هو القرآن نفسه، ذلك أن الدين الجديد، حسب زيدان، ويعني به الإسلام، أكّد «نُبوّة بعض العرب السابقين، على اعتبار أن العرب أمة من الأمم التي كان لا بدّ أن ينذرها[35]»، الآية هي هذه: (وإنْ من أمة إلاّ خلا فيها نذير). لكن هذا فخ آخر نصّبه زيدان لنفسه، لأن أي عارف باللغة العربية، يدرك أن هذه الآية تقصد البشرية كلها: الصيني، الياباني، الهندي، الأمريكي، الاسترالي إلخ، "وإنْ مِن أمة"، يعني كل أمة من أمم العالم، إلا وأرسل فيها الله رسولا نذيرا. هذا هو تاريخ الأديان كما يراه القرآن، والذي

يتناقض رأسا مع تاريخ الأديان الذي يريد أن يخطّه زيدان، حاصرا التوحيد والنبوّة في شعوب الشرق، باستثناء مصر، التي ألحقها باليونان. فالرجل يسير قدما، لا يلتفت إلى أحد، لا يُبرهن ولا يُدقق، لا يستشهد بالمراجع (ما عدا جوّاد علي، استشهد به من البداية إلى النهاية)، فهو من الغرور بنفسه، والوثوق من خطابه وأفكاره، بحيث يتكلّم وكأنه نبيّ موحى إليه.

5. أنت مسيحي، أنت لست عربيا، أنت وثنيّ

ونعود إلى الرّقعة نفسها، إلى الثابتة التي ترى أن العقلية العربية السائدة منذ ثلاثة آلاف عام، زائد البراغماتية (الأمريكية)، تَنْفُر وتَجْفُو أشدّ الجفاء من فكرة أن يكون الله إنسانا. والدليل هذه المرة هو دليل فيلولوجي لساني اختصّت به لغة العرب دون سواها. ويجب التذكير أن الغاية من وراء هذا المدخل الفيلولوجي (السطحي جدا) هي ضرب المسيحية، وإخراجها من بلاد العرب: «أما لفظ الله فلا يقال في العربية إلاّ للمعبود الأعلى، ولا يجوز بحال إطلاقه بالاشتراك بين الخالق والمخلوق؛ إذ الجمع بينهما في العقلية العربية مُحال ... وهكذا تُفرّق اللغة العربية بحسم بين ثلاثة معان محددة (النبوة، الربوبية، الألوهية)، ولا يجوز التمازج بينهما أو التداخل[36]».

ثم استشهد بالمؤرخ العراقي جواد علي وقال: «راجع ما ذكره جواد علي عن تصوّر الله عند العرب، وعند اليهود والسريان في المجلد الأول من كتابه المُمتع: المُفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ص 16 وما بعده».

وقد رَجعنا إلى كتاب "المفصّل" لجوّاد علي، الجزء الأول، وفَتَحْنا صفحة 16 واستَرْسَلنا في القراءة إلى حدود الثلاثين صفحة، لكننا لم نعثر على كلمة واحدة حول تصوّر العرب لله، فكلّ ما وجدناه هو فصلا كاملا مخصصا للبحث في كلمة "عرَب" و"عربي" و"أعراب"[37].

ثمّة دليل أنثربولوجي إضافي يُدعّم الأطروحة التي تقول إن العقلية العربية لا تقبل بفكرة الولادة العذرية، خصوصا إن كان المولود إلها. وهذا الدليل نجده، من جهة، في الحديث النبوي التالي: "الولد للفراش وللعاهر الحجر"، ومن جهة أخرى، في وَلَع العرب بالأنساب والتفاخر بأجدادهم. أنتم تقولون ما دخل الحديث النبوي، وأنساب العرب باللاهوت المسحي؟ لهما دخل وكيف! فعلا، كيف تريدون أن يضرب المسيحية دون أن يُعرّج على ولادة يسوع؟ مولودٌ مجهول لا يُعرف له حَسبٌ ولا نَسب. لقد ضمّن السيد زيدان لنفسه في البداية التخلّص من اليهودية وإلهها بأسهل السّبل، والآن، تحالف معها، ظرفيا، لضرب المسيحية.

قال إن العرب لهم عادات راقية وشمائل متفرّدة، تتمظهر في أخلاقهم العفيفة وحرصهم على حماية أعراضهم وأنسابهم: «اهتم العرب بالأنساب وبالأبوّة[38]». ومن عادتهم أنهم أينما حلّوا

«يتعارفون دوما بالنَّسب[39]». وهكذا فإن الطريق الآن أصبحت مُعبَّدة لكي يُقيم التفاضل بين الإسلام والمسيحية والإعلاء من شأن دينه على حسابها.

العرب وحدهم لديهم العادة، إذا الْتَقى أحدهم بالآخر يسأله ـ أنقُلُ كلام زيدان ـ: «مِمّن أنت؟ مستفسرا بذلك عن أبيه وقبيلته، إذ هُما عند العرب أساس التعرف إلى البشر، وقاعدة التعارف فيما بينهم[40]».

إذن، النّسب هو العامل المحدّد لهويّة الإنسان العربي، وهنا يتنزّل ذلك الكلام القبيح، العنيف، الذي سمّاه «الحديث النبوي الشهير: "الولد للفراش (أي لا بد من أب له) وللعاهر الحجر"[41]».

لا يُقلقه هذا الكلام المُهين، ولا تَستثير انسانيّته شحنة التعنيف الكامنة في هذه العبارات، كل ما يهمّه هو اثبات أن العرب، من دون الشعوب الأخرى، مُتمسّكون بالعفّة والنّسب، ويَرجمون، دون رحمة، المرأة التي تُنجب ولدا خارج الزواج. ومرة أخرى، تدعيمًا لهذه السّمات المميزة للعقلية العربية، يعود إلى تاريخ العرب لجوّاد علي (صفحة 260 من الجزء الأول)، ثم يُحيل على أحمد أمين، ضحى الإسلام (الصفحة 35 من الجزء الأول)، لكن جواد علي هو الذي أحال على أحمد أمين في نفس الصفحة التي استشهد بها زيدان. يعني نحن هنا أمام نَقْل مِن نقل، نوعا مِن قَصٍّ ولصق بطريقة بدائية. وأنا لا أستغرب هذه العملية المستهترة من شخص جعل هدفه الأوحد هو ضرب الأقباط، والتهجم الشرس على عقيدتهم، والاعلاء من دين الإسلام على حسابهم.

العذراء مريم أنجبَت ولدا دون أب، وهذا مُنافٍ للعرف العربي القحّ، ومناقض لمنطقهم البراغماتي، الذي توسّع السيد زيدان في ابراز خصائصه، لكن القرآن يقرّ بأن مريم أنجبتْ ولدا دون أن يمسسها رجل. ماذا نفعل بهذه "الحقيقة" المقدّسة؟ أنرفضها، ونكذّب القرآن؟ أم نُنَسِّبها؟ أم نَقبلها على حرفيّتها حتى وإن كانت مخالفة للعقلية العربية الأصيلة؟ الحل هو قبولها ورفضها في نفس الوقت. فعلا، العرب أو بعض العرب (يقصد المسلمين)، كما يقول زيدان، تقبّلوا «أن تَلدَ العذراء بمعجزة إلهية، إذ المعجزات صنو النبوّات[42]».

وهذا تَكَرُّمٌ من السيد زيدان على المسيحيّين، مُجبَر عليه، لأن القرآن يقرّ بذلك. لكن، مهما تقبّل من معجزات فإن العربي لا يمكن أن يَقبل روح المسيحية، يعني إنسانا ـ إلها، مولودا يجمع في ذاته الطبيعتين: اللاهوتية والناسوتيّة. وإلى هذه النقطة بالذات، بعد المقدمات المختلّة والإطالة المرهقة، يريد أن يَصل زيدان، أي أن العرب «بطبعهم، لم يستسيغوا أن يَترتّب على ذلك أن يكون المولود هو ابن الله[43]».

المسألة إذن هي مسألة طبْع، ولا دخل لها بالإيمان أو بالقناعة الحُرّة؛ إنها فطرة جُبل عليها العرب، انتَقلت بالوراثة من جيلٍ إلى جيل، حتى وصلت للإسلام. ولكن في الحقيقة كل هذه الزوبعة، وهذا السّيْر خلسة والتسكّع هنا وهناك، غرضه هو تدعيم التصوّر القرآني، لا الاعتناء بالمبحث العلمي أو التقصّي النظري المتجرّد.

اعتقاد المسيحيين في ألوهية يسوع، في نظره، هو تطرّف وخروج عن صواب العقلية العربية القحّة، وهذا الكلام الجارح المستهتر يقوله صراحة ودون مواربة: «أما التطرّف بالقول، إلى الحدّ الذي نجعل فيه الإنسان إلها، خاصة أن هذا الإنسان تعذّب وقتل مصلوبا ومات[44]»، فهو أمر غير مقبول ومُناف للذهنية العربية التوحيدية.

وهكذا فإن معتقدات الملايين من الناس في أرجاء الأرض أصبحت، في نظر زيدان، تطرّفا وخروجا عن العقل والقانون، وذلك من خلال مرجعيّته الإسلامية (الداعشية) التي رشّحها كمعيار أوحد للحكم على الأديان الأخرى.

لسان حاله يقول: لستُ أنا الذي يرفض هذا التأليه، بل العقلية العربية المجبولة على التعالي هي التي ترفضها. وكأنه سَبَر العقلية العربية منذ آلاف السنين واطّلع على أدبيّاتها بكل دقائقها وتفاصيلها، كي يستخرج منها هذه النتيجة. لكن المغزى الأخير من كل هذا الهمز واللمز، كما قلت وأعيده من جديد، هو ضرب المسيحية في الصميم، واصطناع تعلّة للقول بأن الإنسان العربي لا يتماشى والمسيحي في الاعتقاد، وأن كل المسيحيين العرب الذين آمنوا بالمسيح هم خارج المنطق والقانون، وأنّ أتْعَس الناس وأكثرهم بؤسا هم المصريون، يعني الأقباط، وأرذلهم اليونانيون.

تصوّروا خطورة هذه التداعيات العنصريّة التكفيرية وانعكاساتها على أقرب المواطنين إليه، أعني أقباط مصر، وكيف تتسرّب خلسة، مُتلحفة بلحاف العلميّة. وهذه كلماته واحكموا أنتم بأنفسكم: إنّ تجسّد الله في الانسان هو «أمرٌ لم يكن من المنطقي بالنسبة للعقلية العربية، مهما كانت درجة قبولها للمسيحية، أن تتقبّله ... فهي العقلية التي ردَّدت دوما، ولا تزال تردّد إلى اليوم، عبارة الله غالب المأخوذ بنصّها من نص القرآن الكريم، العربي المبين، الذي يقول: (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون)[45]».

إصرارٌ وتَعنّت، ازدراء فاضح للعقيدة المسيحية، ليس من جانب عقلاني، لأن العقل يرفض الأديان كلّها، ولكن انتصارا لدينه، ومُجاراة لكتابه المقدس. ومفاد كل هذه الجولة الشاقة: أنتَ عربي، أنت براغماتي أمريكي، تبحث عن المرعى والكلأ والماء، تعيش عيشة ضنكا، تغور على القبائل، تغنم وتسْبي النساء والذراري. حروب تنطفئ لكي تشتعل من جديد، لكن ويحك أن تتجرّأ وتعتقد في ألوهية المسيح، فأنتَ عربيّ بالنهاية، لا تنس ذلك، والعربي الأصيل لا يمكن أن يكون مسيحيا بتاتا. الأمر هو جبلّة وغريزة، زائد عقل ومنطق. لكن الاستشهاد بآية (والله غالب على

أمره ...)، هو في غير محله ولا يَفي بالمعنى المقصود، لأن الرجل خجل من الاستشهاد بآيات هجومية عنيفة، من قبيل: (لقد كفر الذين قالوا ...)، أو (انتهوا خير لكم..)، وما إلى ذلك من الآيات التكفيرية التي يزخر بها القرآن.

6. مسيح الإنجيل محرّف

وهل يخفى التحريف؟ إطلاقا. إن رأسمال الإسلاميين هو التحريف؛ بضاعتهم الدينية والفكرية ستبور في الحين لو تخلّوا طرفة عيْن عن الفكرة البغيضة اللاعقلانية التي مفادها أن اليهود والمسيحيين، فرادى وجماعات، تقابلوا في مكان ما وقرّروا تحريف كتبهم. إنها أخرق فكرة ابتدعوها، وما قدروا أن يبرهنوا عليها بتاتا، وزاد في تكذيبهم وقهرهم اكتشاف مخطوطات البحر الميّت. لكن الإنجيل الذي اطّلع عليه زيدان يُثبتُ قطعا أن المسيح هو نبيّ مثل كل الأنبياء، وليس الإنجيل فقط بل أحد مُفسّري الإنجيل من الأقباط المحدثين، الأب متّى المسكين، يصفه بأنه واحد من أجلاّء آباء الكنيسة القبطية المعاصرة في شرحه لإنجيل مُرقس، يقرّ بأن المسيح «لم يحزن لقول الناس الذين عثروا فيه، ولكنه فرح بالتلاميذ الذين آمنوا بسرّ الله[46]».

ليس تحريف الإنجيل فقط، المُتداوَل بين أهله منذ ألفي سنة، بل الأدهى هو تحريف كتاب حديث كُتب منذ بضعة سنين في مصر. يكفي الرجوع إلى تفسير متّى المسكين حتى نرى بأمّ أعيُننا كيف أن زيدان يمحو ما سبق وما لحق لكي يتعلّق بأهداب جملة اقتُلعت من سياقها ويضرب المسيحية بالمسيحية، يعني عقيدة تأليه المسيح بأحد أبنائها البررة. فعلا، في السطر السابق قال متّى المسكين: «فالمسيح لم يطلب من أحد أن يؤمن بأنه مولود من عذراء، ولكنه يطالب كل مؤمن أن يدرك أنه ابن الله»، هذه الأولى، تتخللها جملة زيدان، وإثرها مباشرة، تأتي الجملة الثانية التي غيّبها ومَحاها من الوجود: «القديس مرقس آمن واعترف بسر الله، وافتتح انجيله بهذا الإعلان: "انجيل يسوع المسيح ابن الله"».

وقد كتب المفسّر المسيحي، متّى المسكين، عبارة "ابن الله" بالبند العريض، لكي يؤكد هذا المعتقد المحوري، والذي بدونه تنهار العقيدة المسيحية بالكامل.

لكن هذا ما يرغب فيه "فيلسوفنا"، فهو يَتنرفز، كعادته، ويتشنّج؛ يُصعّد من نبرته ويَخلق مشاكل من لا شيء. كيف يَحدث هذا؟ كيف يَتَمادى هؤلاء الرّهط في غيّهم وعمائهم، رغم أن مسيحيا جليلا أقرّ بأن المسيح لم يغضب من وصفه بأنه نبيّ؟ لماذا لا يراجعوا أنفسهم ويقرّون بالحقيقة؟ زيدان يُعبّر عن أسفه من تعنّت الكنيسة القبطية: «نجد الكنيسة القبطية وبقيّة الكنائس

الأرثودكسية، تؤكّد بصرامة ألوهية المسيح، وتعدّها حقيقة لا يجوز انكارها بحال، وإلاّ خرج المنكر لها عن حدود الإيمان القويم والأمانة المستقيمة[47]».

ماذا يريد من المسيحيين؟ ما المطلوب منهم؟ هل يريد أن يمحوا ألفي سنة من اللاهوت لكي ينزلوا عند رغبته كمسلم، ولا يجرحوا احساسه التوحيدي الرّهيف؟ إن مشكلة زيدان الرئيسية، ودون أن أبالغ، هي الكنيسة القبطية؛ هي نصوص عقيدتها التي يسمّيها «كتابات عديدة تراكمت عبر القرون امتدّت لأكثر من ألفٍ وسبعمائة عام[48]».

وقد لفتَ انتباهه في هذه الكتابات العتيقة إصرار الأقباط، المتجذّر في عقولهم، على تأليه المسيح، تَكَفّل زيدان شخصيا بمحاربته واجتثاثه، عن طريق ضرباته العشوائية وعقيدته الوهابية، مُطَعَّمة بقليل من التاريخ اللاهوتي المبسّط جدا والخاطئ على طول الخط: «ومع ذلك فإن جوهرية ألوهية المسيح عند الأقباط، ظهرت واضحة في التقليد السكندري [هكذا]، وبأنصع ما يكون، في رسالة البابا القبطي الرابع والعشرين، كيرلّس عمود الدين، الذي كان كبيرا لأساقفة مدينة الاسكندرية ... وهي الرسالة الموسومة في أصلها اليوناني بكلمة أناثيما التي تعني اللعنات، أو الحرومات[49]».

ثم سَردَ هذه الحرومات بطريقة عشوائية لا تتوافق والترتيب الموجود في النص الأصلي، والذي يمكن الاطلاع عليه بسهولة من موقع الكنيسة القبطية.

جاء بمعلومة خاطئة، مفادها أن مناسبة إعلان هذه الحرومات كانت «تشكيك نسطور في كون العذراء مريم هي أم الإله، ثيوتوكوس». لن أبالغ مرّة أخرى إنْ قلت إنّ مشكلة هذا الرجل مع العذراء مريم، ومع عقيدة المسيحيين القائلة بأنها أمّ الإله المتجسد في المسيح. لكن من خلال بحثٍ سريع نعلم أن مناسبة إعلان هذه الحرومات التي أطلقها كريلوس كانت التمييز في المسيح بين أقنومين: واحد لاهوتي والآخر ناسوتي، مريم أمّ الإله هي موضوع ثانوي بالنسبة لكريلوس، لأنه مُتَرتِّب عن الفصل بين الطبيعتين.

وهكذا نعود مجددا إلى المصريّين القدامى، ويتمّ الربط بين معتقد الأقباط الحاليّين ومعتقد كيرلس وأساطير الفراعنة، وتُنقل الرسالة إلى أقباط مصر القرن الواحد والعشرين: ديانتكم هي وثنية فرعونيّة وقِدِّيسوكم مشركون.

فعلا هذه النتيجة تتمخض حتما عن رَبْطه الماضي بالحاضر في المسائل اللاهوتية، واسقاط همومه الدفاعية وهوسه التكفيري على المسيحيين الأقباط. والأمر مقصود وصريح، يقوله هو نفسه: «الأمر الذي أثار الكنيسة الإسكندرية آنذاك بشدّة، ولا يزال يثيرها إلى اليوم[50]».

والغاية التي يصبو إليها، كما أشرنا سابقا، هي تنبيه الأقباط الحاليّين وتذكيرهم بأنهم وثنيّون من صُلب وثنيّين، وأن مسيحهم المتجسد هو أسطورة فرعونية: «إذ أن الفكر الديني للمصريّين، كان قد درج من قبل المسيحية بقرون على الإيمان بأن الإلهة إيزيس كانت قد أنجبت الإله حورس من دون اتصال حسّي مع أبيه أوزيريس ممّا جعل المصريّين يتقبّلون فكرة أن العذراء هي والدة الإله، ثيوتوكوس، وأن المولود بالمعجزة هو الربّ المعبود». والنتيجة: «انقلب هذا التّقبّل اعتقادا، ثم صار إيمانا عميقا، ومَلمَحا أساسا للأرثودكسية القبطية[51]».

وهكذا مجموعة من المواطنين المصريّين المُسالمين الذين يعيشون في بلدهم منذ ألفي سنة يأتي إسلامي وهابي يَدّعي العلم الشامل والتصوّف والفلسفة، والفيزياء الذرّية، لكي يدوس عمدا على معتقداتهم، ويُعلن لهم في وجوههم أنهم في ضلال مبين وأن دينهم هو محض وثنيّة فرعونية. وكأنه لم يَشبعْ من أعمال التفجير والتقتيل والتهجير التي يخضع لها الأقباط منذ عهد السادات، والمتواصلة بوتيرة متصاعدة إلى اليوم؛ وكأنه لم ير أمام عينيه تطبيق شريعة الإسلام عليهم وفرضهم الجزية، ولم يقرأ في الصحف خَطف الفتيات القبطيّات ثم ادخالهن عنوة في الإسلام. هذه كلها لا تَروي ظمأ انتقامه، يجب أن يَقضي نهائيا على دينهم، أن يُشعرهم بالخجل من عقيدتهم، وأن يبثّ ضمنيّا للسلفيين رسالة مفادها أنهم حينما يحرقون كنيسة أو يقتلون راهبا فكما لو أنهم حَرّقوا معبدا وثنيا أو قتلوا مشركا بالله. هذه هي الرسالة الأولى والأخيرة من كل أعمال هذا الرجل.

7. بين اللاهوت والجنس

منذ الرواية الشهيرة القبيحة "عزازيل"، والسيد زيدان يُكابد باستمرار ضد المسيحية، ومنغمس في صراع دام مع الكنيسة القبطية ورموزها. صحيح أن هذا العمل، أعني "عزازيل"، هو مجرد رواية، ولكن إذاً تَمعّنا جيدا في محتواها فستبدو لنا وكأنها اعترافات شخص حانق على المسيحية عموما، وعلى الأقباط بصورة خاصة، ولا يُواري ذلك وإنما يُسرّبه على شكل جرعات طفيفة. ولكي يُضفي على الأحداث مسحة من المصداقية، جعل من بطل الرواية راهب مسيحي، اسمه هيبا، وهكذا يتسنّى له ضرب المسيحية من المسيحيين أنفسهم طبقا للمثل: من فمك أدينك.

قناعته المسبقة هي أن معتقدات المسيحيين مقتبسة من "الوثني" أفلوطين، وها هو الراهب هيبا يعترف بذلك: «إنني أفكر كثيرا في أفلوطين وفي مصر، فأرى أن كثيرا من أصول الديانة أتتْ من هناك، لا من هنا! الرّهبنة، حب الاستشهاد، علامة الصليب، كلمة الانجيل ... حتى الثالوث المقدس، هو فكرة ظهرت أولا بنصوع عند أفلوطين[52]».

وهذه المقدمات الروائية أعاد تأصيلها بشيء من التوسّع والخبط في كتاب اللاهوت العربي وانتشرت على نطاق واسع بين الشباب، حتى استحسنها الإسلاميون أنفسهم، رغم ما يَحْدوهم من الشكوك حول صدق إيمانه. أما اختلاف نسطور وكيرلس، وتغليبه النسطورية على الارثوذكسية، لاعتقاده بأنها عربية، أو اسلامية، قبل الكلمة، فتَجدونه حرفيا في عزازيل.

لقد تماهى زيدان بكل كيانه مع هذه المسألة، واستَبْطنها في قرارة نفسه، جاعلا منها قضيّته المركزية، ومن أجلها لاحق المسيحيين الأقباط في كل مكان وحاصرهم وقعد لهم. المسيح، من هو المسيح؟ «سألتُ نسطور: يا سيّدي هل تعتقد أن يسوع هو الله، أم أنه رسول الإله؟[53]». الجواب الفصل للقرآن وللراهب نسطور: «المسيح، يا هيبا، مولودٌ من بشر، والبشر لا يلد آلهة ... كيف نقول إن السيدة العذراء ولدت ربّا، ونسجد لطفل عمره شهور، لأن المجوس سجدوا له![54]».

وكما أشاد بآريوس في اللاهوت العربي فقد فعل بالمثل في رواية عزازيل: «مَجمَع نيقيّة الذي حُرم فيه آريوس لقوله إن المسيح إنسان لا إله، وإن الله واحد لا شريك له في ألوهيته[55]».

إن آريوس هذا، (الناطق بالشهادة [الاسلامية] "الله واحد لا شريك له")، خلّص الديانة المسيحية الحقيقية (يعني الإسلام) من الديانة المصرية الوثنية، يعني المسيحية الأرثودكسية. تذكّروا ما قاله أعلاه حول تماهي الأرثودكسية القبطية والوثنية الفرعونية: «أجد أن آريوس كان رجلا مُفعما بالمحبة والصدق والبركة.. أما أقواله فلستُ أرى فيها إلاّ محاولة لتخليص ديانتنا من اعتقادات المصريّين القدماء في آلهتهم، فقد كان أجدادك يعتقدون في ثالوث إلهيّ، زواياه إيزيس وابنها حورس وزوجها أوزير الذي أنجبت منه من دون مضاجعة. فهل نعيد بعث الديانة القديمة؟[56]».

أسَمِعتُم؟ الديانة المسيحية هي "إعادة بعث الديانة القديمة"، يعني الفرعونية، وأجداد الأقباط الأرثودكس هم وثنيّون. وما المانع من تفجير بُؤرِ الوثنية وحَرْق كنائس الكفار على المذاق وذبح الرهبان على المباشر؟ القرآن نفسه يأمرنا بذلك، وبالتالي أيّ إرهابي، يُفجّر نفسه في كنيسة أو يُلقي بزجاجة مولوتوف يحرق كل من فيها، هو مُبرّر لأنه يحطّم رأس الكفر.

8. فلم إباحي طويل

إن كتاب "اللاهوت العربي" أعاد صياغة كل ما جاء في عزازيل، مع حذف فقط لقطات النكاح، لأن الرجل في عزازيل، لكي يُلهي القارئ عن خطورة أقواله ويَحجب نوعا ما مُعاداته للديانة المسيحية، حَلاّها بلقَطات إباحية، من قبيل: «كنتُ أظنّ قَبْلها أن الرجل إذا خلا بالمرأة فإنه يَعتليها. لكن الذي جرى لحظتها، هو أنها اعتَلتني ... ليْلتُنا كانت حافلة بالشهوات المحرّمة[57]».

وقد أدخل معه القارئ للحمّام كي يستعرض له حِذقه الجنسي وخياله الايروتيكي، وكيفيّة تذوّق مداعبة عشيقته، حيث كانت «تَدلك أكتافي برفقٍ وبشهوة طاغية. أغمضتُ عيني محاولا أن أتذكّر شيئا ممّا مَرّ بي، لأنشغل به، وأهدأ. غير أن الذكريات انفلتت كلها من رأسي، إذ كانت لمسات أُوكْتافيا تمسح عني كل ما رأيته قبلها[58]».

وتتواصل وليمة النكاح مع الجَميلة أوكتافيا «بلطفها الآسر، أمَالتني إلى الأمام كي تدلّك ظهري، مِلتُ مع كفّيها وقد هدأ الجزع..[59]». وبعد الاستراحة من النكاح (يسميها فعل الفواحش)، يعود إلى اللاهوت ويمارس رياضته الثانية، التهجم على المسيحية. وبعدها يسرع بالعودة إلى النكاح، متوسّعا في وصف الأوضاع الجنسية بالتدقيق: «التَصَقتْ بي أوكتافيا وأخذتْ شفّتي السفلى بين شفتيها، ثم راحتْ تُمَرِّر لسانها على حافتها، حتى أوشكتُ مع ارتجافة اللذة أن يُغمَى عليّ[60]».

مُشوّق أليس كذلك؟ كيف لا وعشيقته مُتلهّفة عليه حتى الموت، تجسّ عظْمَه ولحمَه في كل ركن وفُرجَة من جسده، ولم تَترك حتى إبِطه وشحمة أذنه: «بينما أهبط إلى الدرجة التالية دسّت كفّها اليسرى في فتحة جلبابي، فاعتصرتْ إبطي اليمنى، وأحكمتْ التصاقي بالجدار بالتصاقها بي. كانت تعلوني بدرجة، فمالتْ بعنقها نحو أذني والتقَمتْ شحمتها، فكأنها رضيعٌ يلتَقم الحَلَمة عن غير جوع. لمّا تنفّستْ في أذني، سَرتْ بباطني رعشة. ترنُّحت مع القبلة التالية، وكدتُ أتدحرجُ من فوق الدرج، فجلستُ وقد سرى في الخدر، فتركتُها تفعل بي ما تشاء. ألقتْ عنها ثوبها، فألقيتُ عن ثوبي وقد أخذني الوهج ... القبلات التالية لا يجوز ذكرها. عند نهاية الدرج كنّا قد التحمنا تماما ... كانت تمور تحتي وفوقي، مثل قطة برية تَفترِس وتُفترس[61]».

هل هي ذكريات تجارب شخصية أم خيال خصب أم تأثر بمشاهدة الأفلام الإباحيّة؟ بعد فاصل النكاح يعود للتهجّم على المسيحية والمسيحيّين: «يا حبيبي، لا تتحدث هكذا مثل أهل الصليب، فأنا أكرههم[62]». والمتكلّم هنا ليس الراهب هيبا المزعوم، وإنما يوسف زيدان، لأن الرجل فعلا يكره المسيحيين، وإلاّ لما قال كل تلك الخزعبلات عنهم وعن دينهم. وأظنّ أن هذه الكلمة تُعبّر، بصيغة لاواعية، عن شعوره الشخصي تجاه أهل الصليب "أنا أكرههم"، على أساس مبدأ الولاء والبراء، لا بل أكثر من ذلك، المسيحيون يجب دعسهم لأنهم حشرات فتّاكة «لأنهم كالجراد، يأكلون كل ما هو يانع في المدينة، ويملأون الحياة كآبة وقسوة[63]».

رأس الشيطان هو كيرلس عمود الدين الذي معه «الكنيسة أظلمت العالم[64]»؛ قاتَلَه الله، هذا المسيحي القبيح الشيطاني «عَجّلتْ الآلهة بنهاية أيّامه السوداء، لقد جعل المدينة كئيبة كالخرائب، منذ تولّى أمرهم[65]». ثم يعود، بين شتيمة وأخرى، للنكاح: «جرَفتْني بروحها المرحة ولم أجد معها سبيلا، إلاّ الاستسلام لجذبها لي نحو السرير ... ورأيتُ منها يومها، حقا، ما لا يمكن أن يجده أحد في أي كتاب، فقد كانت لأوكتافيا فنونٌ لم يسمع عنها مؤلفو الكتب! بقينا من بعد ذلك عاريين ... شدّت فوقنا دثارا، وأحاطت صدري بذراعها، وتهيّأت للنوم[66]».

ويتواصل فيلم البورنو، ويستمرّ البطل في تَفْتيق مواهبه الجنسية: «أدرْتُها من كتفيها حتى ولّت وجهها نحو الجدار، ثم أزحتُها بضغطة من كفّي على جانبيْ ظهرها، فانزاحتْ مستسلمةً لي. نفختُ شعلة القنديل فانطفأت، ولفّنا الظلام. كان صدرُها إلى الجدار الرطب، وصدري إلى ظهرها الدافئ. تحسَّست في الظلام جسمها، فوجدتها مستسلمة تماما وقد أسندتْ يديها إلى الحائط، ومالت برأسها قليلا إلى الأمام. رفعْتُ عنّي جلبابي، وأنزلتُ السروال، ورفعتُ عنها ثوبها، ولم يكن تحته شيء لأُنزله. صرنا عاريَين تماما[67]».

وهنا بدأتْ لقطات الهَارْد: «علا صوتها، وهي تئنّ طالبة منّي شقّها لنصفين ... يا إلهي[68]»، فلبّى طلبها وشقّها إلى نصفين. لا ينقص هذا الفِلم "الهارد" إلاّ تَعاطي المخدّرات، لكن هيبا ـ زيدان عَوّضها بالنّبيذ، فاحْتسَى منه قِنّينة كاملة، وهو يأكل ويشرب ويُسَافد. ويستمرّ الهيجان الجنسي في التصاعد، فعشيقته أوكتافيا مُتلهّفة عليه، لا تصبر على فراقه، وتذكّروا أن الشخصية التي تقمّصها زيدان هي شخصية راهب مسيحي، نَسِيَ رهبانيّته وغاص في النكاح بكل جوارحه. وهكذا فهو ينسج على منوال القرآن، ويصدّق ما جاء فيه من أوصاف معيبة للرهبان: (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ... وكثير منهم فاسقون). والراهب المسيحي هيبا هو واحد من أولئك الفاسقين الذين تحدث عنهم القرآن.

على أية حال النكاح متواصل وجَارِيَته أوكتافيا متعطّشة: «يا حبيبي. أرجوك، لا تفجعني ثانية برحيلٍ مفاجئ من جِوَاري ... لقد كاد خوفي عليك يَقتلني، هيّا لنصعد إلى غرفتنا ... هيّا يا

حبيبي[69]». أجل هيّا بنا، وعلى الفور ألْقَتْ بنفسها في حضنه «لم أحسّ ساعتها بِعُرْيها، قدر ما شعرتُ بالْتِياعها ... أخذتني إلى سطح المنزل من دون أن نقول شيئا[70]».

ولا ينسى، في الأثناء، إلقاء شتيمة على الرهبان: مجرمون، هم وقادتهم، وخصوصا رهبان الاسكندرية الذين يكرههم شخصيا، وله معهم حزازيات دفينة، وما حديثه عنهم في الماضي إلاّ اسقاط على الحاضر. القدماء منهم، كانوا يقتلون ويُدمّرون «باسم ربّهم العجيب، وببركات الأسقف ثيوفيلس المهووس، وخليفته كيرلّس الأشد هوسا». طعنة أخرى في مقدسات المسيحية، مُردَفَة بشتيمة وتوصيف قبيح: المسيحيون جراد: «إنهم يتكاثرون حولنا كالجراد، ويملأون البلاد مثل لعنة حلّت بالعالم[71]».

وانتهت قصة النكاح الأولى حينما علمتْ أوكتافيا أنه راهب مسيحي، فَنَال ما يَستحقّه من الشتائم: «اخرجْ من بيتي يا حقير، اخرج يا سافل[72]».

بعد أوكْتافيا جاء دور الفيلسوفة العظيمة هيباتيا، تابعَ دروسها بشغف، أحبّها حبا جما لكنه لم يتسنّ له مضاجعتها وفقَدْنا فيلم بورنو مشوّقا، لأن الرهبان المسيحيين افتكّوها من بين يديه وقتلوها أبشع قتلة، وهكذا حطّموا أحلامه الجنسية.

وبينما هو على تلك الحالة من اليأس والضّيم، عاد إلى هوايته المفضلة في ضرب المسيحية: بعد يسوع ومريم العذراء جاء دور الأساقفة الأقباط والرهبان، ومن بين ألدّ أعدائه كيرلّس الذي هو محلّ تبجيل من طرف الأقباط الأرثودكس، لكن زيدان لا يتحدّث عنه إلاّ لكي يَشتمه ويُهينه بأقذع النعوت. ولكي يُرسّخ في ذهن القارئ تلك الأوصاف السلبية فقد اصطنع فرصة قابَل فيها كيرلّس شخصيا، فأصِيب بالذهول والاستغراب. لماذا؟ لأن هذا القديس يعيش في البذخ بينما يسوع كان يعيش في الفقر[73]. وأنكى من ذلك، كيرلس هو جهادي داعشي، قبل الكلمة، يدعو للحرب والقتل، وقد استمع زيدان نفسه إلى خُطبِه الناريّة التي يحرّض فيها على الجهاد ضد الكفار[74].

ومِن مَوقعه الإسلاموي (ماح أخيرا إلى نوع من الانفتاح، لأنه شكك في المسجد الحرام، وشكك في المعراج، وهي أشياء قالها المسلمون قبله بألف عام)، فهو يَتَلعثم حتى من قراءة أن مريم هي أم الله: «تبعثرتْ منّي الحروف. سَكَتُّ برهة، وسكتوا ... فأكملتُ قراءة الرسالة النارية». والرسالة هي من الشرير كيرلس، يقول فيها: «إننا نقر بكل تأكيد، بأن الكلمة اتّحدت بالجسد أقنوميا، ولذلك نسجد لابن واحدٍ، الربّ يسوع المسيح، فلا نُجزّئ ولا نفصل الإنسان عن الله ... المسيح واحد، ابنٌ وربّ ... فهو إله الكلّ وربّ الجميع، وليس هو عبدا لنفسه، ولا سيّد لنفسه[75]».

وكيف كان وَقْع هذه الكلمات على شخص كاره للعقيدة المسيحية حتى الموت؟ «كانت كلمات الرسالة ومعانيها قد أنْهكتْني[76]».

أن يكون المسيح «هو الله بالحقيقة، ومن ثم فإن العذراء هي والدة الإله»، فهذه، بالنسبة إليه، دائما من موقعه ككاره للمسيحية، كلمات «وقْعها كاوٍ للأكباد[77]».

كاد أن يُغمَى عليه حينما اكتشف هذه الحقيقة: «كُنتُ أشعرُ بضيق في التّنفس كأن جَبَلا حطّ فوق صدري[78]». ويأتي كلامه هذا، مرة أخرى، مُصدّقا لموقف القرآن الذي هجم على المسيحيين بعبارات مماثلة: (وقالوا اتّخذ الرحمان ولدا. لقد جئتم شيئا إدّا، تكاد السماوات يتفطّرن منه وتنشق الأرض وتهدّ الجبال هدّا). كل هذا الكاتاكليزم، كل هذه الكارثة الكونية، لأن مجموعة من الناس اعتقدوا بأن الله هو يسوع، وأن مريم وَلَدته.

السيد زيدان لا يعادي فقط المسيح المتجسد بل مريم العذراء أيضا، كما يتصوّرها المسيحيون: لقد شتّتتْ أفكاره، بلبلت عقله، ونَغّصت عليه حياته، إلى درجة أنه لا يُفوّت أيّ فرصة، في كتبه ومحاضراته، للتعبير عن نكده. أن تكون مريم أم الله فهذا مروق عن الدين الحق وخروج عن العقل السويّ، وبالتالي يجب الوقوف في وجه «القائلين بأن العذراء هي أمّ الإله (ثيوتوكوس)[79]». محال أن تكون مريم أم الله. من هي إذن؟ هي العذراء الإسلامية: «فالعذراء امرأة من النساء، مجرّد امرأة من النساء، ومن المستحيل أن يولد الله من امرأة[80]».

تصوّروا الفتنة الطائفية التي يمكن أن يُحدثها هذا الشخص في أذهان الناس خصوصا وأنّ هذا الكلام وضعه على فم راهب شهير في المسيحية: نسطور. لقد حمّله، عن عمد، همومه الإسلاموية، وسجّل كلامه عن يسوع، وذهنه مُلتفت إلى القرآن، حيث قال "المُبجّل نسطور" في خطبة سَمِعها زيدان ـ هيبا شخصيا: «يسوع إنسان وتجسّده هو مصاحبة بين الكلمة الأبدية والمسيح الإنسان، ومريم هي أمّ يسوع الإنسان، لا يصحّ أن تسمّى والدة الإله، ولا يجوز أن يُقال لها: ثيوتوكوس[81]».

فعلا، لا يجوز، فالقضية هي قضيّته الشخصية، لقد تبنّاها بكل جوارحه، وردّد كلام الوهابيّين، ما عدا كلمة ثيوتوكوس التي يَجهلون مَعناها تماما: «لا يجوز تسمية العذراء مريم ثيوتوكوس؛ فهي امرأة قدّيسة وليست أمّا للإله. ولا يجوز لنا الاعتقاد بأن الله كان طفلا يخرج من بطن أمه بالمخاض، ويبول في فرشه فيحتاج للقماط، ويجوع فيصرخ طالبا ثدي والدته ... هل يُعقل الاعتقاد بأن الله كان يرضع من ثدي العذراء، ويكبر يوما بعد يوم، فيكون عمره شهرين ثم ثلاثة أشهر ثم أربعة! الربّ كامل، كما هو مكتوب، فكيف له أن يتخذ ولدا، سبحانه، ومريم العذراء إنسانة أنجبت من رحمها الطاهر، بمعجزة إلهية، وصار ابنها من بعد مَجليً للإله ومخلّصا للإنسان ...

صار كمثل كوّة ظهرت لنا أنوار الله من خلالها، أو هو مثل خاتمٍ ظهر عليه النقش الإلهي. وظهور الشمس من كوٍّة لا يجعل الكوّة شمسا. كما أن ظهور النقش على خاتمٍ، لا يجعل من الخاتم نقشا[82]».

المسيحيون الأقباط الذين يعتقدون في هذه الأشياء هم مَجانين: «لقد جُنّ هؤلاء تماما، وجعلوا الله واحدا من ثلاثة![83]». "واحد من ثلاثة" لا تجدونها في كتب المسيحيين لكنه استمدّها من القرآن: "ثالث ثلاثة".

إن حقد هذا الرجل على الأقباط، على رهبانها، وعلى بَابَا الكنيسة القبطية شخصيا يُبْديه دون مواربة في محاوراته التافهة في عزازيل: «هل تعتقد يا هيبا أن رهبان الأديرة المصرية الكثيرة في وادي النّطرون وفي صحراوات مصر، يوافقون كيرلس فيما يقول؟ إنهم يوافقونه في أي شيء، فهم جيش الكنيسة المرقسية، والجنود المخلصون لبابا الاسكندرية ـ بابا، هه ... إذن ليكن ما يكون[84]».

لا ينبغي لهذه الضّحكة الهستيرية أن تُلهينا عمّا يريد تسريبه من أفكار خطيرة، وعن الرسائل التي يرغب في إرسالها إلى قرائه: تهجّم على الرهبان الأقباط، وتعْيين حتى أماكنهم: "في وادي النطرون"، وبالتحديد في هذا الوادي بالذات، وأنتم تعلمون ماذا حدث للرهبان في هذه الأديرة. ومن له آذان فليسمع.

هدأت لبرهة حميّته الجنسيّة، لكن عاد لها بأكثر قوة بعد أن طردته أوكتافيا وانهالت عليه شتما. والآن فاضت مَكبوتاته الجنسية من جديد وعبّر عنها بكلام مقزّز، تشمئزّ منه النفوس[85]. ولم تسلم من غريزته الجنسية حتى الطيور فهو لا يرى في الطبيعة إلاّ الجنس، إلا الوطء والمُسافدة: «الحَمَامُ كثير السِّفاد[86]»؛ «إن الحَمَام يثير الشهوات، ويبعث على ارتكاب الخطية[87]».

وقد جاءته فرصة المُسافدة مع فتاة اسمها مرتا «أجمل امرأة تمشي على الأرض[88]». استفرد بها في الدير، فلامسها وداعبها، وعمل معها ما يسمّيه القرآن اللَّمم[89]. لكنه في فترة تالية لم يكتف باللّمم بل فعل فعلته، بعد أن قدّمت له خالة مَرتا "الشّرْبات"، مثل الخطوبة في مُسلسل مصري: «قدّمت لنا الخالة مشروبا باردا[90]»، ومباشرة تَوكَّل على الله ونكحها: «رفعتُ عن ساقيها ثوبها بكلتا يديّ، فأسلّتْ هي الثوب من عند كتفيها بكلتا يديها. وقفت مرتا أمامي عارية تماما، ونثرت بأناملها شعرها، فانخطف قلبي من سطوة الجمال. ألقيتُ عنّي ثوبي، وكان بيننا ما يكون بين الرجل والمرأة، حين يطرحان رداء الحياء[91]».

بعد "الشّرْبات" والخُطوبة الوهمية والتمتّع بالعُسَيلة، اقترحت عليه الزواج، تماما كما نشاهده في لقطات المسلسلات والأفلام: «تَعال لنعمّر البيت ونعيش هناك بقيّة عمرنا معا، ونأخذ خالتي معنا فتُعنى بأطفالنا، وأفرغ أنا للعناية بك[92]».

وفي الأثناء لا يَنسى التهجّم على المسيحية وإلحاقها بالوثنية المصرية: «أترانا نردد في كل صلواتنا اسم الإله المصري القديم آمون، مازجين اسمه بين الواو والياء؟ سألتُ نفسي[93]»، ولا يستثني البابا شنودة زعيم الكنيسة القبطية الذي ادّعى في حواراته التلفزية أنه صديقه، لكن في عزازيل جعله صنو كيرلّس، عدوّه اللدود لأنه قال بألوهية المسيح: «إن الأسقف كيرلس وصل إلى بلدة إفسوس، ومعه الراهب الأخميني الشهير، شنودة رئيس المتوحّدين[94]». تذكروا البابا شنودة.

وبالاعتماد على القرآن، الذي قال إن المسيحيين يتجادلون في طبيعة المسيح ولا علم لهم به، فإن زيدان، بين العُسَيلة والأخرى، يعود للتهجم على المسيحية، مُتّبِعا خُطى كتابه المقدس، حيث يضع على فم راهب مسيحي هذا الكلام: «إنكم لم تُصدّقوني حين قلتُ لكم إن خلافنا حول طبيعة المسيح، هو جوهر ديانتنا. وأن الجوهر ذاته دقيق ومشكل، وينذر بالانشقاق والفرقة ... الكل مختلفون في هذا الأمر. المصريون مُصرّون على أن الله تجسّد بكامله في المسيح، من يوم صار ببطن أمّه، فلا انفصال في المسيح بين الألوهية والإنسانية، فهو إله وربّ كامل تامّ، ولا ناسوت له مستقلا عن اللاهوت. عبارات الأسقف كيرلّس في رسالته الأخيرة حاسمة: جسد المسيح لم يتحوّل إلى طبيعة إلهية، ولم يتحوّل الله إلى طبيعة الجسد، حتى حين كان المسيح طفلا مقمَّطا[95]».

إذن، دَبَّ الشّقاق واستفحلت الفرقة بين المسيحيين حول طبيعة المسيح حتى جاء الإسلام وفَضَّ المشكلة من الجذور ولَقَّن المسيحيين درسا في اللاهوت لن ينسوه أبدا. ورغم الولوج في ما لا يعنيه فإن الرجل يعود للنكاح بكل تلهّف، ويرتمي في حضن مارتا التي يسميها «عصفوري الصغير[96]».

9. من فِلم البُورنو إلى النقد الدّيني

إن هذا الفلم البُورنو تمّ التّعتيم عليه في كتاب اللاهوت العربي، وأجرِيَت عليه عمليّة قص وحذْف طالت المقاطع الخليعة، لكنه حافظ على انتقاداته للمسيحية، لا من وجهة نظر عقلانية، كما يجب أن يكون عليه الأمر في أي عمل فكري، لكن من وجهة نظر إسلامية، يعني تغليب دين على آخر وإعلاء عقيدة على أخرى، وهذا هو المرمى الأخير الذي يصبو إليه الإسلاميون جميعا.

تحدَّث عن الحرومات، ووصفها بأنها «حُمّى الحرومات (الأناثيما) في الكتابات المقدسة[97]»، يقصد بها حرومات كيرلس، وصوّر الخلاف في صُلب المسيحية على أنه خلاف بين عقليّتين «عربية من الهلال الخصيب والجزيرة، وغربية في مصر واليونان وسواحل الشام[98]». وهكذا انقسمت المسيحية حسب انقسام جغرافي، عرقي، طائفي، إلى درجة أنه أَلحَق مصر بالغرب. والمسألة المركزية التي تشغله باستمرار هي المسيح وطبيعته. الأرثودكس الأقباط يؤمنون بأن الله حل في المسيح، وهو كمواطن مصري، يعيش في دولة متعددة الأديان وينص دستورها على حرية الاعتقاد، من واجبه أن يحترم عقيدة المسيحيين، ويتركهم في حالهم، كما أنه هو حرّ في الاعتقاد في نبوة محمد وقدسية القرآن. لكن معتقدات الآخرين تجرح إحساسه كمسلم وبالتالي ممنوع عليه أن يبقى محايدا وإنما يجب أن يتدخّل ويهاجم الكنيسة القبطية بالاسم والمسمّى: «الفهم الأرثودكسي لطبيعة يسوع، وهو الفهم الذي توغّلت فيه كنيسة الأقباط، وهيمن على روحها عبر التاريخ، فظلّت دوما تؤكد عقيدتها في لاهوت المسيح حتى يومنا هذا[99]».

كل شيء مُباح للأقباط إلاّ الاعتقاد في ألوهية المسيح، والأقباط غير مُستعدّين للتنازل عن عقيدتهم لهذا المعتوه، ولذلك فهو يَتَنرفزُ عليهم، ويؤنّبهم لتَعنّتهم، خصوصا إذا اطّلع على أحد الأقباط وهو يعرض عقيدته بكل اعتداد وثقة بالنفس: «وفي أيامنا الحالية، يكتب واحد من اللاهوتيين الأرثودكس، الأنبا بيشوي، مُعبّرا عن العقيدة القبطية المرقسية، وشارحا لعقيدة الثالوث من وجهة نظره، فيقول في موقعه على الانترنت، ما نصه: الآب هو الله من حيث الجوهر، وهو الأصل من حيث الأقنوم، والابن هو الله من حيث الجوهر، وهو المولود من حيث الأقنوم، والروح القدس هو الله من حيث الجوهر، وهو المنبثق من حيث الأقنوم[100]».

موضوعيا ما دخله هو في عقيدة الأقباط؟ ما الشيء الذي يُؤذيه؟ هل تَجرّأ واحد منهم على التدخّل في دينه أو مناقشة أركان عقيدته؟ هل العقيدة، في حد ذاتها، هي مسألة مساومة وموضوع أخذ وردّ؟ هذا ما يرغب فيه زيدان بالفعل؛ فهو يريد أن يُساوم الأقباط في عقيدتهم، لا بل تَعدّى المساومة لكي ينتصب كمخلّص لهم من أخطائهم. وقد أفصح عن موقفه هذا جهارا، بحيث إن أولئك الذين اتّهموه بمعادات الكنيسة القبطية وشخصنة الصراع معها لم يخطؤوا بتاتا، يقول حرفيا إن الأقباط: «يرفضون دوما أي مساومات أو حلول وسطيّة في مسألة الطبيعة الواحدة للمسيح، بما في ذلك الحل الملكاني الذي ظل في الإطار العام للأرثودكسية، لكنه توسط بين المذهبين، مذهب النبوة الرافض لألوهية المسيحية، ومذهب النبوة القائل بوحدة الطبيعة[101]».

هذا ليس نقاشا وإنما تهديد واضح للأقباط، وليس الأقباط فقط، بل المسيحيين على جميع طوائفهم، مَنسوج على شاكلة منطوق القرآن: (انتهوا خير لكم). لكن الأقباط، في رأيه، ماكثون في تعنّتهم، لا يقبلون المساومة ولا النصيحة: «لم يرض الأقباط بهذا الفهم لطبيعة المسيح، وعَدُّوه فهمًا أريوسيا للديانة. وقد أصرّوا طيلة تاريخهم على فهمهم الخاص الذي يلخّصه لنا قدماء الآباء والمحدثون منهم[102]».

ماذا يطرح زيدان كحَلٍّ للمسألة اللاهوتية الخاصة بالمسيحية؟ الإسلام. الإسلام هو الحل. وكيف يكون الإسلام حلاّ؟ ولأية قضيّة؟ لكل شيء، بما في ذلك صراعات المسيحيين حول طبيعة يسوع. والشاهد على ذلك هو القرآن نفسه الذي قال واصفا نفسه بنفسه (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه). ولا خيار أمام الأقباط، إن كانوا عقلاء ومُتفهّمين، إلاّ أن يُصدّقوا هذه الشهادة الذاتية للقرآن لأنه، حسب قناعة زيدان الراسخة، هو الحق المطلق، أي «ببساطة شديدة، هو اليقين الموحى به من رب العالمين[103]».

10. ما دخلك أنت؟

مِن حقّك كمسلم أن تعتقد بأنّ القرآن "هو اليقين الموحى به من ربّ العالمين"، نُقَدّر موقفك ونَتفهّمه، ولكن ليس من حقّك ـ يَعترضُ المسيحي ـ أن تفرض مُعتقدك على غير المسلمين، أو تتدخّل في اعتقادات الآخرين وتقتَرح عليهم كيفيّة إيمانهم. يجب عليك، كباحث جدّي، أن تلتزم الحياد العلمي وأن تعرض بكل تجرّد وأمانة تاريخ الأديان ولاهوتها، دون الزجّ بقناعاتك الشخصية. وإن كنت مؤمنا، تُسوّق لدينك على حساب المسيحية، فمن واجبك أن تبوح بذلك للقارئ، دون مواربة، لكن أن تجمع بين الإيمان والعلم فهذا محال. إذا كان المنهج التاريخي النقدي يفرض عليك، قبل أن تخوض في دينك وتؤرّخ لعقيدتك بطريقة علمية، أن تقوم ببحث معمّق، تجْمع فيه المعطيات التاريخية، وتُقابل الآراء المختلفة، بالعودة إلى النصوص الأصلية أو الانتفاع من أعمال المؤوّلين السابقين، فما بالك إذا تعلّق الأمر بديانة أخرى وبلاهوت مغاير، أشد تعقيدا ربّما وأكثر تشَعّبا؟ لا يكفي تبسيط المسألة والتسرّع في الاستنتاج وترجيح شق على آخر، فالأمر يتطلّب منك ضِعف المجهود البحثي الذي تخصّصه لدينك.

لكن السيد زيدان، من خلال نصوصه، لم يُخصص للمسيحية، لا ضعف ولا نصف المجهود البحثي المطلوب. لقد هام بالثنائي آريوس ـ نسطور، وبالغ في الثناء عليهما وكأنهما قُطبان من أقطاب التصوّف أو عالمان من علماء الكلام الإسلامي، دون أن يقوم ببحث جدّي، أو يرجع إلى النصوص الأصلية، أو ينتفع حتى من أدبيات ثانوية يُعتدّ بها. كل ما يهمّه هو الاعلاء من شأن نسطور لأنه رفض فكرة أن تكون مريم أم الله، ضد كيرلس عمود الدين الذي ألّه مريم ويسوع. لكن إذا دقّقنا في المسألة وقمنا ببحث محايد بالرجوع إلى النصوص الأصلية وإلى أدبيات ثانوية لرأينا أن المماحكة بين هذين الرجلين لها أبعاد فكرية ومعان دينية أخرى.

ولِقولِ كلمة في هذه المسألة، بعجالة، سأستعمل ما كتبه الفيلسوف بيار بايل (Pierre Bayle) في مقال "نسطور"، من قاموسه التاريخي النقدي، مُقتَصرا على الملاحظة ("A" آ) والملاحظة ("M" مآ)[104]. لكي يَضع القارئ في لبّ الموضوع استشهدَ بايل بنصّ رسالة كتبها نسطور إلى سليستين أسقف روما يقول فيها: «لقد وجدتُ في القسطنطينية أشخاصا يعملون على تخريب العقيدة الارثوذكسية، فحاولتُ أن أداويهم بطُرق ليّنة، رغم أن هرطقتهم تقترب من هرطقة آريوس وأبوليناريوس، لأنهم يختزلون ترابط الطبيعتين في يسوع المسيح باضطراب وخلط،

مُولِّدين من مريم الطبيعة الالهية، ومُحوّلين جسد يسوع إلى ألوهيته؛ وعلى هذا الأساس يُطلقون على العذراء، أمّ المسيح، صفة أم الله؛ إن هذا اللّفظ، رغم كونه غير مناسب، يمكن تَحَمّله من أجل وحدة اللوغوس والبشرية، على شرط أن لا يُفهم بمعنى الألوهية، وأن لا يُفترَض في العذراء أنها أم اللوغوس الإلهي، وهو ما لا يمكن قبوله[105]».

وفي رسالة أخرى، يُثني على كيرلس لكونه اعترف باختلاف الطبيعتين في يسوع المسيح؛ لكن يتهمه بأنه حطّم، في ما بعد، هذه الحقيقية، وجَعَل الإله كائنا مُنفعلا ومائتا. نسطور هو بدَوره يعترف بأن الطبيعتين متّحدتين، لكنه يعتبر أنه من غير الممكن، بسبب هذا الاتحاد، أن ننسب إلى الواحدة صفات لا تنتمي إلاّ إلى الأخرى؛ ويزعم أن في كل مرة تكلمت فيها الكتب المقدسة عن آلام يسوع المسيح وموته، إلاّ ونسبتها إلى الطبيعة الإنسانية، وأبدا إلى الطبيعة الالهية. القديس كيرلس يعترف بأن نسطور يقرّ بأن اللوغوس تجسّد، وأنه كان في أحشاء العذراء مع الإنسان الذي ولد من مريم؛ لكن هذا الإنسان ليس هو الله بالطبيعة وإنما الإنسان الذي مات وقام. نحن نؤمن، يقول كيرلس، أن اللوغوس الالهي أزلي وهو الحياة عينها؛ لكننا نعتقد أنه تجسّد، وأنه اتحد بجسم مُتنفّس بنفْسٍ عاقلة، وقد تألّم في جسده، كما قيل في الكتاب، وبما أن جسده قد تألّم نقول إنه هو أيضا تألّم رغم أنه كان من طبيعة غير مُنفَعِلة، وبما أن جسده قام، نقول إنه قام.

لكن نسطور ليس على هذا الرأي لأنه يقول إن الإنسان هو الذي قام وإن جسم الإنسان هو الذي يُقدَّم لنا في الأسرار المقدسة. نحن نعتقد على العكس من ذلك أن جسد ودم اللوغوس هما اللذان يُحييان كل شيء.

على هذه المعطيات، يعلّق بايل: «من الهَيّن إدراك أنه لا يوجد بينهما إلا مماحكة لفظيّة؛ ذلك لأن كيرلس لا يزعم بأن اللوغوس، بما هو لوغوس، خضع للموت: هو يعترف بأن اللوغوس ذو طبيعة غير منفعلة؛ لكن نظرا إلى أن جسدا إنسانيا اتحد باللوغوس، فمات وقام، يمكننا القول إن اللوغوس مات وقام.

فالمسألة إذن ليست إلاّ طريقة في التعبير؛ المماحكة لا تجري أبدا على عين الشيء: نسطور وكيرلس يتّفقان كلاهما على أن اللوغوس بما هو كذلك لم يولد أبدا من مريم، ولم يمت أبدا على الصليب، وإنما اتّحد بجسد تكوّن في أحشاء القديسة العذراء، وأنه صُلب. لقد كانا يتجادلان لمعرفة هل أن، عن طريق نتيجة هذا المعتقد، يمكن استعمال نوع خاص من العبارات. نسطور لا يريده، لأنه يخشى استتباعات ألفاظه؛ كيرلس يريده لأنه يخشى استتباعات رفض هذه العبارات. وهكذا، إذا حكمنا بقسط، فإن كليهما كان أرثودوكسيّا وكليهما متحمسان للإيمان؛ لكن من سوء حظّهما أنهما لم يُعبّرا عن نفسهما بوضوح، ولم يَفهم أيّ منهما الآخر. بعض الأنفس المعتادة على اعطاء الأشياء وجه سلبي، ربما ستقول إنهما يفهمان بعضهما جيّدا، لكن بوجودهما في نفس المهنة

كبَطلَيْن شهيرين، لم يريدا أن يشهدا بأن مماحكتهما تتعلق بتفاهة، وإلاّ فإنهما سيفقدان تعلّة الصراع [...]

على أية حال يمكن تقبّل كامل عقيدة الاتحاد الجوهري، ورفض مع ذلك صفة أم الله، سواء لأنها تمنح للخصوم فرصة للاستهزاء، مثلما كان يفعل المسيحيون، بأكثر حدّة ضد الالهة الوثنية سيبيلياس. (ألا يقدرون أن يقولوا إن الله، حسب المسيحيين، له أب وأم، جدّ وجدّة، جدّ جدّ وجدّة جدّة، وهكذا دواليك بحسب درجات القرابة، المباشرة أو الجانبية؟ أو يقولون مثل شيشرون: إذا كان ساتورنوس هو إله يجب أن يكون إلها أيضا الفضاء السماوي، أبوه، وإذا كان كذلك فأبوي الفضاء السماوي يجب اعتبارهما آلهة، يعني إيتيرا والنهار، وهكذا أيضا إخوانهما وأخواتهما ... وبالتالي إمّا أن يُقبل بهذه الكيانات الغريبة أو يجب رفض الأوّلين).

وبمعنى أدقّ، يواصل بايل: ليس صحيحا أن العذراء القديسة هي أم الله. من الممكن جدا أن يَتّحد مَلاك مع جسم إنساني في لحظة الولادة، بحيث إن ذاك الملاك وذاك الجسد يشكّلان إنسانا، مثلما أن جسم آدم وروحه يشكلان انسانا واحدا. المرأة التي ستحمل وستُغذي في بطنها الجسم الذي سيتحد به هذا الملاك، ستكون بالفعل أم الشخص المتكون من الاتحاد الجوهري لهذا الملاك بهذا الجسد، لكنها لن تكون أم الملاك. ولا يمكننا حتى أن نقول إن حوّاء كانت أمّ روح هابيل رغم أنها أم هابيل. نقول نفس الشيء بالنسبة للعذراء المقدسة: هي أم يسوع المسيح ولكن ليست أم اللوغوس الذي باتحاده بجسدٍ كوّن وحدةً نسمّيها يسوع المسيح. إذن، القول بأن العذراء يجب أن تكون أم الله، لا يُمثّل على الاطلاق حجة لكي نرفض الوحدة الجوهرية، هذا فقط دليل على أننا نفضل استعمال اللغة الدقيقة للفلاسفة على اللغة الشعبية، وعلى استعارات الخُطباء.

أعتقد، مع ذلك، يواصل بايل، أن نسطور كان مُعابا لمعارضته التيار؛ كان عليه أن يكتفي بأن يُفسّر للخصوم ماذا يقصد بـ"أم الله"؛ كيرلس من جهته مُعاب جدا لكونه لم يوضّح جيدا ما يَعنيه بـ"أم المسيح". ومن شأنهما أن يُجنّبا الكنيسة العديد من الاضطرابات، لو أنهما اتّفقا على المعنى المقصود، كان على كل واحد منهما أن يعطي تعريفا دقيقا للكلمات. أذكرُ هنا فصلا من "فن التفكير" حيث يبرهن صاحبه على أن هناك ألف مماحكة ستنتهي لو تَحمّل المماحكون عناء تحديد بدقّة معاني الألفاظ التي يستعملونها. وأظن، علاوة على ذلك، أن الإفراط في تقديس العذراء يجب الخوف منه، سواء بتسميتها "أم يسوع المسيح"، أو بتسميتها "أم الله". لأنه، بلا شك، من المحال على الأتقياء الأكثر غلوا أن يعتقدوا في أن اللوغوس، بما هو كذلك، استمدّ من القدّيسة العذراء حياته وجوهره، كما يَستمدّها الأطفال من أمّهاتهم. ومن الأكيد أننا لو اختزلنا استتباعات لَقَب "أم يسوع المسيح"، كما اختُزلت استتباعات لَقَب "أم الله"، لوصلنا فورا إلى عبادة القديسة العذراء كما فُعل، ولأمكن الوصول إلى الدّعاء التالي: "يا أيتها الأم السعيدة، التي تكفّري عن جرائمنا، بسُلطتك كأمّ أُؤمري المخلص (O felix puerpera Nostra pians scelera Jure matris impera Redemptori)". وهذا من شأنه أن ينقض أولئك الذين يجدون في تصرّف نسطور شيئا قادرا على

الوقاية من الوثنية. وإليك حدث يمكنه أن يقنعنا بأنه في العمق كان أرثوذكسيا وهو أنه كان مستعدّا أن يسمي مريم العذراء أم الله على شرط أن يُدان خطأ أبوليناريوس الذي دعّمه كيرلس[106]».

ثم عاد بايل، في الملاحظة (مآ)، لكي يتعمق في المسألة عن كثب ويضيف إليها بعض التّدقيقات. قال إن خصومات نسطور وكيرلس لم تساهم إلاّ بالعرض في اعلاء مجد القديسة العذراء. هذان الأسقفان لا يتخاصمان على نقطة تخص التقوى؛ وبافتراض أن منذ تلك اللحظة يُتَوجّه إلى العذراء بالدعاء، نسطور لا يدّعي أبدا تغيير هذه العادة، وكيرلس لا يطلب تضخيمها. المسألة بينهما تتعلق بالعقيدة: أحدهما يخشى من خَلْط طبيعتَي يسوع المسيح، بينما الآخر يخشى تنصيب، كشخص، الطبيعة الإنسانية للربّ. العبادة لا دخل لها في هذا الشأن: «إن نستوريوس، رغم بقائه عنيدا على رأيه، أذعن أخيرا وأراد أن يُضفي على العذراء المقدسة التكريم الذي يقام لها شعبيا بحيث إنه في خضمّ بلائه يبدو أنه كان مستعدّا لإعادة صفة أم الله، بدلا من اعطاء الفرصة لخفض تقديسها بمواصلة رَفْضِه إليها[107]».

هذه الخاطرة استقاها بايل من كاتب كاثوليكي، وعلّق عليها كالتالي: «هذه الكلمات هي لقسّ فرنسي درس ظاهرة تقديس العذراء بقدرٍ من العقلانية لا يستطيع القيام به إلاّ شخص مثله متمكّن من مهنته. فهو يعترف بأن نسطور لا يطلب أي إضعافٍ للطقس، وكان بإمكانه الاعتراف بأن هذا الهرطقي حافظ على كل أسس الطقس الذي أراد كيرلس أن يُرسِيَه؛ لأننا لا يمكن أن نؤسس طقس القديسة العذراء إلاّ بافتراض أن الله فعل إزاءها في السماء ما سيفعله ملك على وجه الأرض إذا أعلن أنه يريد ويرغب في أن يَخلَع على المرأة التي مَنحته الحياة، مهما كانت وضعيّتها سابقا، صفة ملكة ـ أمّ. من ذلك الحين فصاعدا فإن مثل هذه المرأة ستُرفَع إلى مرتبة عالية، فوق الدوقات والأميرات، وجميع رعايا المملكة، باستثناء الملك؛ نفوذها سيكون بلا حدود. التّشريفات التي ستُحظى بها، ستفوق تشريفات كل الأشخاص الآخرين، ولا أحد سيتسلّى بالبحث هل هي أمّ روح الملك أم جسده؛ سيُكتَفى بالاعتراف بها كأم مَن يملك، وأنها تمسك بيَدها مقاليد السلطة التي تخوّلها لها مكانتها تلك.

إن تطبيق هذا المبدأ على نسطور ليس بالأمر الصعب. إذْ برفضه لقب أم الله، وبحِفاظه على لقب أم يسوع المسيح، فقد حافظ على أسس التقديس كلّها؛ لأنه سيقول، أن تكون أمّ مَن "دُفِع إليه كلّ سلطان في السماء وعلى الأرض"، والذي يُهيمن على كل شيء، على الملائكة كما على البشر، وبالتالي إذا أراد الله أن تُخلع على أمّ المسيح صفة الملكة ـ الأمّ والملكة الوصيّة، وتَنْعَم بسلطة الأُمومة على ابنها، فهي أعلى من كل المخلوقات، وقادرة أن توزّع على الجنس البشري كل الخيرات التي تريد.

أنا لا أرى بتاتا، يقول بايل، أن كيرلس بإمكانه أن يُعطي إلى تقديس العذراء قاعدة أكثر متانة من هذه. ليس أبدا إزاء الطبيعة الإلهية، التي أعلن يسوع المسيح في يوم صعوده أن كل

السلطات مُنحت إليه؛ لأنه كإله، لا يمكن أن يستفيد أيّ شيء؛ كان من الأزل سيّد الأشياء كلّها، فهو من حيث هو إنسان قد فُوِّضت له كل السلطات؛ لقد منح الله إلى روحه هذه القوة من حيث أنه أراد أن تكون كل رغبات هذه الروح فعّالة وعاملة، وبالتالي للتّأكد من النفوذ الكوني للقديسة العذراء، يكفي الاعتقاد أن بشريّة يسوع المسيح لا تأبى شيئا لأمّه، وأنه خاضع لها مثل أفضل ابن ... لو أن السيّد بابيه (Baillet) تحمّل عناء التفكير في ما قلتُه، لغَيَّر بالتأكيد شيئا ما في هذا المَوْضِع من كتابه: "حينما حافظت الكنيسة للعذراء القديسة على صفتها كأمّ الله، في مجمع إفسس، ضد جور الهرطوقي نسطور، الذي أراد أن يخطف منها عنوان المجد هذا، لم تكن تفكّر في المحافظة على أسس التقديس الذي يؤديه المؤمنون لهذه العذراء الأم بقدر ما كانت تفكّر في ارساء الإيمان بوحدة الشخص في يسوع المسيح[108]".

ربما يُفيدني هذا الكاتب ـ يواصل بايل ـ بآراء لا أملكها والتي قد تجعلني أغيّر من رأيي. لكن، إليكم كيف أرى أن مماحكات نسطور وكيرلس ساهمت بالعرض في زيادة تكريم العذراء القديسة على وجه الأرض. إن عنوان أم الله الذي اعتُرض عليه ورُفض لبعض الوقت، وأخيرا انتَصر وأكّدته قرارات المَجامع الكنسيّة، أثار ضجّة أكثر مما كان عليه في السابق؛ أصبح قضية محورية؛ الحزب المغلوب نُظِر أليه ككافر، الحزب المنتصر رأى نفسه كأنه الوصيّ على التقوى؛ انتصاره استهوى العديد من الناس؛ وقد عُزِّز هذا الجزء من العقيدة كما تُعَزّز ثغرة دُحِر منها العدوّ، لكنه يستطيع في كل لحظة أن يقوم منها بهجوم جديد. اسبروا تاريخ الكنيسة، سَتَرون أن في كل العصور المماحكات التي لم تنتصر لم تساهم إلاّ في مضاعفة التجاوزات [..]

ولكي نؤكد ما قلناه من أن أولئك الذين يهاجمون أخطاء دينية عتيقة غالبا ما يكونون سببا، بالعرض، في زيادة ترسيخها، نلاحظ أنّ أتْبَاع طقسٍ خاطئ يمكن أن يُتَصَدّى لهم إمّا في لحظة الذروة من تعصّبهم، أو عندما يقودهم الفتور إلى نوع من اللامبالاة. في الحالة الأولى اخْشَوا ما يحدث حينما تُعارَض هيَجانات شخص في قمّة غضبه؛ مقاومته لا تعمل إلاّ على تصعيد غيْظه ... في الحالة الثانية يجب أن تَخافوا من إيقاظ الكلب النائم، أعني إنعاش عاطفة في حالة احتضار.

اعتَبِروا مثلا تَصرّف الأزواج الذين انطفأت فيهم تماما مشاعر الزوجية: يَعيشون مع زوجاتهم كأنهم لا يعيشون مَعهنّ؛ لديهم إزاءهنّ الكثير من اللامبالاة وربما الكثير من الكره، لكن إذا أراد أحد أن يَنتَزعهن، وإذا عَلِموا، حين عودتهم إلى بيوتهم، أنهن لُذْنَ بالفرار مع أحد الغاوين، عندها يَفقدون صبرهم؛ يَشعرون بأنهم كلّهم حماس لاسْترْدادهنّ؛ يَملؤون الدنيا تذمّرا: يا لزوجتي المسكينة، أوّاه! ماذا حدث لها؟ يُحرِّكون الشرطة والحرس؛ يَنخرطون في مُحاكَمات محرجة. ليس هناك بُرود، انتهت اللامبالاة في شؤونهم الشخصية. يتخلّصون من نسائهم طالما لم يُنازعهم أحد فيهنّ؛ لا يقدرون على التخلّص منهنّ في لحظة التنازع عنهن[109]».

هذه الخلاصة المقتضبة لبيار بايل، هي أفضل ما قرأت بخصوص النزاع بين نسطور وكيرلس، وقد اقتصرتُ منها على ملاحظتين، ومَن أراد المزيد فعليه بمقال "نسطور" في الجزء العاشر من قاموس بيار بايل.

العِبْرة التي أودّ الوصول إليها هي أن هذه المماحكة اللاهوتية، الغائرة في القدم، تخصّ المسيحيين بالدرجة الأولى، وتتعلّق بتاريخ معتقداتهم، ولا دخل لأهل الأديان الأخرى فيها، ولا يمكن أن تكون ذريعة للمسلم كي يهجم على المسيحية ويجرّح فيها.

11. حلول القرآن اللاهوتية: "أحسن القصص"

السيّد زيدان، الذي يتدخّل في معتقدات المسيحيين، دون أن يستشهد بمراجعهم، ويكتب وكأنّ كلامه وحي إلهي، يزعم أن القرآن قدّم «حلولا محددة لكل ما كان اليهود والنصارى يختلفون فيه من مشكلات عقائدية»، وهذه في الحقيقة هي سقطة كبرى من رجل يدعي أنه متضلّع في الفلسفة، لأن ليس هناك من كتاب ديني في العالم قدّم حلولا لمشاكل عقائدية تخص الأديان الأخرى.

وإذا أردنا الدقة فإن المشاكل العقائدية، في حد ذاتها، هي مشاكل كاذبة، ومصطنعة، وشرّيرة لأنها لم تتقدّم بالبشرية في سبيل التحرر الفكري والانعتاق الجسدي وإنما أغرقتها في بحر من الجهل والعبودية والعنف.

كان من المفروض أن يعي زيدان بهذه البسائط الأولى، المعروفة عند المبتدئين في الفلسفة، وهي أن الكتب الدينية، هي كتب خرافية، معدومة العقل والمنطق، لكنه بحكم تمكّن العقيدة الوهابية من دماغه، مُصرّ على أن القرآن حلّ كل المشاكل العقائدية بما فيها تلك التي تخص اليهودية والمسيحية.

ولم يكتف بالمحتوى، بل تعدّاها إلى الشكل، لأن القرآن في رأيه قدم تلك الحلول بإعادة بناء «التصورات الأساسية للألوهية والنبوة[110]».

على أي أسس بَنَى القرآن هذه الحلول؟ وأية براهين منطقية وعقلانية جاء بها؟ لا منطق ولا عقل ولا برهانٍ، وإنما مجموعة من القصص الأسطورية، يعني روايات تروى هكذا في النوادي اللّيلية للتّسلية، ولِكُلٍّ أن يَستخلص العبرة حسب هواه.

لكن الرجل يحيطنا علما بأن القصص القرآني هو أحسن القصص[111]، ولا يمكن له أن يقول عكس ذلك لأن القرآن ينص عليها بالحرف (نحن نقص عليك أحسن القصص)، وهذه إشادة بالذات، لا تتوافق مع واقع الحال. وأراهن أنه لو رفضِ القرآن فكرة القصص وتهجّم على القُصّاص، كما فعل إزاء الشعراء، لاصطفّ وراءه زيدان ولَأمعن في تجريح القُصّاص، ولكَال لهم من النعوت القبيحة ما لا يتصوره الخيال.

القرآن استعار من العهد القديم حكايات أنبياء بني إسرائيل، ولمّح لحياتهم الأسطورية تلميحا، دون الدخول في التفاصيل أو التوسّع في دقائقها أو تنسيقها في خطاب مُوحّد، إلا الأسطورة الغرامية ليوسف، التي استهوته، فقام بسَردها مُضيفا إليها بعض التفاصيل التلمودية.

أن يكون القرآن قد استمدّ موادّه من التوراة والتلمود فهذه حقيقة تاريخية فيلولوجية ثابتة ومُوثقة، وقد برهن عليها المستشرقون بفائض من الحجج والنصوص الدامغة. لا يمكن أن نَعيب على المسلم البسيط عدم وعيه بهذه الحقيقة، أو مُكوثه على الاعتقاد بأن القرآن جاء بتصوّرات جديدة، وقصّ تاريخ الأنبياء بصورة أفضل مما هي عليه عند اليهود، لكن من حقّنا أن نَعيبها على السيد زيدان: فهو عالم ضليع في اللاهوت، عارف بالكتب المقدسة؛ صاحب قلم غزير، وله صَوْلات في ميدان الفلسفة والمنطق والتصوف، وبالتالي فهو المؤهّل، أكثر من غيره، للاضطلاع بمهمّة تنوير العقول، وتثمين البحوث التاريخية الفيلولوجية.

لكنه لم يفعل شيئا من هذا القبيل، بل مرّ وكأن الدراسات التاريخية والفيلولوجية لم توجد قط، وأخذ يعرض علينا السرديّات اللاعلمية التي يرددها الشيوخ في مواعظهم، من قبيل أن الإسلام «قدّم سيرة أخرى لمعظم أنبياء التوراة، الذين هم أنبياء اليهود الأوائل، بعدما أعاد رسم شخصياتهم بما يُناسب مكانتهم[112]».

فالرجل لم يكتف بتغييب المقاربة التاريخية، بل إنه افتكّ من أهل الأديان أرذل ما عندهم من أدبيات خرافية وقال، كما يقول كل شيوخ الفضائيات: «إن العرب أوْلَى بإبراهيم وبالأنبياء، من اليهود الذين ذكر القرآن الكريم في مواضع كثيرة، أنهم يقتلون النبيّين بغير حق[113]».

لن أسأل زيدان: هل هناك قَتْل للنبيّين بحقّ؟ لقد أذهلني هذا الرجل بخوره واستهتاره المسترسل. والحال أن ما قاله أعلاه هو سطو على العهد القديم، وعلى أساطير أنبياء بني إسرائيل، إن لم يكن محاولة إدخالهم عنوة في بيئة مغايرة، وفي مجتمع طلّق الأديان نهائيا. فالمُتصفّح لردود العرب المخاطَبين في القرآن يدرك بسهولة أن القوم كانوا يعرفون مصدر القصص التي تُروَى عليهم، وقد نَبّهوا كاتب القرآن على أنه يستنسخ لهم أساطير العهد القديم، التي تجاوزوها فكريا منذ زمان، ولا يَودّون أن تُستعاد وتُسْكَب على ثقافتهم اللادينية، بل الدّهرية (الإلحادية) بأتم معنى الكلمة.

لكن ثمة أمرا لم يتفطّن له المسلمون وهو أن القرآن هو الذي أنقذ اليهودية التلمودية من النّسيان وهو الذي أعاد تلميعها ونشرها على نطاق واسع. يكفي نظرة بسيطة حتى ندرك أن القرآن اجتهد لتطهير (نسبيّا) العهد القديم من الشناعات، عن طريق الحذف والايجاز والتّعتيم، وهكذا قدّم خدمة جليلة لكتابٍ لا يمكن لأحدٍ من الناس أن يقرأه دون أن يُصاب بالدّوار من كثرة العنف والهبل واللاّمنطق، واللاّأخلاق.

ومع ذلك فإن العالِم زيدان لم يُعرّج، لا هو ولا الاسلاميين، على هذه الاقتباسات، لأنها تنسف من الجذور أفكاره المسبقة عن جدّة الخطاب القرآني، وتقضي على الإسلام بالكامل، لأن الإسلام بدون خرافات التلمود لا شيء[114].

ورغم ذلك فهو يقول إنّ نبيّ الإسلام لم يكن جاهلا بالقراءة والكتابة، وإن كلمة أمّي، تعني أنه "لا ينتمي إلى اليهود". وهذه تنويعة من تنويعات بعض القرآنيين للالتحاق بالعصر، مع الإبقاء على القرآن مُعجِز، والحفاظ على كل الميثولوجيا الإسلامية[115]. لكنهم لا يستنتجون من هذه المعلومة أي شيء، وكأن القول بأن محمدا يعرف القراءة والكتابة سيُبقي سالمة عقيدة إعجاز القرآن ونبوّته.

بَعد الطعن في كتب اليهود والمسيحيين يعود إلى أحسن القصص ويقول: «جاء القصص القرآني راقيًا في لغته، مترقّيا بالقارئ والسامع إلى حضرة علوية لا يشوّشها لفظ رديء ولا معنى غير لائق بالله أو بأنبيائه[116]».

ومَن الشاهد على ذلك يا ترى؟ القرآن نفسه. هذا الدّور المنطقي الذي يقع فيه الاسلاميون دون أن يتفكروا ولو برهة في أساليب براهينهم، يَسقط فيه أيضا زيدان، العلاّمة بالمنطق وبتاريخ الأديان والفلسفة، لإثبات صدقيّة القرآن: «ولأن نص القرآن تنزيل أو وحي من الله نزل به الروح القدس[117]».

هل يستطيع شخص يؤمن بأن القرآن وحي من الله أن يقول شيئا مخالفا لهذا؟ هل يجرأ على خَدْش حساسية المؤمن ونفي قدسية القرآن؟ هل له أن يشكك في قصة واحدة من قصص القرآن أو يُحيل على مرجعها الأصلي في التلمود؟ لا يمكن؛ هذا محال، لأن المقدمة لاعقلانية، وبالتالي الحد الأوسط والنتيجة هما لا عقلانية مضاعَفة. إذا كان القرآن كلام الله «فهو لا يفتأ يُذكّرنا بأنه (أحسن القصص) و (إن هذا لهو القصص الحق) في إشارة ضمنية إلى أن القص الآخر لا يبلغ هذه الدرجة القرآنية الراقية[118]».

لم يَدُر بخلده أن هذه شهادة ذاتية، أو ما يسميه المناطقة مصادرة على المطلوب، وهي حجّة واهية ومنافية لقواعد البرهان السليم، وبالتالي لا نستغرب إن كان استنتاجه خاطئا: «على هذا النسق من القصّ الأحسن بلاغا ومضمونا، حكى القرآن الكريم حياة الأنبياء، من دون أن يذكر نقيصة لواحد منهم[119]».

12. أحسن القصص. الجنسية

وقد استدل على هذا التنزيه الاستثنائي بقصة يوسف، وهي قصة مستمدة من العهد القديم مع بعض التَّحْليات الغرامية التلمودية[120]. لكن لو كان هذا الرجل موضوعيا نزيها، وطالبا للحقيقة، ولو لم يَنْجرّ مع مقدّساته، ووسّع من اطّلاعه، وفتح أي كتاب من التراث الاسلامي، مثل "عصمة الأنبياء" للرازي أو "تنزيه الأنبياء" لابن خُمير، لعَثَر على جَرد من الشناعات التي اقترفها النبي يوسف، نذكر منها التالي:

(ولقد همّت به وهمّ بها): بنصّ القرآن يوسف همّ بفعل الفاحشة مع امرأة العزيز. وفِعْلُ هَمّ في لغة العرب يعني العزم على الفعل، أي إرادة الفعل، ويعني أيضا، خُطور الشيء بالبال؛ أو الشهوة ومَيْل الطّباع. «والهمّ في هذه الآية مُعلّق بذاته وذاتها[121]»، كما يقول الرازي، يعني بيُوسُف تجاه امرأة العزيز وبهذه تجاه يوسف، وإلاّ فلا معنى للقول التالي (لولا أن رأى برهان ربّه). السؤال: كيف يتسنّى لنبيّ مرسل من الله، جاء ليعلّم مكارم الأخلاق، أن يَهمّ بفعل الزنا؟

اعتراض آخر على قصة يوسف: «كيف يجوز على يوسف، مع نبوّته، أن يُعوّل على غير الله في الخلاص من السجن في قوله للّذي كان معه (اذكرني عند ربّك)؟[122]». هذه مسألة لاهوتية دقيقة لم يتفطّن لها كاتب القصة. وقد بدت تصرفات يوسف، للنّقّاد القدامى، غير حكيمة، بل لاأخلاقية وقاسية، والدليل على ذلك أنه «طلبَ أخيه من إخوته، ثم حبَسَه عن الرجوع إلى أبيه مع علمه بما يلحق أبيه من الحزن[123]». أين الحكمة في هذا التصرّف؟ أليس هذا فعلا مَجانيّا قبيحا من شأنه أن يَضرّ بأبيه؟

تصرّف آخر لا مبرر له، بل مخادع وشرّير هو وضع السّقاية، عن قصد، في رِحْل أخيه، وهكذا عرّضه لتهمة السرقة وتسبَّب في ايذائه وحبسه. هذه القصة عوض أن تكون مشوّقة أو ذات معان أخلاقية راقية فهي سادية، لأن يوسف «لم يُعلِم أباه خَبَره كي تَسكُن نفسه ويَزول حزنه»، وإنما أطال المسرحية كأنه يتلذذ بتعذيب أبيه.

لكن هذا النبي سقط في خطيئة كبرى، خطيئة أشنع من الشرك بالله، ألا وهي تأليه الذات، حيث جاء في القرآن: (ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سُجّدا). ليست سهوا ولا دعابة وإنما

حركة مقصودة ومدبّرة، اتخذ فيها صاحبها مكان الإله، وأهان والديه بالسجود له. أليس هذا تأليها متعمّدا للذات، قام به نبي من المفروض أن يكون عالما بأن السجود لله فقط؟ فعلا، اعتراض النّقاد القدامى هو هذا: «كيف رضيَ بأن يسجدوا له والسجود لا يكون إلاّ لله، وكيف رضي باستخدام الأبوين؟[124]».

قلت بأنها حركة مقصودة لأن هذا النبيّ، حسب منطق القرآن، موافق على فعل السجود، والقرآن نفسه لم يجد أي حرج في ذلك، بحيث جَعَل السجود تصديقا نهائيا لرؤية سابقة رآها يوسف في المنام: (يا أبتِ هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا).

وأخيرا: ما معنى قول يوسف لفرعون: (اجعلني على خزائن الأرض). كيف يجوز لنبيّ أن يطلب الولاية من قِبل ملك، وصَفه القرآن نفسه بأنه ظالم؟

كان على زيدان، قبل أن يَعيب على التوراة تقديمها للنبي يوسف في صورة مشوهة، ويُعيّرها بسبب التركيز «على الاتصال الجنسي الفجّ[125]»، أن يَتقصَّى رواية القرآن بعقل نقدي، وأن يبحث في الكتب ويُدقق جيّدا في المسألة قبل أن يستنتج. ولو تمعّن في المغزى التاريخي من التِجَاء القرآن إلى أساطير اليهود لاستخلص الحقيقة التالية وهي أن القرآن أراد أن يُسوّق هذه الخرافات ويُعيد تصديرها للعرب الذين من المحتمل أنهم تخلّوا عنها، وربما اليهود أنفسهم تركوها وأصبحوا ملحدين.

13. شَتّان بين إله القرآن وإله الإنجيل

لكن الرجل ثابت على فكرة أن القرآن هو كلام الله، وأنه فاق في روعته وإعجازه كل الكتب الدينية الأخرى، وأكثر المواضع التي تتجلّى فيها عظمته وعلوّه على كتب اليهود والمسيحيين (المُحَرّفة طبعا)، هو تصوّره لله، وهنا فإن القرآن قد أبدع إبداعا لا مثيل له.

ومع ذلك فإن السيّد زيدان لم يُبدع في التّعبير عنها، لأنه ضعيف في العربية، ليس له أسلوب سَلس نَقيّ، ولا منهجية أكاديمية صارمة، فهو يكتب وكأنه في حلقة مسجد أو في برنامج تلفزي، وأنا مُرغم على تَتبُّعه والصّبر على بلائه.

لكني أود أن ألتزم بمخطط البحث لكي أبرهن عما ذهبتُ إليه من قبل، وهو أن المفكرين العرب (الحداثيين، العلمانيين) الذين استبشرنا بهم خيرا وانتظرنا منهم تَصدّيا لمظاهر الظلامية واللاعقلانية المستفحلة والعنف الطائفي، لم يلتزموا بمُهمّتهم العلمية وإنما تضامنوا مع الإسلاميين وردّدوا أطروحاتهم التقديسية حرفيا، ثم فتحوا النار على المسيحيين. وهم، عن وعي أو غير وعي، يجرّون العالم العربي إلى الفتنة الطائفية وإلى حروب دينيّة طاحنة لا نهاية لها، ويوفّرون بالتالي الذريعة لتحقيق مشروع ما يسمى بالشرق الأوسط الجديد، الذي خطّطت له إسرائيل من زمان.

وزيدان لا يمانع من ذلك، وأظن أنه يشتغل لإشعال فتيل تلك الحرب الطائفية كما تُريدها إسرائيل لأنه أبدى وجهه الصهيوني في حواراته التلفزية مع عَمر أديب في برنامج رحيق الكتب. ومَن كانت له ذرة شك في ذلك، فما عليه إلاّ مشاهدة تلك الحلقات، وترصّد أقواله المُحابية لإسرائيل والراغبة في التّطبيع مع العدوّ الصهيوني.

ولا أشط إن قلت بأن يوسف زيدان يقدّم لنا عَيّنة من المثقف الذي تَخلّى عن دوره الاستكشافي التنويري لكي يَسيح في المنافحة الشرسة عن دينه والحطّ من الاديان الأخرى، ابتغاء الفتنة.

أن يكون الإسلام هو الدين الأسمى، الذي خلّف وراءه اليهودية والمسيحية، فهذا بالنسبة إليه حقيقة مبدئية لا جدال فيها، وقد تجلّى سُموّه في نقطة محورية، وهي تصوّره للإله: «في كلام الله القرآني ـ يقول زيدان ـ نرى الله يتجلّى بقوّة ابتداء من البسملة حيث يستهلّ القرآن دوما ببسم الله

الرحمان الرحيم، ومرورا بالآيات الكثيرة التي أخبرت عن حضرته الأعلى وجعلت اسم الله تعالى: الأعلى، وانتهاء بالأسماء الحسنى والصفات الإلهية ... وبآيات سورة النور البديعة التي ضربت لله الذي هو (الله نور السماوات والأرض)، مثلا من حيث صفاته، لا ذاته (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درّي يوقد من شجرة مباركة ... الآية)[126]».

لا تعتقدوا أن هذه الاشادة بالقرآن وإلهه، لازمة للقرآن فقط، ولكنها مُتَعدِّية بالتناسب العكسي على الأديان الأخرى، وغرضها الأساسي هو الطّعن فيها والقدح في كتبها، وخصوصا في المسيحية وتصوّرها لله. وقائل هذا الكلام، أعيد وأكرّر، مُلزم على ذلك، لأنه لا يملك إطارا مرجعيّا غيره، وبالتالي فإن انحيازه الكلّي للقرآن، ومُعَاداته حتى الموت للمسيحية وحُنقه على الأقباط والكنيسة القبطية، هي نتائج طبيعية نابعة من خياره الديني.

واستنادا إلى هذه الخلفية الايديولوجية فقد سهل عليه بث خطابه الوهابي والتبجّح بإله القرآن، بصورة هستيرية: «وهكذا سَطَعَ الله بقوّة في القرآن الكريم، حتى لا يكاد اسمه تعالى يغيب عن سطر واحد، ولا يكاد حضوره يفارق أي معنى من المعاني القرآنية. وبذلك عاد اللاهوت إلى صدارة المعتقد الديني[127]».

لقد أخذته الحماسة وغطّت على ذهنه حتى نسي أنه وقع في الحشويّة والانثربومورفية، وأمْعَن في تشبيه إلهه بالمخلوقات بحيث إنه تَعدّى صفة "سطوع الله"، لكي يتحدث عن "شمسه الساطعة". تَصوّروا هذه التعابير الصّحفية في كتاب أكاديمي من المفروض أن يلتزم فيه المؤلّف بأبسط معايير الكتابة العلمية: «وسَطعتْ شمس الله بقوّة[128]»، هكذا لا يتوانى صاحبنا عن تشبيه الله بأحد الفنّانين المصريين الذين سطعت شمسهم على الشاشة.

إن هذا الخور الفكري، أقول، هذا التنطّع من مكان لآخر، ثم الإتيان باستعارات غير مناسبة، واستخدام مصطلحات لا علمية، هدفه الوحيد هو ضَرْب معتقدات المسيحيين، وذلك بنفس الآلية وبنفس التعابير الصحفية التي استخدمها لوصف إله الإسلام. فعلا، سَطعت شمس الله في القرآن «ومن الجهة الأخرى توارى الناسوت فلم يعد مطروحا كأصل إيماني ... مؤكدا تلك المفارقة التامة بين اللاهوت والناسوت، ومُعبّرا بوضوح عن بشرية النبي الكاملة، على نحو ما ورد بالآية القرآنية (وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل)، وبالحديث الشريف: لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم[129]».

وهكذا خرج النصارى مَهزومين في ميدان اللاهوت، وقد تكفّل سلاح القرآن بالقضاء عليهم. فعلا، القرآن، يقول زيدان، أفاض في تأكيد «علوّ الله عن العالمين، فهو تعالى المفارق التام، الترنسندنتالي الذي (ليس كمثله شيء)[130]».

صحيح، القرآن يقول، مرّة أو مرتين، إن الله "ليس كمثله شيء"، لكن لماذا يصفه، في موضع آخر، بأنه شيء؟ لماذا يقول حرفيا: (قل: أيّ شيء أكبر شهادة؟ قل الله شهيد)؛ أليس هذا تَشبيئا صريحا لله؟ لا بل إعطاء حجم لهذا الشيء، ومقارنته بأشياء أخرى: "أكبر شيء له شهادة"، أو "شيء أكبر شهادة". إذن، قد يسأل المسيحي: هل الله شيء؟ أم أكبر شيء؟ أم لا شيء؟ أم هو شهيد؟ وشهيدُ ماذا؟ أم أراد أن يقول: الله شاهد؟ وهل يجوز إطلاق على الله مثل هذه الصفة؟

أسئلة عديدة لم تدُر بخلد زيدان ولا أدري كيف بإمكانه أن يردّ عليها؛ ولا تعنيني المسألة في حد ذاتها لأنها خارجة عن موضوع البحث، ما يعنيني بالدرجة الأولى هو الكيل بمكيالين والعماء المذهل أمام الأقوال التشبيهيّة التي يعج بها القرآن، ثم تناسيها والتعتيم عليها، ثم القول بأن الله مفارق (يقول ترنسندنتالي، رغم أن المرادف العربي موجود)، بينما في المسيحية الإله مُحايث.

ليس هذا فقط بل إن قارئ القرآن، مهما كانت ديانته، قد يعترض بأن المُحايثة، أي إنزال الإله إلى مستوى الإنسان، أو إعلاء الإنسان إلى مستوى الإله موجود في القرآن، وبصيغة صريحة لا مراء فيها، في قوله: "إن الله وملائكته يصلّون على النبي"، ثم أضاف إليها دعوة للمؤمنين كي ينضمّوا إلى جوقة المُصلّين من الملأ الأعلى: "يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلموا تسليما".

واضح أن هذا الكلام، مهما راوغ المفسرون ومهما أضْنوا أنفسهم لتأويل كلمة صلاة، هو ليس تأليها فقط، بل أكثر منه، هو تحطيم للألوهية وتدمير للعالم الروحاني العلوي، وإهانة كبرى للمؤمنين جميعا الذين يعتقدون بأن البشر هم الذين يصلّون ويبتهلون لله، لا العكس.

لكن زيدان لا يتفكّر في هذه المعضلات اللاهوتية الخطيرة، ولا يمكن أن يخطو خطوة جدّيّة في سبيل نقدها وتفكيكها، وتحرير العقول من هذا التأليه الكوني لشخص محمد. والسبب في ذلك هو أن عملا من هذا القبيل سيؤدّي حتما إلى أفول شمس الله، وانْكِدار نجمه، وهكذا تسقط حتما الخاصية التي فاق بها القرآن الكتب الأخرى، ويذهب التنزيه الذي أفرده إلى إله الإسلام في مهبّ الرّياح.

14. واحلل عقدة من لساني

والحال أنه إذا ما تعلّق الأمر بالمعتقدات المسيحية ولاهوتها، فإن السيد زيدان يتجاوز حدود اللياقة، وتُحَلُّ عُقَد لسانه، ويُعطي أفضل ما عنده من تهكّمات وشتائم وتجريحات، دون أن يتفكّر طرفة عين في استتباعاتها على مُواطِنِي بلده من الأقباط.

تجريحاته تتمثل في القول بأن المسيحيين لا علم لهم بمَسيحهم، وأن القرآن جاء لكي يُعلّمهم دينهم ويُقشّع عنهم جهالتهم. وفي هذا فهو يستنسخ، بكل شراسة، تهجّمات القرآن، مع إضافة، من عنديّاته، تزويرات وتهويلات أخرى. يزعم أن القرآن «أعاد بناء التصورات الخاصة بالمسيح، ثم طرَحها من جديد، على نحو جدلي لا جدالي. أي على نحو فيه منطقٌ لتصاعد الوقائع، ولارتباط المقدمات بالنتائج؛ وليس على نحو اجتهادي سجالي[131]».

لقد نثر هذا الكلام الذي لا معنى له، لكي يقول شيئا ما، لكي يتدخّل في عقائد الآخرين ويَهجم عليهم ويُجَرّحهم بحجّة أنّ القرآن كلام الله، وبالتالي لا جدال في قدسيّته، وينبغي على الجميع أن يقبلوا بهذه العقيدة على عِلاّتها، وأن يعتبروها مطابقة للواقع التاريخي.

أمام القرآن زيدان يُخيّر الناس بين أمرين، إما الإيمان أو الكفر: «القرآن قول واحد، وحْيٌ مُنزّل، إما أن يُقبل بالكلية بفعل الإيمان، أو يُنكر تماما من جهة الضالين أو الكافرين[132]». وهذا الخطاب موجّه للعلمانيين وللمفكرين الأحرار في العالم العربي، ولكل من حاول الخروج من سجن المقدس. المطلوب منهم هو الرجوع إلى الجادّة، وتقبّل القرآن كليا، وعدم رفض أو تَنْسيب أيّة آية منه، بما في ذلك آيات القتل والسبي والجنس: «وفي كل الأحوال، لا يجوز مع القرآن أن نؤمن بشيء فيه، من دون شيء آخر. وقد استنكرت الآية الخامسة والثمانون من سورة البقرة، هذا التبعيض غير مقبول، بقوله تعالى (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ..)[133]».

وهنا تتنزّل المراجعات التي قام بها القرآن على المسيحية، والتي يعرضها زيدان بأسلوبِ "الحُدّوثة"، أو حلقات المساجد التي تكاثرت في فترة أنور السادات، وتسجيلات خطب الجمعة التي كان يلقيها الداعية عبد الحميد كشك.

واستسمح القارئ في إيرادها على طولها، لأن الأمانة العلمية تحتّم علينا هذه التضحية: «حسبما جاء في القرآن، فإن المسيح (يسوع، عيسى) لا يُذكَر عادة إلاّ مُقترنا باسم أمه مريم، فباستثناء مرات ثلاث فقط أشير فيها إلى اسمه مجرّدا، لأسباب محدّدة وفي سياق خاص، كما في الآية (وقالت النصارى المسيح ابن الله)، نرى المسيح القرآني الوارد ذكره ثماني مرات، هو كل مرّة: المسيح عيسى ابن مريم. أما أمه، فقد ورد ذكرها مرات عديدة، عددها أربع وثلاثون مرة، وصار لها في القرآن سورة بديعة باسمها (سورة مريم)، وسورة أخرى باسم أسرتها (سورة آل عمران)، ولم تُسمّ واحدة من سور القرآن باسم المسيح ... وعلى هذا النحو عادت الأم العظيمة إلى الصدارة، وأعليَ ذكرها في أصل العقيدة، بعدما بَهَتَ بسبب الانهماك الكنسي في المساجلة الكريستولوجية[134]».

لا زلتُ بهتا أمام هذه التخريجات؛ لا أستطيع أن استوعب هذا النمط من التفكير السطحي، ولا أدري حقا، كيف يمكن لمثقف، ذاع صيته في العالم العربي، أن يكتب تداعيات حرّة من هذا القبيل؟ كيف يسمح لنفسه بأن يجادل المسيحيين في عقيدتهم بهذه الطريقة الفجة؟ وكيف لا تكون فجّة، وقد وصل به الأمر إلى حدّ الزعم بأن مريم المسيحية هي مريم المحرفة.

قال إن مريم الإسلامية، يعني مريم الحقيقية، هي ليست مريم المسيحية، أي المُحرّفة المنتَحِلة للشخصية الأصلية، ومَرجعه الأوحد لتسويق هذه اللخبطة وهذا التزوير، هو القرآن: «ومريم القرآنية ليست ثيوتوكوس، وليست أم النور الحقيقي، وإنما هي صدّيقة (قدّيسة) وهبتها أمّها لله، من قَبل أن تلدها (فلمّا وضعتها قالت ربّ إني وضعتها أنثى ...) ... ثم إن هذه العذراء الصدّيقة كانت بتولا[135]».

هذا أقصى ما يقبله زيدان والمسلمون عموما من حياة مريم، خرافة صغيرة مقابل خرافة كبيرة (إذا قيّمناهما تقييما عقلانيا، وهو موقفي الشخصي): ولادة عذرية مقابل أم الله. لكن الكلام التالي هو كلام جارح للمسيحيين، لأن فيه لعبة الجنس، والفرج، والنفخ في الفرج، وهي تفاصيل غير لائقة، لكن بما أنها وردت في القرآن فإن زيدان لا يخجل من إعادة سردها.

دون أن نَخرج عن أسلوب "الحُدّوثة"، يواصل قائلا بأن مريم البتول «بتعبير قرآني (أحصنتْ فرجها)، فأرسل لها الله روح القدس أو الروح الأمين الملاك جبريل على هيئة بشرية، مثلما كان الله يرسله من بعد إلى النبي محمد ليعطيه القرآن (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) .. فأوصل جبريل النفخة الإلهية الخالقة إلى مريم، فحملت بالمسيح». النتيجة هي أن القرآن أَبْعدَ «أيّ شُبهة للاتصال المباشر بين الله والإنسان. فالله أرسل من عليائه رسوله السماوي ليهِب العذراء غلاما من عند الله، تماما مثلما كانت توهب من قبل طعاما وشرابا وهي بالخلوة، ومثلما سيأتيها من بعد البلح الطريّ».

لقد ساح زيدان في تفاصيل الأكل والشرب والفواكه ولكنه مرّ على شيء في غاية الاحراج، وأظن أن الرجل حرّف القرآن عن قصد، لأن القرآن يقول صراحة إن الله (بصيغة الجمع)، نفخ في فرج مريم والعبارة صريحة ومكشوفة إلى درجة أن المفسرين العرب أصيبوا بامتعاض شديد، فاصطنعوا كل ما يمكن أن يُتخيّل من تأويلات لكي يُبعدوا شبهة أن الله ينفخ في الفروج، في العضو الجنسي للمرأة. (فنَفَخْنا فيه): كلام واضح وصريح يصوّر الله وهو يكافئ امرأة على إحصان فرجها بنَفخةٍ فيه. هل يُعقل أن يقوم الله بعمل من هذا القبيل؟ أين هو الله المتعالي القدوس الذي ليس كمثله شيء، إذن؟ أين هو نور السماوات والأرض؟ وكيف يَنزل هذا النور لكي ينفخ في الفروج؟ هذه أقرب وأبسط اعتراضات المسيحيين على زيدان والقرآن والتفاسير الإسلامية كلها التي تفادت هذه المفارقات وحوّرت حتى كلمات القرآن عن مواضعها.

15. في عباءة حسن حنفي

لسائل أن يسأل: من أين جاءت لزيدان مثل هذه الأفكار؟ ما هي مصادره؟ كيف كان تكوينه؟ من هم الرجال الذين أثروا في مساره الفكري وكان لهم الفضل عليه؟ من المحتمل جدا أنهم اسلاميون كلهم، لأن مفكرا عقلانيا حداثيا متوازنا، ذا نزعة إنسانية مسالمة، لا يمكن أن يُفكّر اطلاقا في التهجّم على الأديان الأخرى من أجل الانتصار لدينه. المفكر العقلاني بطبعه لا ينتمي إلى أي دين، ولا يُعلي من شأن أي منها على حساب الأخرى، بل يتّخذ إزاءها مسافة نقدية، هذا إن لم يعتبرها أفيونا فتّاكا ينبغي مداواة البشر منه.

أظنّ أن زيدان تَربّى على كتابات الإسلاميين، مُعتَدليهم ومُتطرّفيهم، وقد اعترف هو نفسه أنه حُظي بالرعاية من طرف حسن حنفي الذي، مَهمَا قال عن نفسه، يبقى إخوانيا سلفيا صرفا: «كان مَنْ يَرعاهم حسن حنفي من الصغار آنذاك كثيرون. منهم: علي مبروك، رمضان بسطاوي ... وكاتب هذه السطور[136]». وقد روى أنه لما أصدر حنفي كتابه الشهير "الاستغراب" الأوروبي أقيمت بآداب القاهرة جلسة لمناقشة الكتاب «وانهمكنا في نقده والرد على التفاصيل والتفاريع الصغيرة[137]».

إن ما يلفت الانتباه في كتاب حنفي "مقدمة في علم الاستغراب" هو انتهاجه النهج الاسلاموي في ضرب الأديان الأخرى، خصوصا اليهودية والمسيحية، ثم إعلاء الإسلام عليهما. لم أكن أتصوّر أنّ فيلسوفا عارفا بالفلسفة الألمانية، متضلّعا في الفينمينولوجيا، مُترْجما وشارحا لسبينوزا، وفيخته، وهيجل، يمكن أن يسقط في مستنقع المنافحة على الدين، على دينه الإسلامي.

في مقال له بمجلة عالم الفكر الكويتيّة، (المجلد العاشر 1979)، بعنوان "الاغتراب الديني عند فيورباخ"، قام بنقل فصول كاملة من كتاب جوهر المسيحة، ثم، بعد أن أرهق القارئ، أخلص إلى نتيجة مفادها أن كل الانتقادات التي وجّهها فيورباخ للدين تنطبق على المسيحية، وفقط على المسيحية، أما الإسلام فهو يعلو على أي نقد، لا بل إن فيورباخ وصل، إلى ما كان قد وصل إليه الإسلام منذ ألف وأربعمائة عام.

والسبب في ذلك أن المسيحية هي ديانة معدومة الإنسانية والواقعية والعقل، على عكس الإسلام الذي يتضمّن منذ البداية كل هذه الخاصيات الرفيعة. هذه الأفكار اللافلسفية، العنصرية الطائفية، زعم أنه استقاها من كُتب فيورباخ وعلى رأسها كتاب جوهر المسيحية. يقول حرفيا: «هكذا ينتهي فيورباخ، من محاولته لإعادة الدين المسيحي، إلى الموقف الإنساني، وإعادة ملكوت السماوات إلى ملكوت الأرض، وهو ما حاوله الإسلام قبل ذلك بثلاثة عشر قرنا، وكأنّ الفلسفة الغربية كلها، منذ الإصلاح الديني وعصر النهضة وفلسفة التنوير، حتى فيورباخ والهيجليّين، ما هي إلاّ محاولة للاقتراب من إنسانية الإسلام وواقعيّته ورفضه للكهنوت والأسرار وتأكيده للعقل والتوحيد[138]».

ثم يضيف، بكل صلافة، أن المسيحية هي ديانة ناقصة، غير مكتملة، يعني مُحرّفة، في مقابل الإسلام الذي هو الدين المكتمل بامتياز، يعني، بلُغة الإسلاميين، خاتم الأديان: «سِهَامُ فيورباخ موجّهة إلى الدين قبل أن يكتمل وليس بعد اكتماله وتحقّقه»، والدين غير المكتمل هو المسيحية، أما الإسلام فهو الكامل والخاتم والجابّ لما قبله. وأخيرا، يختمها بآية قرآنية، مُردَفة بـ"صدق الله العظيم": «"اليوم أكملتُ لكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام دينا". صدق الله العظيم[139]».

وهكذا فإن حنفي، الذي درّس الفلسفة في مصر وفي بلدان عربية أخرى، وتربّى على يديه ثلة من المفكرين الشبان، من بينهم علي مبروك ويوسف زيدان، ما فتئ منذ السبعينات من القرن الماضي يبثّ سمومه الطائفية، ويُمعن في التهجّم على الأديان الأخرى.

ولا يختلف الأمر مع الكتاب الذي تحدّث عنه زيدان: "مقدمة في علم الاستغراب"، حيث بعد أن كدّس أسماء مفكرين غربيين ونظريات متباينة، مُتنقّلا بين ألمانيا وفرنسا وإنجلترا، وصل إلى مرماه الحقيقي، وهو تقزيم الدينين السابقين والإعلاء من شأن دينه.

ابتدأ باليهودية وقال إنها ديانة مُعابَة في بندها الأوّل والأساسي، أي في تصوّرها لله: «الله في التوراة، كما لاحظ برجسون إله غيور غاضب منتقم جبار يلعن بني اسرائيل[140]». أين قال برجسون هذا الكلام؟ لا ندري بالتحديد، يجب أن نصدّق حنفي على الكلمة، لأن الرجل لم يتكرّم على قرّائه، كعادة الإسلاميين، بذكر المرجع الذي استقى منه كلام هنري برجسون: فيلسوف فرنسي من خلفية يهودية، أظهر في آخر حياته ميولات كاثوليكية.

وفي نفس الوقت، يُغلّب (ظرفيّا) المسيحية على اليهودية ويبالغ في إظهار محاسن الأولى وعيوب الثانية، كما فعل زيدان في اللاهوت العربي. إله اليهودية شرّير دموي «في حين أن الله في الإنجيل إله المحبة والرحمة والمغفرة»؛ الدين كما تُعبّر عنه التوراة «مرتبط بشعبٍ معيّن وبتاريخ معيّن أي أنه خاص»، بينما في المسيحية «الدين عام للبشر جميعا[141]».

لن أسأل حنفي لماذا لم يَعتنق المسيحية إذن؟ إذا كانت ديانة كلية وشاملة للبشرية جمعاء، وهو واحد من هذه البشرية، لماذا لم يَقبل بها فورا؟ إذا كان الحلف الذي عقده الله مع بني اسرائيل هو حلف مُضيّق جدّا، والحلف الجديد «الذي عقده مع المسيح ... حلف عام»، لماذا لم يَنضمّ إلى هذا الحلف؟ فالمسيحية، كما يصوّرها حنفي، هي منظومة عقائدية مُغرية جدا، ونافعة لكل نفسٍ باحثة عن الروحانيات وتائقة للخلاص الأخروي. فعلا، على عكس اليهودية، حيث «تسود التوراة النظرة التشريعية الخارجية»، فإن النظرة الطاغية في الإنجيل هي «نظرة روحية صِرفة، تُعنى بتطهير القلب، وتعطي الأولوية للباطن على الظاهر[142]».

وهكذا، كما أن زيدان يَحفِر لنفسه الجبّ تلو الآخر، ويقع في التناقضات دون امكانيّة الخروج منها، كذلك حنفي من قبله، دون أن يتفكّر في ما يكتبه أو يتمعّن في أطروحاته، يحفر لنفسه الجبّ تلو الآخر. بعد أن أثنى على المسيحية ووصَفها بأنها دين «محبة وسلام» في مقابل اليهودية «دين حرب وغزو[143]»، تراجع وأخذ يجرّح في المسيحية واليهودية معا، وقد جمعهما تحت راية واحدة: اللاعقلانية. قال إن «نوعيّة المعطى الديني في المصدر اليهودي المسيحي واحدة وهي اللاعقلانية[144]».

نترك اليهودية، التي ما انفكّ يجرّح فيها رغم أن الإسلام هو يهوديّة مُعَرّبة، ونتوجّه إلى المسيحية نظرا إلى أنه بالغ في مدحها، وابراز خصائصها المميّزة وروحانيّتها، كما لو كان آخر داعية مسيحي.

لكن من السهل التفطّن إلى أنّ كل المدائح التي قالها والاشادة الغريبة هي مجرّد تكتيك للتورية، لأنه حينما يقتحم ميدان المقارنة بين المسيحية والإسلام يبرز تحيّزه بصفة جليّة. ولا يكتفي بالتحيّز وبوضع في الصدارة معتقداته الإسلاموية، بل يمرّ إلى الهجوم ويشنّ على المسيحية حملة شعواء: الإيمان المسيحي لا عقلاني بامتياز فهو «سرّ لا يمكن إدراك كنهه بالعقل، والمسيح ثالث ثلاثة، ولا يمكن فهم علاقة الأقانيم داخل الثالوث بالعقل. والكنيسة سلطة متوسطة بين الله والإنسان، تُفسِّر الكتاب المقدس، ويعترف أمَامَها المُذنب، وتَهِب الغفران. والإنسان يتحمّل خطيئة آدم ... الخ[145]».

وهكذا فإن المنظومة المسيحية، خرجت برمّتها ناقصة، ومُعابة، ومهترئة وفاشلة على طول الخط.

ما البديل إذن؟ البديل الذي يقترحه حنفي متوقّع جدا: إذا كانت اليهودية سافلة، وإذا كانت المسيحية بائرة، فليس أمامنا إلاّ الإسلام، ولا شيء غير الإسلام. ورغم أن الرجل مفكّر حداثي مختص في الفلسفة ودرّس هذه المادة لعقود في الجامعات العربية، وليس لاهوتيا أو شيخا أزهريا، فقد نسي مهمّته الأساسية واقترح علينا اعتناق الدين الذي شبّ فيه، أي دين الإسلام.

وإذا قلنا الإسلام فهذا يعني بالضرورة سَيْلا من التّهم التي وجّهها القرآن ضد الأديان السابقة: مِن التحريف، المُسلّط على رؤوسهم منذ ألف وأربعمائة عام، إلى قتل النبيّين، إلى الأنانية وصولا إلى العنصرية الحديثة. والسيد حنفي يُعيد سرد هذه التّهم على مسامعنا، بكل أريحية، في كتابٍ فلسفيّ مُخصّص لتأسيس علم جديد مستحدث وهو علم الاستغراب: «تحدَّث القرآن عن قضية التحريف والتبديل والتغيير في الكتب المقدسة، كما تحدث ثانيا عن تغيير العقائد، وإساءة فهم أقوال المسيح، وتبديل أقوال الأنبياء، كما تحدّث ثالثا عن سلوك أهل الكتاب وعن عدائهم لغيرهم، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وعدوانهم وعصيانهم وجحودهم. وحث على رفض التعاون معهم وموالاتهم لحقدهم وتعصّبهم واتباعهم الهوى، وإن شئنا بلغة عصرية قلنا لعنصريّتهم وأنانيّتهم وتمركزهم حول ذواتهم[146]».

كل هذه الموبقات موجودة في الكُتب "المقدسة" وملتصقة بمن أسماهم "أهل الكتاب"، من يهود ومسيحيين، وحنفي يدعو الباحثين الشبان لمُواصلة مشروعه وفتح ورشات عمل للقدح في أديان اليهود والمسيحيين وتجريح أشخاصهم وإظهار عيوبهم وفضحهم أمام الناس. وهذا العمل هو في العمق مواصلة لما جاء في القرآن، وتدعيما للتراث الإسلامي المقدس الذي يجب أخْذه كإطار مرجعي ثابت لشنّ الحملة.

ثم يشير على أبنائه الإسلاميين (والعلمانيين الذين سيتحوّلون فيما بعد إلى اسلاميين أقحاح) المجال الذي ينبغي أن يخوضوا فيه هذا الصراع، ويقترح عليهم القضيّة التي يجب أن يركزوا عليها، ويجعلوا منها قضيّتهم المحورية: «يمكننا ... أخذ قضية التحريف في القراءة على أساس أنها افتراض علمي يمكن التحقّق تاريخيا من صدقه عن طريق علم النقد التاريخي للكتب المقدسة أو برنامج عمل لدراسة نشأة النص الديني وتطوّره موازيا وتعبيرا عن نشأة العقيدة وتطوّرها في القرون السبعة الأولى[147]».

وما الهدف من هذا المشروع الضّخم؟ الهدف يُعْلِمنا به حنفي نفسه: «يكون ذلك منهجا جديدا لتفسير الآيات [القرآنية] الخاصة بالتحريف خاصة، بل وآيات القرآن عامة عن طريق ايجاد الوقائع والحوادث التاريخية التي يصفها القرآن[148]».

وهكذا فإن هذا الرجل يريد أن يُجنِّد جيلا كاملا من الشباب لكي يُثبتوا أن القرآن وحي صادق من الله، وأن كل التّهم التي وجّهها للمسيحيّن صحيحة، وخصوصا أن كتبهم المقدسة هي كتب مكدّسة.

ما زالتْ في جعبة فيلسوفنا مهمّة أخرى يقترحها على الشباب، وهي مهمّة أخطر، لكنها أسهل، نظرا إلى أن عملية تجريح الأشخاص وتلفيق التّهم ضدّهم وتشويه سمعتهم، هي أهون عملية بَرِع فيها الإسلاميون، وتميّزوا فيها عن جدارة، وبالتالي فإن السيد حنفي يفتح بابا مفتوحا.

فعلا، في هذا المجال، فإن أبناءه من الاسلاميين، ينطبق عليهم المثل التونسي "ما توصّي يَتيم على نواح"، فهم، من هذا الجانب، ليسوا رهن اشارته، لأنّ التراث الإسلامي لا يضاهيه أحد في مجال القدح والتعريض بأهل الأديان وسب الأشخاص والدعاء عليهم. المهمّة على أية حال هي هذه: «دراسة سلوك أهل الكتاب أي سلوك الغربيّين اليوم وتحليل أبنيتهم النفسية ومعرفة إلى أي حد يتمنّون الخير لغيرهم».

وهذا العمل، طبعا، ليس الغرض منه هو طلب الحقيقة لذاتها، ولا التقدّم بالبحث العلمي النزيه، وإنما تصديق القرآن وتثبيته في كل الشتائم التي كالها لأهل الأديان والتي تنطبق سواء على القدماء أو على المحدثين من الغربيّين (لأن المسيحيين، بالنسبة لحنفي، موجودون فقط في الغرب، ومكانهم الطبيعي هناك، أما المَحلّيون فهم نشاز، وربما سيأتي يوم يلتحقون فيه بإخوانهم، يعني يُهَجَّرون).

السيد حنفي ساهرٌ على بث هذه الفكرة، في أذهان باحثي المستقبل، أعني صدقيّة القرآن في كل ما قاله عن أهل الكتاب، ويقول حرفيا، إن «وصْف أهل الكتاب في القرآن الكريم هو وصف ضمني لحال الغربيّين اليوم وصِلَتِهم بغيرهم، وكأن القرآن يقرأ تاريخ الوعي الأوروبي منذ نشأته في مصادره حتى نهايته في مصيره[149]».

ويبدو أن هذا المشروع قد حققه يوسف زيدان، في العشريّة الأخيرة، بوسائل بدائية جدا: قليلا من الأدب القصصي، كثيرا من الخطابة، مزيجا من اللخبطة اللغوية، فَقْرا في المصطلحات العلمية وغيابا تاما للتحليل الأكاديمي، عدم ذكر المراجع، أو عدم التثبت منها (مثل فتوح البلدان للبلاذري، سماه فتوح الإسلام)، وبالجملة ـ إن لم أتجنّ على أحد ـ أقول: البذرة التي غرسها حنفي أينعت وأعطتنا يوسف زيدان.

16. ما جزاء الإحسان؟

حول أفكار يوسف زيدان وآرائه في المسيحية أكتفي بهذا القدر، ومن أراد المزيد فليرجع إلى مؤلفاته الأخيرة. استنتجُ من صريح نصوصه أن هذا الرجل هو إسلاموي سلفي وهابي حتى النخاع، فهو يُثني على الارهابي بن لادن، ويعتبر العلمانية خرافة، بل يصفها بأنها "الطنطنة (العلمانية) الجوفاء بانفصال الدين عن السياسة[150]"، والأقباط أعداء مصر. ولكن لسوء حظه، بعد أن أدّى خدمة جليلة للسلفيين في مصر، انتفضوا ضده وكفّروه بسبب كلمتين أو ثلاث قالها بخصوص المسجد الأقصى، والاسراء والمعراج. لم يَعترضوا بتاتا على أيّ من أقواله الطائفية ضد الأقباط، باركوا هجماته على المسيحية، بل إن الإعلام الإخواني أقام له برامج تلفزية وحوارات صحفية، أكْسبتْه شهرة واسعة وجعلتْ من كتاباته اللاعلمية والحُدّوثية، مَحلّ اعجاب المُغيّبين.

لكن مازالت نقطة أخيرة أودّ التطرّق إليها، وهي أن السلطات الكنسيّة العليا، التي تهجّم على أشخاصها وتحامل على إرثها الديني، من منطلق إسلامي بحت، وأشدد على هذه النقطة، أعني على أساس مرجعيّته الإسلامية، كَافأته على الإساءة بالإحسان.

سأذكُر حادثتين: الأولى بعد صدور رواية عزازيل استدعوه لإلقاء محاضرة في مؤتمر القبطيّات الدولي المنعقد بالقاهرة في سبتمبر 2008، عنوان المحاضرة: "اللاهوت العربي قبل الإسلام وامتداده في علم الكلام"، وهي خلاصة عاجلة للأفكار التي سيَسردها بعد سنة واحدة في كتاب "اللاهوت العربي". وقد جاءت على شكل مُرَكَّز من التهجّم على المسيحية، الشيء الذي حدا بالأنبا بيشوي للقول بأن زيدان يكنّ عداء شديدا للمسيحية، ومَوقفه هذا مبدئي لم يتغيّر اطلاقا، وهو إن دلّ على شيء «فإنما يدلّ على إصراره على نشر أفكاره المُضللة والتي كشفت بوضوح عن كراهيته للديانة المسيحية سواء في الرواية أو في بحث لمؤتمر علمي، مما يدل على خداعاته تحت ستار الأدب الروائي[151]».

كراهيته للدين المسيحي واحتقاره للمسيحيين وهجومه العنيف عليهم، هي أمور ثابتة ولا مراء فيها، لأن أيّ صفحة من صفحاته التي تناول فيها عقائد المسيحية، تقطر كراهية وعنفا. كل ما جاء في تلك المحاضرة أعاد سرده حرفيا في كتاب "اللاهوت العربي وأصول العنف". وقد ذكرها الأنبا بيشوي بالتفصيل في ردّه على زيدان، ويمكن تلخيصها في النقاط التالية: «العرب القدامى

رفضوا ألوهية الإنسان ... جاء الإسلام من قلب المنطقة العربية، منتصرا للرؤى المعارضة للإيمان الأرثودكسي وأعلن الدين الإسلامي منذ بدايته الأولى، عبر عديد من الآيات الحاسمة المحكمة عن قبوله التام للمسيحية كدين، ورفضه التام للقول بألوهية المسيح ... قدّمت المسيحية حلاّ لهذه المشكلة بأن أكدت وجود الله في الأرض، لتتوافق بذلك أولا مع اليهودية، ثم رفعته ثانية إلى السماء ... امتزاج العروبة بالإسلامية وهو امتزاج بدأ بمقدمات واضحة أدت إلى نتائج محددة، أعني ... أن القرآن عربي مُبين وأن الأئمة من قريش .. الإسلام .. هو الدين مطلقا، بحكم: "إن الدين عند الله الإسلام" .. وقد أكد الإسلام مبكرا ارتباطه باللغة العربية على مستوى التمييز بين المؤمنين (المسلمين) والكفار (أهل الكتاب). فتوى ابن تيمية التي نصها: .. وقول الجهم أشرّ من قول اليهود والنصارى، الذين حكم الله تعالى بكفرهم».

وأخيرا ختمها بالتأكيد على أن العربي لا يمكن أن يكون مسيحيا، وهي الفكرة المحورية في كتاب اللاهوت العربي، وأردفها بالقول إن المسيحية مشتقة من الوثنية الفرعونية، وأن آريوس هو مسلم قبل الكلمة: «إن العقلية العربية ذات الطبيعة العَمليّة لم يكن من السهل عليها قبول فكرة الألوهية للمسيح، لأسباب تاريخية ونفسية يطول شرحها .. إذ تصوّر العرب الإله دوما على أنه مفارق للبشر، ومن ثم كان يصعب عليهم قبول التطابق التام بين الآب والابن، أو الايمان السكندري بالـ هو هو! أعني الإيمان الذي مهّدت له طبيعة الثقافة الفرعونية التي سادت في مصر لزمن طويل، وعاشت في الاسكندرية الهيلنستية عقودا طويلة، أعني الايمان بألوهية الحاكم ... نَسب المسلمون لآريوس ما يفيد بأنه كان مقدمة من مقدمات الإسلام، وأعطوه اسما إسلاميا هو عبد الله بن أريس[152]».

كل هذا التهجّم العنيف على المسيحية والتزييفات أطلقها السيد زيدان في مؤتمر الدراسات القبطية ومن داخل كاتدرائية البطريركية بالقاهرة في سبتمبر من سنة 2008. وأرى أن الأنبا بيشوي لم يُجحف بتاتا حينما لاحظ بكل أسف أن مُنظّمي المؤتمر لم يُوفّقوا في دعوة زيدان «لكي يهاجم العقيدة المسيحية من داخل الكاتدرائية![153]».

لكن هذا لا شيء أمام الواقعة الثانية التي حدثت في لبنان سنة 2013، بعد خمس سنوات من الارهاب الفكري الذي نفثه زيدان في كتبه وبثه للقراء العرب. لقد تم تكريمه، مرّة أخرى، من طرف مسيحيين سبق له وأن أهانهم وسخر من دينهم ومن تعاليم مسيحهم، حيث أن أعلى سلطة كنسية، بابا الأقباط وبطريرك الكرازة المرقسية تواضروس الثاني، أهداه درعا، تكريما له كمفكر قدير. وبعد الدرع تدخّلت مثقّفة لبنانية اسمها آسيا قاسم، وألقتْ خطابَ تِرحابٍ بيوسف زيدان جاءت فيه بما يفوق العجب من عبارات الاشادة والاطراء التي تقارب حدّ التأليه. ونظرا إلى أن خطابها تُحفة على المستوى الأسلوب اللغوي فقط، فلا بأس من سرده: «كنتُ أظن أن الساعة قد جاءت أشراطها وأن الزمن زمن الهرج والمرج وأنه توقّف عن انجاب المفكرين الكبار والعظماء الخالدين وأن الانحطاط الذي نعيشه اليوم والظلام الذي نقبع تحت سواده أصبح المسيطر والمهيمن، فأتيتَ

مثل الفجر تثقب بنورك ليلنا المُدلهمّ وتُنير بشعاعك القسم الأكبر من الكرة الأرضية، فشعرنا بالأمل والأمان وأن الدنيا لم تزل بخير وأن القيامة ستقوم للخلاص وليس للهلاك "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى بك، لزرع مصرك الحبيبة إلى قلبك في كل مكان، أنّى توجّهنا فثمة كتبك ومخطوطاتك وآثارك ورمزيّتك المصرية والعربية. صحيح أنك العاشق لاسكندريتك الجميلة وتارك الدنيا لأجلها ولكن الدنيا أتت إليك لتخرجك إليها. وهؤلاء الأحبة الكرام الذين حضروا اليوم ليردوا لك التحية والاكبار لما قدمته للناس من فكر عظيم وعلم نيّر تُضيئ به سماوات العقول وتحطّم الأفكار المتحجرة. مصر الحبيبة عادت إلينا مزهوة فخورة بأن بطونها لم تزل تحمل بالعظماء وتنجب العباقرة».

ثم خَتَمتْها بعبارة تقشعرّ لها الأبدان: «دعوني أفتخر بأرضي وعصري فأنا مولودة في لبنان وموجودة في عصرك يا يوسف زيدان[154]».

إن القولة الأخيرة تحاكي تلك المنسوبة إلى أفلاطون التي أعلن فيها إنه سعيد بوجوده في عصر سقراط. لكن أن تُطبَّق على يوسف زيدان فهذا ما لا يمكن القبول به بتاتا. فهو كلام لا يستقيم وغير مطابق لواقع الحال، لأننا موضوعيا أين نضع إشادته، بالإرهابي بن لادن؟ كيف لشخصٍ يُوصف بأنه أعظم مفكر في العالم العربي أن يُثني على ابن تيمية وهو الذي تربّى على كتبه كل التّكفيريّين في العالم العربي؟ إن فَيْصل التّفرقة بين السلفي الارهابي وبين الإنسان العقلاني المسالم هو الموقف من ابن تيمية.

لقد اختار زيدان الانضمام إلى صفّ ابن تيمية والمُنافحة عن تراثه التّكْفيري، ولم يَتَوان من وصفه بأنه عالم جليل وأن نُقّاده جهلة متطرفون، بل "كلاب شوارع". قال، في تصريح لجريدة "اليوم السابع" وردّده في مواضع أخرى: «إن الميديا دائما تريد وضع أشخاص في شكل معين مثلما يحدث حاليا مع العالم الكبير ابن تيمية الذى ينهال عليه الجهلة ويهاجمونه على اعتبار أنه راعي التطرف وهم المتطرّفون في الحقيقة، مؤكدا أن ابن تيمية عالم كبير وفاضل ولم يكن متطرفا على الإطلاق وله كتب وترك تراثا لا يمكن تجاهله أو الحكم عليها بالإعدام، لأن إعدام التراث جريمة، واصفا منتقدي ابن تيمية "بكلاب السّكك". وقال إنهم متطرفون في حكمهم على الرجل[155]».

لم يكتف بابن تيمية بل إنه انتقل إلى تلميذه المعاصر ورأس الإرهاب العالمي، أسامة بن لادن، وبالغ في مَدحه والثناء عليه، وتجميل صورته، كما يفعل السلفيون، لكنه أضاف خصلة جديدة وهي أن بن لادن شاعر حزين. قال، في حوار بقناة الميادين: أرى أن أسامة بن لادن هو شخص مسكين، وأقرب إلى طبيعة الشاعر، ومَلعوب به. وزاد مُقدّم الحلقة: هل هو رومانسي، يُشبِه المناضلين الرومانسيين؟ لا هذا ولا ذاك، زيدان مُتشبّث بصفة المسكين، لأنها أدقّ وأصوب. تصوروا هذا المسكين المتخرّج من المدرسة التّيميّة ـ الوهابية ـ القُطبيّة، الذي لا يتفوّه إلا بالحقد ولا ينفث إلاّ الكره للبشرية جمعاء. لكن بالنسبة لزيدان، هذا الإجرامي الذي تسبّب في قتل الآلاف من

الأبرياء هو شخصية عجيبة، يقول: "انظر إلى عينيه، هذا الانكسار، وهذا الحزن الشديد، ليس متوافقا مع شخصية القاتل والارهابي. وأنا أشك أن أسامة بن لادن قتل شخصا في حياته".

المذيع، زاهي وهبي، يتظاهر بالاستنكار، رغم أنه اخواني صميم، ويسأل: «كيف أفهم أن شخصا مثل أسامة بن لادن جنّد المئات بل الآلاف من الانتحاريين ومن المجاهدين ليتوزعوا في أصقاع الأرض وصولا إلى الولايات المتحدة الأمريكية وحضرتك تصفه بالمسكين؟ هل هذا المسكين له كل هذه المقدرة؟».

أسامة بن لادن، يردّ زيدان: "تِسْعين بالمئة منه صناعة أمريكية، وعشرة بالمئة أمل رومانسي بإحياء دولة الإسلام، وفِعْله مقطوع الصلة تماما بأحداث سبتمبر. هذا الرجل الذي يعيش في مغارات طورا بورا هناك، لا يستطيع أن يدبّر افطارا جيدا لنفسه، هذه العملية شديدة التعقيد.

فالرجل "مسكين"، يعيدها ويكررها حتى التخمة وكأنه يبعث برسالة للمشاهدين كي يعيدوا النظر في موقفهم من الإرهابي "المسكين". لكن وصف المَسكنة لا ينطبق على أيمن الظواهري صديق بن لادن وعضده الأيمن في الإرهاب. فهو بالنسبة لزيدان اجرامي.

وهكذا غطّى شناعة بن لادن بإلصاق الاجرام فقط بتلميذه، وبقي أستاذه الشاعر نظيف اليدين ومسكين. لا بل إن الظواهري في رأيه أشد اجراما. لماذا؟ لأنه تكوّن في نسق الاخوان المسلمين وأخذ تجربة طويلة وأكثر ذكاء وحنكة من أسامة بن لادين. «فأسامة بن لادن بسيط وخيّر. بدليل يا أخي. "أقلك حاجة حتزعّل الناس"»، يعني شيء سيغضب الناس.

هكذا، بحركة مسرحية، دون أن يتمّ الجملة، كعادته، انتقل إلى موضوع آخر، رغم أنه منذ بداية الحلقة وهو "يُزعّل في الناس"، ويستخف بعقولهم ويستهزئ بهم، ويسحلهم في الحضيض، فقط لقول شيء ما والخروج عن المألوف. وكيف لا يُغضب الناس وهو ما فتئ يتهجّم على عبد الناصر في كل كتاباته ومحاضراته، ويستنقص من قدره أمام ارهابي قتّال سليل الوهابية العالمية. انظروا إلى هذه المقارنة التي تنضح ازدراء وتعسّفا. قال إن: "بطل العروبة، بطلَنا المصري، جمال عبد الناصر، كان فعْله على أرض الواقع هو فصم مصر والسودان، وقَبِلَ أن تنفصم السودان عن مصر، وهي لا تنفصل، لا جغرافيا ولا تاريخا، وذهب ليحارب في اليمن، وبَنتْ مصر السد العالي وانقطعت الصلة بالسودان وهذا خطير، وقال العالِمون بالحقائق أنه لا بد من ربط مصر بالسودان ولو بطرق برية. مَن الذي قام بعمل طرق برية في شمال السودان؟ أسامة بن لادن على نفقته الخاصة، ومدّ طريقا، تكْلفته بالكامل تحمّلها هو من الخرطوم وأم دربان إلى عطبان، وكان يجب على هؤلاء الأبطال أن يكملوا الطريق ليتّصل الشّعبان.

وفقط لأن بن لادن عبّد طريقا (للتّهريب) حتى أصبح في نظر زيدان بطلا عظيما يفوق في عظمته وانجازاته جمال عبد الناصر، بل إن هذا الطريق يَشفع له في كل ما قام به من أعمال

إرهابية فظيعة. "والمسكين بن لادن، يضيف زيدان، ذهب إلى أفغانستان مطرودا من السودان بعد أن سلبوه أمواله، وأعطوه صمغا بدل ... وطلّعوه بالليل في الطائرة هو وزوجتيْه ولا يعرف أين سيذهب وبلده السعودية رفضت استقباله، وبالتالي لم يكن لديه اختيار آخر إلا اللجوء إلى الكهوف في أفغانستان ويرتضي لنفسه أن يصير بهذا الشكل الاعلامي الفقاعي الذي أراده الاعلام الغربي".

ولا كلمة إدانة لكل ما سبّبه هذا الإرهابي من مآسٍ للعالم، وللشبان المغيّبين العرب الذين التحقوا به وطُحنوا في محرقة الحروب، وللأعمال الإرهابية التي يقومون بها باسمه وبتعليماته في بلدانهم.

إن الدفاع الشرس عن هذا الإرهابي، وتحسين صورته عمدا، أمام آلاف المشاهدين الشبّان، كفيل بأن يجعل من زيدان شريكا في العنف ومشجّعا على الإرهاب ومحرضا على الطائفية، ومتقاسما للأدوار مع السفليين الذين يستهدفون الأقباط على أساس أنهم غرباء عن مصر وأنهم كفار يؤلهون المسيح، وهو ما نَظّر إليه طوال حياته وفي كل كتاباته.

***

مُلحَة الوداع

قبل أن أغادر زيدان، افترضُ هذا الاعتراض من أحد أتباعه: أليس هناك من فضيلة معرفيّة ليوسف زيدان؟ ألا توجد مساهمة علمية واحدة أدخلها في ميدان الثقافة؟ أجيبُ وأقول: أجل له مساهمة ثقافية واحدة، وهذه المساهمة تتلخّص في الألف المَهْمُوزة، أعني في إسقاط هذا الحرف عن كلمة "الإسكندرية"، فأصبحت عنده "السّكندرية". إلاّ أنه أحيانا ينساها، ويعود لنُطقِها أو كتابتها باسْمها المتعارف عليه: "الإسكندرية"[156]، وهكذا فإن الحصيلة النهائية صفر، ومساهمته الثقافية هي لاشيء.

لكن أغرب ما قرأته في حياتي هو ما جاء في "شجون عربية"، صفحة 59 الطبعة الأولى، سنة 2016، فبَعْد أن كال للدّواعش كل ما يستحقونه من شتائم، قال، متحدثا عن الفتيات المَسبيات: إن التشويه الذي يعتري المرأة ينعكس على الرجل ومن نتائجه المباشرة «أن تصير النساء مبتذلات رخيصات، فيزهد فيهنّ المقاتلون بسبب وفرتهنّ، وتنطفئ الغرائز التي كانت هائجة بسبب الحرمان، ثم أشبِعَتْ فجأة وبغزارة، تؤدي بالضرورة إلى الزهد في النساء، والبحث عن شهوات أخرى، تكون في الغالب انحرافيّة. وفي تلك الحالة ينتشر نكاح الغلمان ... حيث يصير اللواط مَلمَحا أساسيا من مَلامح الجهاد[157]».

هل قرأتم شيئا أفظع من هذا؟ هل نزل عليكم خَطبا أعظم من هذا؟ السيد زيدان لا تستفزّه حالة العبودية الجنسية التي أنزِلتْ إليها النساء، ولا التدمير الرهيب لنفسيّتهن وتمزيق حياتهن

الأسَرية والاجتماعية، بقدر ما يَستفزّه انطفاء غرائز وحوش الدواعش وزهدهم في النساء، وبالتالي خطورة تحوّلهم إلى ممارسة اللواط.

بعبارة أخرى: على الدواعش أن يُواصلوا في اغتصاب الفتيات بانتظام وعَقلنة، دون إفراط أو تفريط، كي يتفادوا السقوط في ما أبشع منه، وهو اللواط. هل ثمة شيء أكثر فَتْكًا بعقولنا من هذا؟ هل قرأتُم شيئا أكثر تدميرا لإنسانيّتنا من هذا؟

ثم يأتينا ويسبّ المصريين والعرب عموما، بكلمات مُرّة، قبيحة، من قبيل "غثاء الطير والسائمة"، يعني حيوانات، أو أنّ "الناس في بلادنا"، هم مجموعة من العته البلهاء، الذين "قليلا ما يَسمعون، وإنْ سمعوا، قليلا ما يتدبّرون"، وأنّ أخطر الأخطار التي تهدد العرب الحاليين، هو تحديد معاني الكلمات، وإن لم يفعلوا ذلك عاجلا فهم مُهدّدون "بالاندثار التام[158]".

لماذا لا يعتني هو بمصطلحاته ويُلملم أفكاره ويُحسّن من لهجته؟ لماذا لا يخجل من الدعوة الصريحة للتطبيع مع إسرائيل؟ لماذا يبالغ في مدح العدوّ الصهيوني بقدر ما يبالغ في إهانة الفلسطينيين وتحقيرهم؟ احكموا أنتم بأنفسكم، على أساس كل ما عَرضته سابقا، أيّة مفاهيم فكرية راقية، وأيّة مساهمات علمية فريدة من نوعها أضافها هذا الرجل إلى الثقافة العربية.

II
المُسَالِم العنيف
يوسف الصّدّيق والآخرون

1. الآخر هو المرشّح للقتل

كما أن يوسف زيدان قد افتتح كتابه بمفارقة منطقية وأخلاقية (الجمع بين الانفتاح والمبالغة في القتل)، فإن الفيلسوف التونسي يوسف الصّدّيق هو أيضا ابتدأ بأطروحة لا تقلّ عنها تناقضا، من حيث الجمع بين "الغَيريّة" و "القتل". كيف وصل إلى هذه المفارقة؟ ما هي المنهجية التي اتّبعها لعرض أفكاره؟ عن طريق مقدمة بسيطة استمدّها من القرآن. قال إن الغيريّة هي معطى أوّلي من معطيات القرآن: «القرآن يؤسس للغيريّة على أنها مُقوّم من مقوّمات البعد الاجتماعي للخلق[159]».

وكيف بَنى القرآن هذه الغيريّة؟ ما هي معالمها الأساسية؟ بماذا دَشّنها؟ بالدّم، يعني بالقتل وسفك الدماء. هذا ما استنتجه الصديق من قصة قابيل وهابيل: «هنا بدأت الغيرية[160]»، أي بدأت حينما تخاصم ابني آدم الوحيدين فقتل الأخ أخاه. ولم يكتف الصدّيق بهما وإنما أدخل الغُراب في معمعة الغيرية، فأصبحت ثلاثية الأقطاب: آدميّان وحيوان طائر.

تابعوا، أرجوكم، سَير أفكار هذا الرجل: القصة التلمودية للغراب الذي يُعلّم القاتل كيف يواري جثّة أخيه، أصبحت عند الصديق قصة واقعية حدثت بالفعل في بداية الخليقة، وتَحمِل في ذاتها زَخما رمزيا كبيرا، فتَحتْ للبشرية آفاق الغيريّة بكل ما تتضمّنه من وعي بالآخر: «بدأ الآخر حين ظهر الغراب ليُميّز بينهما ويُعلّمهما أوّل ممارسة اجتماعية وهي كيف يواري الإنسان سوأة أخيه. لقد بعث الله غرابا تخاصم مع بني جنسه (أي مع غراب مثله) ثم قتله، وإثرها نَبَش الأرض ودفنه[161]».

أتوقّف هنا لأطرح سؤالا: هل يُعقل أن يتفوّه فيلسوف بأشياء من هذا القبيل؟ هل يَعتقد فعلا بوجود آدم وحواء وقابيل وهابيل؟ كيف لفيلسوف متمرّس بفن الجدل، أو مفروض أنه كذلك، أن

يروي خرافة تلمودية كوميدية، يُصوَّر فيها الله وهو يَتفرّج سلبيّا على القتل، ثم بعد حدوثه يُداوي القتل بالقتل؟ ألا يرى الصدّيق أن الإله خرج من هذه الخرافة كائنا شريرا ساخرا قتالا؟ كيف لا وهو بَدل أن يمنع القتل منذ البداية، ضاعَفَه؛ وعوض أن يَهتمّ بالحيّ وبكيفيّة الحفاظ على سلامته، اهتمّ بجثّة المقتول وفكّر في كيفيّة دفنها.

ومن خلال هذه الخرافة الشرّيرة استخرج الصدّيق نتيجة أشرّ منها، وهي أن الغيريّة، في جوهرها هي التّدافع، هي القتل: «الآخر هو المرشّح للقتل[162]». والقرآن لم يأت لإخماد العدوانية بل لكي يُذكّيها ويُجذّرها في الواقع عن طريق تكفير الآخر وقتله، وفي هذا فإن الصدّيق صادق مع نفسه ومع روح القرآن. لكنه لا يعترف؛ لا يُقرّ بأن القرآن عدواني تكفيري، بل يَغرق في واد الفيلولوجيا الوهمية لكي يصدّ القارئ عن الوصول إلى هذه النتيجة الحتمية.

فالكافر، بالنسبة للصديق، هو الآخر، وهو المرشح للقتل، لكن الكافر أيضا هو المُزارع في اللغة الآرامية، والدليل على ذلك الآية القرآنية التالية: (محمد رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركّعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يُعجب الزرّاع ليغيظ بهم الكفّار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما).

لكن هذا التفسير الشخصي جدا لا يتفق مع صريح النص، ولا يتماشى حتى مع قواعد اللغة العربية؛ فنحن أمام نص صريح، يقول بكل وضوح إن محمدا وأصحابه يَجمعون بين الصلاة والقتل، التعبّد والنحر، الرحمة بينهم والغلظة على الكفّار، ثم يأتينا هذا الرجل لكي يقول لنا: أنتم لم تفهموا شيئا من القرآن، وقد غاب عنكم المعنى الحقيقي، وبالتالي يجب أن تسمعوا منّي: «المقصود في هذه الآية بكلمة الكفار: هم المزارعون لمّا يفرحون بمنتوج الأرض، وخاصة بثقل السنابل[163]».

وما العيب في أن يَفرح المزارع، بعد جهد شاق، بمحصول عمله؟ لماذا يُطلق على أناس مسالمين لقبًا مهينا؟ لقد راوغ ودار في حلقة مفرغة، وطوّل من قائمة الكفر: من المُزارعين الفرحين بالسنابل، إلى إخفاء الشيء، إلى جحود نعمة الله والوجود، إلى الاختلاف في الرأي وفي النهاية، يقول إن مسألة الكفر هي مسألة بسيطة جدا: «المسألة هي مسألة ميتافيزيقية أكثر منها مسألة فكرية[164]».

والحال أن الكُفر في القرآن، لا هو مسألة ميتافيزيقية ولا فكرية، هو مسألة واقعيّة اجتماعية قُطِعَت من أجلها الرؤوس ودُمّرت بسببها حيوات. وإذا أردنا الدقّة، الكفر لا علاقة له بالله ولا بالفلسفة، لأن الله غير موجود والفلسفة لا تُكفّر أحدا. إلاّ أن نص القرآن يُكذب هذا الفيلسوف

ويَسحَق تأويلاته الخيالية سحقا، لأنه يكفي العودة إلى الآية وقراءتها بتمعّن، ويكفي الاطلاع على المفسرين المسلمين حتى ندرك مدى خطورة أقوال هذا الرجل ومدى استهتاره بالحقيقة.

أستشهدُ بتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، وهو التفسير الذي يَشيد به الإسلاميون والعلمانيون المحدثون على حدّ سواء. قال ابن عاشور بخصوص هذه الآية: إن الشدّة على الكُفار هي «الشدة في قتالهم وإظهار العداوة لهم، وهذا وصفُ مَدْحٍ لأن المؤمنين الذين مع النبيّ كانوا هم فئة الحق ونشر الإسلام، فلا يليق بهم إلاّ إظهار الغضب لله والحب في الله، والبغض في الله من الإيمان[165]».

وهذا هو مبدأ العالمية الوهابية، يَعرضه علينا صاحب التنوير في عرائه، أعني مبدأ الولاء والبراء، الذي تحوّل عند سيّد قطب إلى "التكفير والهجرة"، والكل يَعلم ماذا نتج عن هذا المبدأ العدواني وكم دماء أسِيلت من أجله. والسبب في هذه العداوة الشاملة، في رأي ابن عاشور، هو أن عصبة المؤمنين هم أفضل خلق الله على وجه الأرض لأن النبوّة أشرقت عليهم «وأصحاب النبي أقوى المؤمنين إيمانا من أجل إشراق أنوار النبوّة على قلوبهم[166]».

لكن إشراق النبوّة لم يُليِّن قلوبهم ولم يُحَبّب لهم السلام، بل زرَعَ فيهم روح العدوانية والتعطّش للدم، وهذه الخصال، بالنسبة للمفسّر التونسي، هي خصال طبيعية ولازمة: «فلا جرم أن يكونوا أشداء على الكفار، فإن بين نفوس الفريقين تمام المُضادّة». والدليل الذي يقدمه بن عاشور على دمويّة هؤلاء الأتباع هو واقعة تاريخية سردها كتّاب السيرة، حيث فاق تعطّشهم للدم نبيّهم، حتى عمت بصائرهم، وخرجوا عن طور المعقول والإنسانية: «وما كانت كراهيتهم للصلح مع الكفار يوم الحديبية ورغبتهم في قتل أسراهم الذين ثقفوهم يوم الحديبية وعفا عنهم النبي، إلا من آثار شدّتهم على الكفار ولم تكن لاحت لهم المصلحة الراجحة على القتال وعلى القتل التي آثره النبي. ولذلك كان أكثرهم محاورة في إباء الصلح يومئذ أشد أشدّائهم على الكفار، وهو عمر بن الخطاب، وكان أفهمهم للمصلحة التي توخّاها النبي في إبرام الصلح أبو بكر».

وما هي أحكام الشدة على الكفار؟ كيف يجب التعامل معهم؟ هل هناك قانون؟ كلا. ليس هناك قانون محدّد المعالم بل كل السّبل مفتوحة أمام الحاكم وكل الخيارات جائزة. لكن الثابت هو وجوب التقيّد بالشدّة والغلظة كمبدأ، في وقت القوة: «تكون أحكام الشدة على الكفار من وجوب وندب وإباحة، وأحكام صحبتهم ومعاملتهم جارية على مختلف الأحوال، ولعُلماء الإسلام فيها مقال».

ومِن أين اقتبسوا الشدّة؟ «اقتبسوها من شدة النبي في إقامة الدين». وكيف تستوي مشاعر الشدة والرحمة؟ كيف يكون المسلمون مَحلاّ لوجْدانات متناقضة؟ أليس حمْل الشيء ونقيضه هو دليل انفصام في الشخصية؟ بن عاشور محكوم بالقرآن، وهو مُستعدّ أن يقلب نظام العالم، أن يدوس

القيم الأخلاقية ويبارك حتى أكل لحوم البشر لمسايرة القرآن: «في الجمع بين هاتين الخصلتين المتضادتين: الشدة والرحمة، إيماء إلى أصالة آرائهم وحكمة عقولهم، وأنهم يتصرفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرّف الحكمة والرشد، فلا تغلب على نُفوسهم مَحْمَدة دون أخرى، ولا يندفعون إلى العمل بالجبلّة وعدم الرؤية[167]».

لكن، للأسف، الواقع التاريخي يكذب تفاؤل بن عاشور، حيث أن أكثر من نهشوا أنفسهم وقتلوا بعضهم أشر قتلة هم المسلمون الأوائل، يعني أصحاب محمد.

***

نعود إلى الفيلسوف يوسف الصدّيق: بعد أن ركّز قَدَميْه في مبدأ الرفض، واعتبرَ الآخر هو جوهريا المرشح للقتل، شعر بالمأزق، وربما تفطّن إلى أن ما يقوله مناف للأخلاق، فطَفِق يبحث عن حل، والحل شاخص أمامه، موجود في القرآن، حيث جاءت فيه آيات صريحة تحثّ على مواجهة الكفار والإثخان فيهم، أي المبالغة في قتلهم كما قال زيدان. لكن الرجل تفادى (عرضيّا) البوح بهذا الحل، رغم أنه قد هيّأ له بمقدماته العنيفة. قال: «العلاقة مع الآخر هي الرفض والمواجهة». والحل؟ لا يكون «إلاّ بالتفاوض (الحوار) وإيجاد امكانية تعايش[168]».

التفاوض على ماذا؟ هل هناك تفاوض على الكفر؟ أنا أتحداه أن يأتيني بآية أو حديث أو تشريع فقهي يقول إن الكافر في أرض الإسلام، وأعني بالكافر كل من لا يؤمن بمحمد وبالقرآن، يجوز له البقاء على قناعته وممارسة حياته اليومية دون أن يُقطع رأسه أو يُحرق حيا أو تُسلبَ أمواله إن كان مسيحيا أو يهوديا.

2. اعترافات لاواعية

ولكن الصدّيق لم يستطع، رغم قفزاته الخاطفة، التعْتيم على الحقيقة؛ ورغم تَعنّته المتواصل، وتأويلاته الخيالية، فإن، مِن حين لآخر، تَنطلق منه اعترافات بالقتل والعنف في القرآن. لقد وجد نفسه أمام نصوص صريحة، غير قابلة للتأويل، قهَرَتْه وفاقمت من عذاباته، فعذَّب معه القارئ. لا يمكن أن يَنفي واقع الرفض والمواجهة، وهو نفسه يصرّح به قائلا إن الإسلام يرفض الآخر ويواجهه، لكنه يُعوّم القضيّة ويحدّ من خطورتها، يقول إن الإسلام «اشتمل في عهد الرسول على المَوقِفَيْن: الرفض والمواجهة من جهة، والتحاور والتعايش من جهة ثانية».

وهذا أمر معروف لا جديد فيه: الكل يقرأ: "لكم دينكم"، في موضع، ويقرأ: "حرّض المؤمنين على القتال" في موضع آخر. لكن الرجل تَلعْثَم في التعبير عن أفكاره؛ لم يَدْرِ ما يُجيب، ورغم معرفته العميقة، كما يدّعي، بلُغة القرآن وبلغة اليونان والسريان والفراعنة، عَجَزَ عن تركيب جُملة عربيّة مفيدة وبأسلوب واضح نقيّ. حيث كتب تعليقا على "لا ينهاكم الله ... الآية"، قال فيه: «أنتَ مكروه [هكذا] وتُقسِط إلى الآخر إن الله يحبّ المقسطين. إنها قصّة جهاد كبيرة نراها في القرآن فهو كاف ليحلّ المشكل، إن الله لا يلومك أن ترى كلمة جهاد بالمعنى الضيّق للحرب في آيات ظرفية مثلا في سورة التوبة حين يصبح الجهاد بمعنى حمل السلاح (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله ...)، أما في بقيّة السُّوَر - وهي مخالفة لسورة التوبة التي تسرد ظرفا معينا بين المشركين وأتباع الدين المحمدي - فلا ترى كلمة القتال مستعملة إلاّ في حالة الفداء (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلوكم ..)[169]».

هل فهمتم شيئا؟ هل قال شيئا مفيدا؟ إنّ تخبّط هذا الرجل بين الحرب والسلم، وتَمعّضه من آيات التكفير جعَلاه يدور في حلقة مفرغة، يربط في مكان ويحلّ في مكان آخر. لكن الأكيد أنه تَصَرَّفَ مثلما يتصرّف الاسلاميون الحداثيون في العالم: يُغيّب الآيات التي تُحرّض على القتل، ويَميح إلى المتشابه منها التي يمكن أن تُؤوَّل على أنها مسالمة، لكن المفسرين والفقهاء استبعدوا تماما هذه الإمكانيّة، وأجمعوا على أنها نُسِخت بسورة السيف، وإلاّ فإن الجهاد لن يبقى له أي مبرّر تاريخي وتَتمّ إدانة القرآن ومحمد وأعمال المسلمين كلها.

وإذا وقف في العَقبة وجاءت الآيات صريحة في الحض على القتل فهو يؤولها تأويلا رحيما، ويستنكف حتى مِن إيرادها في النص.

لكن ما زال له مَوْرِد ثالث للخروج من المأزق، وهو الاعتراف الصريح بالعنف والقتل والحرب، دون أن يستنتج، أو يتفكّر، بل يَنسى كل ما قاله عن الانفتاح وقبول الآخر وعن أن القرآن أسّس التعارف بين البشر. وأظن أن هذه الازدواجية مدروسة، لأن الرجل يُرسل برسائل إلى الطّرفين: جهاديين ومسالمين. الجهاديون يقول لهم: صحيح القرآن فيه الجهاد والتقتيل، ولذلك لا حَرج عليكم إنْ تَصرّفتم بآيات القتال؛ وللمسالمين، يقول العكس.

نبدأ بالرسالة الأولى وفحواها كالتالي: «إن آيات القتال بالمعنى الحربي أعمّ من آيات الجهاد الظرفي». أرأيتم هذا الاعتراف الصريح؟ آيات القتال والحرب أعمّ، يعني أشمل من آيات الجهاد.

أليس هذا إقرارا منه بأن القرآن يحتوي على العنف ضد الآخر؟ وفعلا الرجل لا يُنكره بتاتا، بل يَمرّ وكأن شيئا لم يكن. لكن لا يجب علينا أن نرضخ لسفاسفه لأن الجهاد في الإسلام، ليس ظرفيا، أو مرتبطا بزمان ومكان محدّدين؛ القرآن لم يقل كفّوا عن الجهاد، في المطلق، بل اعتبره أمرا متواصلا حتى يعمّ الدين الحق العالم أجمع.

السيد الصديق لا يخجل من الاستشهاد بهذه الآية: (واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين). جملة بسيطة تكرّرت فيها كلمة "قتل" ومشتقّاتها 6 مرات، وفي إطار تحريضي عنيف ضد مجموعة من الناس سمّاهم "كافرين"، ومع ذلك فإن السفسطائي المؤمن الصدّيق يقول لنا (وهذه فحوى الرسالة الثانية) «كل هذه الآيات ظرفية فيها كلمة الجهاد بالمعنى الحصري للقتال». وبعدها مباشرة يُطمئن الجهاديّين القَتَلَة قائلا: «هنا يَتّحد مفهوم القتال مع مفهوم الجهاد[170]». ولماذا يؤمن بالقرآن إذا كان يدعو للقتال؟ لا أدري لِمَ يُصرّ هذا الرجل على اعتناق الإسلام والإيمان بكتاب يحرّض صراحة على القتل.

الحل التالي هو حل كلاسيكي يلتجئ إليه الإسلاميون (المُعتدلون) أو الحداثيّون، لتبرئة الإسلام من العنف بتحوير معنى الجهاد من مادي إلى معنوي. والفيلسوف الصدّيق، كأنه قام باكتشاف باهر، يقول إن الجهاد المقصود هو «مجاهدة النفس، مجاهدة ما يسمى بالفرنسية (la force des choses)، ومن المجاهدة حَفْر الجبال لإنشاء نَفق، أو إنجاز سدود فهي أمور تفوت القدرة البشرية ورغم ذلك فالإنسان يجاهد ليُنجزها[171]».

هكذا، بعد أن قال كل ما قاله عن القتل والحرب وسفك الدماء، وبعد أن استعرض آيات صريحة بشأنها، يقترح الآن لونا جديدا من الحلول، ولك أن تَختار، حسب ضميرك وطاقة فهمك: "الجهاد ـ القتال"، بما فيه جهاد النكاح، أو "الجهاد ـ المُسالم"، مجاهدة النفس.

إذا كان الجهاد هو حَفر أنفاق في الجبال واختراع دواء للأمراض الجينيّة، أو إرسال أقمار صناعية للكواكب، فإن أكبر المجاهدين هم العلماء الغربيّون، لكنهم لم يُسمّوا أنفسهم مجاهدين "في سبيل الله"، بل باحثين "في سبيل الإنسانية". ليس هذا هو الجهاد الحقيقي الذي يَعنيه المسلمون، الجهاد الحقيقي في الإسلام هو حمل السلاح في سبيل الله، يعني موضوعيا القتال في سبيل اللاشيء، لأن الله هو العدم.

الصدّيق يعرف أن المسلمين حملوا السلاح وغزوا وقتلوا وسَبَوا وذبحوا وأهلكوا الحرث والنّسل؛ وقفَ متفكّرا حائرا، ما السبيل الذي يختاره: جهاد ـ القتل أم جهاد ـ النفس؟ أنزل كلمات مهيبة؛ احتجّ وصرخ، وطالبَ بحقه في استخدام عقله والخروج عن المألوف من التفاسير: «إذا سألتني عن مكة والحروب فيها المذكورة في النص القرآني، هل هي من الجهاد وحمل السلاح؟ [172]».

معلومة خاطئة، ونحن نستغرب كيف أن هذا العِرّيف، لا يعرف أن الحروب العدوانية حصلت في المدينة وانطلقت منها وليس من مكة، كما يزعم فيلسوفنا. وتلك الحروب كانت بالفعل "مِن الجهاد وحمل السلاح"، لأن الحروب لا تُشَنّ بالوُرود وإنما بالسيف. لكن الصديق يُطالب بحقه في إعمال عقله دون أن يَسلب الجهاديين حقهم في فهم آيات القتل على حرفيتها، وتفعيلها في كل زمان ومكان.

لقد أعمل عقله وتمعّن في المسألة وخرج علينا بمفهوم التأطير كحل لهذه المعضلة: «أنا بعقلي البشري وبقدراتي البشرية أعمل فيها باجتهادي، فالمسألة إذن مسألة تأطير[173]». والتأطير من شأنه أن يترك الخيارات مفتوحة: الإنسان المُسَالِم يجوز له تَقييد النص «بالزمان والمكان»، أما الجهادي السلفي فهو حر تماما في فهم النص فَهْمًا يُخرجه عن ظرفه الزماني والمكاني.

أين يتموقع هو كفيلسوف؟ هل الآيات العنيفة التحريضية صالحة لكل زمان ومكان، أم أنها نسبيّة ظرفية؟ لا ندري، ربما نسبية؛ لا. ربما مُطلَقَة، قد تكون ظرفية ومطلقة في نفس الوقت. لا أفهم؛ حاولوا أن تحزروا أنتم من خلال هذه الجملة: «إن الله لا يتقيّد بحدود ولا بمراحل، فالزمن المؤقت بالنسبة إليه غير موجود، بدليل (أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عمّا يُشركون). على عكس الإنسان الذي يعيش في الزمن ويتأثر بمراحله. هناك فلَكَان واضحان وضوح الشمس، الفلك الذي ليس فيه زمن وهو الحاضر الأبدي (الله)، والفلك الذي أعيش فيه ويحوي أزمنة الحاضر والماضي والمستقبل (الإنسان)، وأنا لا أتصرّف إلاّ في فضائها[174]».

3. امرأته حمّالة الحطب

ماذا نقول في سورة المَسَد؟ كيف يمكن أن نقبل بأقوال تُهين امرأة وتصفها بأنها تحمل على ظهرها الحطب، لا بل تُبالغ في حمل الحطب، "حمّالة الحطب"؛ وأنّ في جيدها حَبْل، وتصف بالتدقيق طبيعة هذا الحبل: أحرش، من لفائف خشنة، يعني من مَسد. هل يُعقل أن يَصدر هذا الكلام من الله؟ هل يستطيع إله الكون أن ينحدر إلى مستوى الإسلاميين الإرهابيين الذين يَسبّون النساء العلمانيّات وينعتونهن بالمومسات أو بأنهن "حمّالات الحطب"؟ أخلاقيا وإنسانيا لا يمكن أن نقبل بهذه الشتائم، وأكثر منه لا يمكن أن نقبل بأن الله ينزل إلى هذا المستوى، ويتخاصم مع امرأة تشتغل لكي تُؤمّن قُوتها وقوت أبنائها.

الصدّيق اقتحَم هذه الاشكالية بطريقته الخاصة، حيث أخرج عبارات سورة المسد من سياقها، وربَطها بسورة الإخلاص وسورة الفلق، ثم جمعها في وحدانية بارمنيدس وألقاها في نار هيرقليطس، مع المحافظة دائما على فكرة أن القرآن هو «نصّ عظيم أرسِل للناس جميعا هُدى ورحمة[175]». وكيف يكون هدى ورحمة للعالم أجمع، كتاب فيه شتيمة ضد امرأة مسكينة؟ الصديق يحلّ المسألة بتجاهل كلام الله وإهمال محتواه المربك، ثم يقترح قراءة جديدة، يصفها بأنها "مخالفة للسائد": «أتصوّر، في قراءة مخالفة للسائد، أن خالق الكون لا يمكن أن يهتمّ بحركة صغيرة مثل حادثة أبي لهب عمّ الرسول وزوجه أمّ جميل[176]».

لكن خالق الكون اهتمّ بهذه المرأة، وتدخّل في حياتها، وشتَمَها هي وزوجها، وهدّد أبا لهب بالنار، وأنزل هذا الكلام على نبيّه الذي قيّده في المصحف، ومِن يومها اعتُبِر وحيا إلهيا، وهو يُتلى في المساجد دون انقطاع منذ 1400 سنة، وسيبقي ساري المفعول إلى يوم الدين.

أمام هذه الورطة التجأ الصدّيق إلى الفلاسفة اليونانيين القدامى، حيث انتقى من سورة المَسد اسم "اللهيب" فقط وترك الفاعل والمفعول به: «إن تكرار كلمة "لهب" مرّتين هو إشارة إلى نظرية الإله الأولى وهي نظرية المصير، أو لنقل نظرية تحوّل الأشياء بصفة دائمة، كما تتحوّل النار باستمرار[177]». وهنا يدخل هرقليطس على الخط، وتُربط أفكاره بفيزياء الفُوتُون، حيث أن سورة الفَلَق جاءت «بمَوْشُور (prisme) جديد أنظُرُ به مفهوم الألوهية. مَوْشُور تحوّل الدال كما في

فلسفة هرقليطس، فلسفة الاستحالة الدائمة، كما يتحوّل اللهب (la flamme). إن هرقليطس نفسه يحكي عن اللهب أنه مؤسس الكون ومؤسس الوجود[178]».

وبعده يأتي دور بارمنيدس: «إن آيات سورة الإخلاص ما هي إلاّ استعادة لمقولة فلسفية أُوحيت لمحمد بن عبد الله نجدها في قصيدة بارمنيدس وقد ترجمناها من اليونانية القديمة[179]».

الصدّيق يترك المسائل الشائكة التي يطرحها النص القرآني ويغوص في مشاكل جانبية، مقوّلا مثلا الاسلاميين ما لم يقولوه: «لقد انحصر مفهوم الرسالة المحمدية لعدة قرون، سواء عند خطباء المساجد ذوي الثقافة المتواضعة، أو عند علماء الدين الأكاديميّين، في النبيّ شخصا، وفي مكة والطائف والمدينة مكانا[180]».

غنيّ عن القول أن أشرس ارهابي قتّال وجازٍ للرؤوس في سوريا، وأعلم اخوانجي في جامعة الأزهر، وأكذب داعية وأكثرهم جنونا في الفضائيات الخليجية، لم يقل شيئا من هذا القبيل. كلهم، دون استثناء، مُجمعون على أن الرسالة المحمدية شاملة لكل زمان ومكان، وجاءت لهداية البشرية بأسرها، متجاوزة بذلك جغرافيتها ولحظتها التاريخية. يكفي إطلالة بسيطة على مؤلفات أعلام السلفية من حسن البنا، إلى المودودي، وقطب، القرضاوي، والغنوشي حتى نتبيّن أن بالنسبة إليهم الإسلام هو دين البشرية، لا سابق له ولا لاحق، ويجب أن يسود الكرة الأرضية كلها. وهذا في النهاية هو الموقف الذي اتخذه الصديق ملتصقا أشد الالتصاق بمقولات الاسلاميين والسلفيين والوهابيين على جميع أصنافهم: «تناسى هؤلاء العلماء، وأولئك الخطباء الآية: (وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين)[181]».

وهذا دليل على أن الإسلام عموما، ورسالة محمد خصوصا تشمل العالم أجمع ومُهمّتنا هي نشرها في أقطاب الأرض كلها: «إن المقصود بالعالمين ليس قوما دون غيرهم، فالآية تدعونا إلى أن نكون قادرين على إقناع مواطن القطب الشمالي، ومواطن إفريقيا وأدغالها، ومواطن آسيا وأحراشها[182]».

ومَن مِن الوهابيّين لم يَقل هذا؟ مَن مِنهم لم يُبشّر بسيادة الإسلام على العالم؟ مَن لَم يَتطلَّع إلى اخضاع لدينه الاسكيمو والأفارقة وسُكان الأمازون؟ لقد شرّط الصديق دوام الدين الإسلامي بالدعوة الشاملة الكونية إلى درجة أنه، دون هذه الدعوة، ستفقد الرسالة أي مغزى، يعني أنها إذا انحصرت في العالم العربي، فهي ستُمحى سريعا من ذاكرتهم، خصوصا في الفترة التاريخية الراهنة التي يشهد فيها الإسلام انحدارا أخلاقيا رهيبا، سيقوده، إن عاجلا أو آجلا، إلى الاضمحلال[183].

والمسيحية؟ ألم تَدّع، قبل الإسلام بستة قرون، أن رسالتها هي رسالة شاملة للأبيض والأسود؟ واليهودية، من قبلها، ألم يُعلن أحبارها أن شريعتهم تامة كاملة شاملة نهائية، لن يتغيّر منها ولو حرف واحد، وستدوم مادامت الأرض والسماء؟ والبوذية والهندوسية والزرادشتية ومئات الأديان الأخرى ألم يؤكد علماؤها أن ديانتهم شاملة وعامة ودائمة؟

كيف كان ردّ الصدّيق إذن؟ نترك الإجابة إلى حين.

4. الرّجس على الآخرين

نَتدرَّج الآن في سُلّم الآخرين من الوثني إلى الموحّد. نبدأ بالآخر الوثني، أو المشرك، كما يسمّيه المسلمون: الدين الأوحد والأعظم هو دين التوحيد، دين العقل، الذي يتماهى مع الدين الإسلامي، وهذه أطروحة وهابية خالصة. الصدّيق يتبنّاها ويردّدها على حرفيتها. ولكن بماذا قدّمها؟ بالرّجس. ما الرجس؟ ومن أين استمد هذه العبارة؟ من القرآن، وبالتحديد من آية تتحدث عن شيء قبيح سيقذفه الله على البشرية اللاعاقلة: (ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون)، هذه الكلمة الغير لائق التفوّه بها أو كتابتها يَعمد هذا الرجل لتفسيرها، رغم أنها بَيّنة بذاتها والجميع يعرف معناها: «الرجس هو الدّنس الأكبر[184]»، والفاعل لهذا الدنس، بالطبع، هو الله، وهو الذي سيُلقي به على هذه الفصيلة من عباده.

لم يَكتف بالرجس على الذين لا يعقلون، وإنما أجراه على الذين لا يؤمنون، واستشهد بآية أخرى: (كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون). وتفسيرها هو أن الإنسان الذي لا يَعقل، والإنسان الذي لا يؤمن كلاهما في نفس المُستنقع، ومضروبان بالرجس، أي بالنجاسة: «الجملة نفسها تتكرّر، ولكن الإيمان في فلك والعقل في فلك آخر. والرفض نفسه لهذا أو ذاك تكون نتيجته أن الله يجعل عليه الرجس من هذا أو ذاك[185]».

لا مفرّ لمن لا يعقل القرآن ولا يؤمن بدين الإسلام إلاّ الرجس. تصوّروا، بهكذا منطق، وبهكذا عبارات جارحة قبيحة شرّيرة، يُريد هذا الرجل أن يُقنع الناس بمعقولية القرآن، وينشر الإسلام في أرجاء العالم أجمع، وصولا إلى الإسكيمو.

الدين الحق إذن هو الإسلام، والدليل على ذلك هذه الآية (إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلاّ من بعد ما جاءهم العلم بَغيا منهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع العقاب)، والصدّيق يستشهد بها في كتابٍ خصّصه لمفهوم الآخر في القرآن. والكل كان ينتظر من هذا الفيلسوف، المستوعب للفكر اليوناني والحداثة والتنوير والأنثروبولوجيا والفلك وكل العلوم التي نتخيّلها، أن يُريَه بصيصا من التسامح والانفتاح وإذا به يقول لأهل الكتاب، يعني لليهود والمسيحيين، أنْ ليس أمامهم إلاّ اعتناق الإسلام، وإنْ لم يَعتنقوه فإنهم كافرون بُغاة، والله سريع العقاب.

«الدين عند الله الإسلام[186]»، هكذا يُعلّق الصدّيق، ثم يوضّح فكرته بأكثر تفلسف: «ليس الإسلام الطاعة والرضوخ للرسول محمد، بل الطاعة والرضوخ لله الواحد الأحد». ومَن قال العكس؟ ومَن مِن الوهابيّين والسلفيين لم يُعلن ذلك؟ الاسلاميون يرددون قولة أبي بكر: من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

لكن الآية التي أردفها على تعليقه خارجة عن جوهر الموضوع ولا علاقة لها بالتسامح، بل منافية لهذه القيمة تماما، لأنها قمة الاقصاء وعدم الاعتراف بالآخر، وهي في وضوحها وبساطة عبارتها غير قابلة أن تُؤوّل على خلاف ما أوّله بها الاسلاميون عبر تاريخهم. الآية تقول: (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين)، ليس هناك من عبارات أكثر وضوحا في إقصائها وتعنيفها للآخر بصفة عامة من هذه. وقد مثّلت عبر التاريخ الذريعة التي يستخرجها الإسلاميون في حالة تَمكينهم، بينما في حالة ضعفهم ووهنهم، يُخْفونها، ويستظهرون بـ "لكم دينكم ولي دين".

ماذا فعل الصدّيق؟ نكّل بالقارئ، أدخل في روحه الأسى والغبن، فالرجل يتحدّث عن الانفتاح والتسامح وإذا به يَلْطمه بِجَرْدٍ من الآيات العنيفة الواحدة تلو الأخرى. ثم يسحق الأديان بالقول إن «كل الأنبياء منذ آدم إلى الرسول محمد، كانوا يقولون إنهم مسلمون ذاك هو الإسلام وما بقي هو ملّة[187]». الإسلام إذن، في جدلية الصديق، هو المَنبع والأصل، أما الديانات التاريخية الأخرى فهي مجرّد مِلل، أو على أقصى تقدير توابع للدين الأصلي.

اللافت هو أن هذا الفيلسوف متيقّن ممّا يقوله عن الأنبياء وكأنه رافقهم أو كان يعيش بينهم ويسمع كلامهم واحدا واحدا، وشهد بإسلامهم، في الوقت الذي يعلم فيه كل العقلاء أن الأنبياء كذّابون، وأن الله غير موجود، والوحي خرافة، وأن الاسلام يُطلَق على دين ظهر في الشرق، في مكان ما، في القرن السابع ميلادي. أظن أن المفكرين الذين توجّسوا من هذا الرجل واعتبروه أخطر من الوهابي بألف مرة لم يجانبوا الصواب. لأن الوهابي واضح وصريح في مواقفه، لا يواري نصوصه ولا يخجل منها؛ لا يَلبس قناع الانفتاح زورا، بل يُسمّي الأشياء بأسمائها: يُقرّ ويَتباهى ويَعتزّ بأن الله أجاز له، بنصّ القرآن، ملك اليمين واستعباد الناس، أمَره بقتل كل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، عملا بقول الرسول "أمِرتُ أن أقاتل الناس ..."؛ أجاز له أن يسْبِي الذراري، أن يثخن في الأسرى، أن يَجْبي الأموال ممّن بقي على دينه كرها وإذلالا.

إزاء هذه الشرذمة لا حلّ ينفع إلاّ بمواجهتها واجتثاثها من مجتمعاتنا العربية، لكن مع الصّدّيق وأمثاله تغدو العملية صعبة، لأنهم يُخْفون هويّتهم، ويَتسَربلون بسربال العلم، بينما هم يبثّون الفكر الوهابي العنيف قَطْرة قطرة، وإذا كَشفْتَ ألاعيبهم ونبَّهت عن اخلالاتهم الفكرية، يَنهالون عليك باللّوم، ويَتّهمونك بأنك تَتصدّى لمن يحاربون الاسلامين المتطرّفين وأنك تقدم للسلفيّين خدمة جليلة.

أظنّ أن أصْوَب ردّ عليهم هو عرض أفكارهم، بموضوعية، من خلال صريح نصوصهم، وبَسْطها للقراء الذين انخدعوا بهم، خصوصا الشباب، لأن من شأن أفكارهم، في نهاية المطاف، أن تُغذّي التطرّف بدل أن تخمده؛ فهي تُربّيه حتى ينضج ويعطي أكله في وقت لاحق؛ تؤخّر مفعوله دون أن تَقضي عليه.

5. الحوار بعد الرّجس

بعد أن قذف البشرية اللامؤمنة بالرجس، التفتَ إلى اليهود، وهم العنصر الأول الذي يَفتتح به المسلمون هجمتهم الشرسة على الدّينيْن السابقيْن، دائما على أساس نص القرآن. مَن هم بنوا اسرائيل؟ ما شأنهم بالله وما علاقتهم بالوحي؟ يُجيب السيد الصديق: «بنو اسرائيل منهم رُسل[188]». وهذا أمر مفروغ منه؛ معلومة بسيطة سطحية يعرفها الجميع. وبعد؟ «كانوا المفضّلين على العالمين بدليل الآية (يا بَني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم وأني فضُّلتكم على العالمين)[189]». هذه شهادة مجانيّة من خالق الكون لصالح مجموعة بشرية اعتقدت دائما بأن الله اختارها، وفَضّلها، دائما مجانا، على كل مخلوقاته العاقلة في كل زمان ومكان. والقرآن، عوض أن يستنكر هذا التحيّز اللامعقول، أكّده وركّز عليه في غير موضع، مُستعيدا بذلك فكرة الشعب المختار اليهودية على حرفيّتها.

ولقد أحْرجتْ هذه الشهادة القرآنية المسلمين عبر تاريخهم، لكن الصدّيق لا يتحرّج لأنه يَبتلع كل شيء ويهضمه، دون فَرزٍ أو تمعّن. لا تعني له شيئا، لأنه لو آمن بها، وآمن بالقرآن بجدّ، لتحوّل للتوّ إلى الديانة اليهودية ولبادرَ بالانضمام إلى هذه "الأمة المختارة"، حسب زعمهم وزعم القرآن.

لكنه يكذّب القرآن، لأن القرآن يكذّب نفسه بنفسه، والصدّيق لم يفعل إلا أن أذعن للأمر الواقع. فعلا، بعد أن كانوا شعب الله المختار، تمّ تَنْسيب هذا الاختيار: «لكن هذا التفضيل وهذا الاصطفاء لشعب "مختار" أصبح نسبيّا». والدليل؟ القرآن، وتحديدا هذه الآية: (ولقد آتينا داوود وسليمان علما، وقالا الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين).

هذه الجملة البسيطة جدا، والتي تُثني على رجلين يهوديّين، داود وسليمان، أصبحت بين يدي الصدّيق دليلا ثابتا على تحوّل كارثي في تعامل الله مع بني اسرائيل. لقد بدّل رأيه من لحظة لأخرى، الصديق استعمل عبارة سياسية "سَحْب الثقة"، مثلما يَسحب نوّاب البرلمان الثقة من الحكومة بسبب خلافات سياسية.

لقد تعامل الله مع اليهود بهذه الطريقة: لم يسحب منهم الثقة حينما استشعر كَفرهم، وإنما داعبهم قليلا؛ تَربّص بهم وانتهج سياسة المراحل، وهكذا «حصل التدرّج في سحب الثقة من بني إسرائيل خاصة بعد عبادتهم العجل، فقتَل موسى مَن قتَل، وغضب عليهم وكسّر الألواح كما ورد في التوراة ومثلما أثبته أيضا النص القرآني[190]». واللعبة متواصلة، بعد أن قتل من قتل وغضب على من غضب: «تاب عليهم[191]».

وانتهت القصة هنا، وعاد الوئام والمَحَبّة بين الطرفين: شعبٌ مُختار وربٌّ وَدُود. وفعلا هكذا كان الأمر بالنسبة للصدّيق، إذ أن الله، بعد أن أهانوه وعبدوا عجلا، كافأهم بهديّة ثمينة: أعطاهم أرض كنعان وجعل منهم أنبياء وملوك: «ولمّا دخلوا إلى أرض الميعاد (كنعان) حسب التسمية التوراتية (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين)[192]».

القرآن لم يقل أرض كنعان، ولم يذكر ولو مرّة واحدة اسم الكنعانيّين (الفلسطينيين القدامى)، هذه إضافة من الصدّيق، القرآن استعمل "الأرض المقدسة". ولم تستثر فيه أيّ حيرة أو تساؤل؛ لم تفزعه هذه الكلمة النابعة من روح اليهودية: "الأرض المقدسة" التي انتزعها الله من سكّانها الأصليين ومَنَحَها مَجّانا لليهود. كلام واضح شفاف لا لبس فيه، وهو نابع من جذور توراتية: أرض مقدسة، وهي فلسطين، أعطاها للشعب المختار كهديّة، أما السكان الأصليين فلا ذكر لهم بتاتا، وكأنهم لم يُوجدوا عبر التاريخ، وكأنّ ذلك البلد كان أرضا بُورا خالية تماما من الفلسطينيّين حتى جاء وعد الله لبني إسرائيل.

الصدّيق لم تستوقفه هذه الأقوال الخطيرة، لأنه مهموم بضرب الديانة اليهودية ونزع مشروعيتها لصالح إسلامه، رغم أن القرآن يؤكد العكس: يُثني على كتابهم، يُمجّد أنبياءهم، ويُجذّرهم في أرض ليست بأرضهم، بقرار إلهي خالد. بنو اسرائيل، يقول الصدّيق، أصبحوا «ملوكا وأنبياء مثل داود وطالوت»، وبعدها غيّر الله رأيه، أبطل كل أحكامه، ومثل المجنون أنهى دورة بني إسرائيل استعدادا لدورة أخرى، ستنتهي هي ذاتها، كما هو متوقّع، بفشلٍ ذريع.

فعلا بعد كل المحبّة والحظوة والهِبات الرائعة «انتهت دورة بني إسرائيل بصفة دقيقة جدا مع سليمان حين خلط في نفوذه "مَلكا"، وحالته ومنزلته "نبيّا"[193]». يعني، بلُغة عربية فصيحة: حينما خلطَ سليمان بين المُلك والنبوّة، أي بين السياسة والدين، عاقَبَه الله عقابا قاسيا. فيما يتمثّل هذا العقاب؟ في هوس جنوني، يردّ الصّديق، وبكل وثوقيّة: «إذ يرى فوق كرسيه جسدا آخر».

والسبب في ذلك أن هذا النبي العبري، لم يكتف بخلط الدين والسياسة، بل إنه قام بأفعال شريرة قبيحة، حيث استهزأ بملكة سبأ وكذبَ عليها وتلاعب بالمخلوقات العاقلة واللاعاقلة، كما

يقول الصدّيق: «لأنه اعتدّ بنفسه وأصبح يُسيِّر مخلوقات الله ويَتلاعب بها، ومنهم ملكة سبأ ... لقد كان يستهزئ بملكة سبأ، وقال إنه صرح مُمرّد من قوارير يعني ليس حوض سباحة[194]».

هل هذا نبيّ؟ هل تنطبق عليه مواصفات رجال الله من الأنبياء؟ ألسنا هنا أمام شيطان خبيث كاذب مارق مخادع يتلاعب بطبائع الأشياء؟

من الأكيد أن اليهودي المؤمن بدينه والقارئ لتوراته، لو اطّلع على تخريجات هذا المفكر المسلم وقفزاته التأويلية لتَملّكه العجب ولأستغرب من الطريقة التي يشوّه بها هذا الفيلسوف، دينه ودين آبائه. وفعلا، قد استشنع اليهود التوراتيّون هذه الرواية القرآنية، كما قال ابن كمّونة، لأن سُلَيْمَانهم يختلف عن سليمان المسلمين: «ومِنْ أشْنَعه عندهم قصة سليمان. فإن اليهود نَقَلوا أحواله التّفصيليّة: في طعامه وأمواله، وعدد نسائه، واصْطبلات دوابّه، وسنوات مُلكه ومُدّة عمره، وكثيرا ممّا ذكَرَ من الحِكَم والأمثال، وما عَمّر من البلاد وغيرها، وأمورا كثيرة مما يتعلّق به[195]».

ومع ذلك فإنهم لا يشكّون في أن القصة التي رواها القرآن «لم تقع؛ ولو وقعتْ لكان نَقْلُهم لها أولى من نَقلهم لغيرها، لا سيّما وهم يرومون تعظيم شأن سليمان، لكونه من ملوكهم، وعلى دينهم[196]». لكن ابن كمونة لا يعلم أن القصة التي رواها القرآن موجودة في التلمود، وأن القرآن لم يذكر سليمان العهد القديم، عن قصد، لكي لا يكشف اقتباسه، ولذلك لجأ إلى أساطير مَدفونة في أدبيّات التلموديين.

الصدّيق لا يعبأ باليهودي ولا بالمسيحي ولا بمشاعر أهل الأديان الأخرى، ولا يُقيم وزنا حتى للفلسفة التي تخصّص فيها، وما انفكّ يتباه بأنه ضليع فيها، ومُلِمّ بأسرارها. فهو سائر قدما في طريقه، يَقتلع بضرباته العشوائية كل الديانات التي تعترضه، لكي يصل أخيرا إلى البشارة العظمى، دين الإسلام.

عِوَض أن يَلفّ ويدور، ويَصْعد إلى سماء الخيال ثم ينزل إلى قاع الجحيم، ويُرهق قارئه، كان بإمكانه أن يُقصّر الطريق ويَنصرف مباشرة إلى جوهر الموضوع، ويقول: اليهودية انتهت، والمسيحية ماتت، وأن الإسلام هو الدين الصحيح؛ رُفتْ الأقلام وجُفّت الصّحف. إنه لو فعل ذلك ليسّر الأمر على القارئ، ولوفّر على نفسه كل الأتعاب التي تجشّمها، والجولات الشاقة بين قدماء الفلاسفة، والتسكّع في دهاليز الفيلولوجيا المزوّرة والتاريخ المشوّه، ولَفَهمَه الجميع: عقلانيون وسلفيّون.

لكن الرجل أبى إلاّ أن يُشقي نفسه ويُعذّب معه القارئ، ويجرّه إلى هوسه الديني، الذي لا يستقيم إلاّ إذا تهجّم على الدينين السابقين. لقد وصل به الحنق إلى درجة اتهام اليهود بأنهم حرّفوا القرآن. لم أصدّق ما قرأت، وتمنّيت أن أكون أمام خطأ مطبعي، لكنني واقعيّا لا أستغربها من

شخص مثله موهوب بصناعة الأساطير، وضليع في تخليط الأفكار والتواريخ. القول بأن اليهود حرّفوا القرآن، هي تهمة غريبة جدا، فضلا عن أنها تجديف محض، جنون خالص، وكأن السابق بمقدوره أن يُحرّف اللاحق، وكأنك قلت إن أفلاطون حرّف هيجل أو أن أرسطو حرّف ابن رشد.

هذا الخور، أقول، هذا الاستهتار لم يجرؤ على التفوّه به حتى السلفي التفجيري، لكن الصدّيق قاله وأكّده، مُدرِجًا إياه في شبكة تأويلاته المعقدة. فعلا، المسلمون كافة يعتقدون أن اليهود حرّفوا توراتهم، وفقط توراتهم، إلاّ واحدا شذّ عن القاعدة، وهو الفيلسوف يوسف الصديق الذي ذهب أبعد من ذلك، واتّهمهم بأنهم قاموا بشيء أفظع: «إن اليهود هم الذين حرّفوا القرآن[197]».

تصوّروا إلى أي مستوى من الجنون انحدر هذا الرجل. إن السلفي أمامه أكثر انسجاما ومحافظة على مبادئه، وأكثر تقيّدا بحرفيّة قرآنه، لأنه يَحصر مسألة التحريف بين اليهودي وكتابه، لكن عند الصديق الإدانة تتمدّد حتى تصل إلى منطقة خطيرة: تحريف القرآن، يعني تهمة مضاعفة، تحريف التوراة وتحريف القرآن معا. لكن لا واحد من السلفيين، مهما وصل جنونه، مستعدّ أن يقبل بهذا، فهو لا يتّهم اليهود بتحريف القرآن وإنما يتّهم الشّيعة بتحريفه، ولذلك فهو يفجّر نفسه في الحُسينيات وفي مساجد الشيعة ويحصد الأرواح حصدا.

الصدّيق، لكي يُثبت انفتاحه وتسامحه استشهد بآية عديمة التسامح والانفتاح: (لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا .. الآية). تذكّروا أن هذه الخواطر نزلت في كتاب بعنوان: الآخر والآخرون في القرآن، ألّفه فيلسوف عقلاني تنويري منفتح، لكي يثبت أن القرآن هو كتاب عظيم صالح لكل زمان ومكان. ومع ذلك فإن هذه الآية العنيفة لم تُوحِ له بشيء، تجاوزها وانقضّ على السّلفيين وتترفَزَ عليهم: «إن هؤلاء السلفيين لا يَرون من علاقة مع اليهود إلاّ بمعيار واحد ثابت مطلق لا تاريخي، تلك هي علاقتهم بالآخر[198]». لكن موضوعيا، هل يحقّ لمَن يُؤمن بالقرآن ككتاب عظيم مملوء فلسفة وعلما وحكمة، أن يُنَسِّب آية "لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا ..."؟ كيف يمكن لمفكّر تقديسي، مثل يوسف الصدّيق، أن يتملّص من استتباعات هذا القول؟

رغم استشهاده بهذه الآيات فهو يتراجع ويقول إنه لا يتبنّى «القراءة الخطية آية آية. إن مثل هذه القراءة لا تؤدي إلاّ إلى الخطأ». كيف يقرأ القرآن إذن؟ كيف يتجاوز مشاعر العنف والاقصاء التي يعج بها النص المقدس؟ عن طريق علم الفلك: «أنا من القرّاء من يؤمن بضرورة أن يُقرَأ القرآن كما يَقرأ الفلكي صفحة السماء». وهنا يدخل على الخط زغلول النجار بِعَباءة الفيلسوف يوسف الصدّيق: «لقد أثبتَ علم الفلك الحديث والمعاصر أن نور نجمة من النجوم ربّما يَصِلك وقد انقرضت تلك النجمة وانتهت من الوجود، ولكن مدّة سفرها إلى العين المجرّدة تواصل حتى انتهت إلينا لقد أصبحت بانقراضها بؤرة سوداء[199]».

وما النتيجة التي نحصل عليها من هذه الجولة الفلكية؟ النتيجة هي أن هناك آيات بقي نصّها ونُسخ حكمها، فكرة موجودة في كل كتب التفاسير والفقه والكلام: «هناك آيات لا بد أن نعتبر أنّ بريقها وصَل إلى الأعين الآن ولكن فعلها غير موجود سواء حقيقة أو اعتبارا[200]». هل يريد أن يقول إن آية (لتجدنّ أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ... الآية)، انقرضت ولم يَبق منها إلاّ الكتابة في المصحف؟

هب أن الأمر كان كذلك، ماذا نفعل بالآيات الأخرى التي يزخر بها النص؟ آيات القتل والتحريض والكراهية من قبيل: "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ..."، أو "إذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين... "؛ والشتائم مثل "وامرأته حمالة الحطب .." وتشبيه البشر بالحيوانات: "كالكلب إن تحمل عليه يلهث"، بل والسخرية من الحيوانات نفسها "إنّ أنكر الأصوات لصوت الحمير"؟ إنْ قال إنها كالنّجمة التي انقرضت، فقد انقرضت ثلاثة أرباع القرآن، ولم يبْق منه إلاّ آيات سجعيّة من قبيل "والنازعات غرقا فالموريات قدحا.."، وما شابهها من قصار السور، التي لا تفيد القارئ بأي معلومة، غير التلاعب بالألفاظ والقافية الشعرية.

لكن الرجل متأرجح في تفكيره، لا يصمد على رأي واحد إذا بَهرَك بانفتاحه في صفحة ما فإنّه في الصفحة الموالية يصدمك بانغلاقه وتعصّبه. والسبب في ذلك هو أنه اسلاموي تقديسي ومن المستبعد جدا أن يتجرّأ على الخروج من سياجه الإيماني، فمعتقده الأول والأخير، والذي لا يساوم عليه أبدا، هو أن القرآن كتاب عظيم، وبالتالي لا ينطق عن الهوى، وهذا الحكم ينطبق على كل القرآن وليس على نصفه أو ربعه.

ولإدامة التخبّط ونشر البلبلة اصطنع تأويلا آخر: التّمييز بين التلاوة والقراءة. لا يمكن، في رأيه، أن نعرف الآخر من خلال القراءة العفوية للقرآن دون البحث عن معنى، فالقراءة يجب أن «تؤدي إلى معنى[201]». هذه القراءة الصحيحة تختلف عن التلاوة «لأنها لا تؤدي إلى معنى، بل تكتفي ببيان المناسك والواجب والفريضة[202]».

هل يعني ذلك أننا نرفض التلاوة ونتخلى عن المناسك؟ اطلاقا. لو فعل ذلك لما عدّ نفسه سلفيا أكثر من السلفيين أنفسهم. المسألة هي مجرّد مناورة لكي يَسهل عليه تَنويم القارئ وإخماد حسّه النقدي. المَنسك هو أمر مُقَرّر في الشريعة، والشريعة لا يمكن المزاح معها: «المنسك هو حاجة أوتاميتيكية آلية لا بدّ أن تؤدّيها بحذافيرها وبطريقتها الجماعية التي قُرّرت من أصحاب العبادات والفقهاء وترسّخت عبر السنوات[203]».

القول القرآني إذن، هو قولان: قراءة وتلاوة، التلاوة لا تفيد أي معنى، بينما القراءة تفيد معنى جليلا. وقد أثبت هذا التمييز السحري نجاعته في حوار أجراه السيد الصديق على راديو (فرانس انتر)، يرويه على هذه الشاكلة: «وقد بيُّنت مثل هذا الموقف ذات يوم في باريس في إذاعة

(France inter) إثر عمليّات الإرهاب التي حدثت في الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي. سُئلتُ يومها كيف يمكن أن يَقرأ في الأرض الفرنسية رجل دين مسلم الآية مع مجموعة من الناس تستمع إليه (لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ...)؟».

إذن، قضيّة الارهاب الإسلامي كانت مطروحة على الصدّيق منذ زمن بعيد، منذ الثمانينات من القرن الماضي. ومن خلال هذا الاعتراف يَتبَدّى أن تأويلاته الهوائية، واستماتته الغريبة على انقاذ القرآن، حاضرة منذ تلك الفترة، ولم تكن وليدة الصعود الراهن للإرهاب الإسلامي على المستوى العالمي، وأن الرجل لم يَتزحزح عن مواقفه ولم يُغيّر من رأيه، بل لم يتقدّم، في سبيل تحرير عقول الشباب من الخرافة والعنف، قيْد أنملة.

6. تأويلات البراءة

المفروض أن يردّ الصديق، على سؤال الصحفي، بوضوح وشفافية، ويقول إن هذه الآية ومثيلاتها مُنافية لحقوق الإنسان، وأنها تحرّض على العنف ضد الآخر، وتدعو للإقصاء، وأنها لم تنزل من عند الله، وأنه، كفيلسوف متشبّع بالحكمة، يرفض أن يعتقد بأن الله تفوّه بمثل هذه التعابير التي تُبدي حُنقًا وكرها لعباده، وأن أي كتاب في العالم، مهما كانت قداسته ومهما كان عدد مؤمنيه، مُدان إن عُثِر فيه على تعنيف من هذا القبيل.

كيف كان ردّ الصديق؟ رجل يقدّس القرآن لا تترقّبوا منه أن يُفرّط ولو في كلمة واحدة، أو يتملّص من تلك العبارات الجارحة والأحكام القاسية التي يُرتّلها المسلمون يوميا في صلواتهم. أقصى ما يمكن أن يُقدِم عليه المسلمون، في رأيه، هو أن يتفكروا في علم الفلك، وفي النجوم والثقوب السوداء: «وضُّحت لهم أن هذه تلاوة صلاة، لأن الصلاة تفرض على الإمام أن يختار المقطع الذي يُعجبه، سواء سورة قصيرة مثل الكوثر أو الإخلاص، أو مجموعة آيات من أي سورة شاء، إذن لا نلومه لأنه بصدد تلاوة القرآن في ممارسة شعيرة الصلاة[204]».

يعني التلاوة هي: "اكتُبْ على الحوت وسيّبْ في البحر"، أما القراءة فهي: "مسمار في حيط". استعملُ مثلا تونسيا. بعبارة أخرى: التلاوة كزَبَد البحر، ذاهبة جفاء، والقراءة هي ما يمكث في الأرض وينفع الناس. إن إمام جامع في باريس أو لندن أو فراكفورت «لو قرأ في خطبة جماعيّة وقال إن القرآن يقرّ أن اليهود أعداؤنا، إذا تمّ ذلك، لك أن تلومه وتُعاقبه وتقول إنه يؤلّب الناس على بعضهم بعضا[205]»، لكن ما دام يُصلّي بها داخل الجامع فلا حرج عليه ولا بأس على المصلّين الذين يستمعون إليها، لأنها ذاهبة في مهبّ الريح.

هكذا، إلى هذه الدرجة وصلت المهزلة وعبثية التبرير واللعب بأذهان المسلمين. ألم يكن من الأهون عليه، عوض أن يُبدّع بحاله ويُوقِع القارئ في شدٍّة من الهمّ والوساوس، أن يُقصّر الطريق ويرفض هذه الآيات، قراءةً وتلاوةَ؟

لقد زعم السيد الصديق أنه أقنعَ الصحفيين الفرنسيين وكل من استمع لتلك الحصّة، بهذه الكلمات البسيطة، وفقط عن طريق التمييز بين التلاوة والقراءة، استطاع الخروج من المأزق سالما،

لكنه لم يطرح على نفسه سؤال: كيف يمكن لشخص أن يُصلّي ويخشع لله، بقراءة آيات حربية قاسية، جارحة ومهينة[206]؟

وهذه المعضلة مطروحة أيضا على الباحث المغربي سعيد ناشيد الذي ادّعى في كتابه "الحداثة والقرآن" أن «القرآن خطاب تعبّدي خالص[207]»، ولا دخل له بالنحو والصرف والفلك والبيولوجيا، الصّديق بدوره يميح إلى هذا الرأي ويرى أن القرآن هو كتاب مَجعول للعبادة، وفقط للعبادة.

لكن مرة أخرى لا تعتقدوا أنه تَخَلّى عن الحمولة الاقصائية العنيفة في القرآن، فهو يعود في لمح البصر إلى صورته الأولى، إذ بعد أن شبّه تلك الأقوال القاسية بالنجوم والثقوب السوداء، ماح إلى الاقتصاد والقانون، وقال إن الآيات العنيفة ضد اليهود لها مشروعيتها، حتى وإن كانت مشروعية مقيّدة بزمانها. والطريقة التي بسط بها هذه المشروعية الظرفيّة كانت أشد نكالا: لا تملّصا وإنما تَبَنٍّ وإصرار حتى الموت. وكيف لا تكون أحكام القرآن مبرّرة وهؤلاء اليهود، في رأيه، آمنوا بأنهم «الشعب المختار، ومَن يقتنع بأنه مختار من الله، لا يؤمن بأن الشعوب الأخرى قادرة على أن تتمتّع بالقانون العام[208]». والمسلمون، أليسوا شعب الله المختار الجديد؟ ألم يأت في صريح النص: "كنتم خير أمة أخرجت للناس"؟

لقد غيّب هذا الاعتراض لأنه بديهي بالنسبة إليه أن يكون المسلمون خير أمة أخرجها الله للناس، وأن يقتلعوا اليهود من مكان الصدارة. فاليهود، حسب منطق الصدّيق، لم يكتفوا بتحريف قرآننا، بل إنهم تجاوزوا كل الحدود ولَعبوا بأرزاقنا وأقوات أبنائنا، وبالتالي «فهم أعداؤنا وفق منطوق الآية، هم الذين قرّروا أن يكونوا أعداءنا[209]». لكنه لم يُصرّح بهذا الحكم في الراديو الفرنسي، ولو فعل ذلك لانْتَفض عليه الصّحفيّون، ولطَردوه حالاً أو طلبوا له البوليس، وإنما كَتبَه في تونس، بعيدا عن البلد الذي نَهل منه العلوم وتتلمذ على كبار فلاسفته. هذا العداء المعمّم لليهود مَنبعه القرآن، والصدّيق يُجاري منطوقه صراحة، ومع ذلك فهو يملك الجرأة للقول إن القرآن «لا يحث على العداوة، أو أنه يضع الآخر في موقع العدو، وإنما الطرف الآخر هو الذي يضع نفسه في موضع العداوة. هذا ما قاله القرآن تحديدا[210]».

والصدّيق لا يجرؤ على معارضته، أو الشك فيه، فإذا صرّح به القرآن فلا مندوحة من التصديق به ولا ضير في إعادة طرحه واسناده بعلم الاقتصاد والحقوق. اليهود يعيشون خارج القانون، بحكم تقوقعهم وعنصريّتهم، واستخفافهم بالشعوب الأخرى، لا يمكن أن نتعامل معهم أو نُقيم معاهدات، سواء كتابيا أو شفويا. هذا ما قاله القرآن وبالتالي صحيح، صادق، حقيقي. اليهودي إذا أمَّنتَه على مالٍ، يقول الصديق «لا يؤدّيه إليك لأنه يعتقد أنه ليس من الضروري أن يُعيده[211]».

أما المسلمون والمسيحيون فإنهم يعتقدون أن العدالة تنسحب على جميع الناس مهما كانت ديانتهم «فإذا أقرضتني دينارا أو قنطارا بحكم عقد سواء أكان شفويا أم مكتوبا فأنا أؤدي إليك هذا الدين في وقت مسمّى[212]».

هل أقرض الصديق دينارا واحدا ليهودي ولم يردّه إليه؟ هل احتكّ باليهود وتعامل معهم ماليّا؟ كيف له أن يطلق حكما قيميّا بهذه الخطورة على اليهود أجمعين ويتّهمهم باختلاس أموال الناس؟ وكيف لا تعمل هذه الادعاءات على جرح احساس المواطنين اليهود في تونس وفي البلدان العربية، وتُحسّسهم بالدونية، وتدفعهم إلى الفرار إلى إسرائيل؟ إن هذه الخاصية المزعومة لليهود، التي أكد عليها القرآن في هذه الآية، والتي نعثر عليها في كل الكتابات الكلاسيكية المعادية لليهود، ينبغي لكل من يملك حسّا إنسانيا مسالما أن يرفضها، لأن التعميم هو أمر مناف للواقع التاريخي والاجتماع البشري، إذ يكفي أن تجد يهوديا واحدا يشذ على القاعدة حتى يسقط هذا الحكم تماما.

المعضلة الكبرى تكمن في أن هذه الأحكام نابعة من نص ديني مقدّس، يؤمن الجميع بسرمديّته، وبأن أي كلمة فيه تُعتبر وحي نازل مباشرة من الله. المفكّر الجدّي ليس أمامه من خيار إلاّ الرفض والاستنكار، لكن الصدّيق لا يرفض ولا يستنكر وإنما يلعب على الحبْلين: على التّنسيب من جهة، وعلى السرمدية من جهة أخرى.

يبثّ سمومه، عمدا، ويُفرغ كل ما في جعبته من عداء وإهانات لليهود، ثم بعد ذلك يقول: كلا! لستُ أنا الذي يقول ذلك، القرآن هو المسؤول، منطوق الآية هو الذي قرّر ذلك، وأنا مراقب خارجي أكتفي بسَرْد ما هو موجود.

ولقد أتاحت له هذه الذريعة المضيّ قدما في تجريح اليهود والتوسع في ثلبهم وإهانتهم: إن خداع اليهود وتصرفهم الخارج عن القانون، يقول الصدّيق، يصفه القرآن «بالقول (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأمّيّين سبيل)»، ويفسره بأكثر دقّة ووضوح: «نحن نأخذ المال ونُعيده وفق منطق قانوني لكن هذا المنطق لا ينسحب على الأمّيين. إن مثل هذا السلوك من اليهود لا يمكن أن يرضى عليه أي إنسان مهما كان موطنه في الكرة الأرضية وسيقول هؤلاء عن ممارسة اليهود تلك: إنهم أعداء[213]».

أرأيتم هذه التهمة الخطيرة وهذه التبريرات الواهية المتعنّتة؟ أرأيتم كيف يستطيع نصٌّ دينيّ أن يُحوّر طبائع الناس ويَمسخها؟ كيف يَجعل من إنسان مسالم ووديع في الحياة اليومية، مثل الصدّيق الذي لا أظنّه تعدّى على مواطن تونسي يهودي، كائنا مخادعا، كاذبا، متناقضا، مسعورا، كارها للبشر (ولا أستثني أي كتاب مقدس). إن هذا الفيلسوف العرّيف المنفتح، مُجاراة للقرآن، يُعمّق الفرقة بين البشر ويبث روح العدوانية والاقصاء والعنصرية على أساس حوادث مشكوك فيها، ومواصفات لا تنسحب على جموع اليهود.

لكن تقولون: كان بإمكان السيد الصديق أن يُنَسِّب منطوق هذه الآية وأن يحصر الآيات الأخرى الجارحة المهينة في ظرفها التاريخي؛ أن يقول صراحة، إن هذه الأحكام تجاوزها الزمن، ولا داعي لإثارتها، بل ينبغي أن تُحذف من نص القرآن.

وأكثر من ذلك، لو أراد، من مَوْقِعِه كفيلسوف عقلاني يوناني تنويري، أن يكون جذريّا في حلوله، لاقْتَرَح الحلّ الأمثل، ألا وهو التخلّص من القرآن نهائيا، عدم الاقتراب منه، نسيانه تماما، مثلما ينبغي نسيان كل الكتب "المقدسة" الأخرى، والاكتفاء بالعلم والفلسفة والأخلاق والأدب والفن.

لا هذا ولا ذاك، لا تَنْسِيب ولا نِسيان، وإنما استعادة النص المقدّس بقضّه وقضيضه: «علينا أن نقرأ القرآن في ظرفه التاريخي، وعلينا أن نؤرخ لنزوله. هذه مهمة القارئ وليست مهمة القرآن لأنه ليس بالكتاب التاريخي وليس بالنص التقريري[214]». بعبارة أخرى: نحن نُنَسّب، والقرآن يُطلق، نحن نؤطّر والقرآن يحرّر. وهكذا يعيش المسلم في شرخ ذهني طوال حياته، مُشتّتا بين نص مقدس لا يَخضع للتّزمُّن، وبين عقل إنساني محدود، يَجري وراء وهمٍ. هذا هو النّفق المظلم الذي يريد القرآنيون أن يُولجوا فيه الانسان العربي.

والصدّيق، من جهته، بعد أن أحدثَ هذه البلبلة وأفرز كل أحقاده على اليهود وبالغ في إهاناتهم والتقوّل على دينهم، يَنتفض على المسلمين ويُعيّرهم بجهلهم، قائلا «إنّ فَقْرَنا في معرفة الآخر اليهودي فقرٌ مُدقع[215]». هكذا، إذن، بعد كل ما قاله عنهم، وبعد اتّهامهم بتحريف القرآن، والادّعاء بأنهم يسرقون قوت أبنائنا ولا يُرجعون إلينا أموالنا، يرتدّ ويؤنب المسلمين على فَقرهم في معرفة اليهود.

ولكن هو شخصيا ماذا قدّم للخروج من هذا الفقر؟ القرآن، واختار منه، مرة أخرى، آية تهجّمية مُهينة: (ومنهم أمّيون لا يعلمون الكتاب إلاّ أماني وإن هم إلاّ يظنّون). ما معنى هذا القول؟ نَبيّ من المفروض، حسب كُتّاب السيرة، أنه عربي لا يعرف كُتب اليهود ولا تفاصيلها وإذا به يُظهر نفسه وكأنه عارف بخباياها وتفاصيلها أكثر منهم لدرجة أنه يُعيِّرهم بجهلهم. ألا يطرح هذا تساؤلات عن هويّة قائلها؟

الصدّيق لا يتوقف، ولا يطرح أسئلة في المَوْضِع الذي ينبغي فيه طرح الأسئلة، لأنه مهموم بأشياء مصيريّة. لقد أردف هذه الآية بأخرى أكثر تهجّما وأبلغ عنفا: (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء. قل: مَن أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تُبدونها، وتُخفون كثيرا، وعُلّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم. قل: الله، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون).

فيمَن تُخاطب هذه الآية؟ هل اليهود بهذا القدر من الجهل والعماء لدرجة أنهم يُنكرون النبوّة؟ أليست اليهودية مَبنية على فكرة النبوّة والوحي؟ كيف يتّهمهم بأنهم تَخلّوا عن عقيدتهم إلى حدّ نكران الهيكل الحامل لدينهم؟ إن أجهل يهودي يعرف أن الله كتب الألواح لموسى بإصبعه، وبالتالي فالمعلومة التي يوردها القرآن من أن الله أنزل على موسى كتابا، هي بالنسبة إليهم خاطئة، لأن يهوه لم يُنزِل شيئا وإنما أعطى ألواحا لموسى، كاملة جاهزة، كتبها هو بإصبعه كما يقول العهد القديم.

من الأكيد أنّ الذين يقولون "ما أنزل الله على بشر من شيء"، هم ناكروا النبوة جملة وتفصيلا، الذين لا يؤمنون بأن الله اتصل بشخص مهما علا قدره، وأن هذا الاله هو من العلو والبعد عن الإنسان بحيث لا يدخل في أيّة علاقة مع أيّ واحد من البشر. وهذا في الحقيقة هو موقف التأليهيين، من صنف فولتير وروسو، وليس المؤمنين من يهود ومسيحيين.

لا سؤال من طرف فيلسوفنا ولكنه يسترسل في الاتيان بالآيات الواحدة تلو الأخرى لتبرير تهجمات القرآن على اليهود. هذه المرة نزل في مُستنقع التّحريف: (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون). وهذا أيضا من المستحيلات السبع لأن اليهود يقدسون التوراة، كما يقدس المسلمون القرآن، لدرجة أنهم يَمنعون أي أحد من الاقتراب منها ولمسها، فكيف يتجرّأ أحدهم على كتابة خواطر شخصية والقول بأنها صُحف مقدسة ووحي من عند الله؟ وأكثر من ذلك يَسترزقون منها ويكسبون أموالا على كاهل ضعاف العقول؟ ربما يقصد الأحبار الذين يؤوّلون التوراة شفاهيا ثم بعد ذلك يجمَعونها في أسفار التلمود. لكن هذه مشكلتهم الخاصة بهم، وهم راضون بما يفعلون وأحرار في تفسير كُتبهم كما يشاؤون، وإذا أردنا الدقة، القرآن هو أوّل من استغلّ التراث التلمودي لكي يؤسس الدين الجديد.

هذا لا يمنع، على أية حال، من أننا أمام اتهامات خطيرة تُكال بالجملة، فضلا عن أنها خاطئة ومنافية للواقع، لكن الصدّيق ماكث على موقفه ومُصرّ على مهاجمة اليهودية وإن كلّفه الأمر كتابة أشياء مختلّة من قبيل: «دعنا من اتّهام القرآن لهم، وهو كلام مُنزّل[216]».

ما معنى "دَعنا من اتهام القرآن"؟ هل يقصد أنه لا يبالي باتهام القرآن؟ هل يُشكّك في حقيقة هذه الاتهامات؟ لماذا يردّدها إذن وينسخها في كتابه؟ وهل القول بأن القرآن "هو كلام منزّل" ينسجم مع "دعنا" منه؟ بالطبع لا ينسجم منطقيا ولا يتماشى مع منحاه التقديسي. وهذه الجملة، في حد ذاتها، مختلة حتى في تركيبها اللغوي، فالرجل لا يحسن التفكير ولا التعبير عن أفكاره بطريقة واضحة جليّة. والسبب في ذلك أنه يكتب من أجل المنافحة على دينه، وليس من أجل البحث العلمي النزيه وتنوير العقول، وكلّ من ركب ركاب المنافحة الدينية فإنه حتما سيسقط في تناقضات لا تنتهي وسيتعثّر في المعضلات الواحدة تلو الأخرى، دون امكانية الخروج منها.

يريد أن يجمع بين المتناقضات، ويخلط بين الانفتاح والتعصّب، ويحافظ في نفس الوقت على التقديس والتهجّم. والطريقة التي التجأ إليها الآن هي التاريخ، أي التاريخ مُطوَّعا لعقيدته الإسلامية حيث وجد فيه كل ما يبرّر اتّهامات القرآن لليهود بالتحريف. قال إنّ اليهود هم الذين كتبوا تَوراتهم بأيديهم وقالوا هذا من عند الله، بعد أن انقرضت منذ قرون عديدة، وبالتالي فإن التوراة التي يملكونها الآن هي نسخة مزوّرة من الأصلية.

هذه التخمينات المُهينَة، يعرضها الصّدّيق دون أن يأتي بدليل تاريخي واحد، دون أن يستشهدَ بمَرجَع مقرّر، بل إنه ساح في "حُدُّوثة" مماثلة لحُدّوثات يوسف زيدان، مستخدما عبارة "يُقال" (تثبّتوا بأنفسكم، فالنص أسفل الصفحة)[217].

النتيجة التي استخرجها الصديق من هذه "الحدّوثة"، لإثبات تحريف التوراة، هي أن رجلا، استيقظ صباحا فقرّر تدوين أوراق، وقال للناس: هاكُم! هذا هو الكتاب المقدس: «ونادى على الكَتَبَة في اليوم نفسه عندما استيقظ ليكتبوا ما جاء إليه من التوراة كما أنزلت على موسى. وكتبوا وكانت هذه هي التوراة المستعادة ذاكرة من قبل أزِدْرة[218]».

وعُزير الذي ألّهه اليهود، ماذا نقول فيه؟ هل صحيح أن اليهود، الذين من شدة رهبتهم من إلههم يمتنعون حتى عن النطق باسمه، تحوّلوا فجأة إلى عبادة شخص من لحم ودم؟ هل قرأنا في كتب اليهود شيئا من هذا القبيل؟ كيف يمكن تبرير هذه التهمة الخطيرة جدا؟ التاريخ هو الحل، مرة أخرى السيد الصدّيق يلتجئ إلى علم التاريخ الأسطوري، ويجمع كل ما يُسوّغ لهذه الروايات الجارحة التي تُصوّر اليهود أكثر وثنية من الوثنيّين.

كما فعل يوسف زيدان بخصوص المسيحية، وجد الصديق ضالته عند الفراعنة: «للإجابة أرى من الضروري معرفة واقع الحضارة الفرعونية القديمة على الجزيرة العربية»، وهكذا انهمرت الفيلولوجيا، وتحليل الأسماء، ومقاربة العربية بالفرعونية واليونانية والانجليزية، ورصّ المصطلحات الغريبة الشاذة، ولخبطة فكرية لا مثيل لها، وصلت إلى حد الهوس (انظر النص أسفله)[219]. ثم يعيب على المفسرين العرب والمؤرخين تغييب هذه الحقائق الباهرة وجَهْلهم بـ«اختلاف التسميات من لغتها الأصلية إلى اللغة الراوية اليونانية أو اللاتينية[220]».

وماذا سيَحصل لو أدرك علماؤنا هذه الحقائق اللغوية؟ هل سيُغيّرون من رأيهم تجاه اليهود ويَكفّون عن اتهامهم بعبادة إنسان، عوض يهوه؟ هل سيُقلع السيد الصديق عن فعل ذلك؟ مشكوك فيه، بل مستبعد كلّيا، لأن القرآن الذي يُلقي بهذه التهمة، هو في رأيه «مُوجب التصديق التام[221]». تصديق تام إذن لكل ما قاله القرآن، ولا يجب بالتالي أن نُنكر منه ولو كلمة، ولو حرفا واحدا. وإمعانا في التنكيل يقول إننا يجب أن نصدق القرآن في كل كبيرة وصغيرة إذا أردنا «أن نعرف الآخر من منطلق إيماني ومن منطلق إنساني[222]».

إن "عزيرا" (إزِدرة) هو بالفعل ذاك الرجل الذي عَبَدَه بنو اسرائيل، كما ذكره القرآن، وكما أثبته الصدّيق عن طريق التاريخ الفرعوني، لكن هذه الحقيقة الفاقعة، غابت عن المسلمين، ولذلك فهو يُبدي قسوة لا مثيل لها إزاء المفسّرين القدامى الذين قالوا إن النبيّ لا يعرف من هو عزير: "والله لا أدري إن كان عزير ملكا أو رسولا". فانطلق الصديق في تهكّمه وادانته: هذه إجابة مضحكة ولا يقبلها العقل، وكيف لا يعرف الرسول من هو عزير؟ «ما هو دورك أيها المفسر؟ أن تأتي بالأخبار دون نقد وتمحيص؟ تنغلق على المرويّ دون غربلة؟ فتغلق علينا معرفتنا بالآخر[223]».

لكن هذه الحركة المسرحية لا يجب أن تنسينا أن الصديق لو اطّلع على الكتب لعَلِم أن ما يقوله ليس بالجديد، لأن اليهود أنفسهم رووا هذه الأسطورة، وهم الذين ردّوا عليها. السموأل المغربي، واحد من أحبار اليهود من القرن السادس الهجري، والذي اعتنق الإسلام، في كتابه بذل المجهود أورد هذا الخبر، تماشيا مع فكرة التحريف الإسلامية، ومشككا في صحة التوراة الحالية.

وقد قدّم هو نفسه السبب الذي جعله يشك في صحّتها، وهو أنها تعجّ بتشبيهات مخلّة للذات الالهية، وبعبارات غير لائقة، من قبيل: "انتبه! لمَ تنام يا رب؟ استيقظ من رقْدَتِك". سماها هذيانات وكفريات وقال إن اليهود نطقوا بها «من شدّة الضّجر من الذلّ والعبوديّة والصِّغار، وانتظار فرَجٍ لا يزداد منهم إلاّ بُعدا». فما كان من هذا الوضع المُزري، يواصل السموأل، «إلا أن أوْقَعهم في الطّيش والضّجر، وأخرجهم إلى نوع من الزندقة والهذيان الذي لا تستحسنه إلاّ عقولهم الركيكة. فتجرّؤوا على الله بهذه المناجاة القبيحة[224]».

وبعد أن عرضَ أمثلة من التشبيهات الأنثروبورفية التي نعثر عليها في التوراة، (وهي موجودة في الإنجيل والقرآن أيضا)، أنكر السموأل هذه الأشياء واعتبرها كفريات مستنتجا أن الكتاب الذي جاءت فيه محرّف: «ولسنا نرى أن هذه الكفريات كانت في التوراة المُنزّلة على موسى[225]». ثم جاء بمعلومة غريبة، زعم فيها أن أحبار اليهود «يَعلمون أن هذه التوراة التي بأيديهم، لا يعتقد أحد منهم أنها المنزلة على موسى البتّة[226]»، والسبب في ذلك أن موسى أخفاها عن بني اسرائيل «صان التوراة عن بني اسرائيل ولم يبثّها فيهم، وإنما سلّمها إلى عشيرته أولاد لاوي ... ولم يبذل موسى من التوراة إلاّ نصف سورة يقال لها (ها أزينو).. [227]». وأضاف أن هذه السورة «مُشتملة على ذمّ طباعهم، وأنهم يخالفون شرائع التوراة، وأن السخط يأتيهم بعد ذلك، وتُخرَّب ديارهم، ويُشَتَّتون في البلاد[228]».

وهنا يورد السموأل الحكاية التي رواها يوسف الصديق، ولكن بأكثر رشاقة وأجْوَد أسلوبا: «فلما رأى عزرا أن القوم قد أُحرق هيكلهم وزالت دولتهم، وتفرّق جمعهم ورُفِع كتابهم، جمَعَ من

محفوظاته ومن الفصول التي يحفظها الكهنة ما لفّق منه هذه التوراة التي في أيديهم. ولذلك بالغوا في تعظيم عزرا هذا غاية المبالغة[229]».

والنتيجة، من فم هذا الحبر، هي أن «التوراة التي في أيديهم، هي على الحقيقة، كتاب عزرا، وليست كتاب الله». ويؤكد مرة أخرى أن رفضه للتوراة الحالية سببه هو حضور تشبيهات مخلة بالتنزيه الإلهي، وقد اتّهم كاتبها بالجهل والكفر: «وهذا يدل على أنه ـ أعني الذي جمع الفصول التي بأيديهم ـ رجلٌ فارغ جاهل بالصفات الإلهية. فلذلك نسبَ إلى الله صفات التّجسيم والندم على ما مضى من أفعاله، والإقلاع عن مثلها[230]».

لكن ابن كمّونة، يهودي هو أيضا، صاحب كتاب تنقيح الأبحاث في الممل الثلاث، ردّ على ادعاء السموأل بأن التوراة كانت قد تلفت من اليهود، وأن تلك التي بين أيديهم ليست التوراة الحقيقية، بل حُرّفت وبُدّلت[231]. لقد وضع أصحاب هذا الرأي في مفارقة منطقية لأنهم يستدلّون على أن التوراة «مُبَدَّلة بأنها مبدّلة»، وهذا في رأيه «لغو ودعوى من غير حجّة».

قال حتى وإن لم يكن حِفْظها فرضا، فإنه لا يمكن الشك في تواتر أخبارها، جيل بعد جيل، لأنها بالنسبة لليهود «كتاب عظيم، وعنه يأخذون شرعَهم»، وبالتالي فهم مضطرّون على «حفظه وضبطه وتناقله، لا سيّما وهم يتبرّكون بقراءته، ويتعبّدون بتعظيمه». وهذا من طبيعة الأشياء، وليس بدعا من المؤلفات، والدليل على ذلك يقول بن كمونة أننا نَجِد «الكُتب التي يُصنّفها بعض الناس، إذا كانت مِمّا يَحسُن الظنّ بها وتَكثر الفائدة منها، تُنقَل نقلا مُتواترا، إلى مئين من السنين، فما ظنّك بكتابٍ يُعتَقَدُ أنه كلام الله[232]».

والحال أن تعظيم اليهود لتوراتهم جعل منهم أكبر الحفّاظ لهذا الكتاب وأشدّهم صيانة وعناية به عبر التاريخ، فقد ضبطوا التوراة، يقول بن كمونة، وغيرها من كتب أنبيائهم «ضبطا لم نجده لغيرهم في كتابٍ من الكتب[233]». وهذا صحيح، فهم لم يفعلوا طوال تاريخهم القديم غير هذا، حيث أنهم كما يقول بن كمونة «عَدّوا آياته وكلماته، وحرّروا كلّ حرفٍ من حروف اللغة فيه. وكذا فعلوا في كل سفر منه، وفي كل جزء من ذلك السفر، وحتّى كل كلمة أو كثير من الكلمات، بيّنوا هل جاء مثلها أم لا. وإن كان قد جاء، بيّنوا عددها جاء في أيّ موضع، وهل هو في وسط الآية أم في أوّلها أو في آخرها، وغير ذلك من الضوابط التي يقع التّعجب منها[234]».

ثم يضيف اعتراضا كلاسيكيا على امتناع تبديل أو اخفاء كتابهم، وهو أن اليهود عدّة فِرَق «يُخالف بعضهم بعضا في الفروع، ولم يَقع بينهم اختلاف في نفس التوراة وكتب نبوّاتهم، وإن اختلفوا في تأويل مواضع منها، لا في ألفاظها وترتيبها. وذلك كلّه ممّا يُزيل تَوهُّم تبديلها وتحريفها[235]». أما التوراة التي عند المسيحيين والسامريين فهي موافقة للنسخة العبرية، ليس فيها «من الألفاظ المُختلفةِ المَعنى ما يُعتدّ به[236]». وإذا أردنا الدقة يواصل بن كمونة، فالإختلاف بينها

«أقلّ من الاختلاف الذي يوجد في القراءات السّبع للقرآن، وقراءة بن مسعود وأبيّ وغيرهما كثير[237]».

أما بخصوص عزرا الذي ينسبون إليه تجديد التوراة بعد ذهابها فإن ابن كمونة يشك في أنه أقدَم على عمل من هذا القبيل، لأن التوراة موجودة كما هي، من قبله ومن بعده، وهذا النبيّ هو «من المشهورين بالتعظيم وكثرة الخير والدين، وهو الذي يسميه المسلمون بعزير، ويدّعون، هم وبعض اليهود، نبوّته. ومن يخالف في نبوّته فلا يخالف في عظم شأنه في الدين والخير، فلا يُتصوّر أن يَستَحِلّ تحريف كتاب الله وتبديله[238]».

هذه لقطة سريعة مما يمكن قوله عن تصور اليهود لكتابهم، وعن الاعتراضات والاعتراضات المضادّة التي خاضوا فيها هم أنفسهم حول مدى صحة توراتهم، ومَن أراد المزيد فعليه بكتب المستشرقين، وبالموسوعة اليهودية، لا كتب الصديق الجدالية المختلّة والفاقدة للمصداقية[239].

7. فاصل سَلَفي

الصدّيق يَصطنع مشاكل من لا شيء، يُلقي باللاّئمة على المفسرين القدامى لجهلهم باللغة الفرعونية، وبالأسطورة العبرانية التي حكاها عن عزير، والتي تؤيد ما جاء في القرآن بخصوص تهمة التحريف، ويتوجه بالعتاب لمعارضيه: «لماذا يناقشونني في قراءتي واجتهادي؟ ولماذا يريدون مني، أو يفرضون عليّ أن أكون عدوّا للآخر أو مسالما له[240]».

إذا أراد هنا التخاصم مع السلفيين فهذه سفسطة لا تثير فينا التعاطف، لأنه واحد منهم، فهو لم يتملّص من تهمة القرآن لليهود بأنهم يعبدون إنسانا، بل إنه بَرّرها، تماما، كما يفعل السلفيون. إلاّ أن السلفيين أصدق منه، لأنهم قالوها جهارا دون التّيه في الفرعونية واللاتينية وهُبَل والعُزّى وما إلى ذلك من الحذلقات اللغوية والتاريخية الفارغة.

أما أعداؤه السلفيّون، كما يقول هو، فهُم لا يَفرضون عليه أن يكون مسالما مع الآخر اطلاقا، لأن السّلفيين هم في حرب شاملة مع البشرية جمعاء، سيّما أهل الديانات الأخرى التي أدانها القرآن، وبالتالي فهذا معتقدهم الراسخ لا يحيدون عنه، والمسالمة مع الكافرين، في عُرفهم، هي كفر جزاؤه القتل. لكن بالنسبة للإنسان المتحضّر، المُسالَمة مع الآخر هي واجب أخلاقي يَنبع من ضميره، ويدفعه إليه حبّه للبشرية دون اقصاء مسبق على أساس ديني أو عرقي أو طائفي.

كُنّا ننتظر من الصدّيق، كمفكّر حداثي، أن يُرينا بصيصا من نور المسالمة في تنظيره الفكري، لكن للأسف، عمل العكس: هاجم الجميع، وانْسَاق وراء تهجّمات القرآن على الكفار، اليهود، المسيحيين. وهو نفسه في آخر الصفحة يُفرز مكنوناته، ويبرز تناقضاته بالتظاهر بالدفاع عن اليهود، بعد أن كَفّرهم وجعلهم يُحرّفون القرآن، يأكلون أموال المسلمين، يكتبون أوراقا ويُسوّقونها للمغفّلين على أنها من عند الله، ثم يعبدون رجلا اسمه عزير، بعد كل هذا يقول: «أليس اليهود هم أقرب إلى التوحيد من المسيحيّين أصحاب الأقانيم الثلاثة؟». وهكذا سكتَ دهرا فنطق كفرا.

وهل تَخفى الأكاذيب؟ اطلاقا. القانون هو هذا: مُحال أن يكون شخص ما إسلاميا في العمق، مقدّسا للقرآن، محال أن يكون صادقا مع نفسه ومع من حوله، فتصريف الأكاذيب هو ديدنه

أينما حلّ وكلما فتح فاه أو خطّ سطرا. أكاذيب الصدّيق تتمظهر في قوله إن الرسول تعامل مع اليهود تعاملا إنسانيا: «وقد رهن درعه عند أحدهم، وابتاع اللحم من آخر بلقيطة[241]».

رواية مختلقة تكفّل المسلمون أنفسهم بتكذيبها، لكنهم لم يُكذّبوا مجزرة بني قريظة، كما لم يكذبوا الغزوات ولا التحريض على قتل المشركين وأهل الكتاب جميعا. إن الصديق مرة أخرى يمرّ على هذه الاحراجات مرّ الكِرام، بل يُغيّبها تماما، ويَستنسخ خطاب الاسلاميين المعتدلين الذين، حينما يُضيَّق عليهم الخناق وتُوضع أمامهم آيات العنف في القرآن، يستشهدون بحديث ضعيف أو بآية "لا إكراه في الدين". والصدّيق أيضا لا يحيد عن هذا المسار، فهو يزعم، دون خجل «أنّ تراثنا زمن النبي مليء بالأمثلة الدالة على التسامح في العيش[242]»؛ أو إنّ «التعايش بين الناس على اختلاف مللهم ونحلهم ودياناتهم كان سلسا في مكة والمدينة[243]». لم يجد هذه الأمثلة في القرآن صراحة، ولكن وجدها في الأحاديث، وهو الذي، طِوَال صفحات، لا يَكِلّ عن اثارة الشكوك حول التراث الكتابي وإهانة المفسرين ونكران صحة مدوّنة الأحاديث.

إن الصدّيق، مثله مثل المسلمين جميعا، في ورطة أخلاقية كبرى لن يُخرجه منها لا الحديث ولا القرآن، لأنه أينما ولّى وجهه يجد أمامه كمّا هائلا من العنف والقتل والدماء. يكفي فتح باب "الجهاد" في أي مدوّنة فقهية حتى يقرأ أشياء يندى لها الجبين، أما إذا لم يعترف بالأحاديث، وتشبّث بالقرآن فقط، فإن ورطته تتفاقم إلى أعلى مستوى. فعلا، أين يضع هذه العبارات الصريحة: (فريقا تقتلون، وتأسرون فريقا، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم). قتلٌ، وأسر، ونهب، في كتاب مقدّس، وبمُباركة من إله الكون. أنا أحاكم هذا الرجل أمام العقل والأخلاق والحس الإنساني، وأتحداه أن يتفلسف على هذه الآية ويُعطينا تفسيرا معقولا يسمح بتقريبها من مبدأ التسامح.

8. ثم جاء دور المسيحية

حسب تاريخ الأديان الذي قرأه الصدّيق بتمعُّن، انتهت دورة بني اسرائيل مع آخر أنبيائهم، وبعدها مباشرة، بدأت «دورة المرحلة المسيحية (زكرياء، يحيى، مريم، عيسى)» [244].

القرآن في ظرفه التاريخي كان يرى في النصارى «أمة إيجابية تماما بحكم الآيات الأولى من صورة النور (غلبت الروم في أدنى الأرض ... ويومئذ يفرح المؤمنون ... الآية)». وهذا دليل قوي بالنسبة للصديق على أن «هناك علاقة تقريبا عضوية كما يوضّح القرآن بين النصارى والمسلمين[245]». يا له من انفتاح! يا له من توادد وتحابب بين أهل الديانتين! لكن لو قَرأتم الجملة الموالية لأصِبْتم بخيبة أمل مريرة، فعلا السيد الصديق لم يجد من أقوال القرآن، لكي يُصوّر هذه العلاقة العضوية، إلاّ آية تهجّمية عنيفة جارحة للمسيحيين، وطاعنة في دينهم وعقيدتهم، وإلههم. قال إن هذا التّحابب يظهر بجلاء «في آخر سورة المائدة حين يدافع عيسى ـ وليس محمدا ـ عن أمة الناس: (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنتَ قلت للناس اتّخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحقّ. إن كنتُ قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علاّم الغيوب)[246]». أين يدافع عيسى هنا عن أمة الناس؟ وما أمّة الناس هذه؟

إن هذا الحوار، بالنسبة للمسيحيّن، هو صنو الإهانة لعقيدتهم، وقمّة الطّعن في مقدّساتهم. ذلك أن المسيحيين، يعتقدون أن المسيح هو الله، وبالتالي فإن "الحوار ـ المعاتبة" الذي رواه القرآن لا معنى له لأن الله لا يمكن أن يُعاتب نفسه. ثانيا: المسيحيون لا يقولون إن مريم هي إله، ولا يقدّسونها كإله، وإنما هي أم الله بالجسد، والقول بعكس ذلك هو تجريح لدينهم وطعنٌ في عقيدتهم. لكن الصدّيق لا يتفطّن إلى هذه الخروقات لأن حجاب التقديس مَسدول على عينيه، لا يرى إلاّ ما يراه القرآن، ولا يسمع إلاّ ما يتلوه. إذا عثر فيه على قول صريح يهاجم المسيحيين فهو يحرّفه عمدا، ويجعل منه خطاب دفاع يسوع عن المسلمين. تصوّروا إلى أي حد وصل التشويش الذهني بهذا الشخص.

وهذه القولة التي وضعها القرآن على فم المسيح: (إن تُعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم)، أصبحت عند الصدّيق دليلا على أن عيسى «يتحاور مع الله وكأنه ندّ له ويؤكد معرفة الخالق بكل شيء[247]». لم يدرك فيلسوفنا أن قولة عيسى هذه هي سخرية من الله

وليست تعظيما لشأنه. فعلا، هذا الإله يتصرف كالمجنون، يجازي ويُعذب ويغفر على مذاقه، فعيَّره يسوع باعتباطيّته، وترَكَه في سكرة جنونه: افعلْ ما شأت فأنت حر.

ثم طلع علينا بفكرة جديدة، اختزل فيها يسوع، إله المسيحيين، إلى مجاز، مجرّد مجاز لغوي لا غير. وللوصول إلى هذه النتيجة الغريبة، طوّل الطريق وطاف بالقارئ في دهاليز الكلمات المشوشة: أعاد طرح تحقير القرآن للإنسان، من حيث أنه اضطلع بأمانة كبرى، ولكنه سرعان ما ظهر على حقيقته، وهو أنه "ظلوم جهول". وهذان العبارتان هما أقسى تعنيف يمكن أن يَتفوّه به شخص في حق شخص آخر: أن يقول له إنك ظالم جاهل. لكن بالنسبة لصاحبنا، أن يكون الإنسان "ظلوما جهولا" فهذه فطرة الله التي فطر عليها الإنسان ولا مبدّل لها اطلاقا. وأين عثر على هذه الفطرة؟ وكيف تجسّدت؟ في شخص اسمه يسوع المسيح[248]. وهذه أوّل صَفعة في وجه المسيحيين. الصفعة الثانية، أن ولادته هي أيضا مجاز، ومجاز وثني «كما هو الشأن في الإلهة آرتيميس بَتُول الأساطير اليونانية التي ذكرتها الأناشيد[249]». لكن القرآن يقول إن المسيح هو (قول الحق الذي فيه يمترون)، هذه أيضا مَجاز، أو بالأحرى «قَفز المولود من رحم لغة البشر ليرتقي» إلى لغة الحق. لكن هذه الرّفعة، المحصورة دائما في عالم المجاز، لا تجعل من المسيح إلها، كما يعتقد المسيحيون. كلا، هذا المَقَام الذي رُفِع إليه عيسى لا يمكن أن يُخرجه «من آدميّته التي عاينها بنو جنسه من حوله[250]».

المسيح الحقيقي هو مسيح القرآن الذي رفعه الله إلى السماء وهو حيّ، أو بِلُغة الصدّيق «التَقَى إلى الجوار الإلهي وهو حيّ[251]»؛ ثم مات، ثم اختفى في عالم المَجاز، يعني أصبح «فطرة الله التي لا طاقة لبشر على ادراكها[252]». وهكذا فإن الفيلسوف الصدّيق يدسّ للمسيحيين السّم في العسل: سمّ القرآن، وعسل الفلسفة. وكيف لا يعتبرونه سُمّا وهو يقول لهم إن مَسيحكم هو إنسان بن إنسان، في الوقت الذي يقولون فيه إنه إله بن إله؟ لن تُغريهم كلماته الفلسفية المُجرَّدة، عن المجاز والفطرة، إذا كان الغرض منها هو ضَرب ركن رئيسي من أركان عقيدتهم، ولا تَغرّنّهم أيضا تحليلاته الفيلولوجية المغلوطة، من قبيل أن كلمة مسيح مرتبطة بجذر ساح «الذي يفيد السَّفر (ويعني لغةً السيلان)[253]»، في الوقت الذي كلّنا يعلم أن كلمة مسيح، تأتي من المَسح، على وزن فعيل، أي شخص مُسح بالزيت.

لكن جولاته الفيلولوجية وتأويلاته المعقدة تصبّ في مصبّ واحد، ألا وهو تَجريد المسيحية من روحها، وسَحب مشروعيتها التاريخية، ثم إعلان انتصار الإسلام عليها، بالاعتماد على القرآن، كشاهد وكحاكم في نفس الوقت. يسوع في الفترة المكيّة كان لا شيء تقريبا، كان مجرد فكرة غائمة «لا تضعه في أفق مستقبلي منتظر ينبئ بنهاية التاريخ[254]»، وفي فترة لاحقة أصبح مجرّد شاهد، وفي نفس الوقت، حاكم لصالح محمد ضد اليهود: «فقط كشاهد وكحكم في النقاش الذي سيدور فيما بعد بين محمد ويهود المدينة[255]».

أكثر ما يمكن أن يتنازل عليه الصديق لصالح المسيحيين هو أن يسوع وُلِد وِلادَة عذريّة، تماشيا مع تصوّر القرآن للمسيح، إضافة إلى أساطير الأناجيل المنحولة من قبيل: التكلّم في المهد أو احياء الطيور ... الخ. وهي كلها أناجيل غنوصية منحولة، لم تعترف بها الكنيسة الرسمية. المُفزع في كل هذا هو أن رجلا لا يَقبل أقل من لقب فليسوف يسرد علينا هذه الأساطير دون أن يَختلجه الشك في مصداقيتها، لا بل حتى في امكانيتها الواقعية الطبيعية: أعني أن تُنجِب امرأة دون تلقيح وأن يتكلم مولود في المهد أو يُعاد إحياء الميّت.

لكن، كما قلت، الصديق لا يمكنه أن يخرج عن المسلك الذي رسمه الإسلام عبر تاريخه؛ يريد أن يضرب المسيحية واليهودية بكل الوسائل، وبالتالي كل ما يخدم قضيّته فهو صالح ومُرحّب به، والإطار المرجعي الذي لا يغيب عنه دقيقة واحدة هو القرآن. فعلا، القرآن قال إن المسيح هو عبد الله ورسوله، الصديق يَطليها بطلاء فلسفي، ويسوّقها لقرّائه: المسيح مجاز «نُزعت عنه منذ البدء كل صفة تجعل منه مُخلّصا، كتلك التي تراءت لداود في كتاب صموئيل الأول، أو كما عُرفت لاحقا في اللاهوت المسيحي كمصير أخرويّ لآلامه وموته المخلّص على الصليب[256]». اعتقاد المسيحيين في أن يسوع هو المخلص، اعتقاد فاسد على طول الخط، وقد أثبت القرآن فساده، هذه هي الصفعة الأخرى في وجه المسيحيين.

ثم أخرجَ المسألة من تهجّم على المسيحين، ومنازعة مباشرة لعقيدتهم، إلى صراع بين السنّة والشيعة، وهكذا زاد في بلبلة أفكار القارئ، وعلّق لبرهة تهجماته وقدحه، لكي يلتفت إلى فرقتين اسلاميتين ويتحدّث عن كيفية تفسيرهما لمنطوقات القرآن، التي ينص فيها على أن المسيح (إن هو إلاّ عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل ... فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم).

هذا القول الصريح الواضح في نفي العقيدة المسيحية يسميه الصديق "قولا متشابها" «اتّخذه المذهبان السني والشيعي سبيلا يمكّنهما من تصوير شخص المسيح المنتظر بوجوه متعددة[257]». ثم يصفه بأنه موقف محايد بين اليهود والنصارى، في الوقت الذي هو منحاز إلى أطروحة اليهود الذين عارضوا منذ البداية فكرة ألوهية المسيح، واعتبروها انتهاكا للوحدة الإلهية، وهي الرؤية التي تقبّلها القرآن من اليهود بوساطة التلمود.

وإمعانا في إهانة المسيحيين قال إن يسوع المسيح هو نقطة عبور؛ مجرّد فاصلة بين زمنين تَعيسَيْن: زمن أول هو زمن التوراة، تلك التوراة التي «أقدمت اليهود على تحريفها[258]»، والشاهد على ذلك هو المُتَّهِم والقاضي، أي القرآن الذي أكّد على أن (من الذين هادوا يُحرّفون الكَلم عن مواضعه)، ويُحرّفون الكَلم، بالنسبة للصديق، يعني يحرّفون كتابهم المقدس.

إنه لمن أعجب العجائب أن يتغاضى هذا الفيلولوجي الكبير عن تدبّر معنى هذه الجملة ويَمرّ عليها دون أن يسأل نفسه هل بالفعل "الكَلم" هنا يعني به التوراة كلّها أم شيء آخر؟ أيُعقل أن مجموعة من الناس يعمدون عن قصد وسابق إضمار إلى تحريف وتبديل وتشويه قدس أقداسهم؟ إنني لا أفهم عقلية هذا الرجل ومستواه العلمي، ولا الغاية التي يصبو إليها من خلال هذا العمل العبثي الذي لا يتقدّم بالوعي المعرفي والأخلاقي طرفة عين. ورغم اعترافه بأن التوراة «جاءت تحمل هدى ونورا[259]»، فهو مستقر على قناعته من أن اليهود حرّفوها، وهذه هي التعاسة الأولى. التعاسة الثانية، هي أن «عيسى بن مريم قد بشّر بمحمد في إعلان وجّهه إلى بني اسرائيل[260]»، وبقي المسيحيون في تخبّط وضلال، منذ تلك اللحظة، إلى أن جاء نبيّ الإسلام محققا لإعلان يسوع.

والشاهد على ذلك، هذه المرة، هو القرآن والإنجيل معا، مع فارق دقيق وهو أن الإنجيل كلّه محرّف ما عدا كلمتين نَصَّ فيهما على نبوة محمد: «هذا الإعلان يعتمد في مرجعيّته على إنجيل يوحنا (الجزء 16، 7 - 18) الذي يتحدث عن مجيء الشفيع فارقليط، وهي كلمة يونانية يتطابق معناها تماما مع كلمة "أحمد" وهو الاسم الآخر الذي عُرف به محمد، والذي بشّر به عيسى في الآية المذكورة[261]».

ولم تخرج البشرية من بؤرَتَي التعاسة، أي اليهودية والمسيحية، ولم تر نور الحقيقة إلاّ بمجيء نبيّ الإسلام. لكن لا ضير مع المسيحيين، فقد تكفّل يسوع نفسه بتصحيح أخطائهم وذلك في استجواب أخير أمام الله، طالبا منه العفْو عن أتباعه الغاوين.

كل هذه الأفكار التكفيرية الفظيعة تمرّ أمام القارئ كأنها فلم رعب، ويسردها صاحبها، بتزويقٍ فلسفي مهترئ، وكأنها حقائق نهائية ثابتة، دون أن يَعِيَ بأن عن طريق هذه الأحكام التكفيريّة قام القرآنيون الإرهابيون بتفجير الكنائس وتحطيم الصلبان، وقتل رجال الدين، واغتصاب النساء. وهذه الأعمال الفظيعة، ليست مَرويّة عن فلان وعلاّن، وإنما موثقة بالصوت والصورة، في شبكات انترنت.

ولكن لا أظنّ أنّ شخصا مثل الصدّيق، يتهجّم على المسيحيّين، ويُعلي من شأن دينه على حسابهم، يَكترث لمصائبهم أو يهتمّ بمعاناتهم اليومية، فهو مُصِرّ أشدّ ما يكون عليه الاصرار على بثّ آرائه الجارحة المهينة للمسيحيين، وضرب قدس أقداسهم، واعتبارهم ضالّين مضلّين: «من خارج التاريخ أيضا يخضع المسيح إلى استجواب إلهي ينقله القرآن في خطاب مؤثّر، وينكر فيه هو نفسه التثليث، لكنه يسأل الله العفو عن الذين ضلّوا واتّخذوه وأمه (إلهين من دون الله) [262]».

كيف نَعيب على المسلم العادي، اعتقاده بأن "المغضوب عليهم" هم اليهود، و"الضّالين" هم المسيحيون، إذا كان لدينا مفكرا حداثيا يردد حرفيا نفس هذا الاعتقاد؟ أنا لا أكفّ عن التعجب من رجل يُقدّم نفسه كفيلسوف نِحْرير، علاّمة زمانه، كيف يسمح لنفسه بالتهجّم على معتقدات المسيحيّين

بهذه الصيغة الفجّة، واتّهامهم بأنهم يؤلٰهون امرأة وابنها؟ أليس هذا بوابة لإثارة الفتنة الطائفية، وتكفير المسيحيين كلهم، ومن ثمّ إعطاء ذريعة للإرهابيين المسلمين كي يُبيدوهم على بكرة أبيهم؟ هذه الإمكانية ليست من باب الاستيهامات الشخصية، بل هي من صلب الواقع، لأن آلاف الارهابيين التونسيّين الذين اتّجهوا إلى سوريا لذبح المسيحيّين كانوا مُحمّلين بنفس الأفكار التي يدافع عنها الفيلسوف التونسي يوسف الصديق.

فالرجل، كما قلتُ، لا يَتفكّر في استتباعات أقواله، ولا يهمّه أن يُقتَل كافر ضال من طرف مؤمن مستقيم، لأنه مهموم باستعادة وتكريس كل ما قاله القرآن حول المسيحيين. والدليل الفاقع على أنه ثابت على موقفه التّكفيري هو تشنّجه على المفسرين المسلمين لتَغْييبهم هذه المسألة المحورية حول طبيعة المسيح، وقضية الصلب، ويَعيب عليهم عدم تطرّقهم إليها بما فيه الكفاية. فهو يزعم أن الموروث التفسيري فرضَ «صمتا مطبقا على حيثيات الجدال الحاد حول طبيعة عيسى إن كانت إلهية أم آدمية أم مختلطة، وحول الصدى الذي خلّفته آلامه في الدوائر الكهنوتية. لم تُفدنا وثيقة واحدة من وثائق هذه التفاسير مثلا بأن أحد هذه التيارات القائلة بالطبيعة الواحدة، تلك التي حاربتها بضراوة البطركيتان المصرية والسورية .. وتضمّنت في تعاليمها فكرة قرآنية تؤكّد بأن "قصّة عذاب المسيح لم تحدث إلاّ في الظاهر"[263]».

رغم كل ما قاله المسلمون ضد المسيحيين، منذ ألف وأربع مائة سنة، ورغم كُتُبهم التي تَعجّ بالإهانات والشتائم والطّعون، فإن صاحبنا يطلب المزيد. لم يَشْف غليله منهم بعد؛ يُريد فتح الملفّ من جديد وتطعيمه بمعارفه الفلسفية والهيروغلوفية، لكي يضرب العقيدة المحورية في المسيحية، عقيدة الفداء.

وقد قادته معارفه التاريخية إلى الاكتشاف آخر، وهو أن بولس الرسول، هو المؤسس الحقيقي للعقيدة المسيحية، ولا دخل للمسيح أو حواريّيه. وبولس هذا، حسب منطق الصدّيق، هو إسلامي قبل الكلمة، إسلامي قرآني خالص، لا لأنه رجل مُشبَّع بالحكمة والورع والتقوى وحبّ القريب، وإنما من جانب الشتائم والتعنيف اللفظي، وإطلاق اللعنات ضد اليهود، وهي نفس اللعنات، يقول الصدّيق، التي تضمّنها القرآن «والتي جاء بها القديس [بولس] ضد اليهود، لاسيما تلك المتعلقة بقسوة قلوبهم التي يصفونها بالغُلف (القرآن، سورة البقرة، الآية 88، وسورة النساء، الآية 155)، انظر بولس، الفضل 7، 51، الرومان، 25 ..[264]».

وهذا، في رأيه، يُثبت إثباتا قاطعا أن المسيحيين يَتّفقون مع المسلمين في شَتم اليهود، رغم أن الأناجيل ورسائل بولس وأعمال الرسل، يعني كتبهم المقدسة، كلها محرّفة.

أنا أعرض الأفكار للقارئ كي يتفطن إلى خطورة هذه الشرذمة من القرآنيين، والتقديسيين الجدد، الذين يُخفون تطرّفهم خلف ضباب العبارات الرنانة والتحليلات المغرضة الفظيعة.

بعد تأنيب التراث التفسيري الإسلامي على اشكالية اختلقها هو، رغم أن كتب التفسير ومدوّنة الحديث تعج بالتهجمات على المسيحيين، فهو يعود لموضوعه المفضل ويَسْكب عِلمَه التاريخي المزوّر، كي يقول إن الخطاب القرآني «انحاز، لأسبابٍ استراتيجية واضحة، (انتشار الديانة المسيحية الواسع في الجزيرة العربية وفي البلدان التي تعتبر امتدادا جغرافيا وسكانيا لها)، لتلك المسيحية التي أرادها الإسلام موحّدة بأدنى القواسم المشتركة، أي برفض كل من ألوهية عيسى وصفته الأخروية التي قد تُمكّنه من الظهور كمخلّص في نهاية الأزمة، وهو الدور الذي يضعه في منزلة يرقى بها على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين[265]».

لكي تُقبل المسيحية من طرف السيد الصدّيق، يجب أن تُسلخَ من لبّ عقيدتها، أن يُداس قدس أقداسها، أن يُسحَل مسيحها، وأن يُوضَع في منزلة أدنى من محمد.

9. الجزية ثمن التثليث

ولا أرى أن الصدّيق، في هذه النقطة، قد خالفَ قرآنه أو حاد عن تراثه الإسلامي ككلّ، إذ أن قراءة بسيطة للقرآن تبيّن أنه حارب المسيحية، تعدّى على مقدساتها، حوّر عمدا معتقداتها، شوّه معالمها، وعرضها في صورة مختلّة، ثم ختَمَها بالتحريض العلني على قتل المسيحيين أو ابتزازهم ماليا. إنها طامّة كبرى حَلّت بهؤلاء الناس في عقر دارهم، وهي متواصلة إلى يومنا هذا، ونراها أمامنا بالصوت والصورة في العراق وسوريا ومصر. ولقد وصل الحنق على المسيحية إلى درجة أن أتباع هذا الدين، من "ثوّار" ليبيا، لم يكتفوا بذبح المسيحيين، وإسالة دماءهم في البحر، وإنما التَفتوا إلى الموتى فهشّموا المقابر وكسروا الصلبان ونبشوا القبور.

أعمال مروعة، لا يجرؤ عليها إلاّ من فَقدَ إنسانيته بالكامل ونزل إلى مستوى الوحوش، والإسلاميون هم فاقدوا الإنسانية عن جدارة، رغم أنّ مَن مَكّن لهم في الأرض هم مسيحيون، فجازوهم بجزّ رؤوسهم، وتحطيم مقابرهم واجتثاث موتاهم.

ثم يأتي يوسف الصدّيق، فيلسوف عقلاني حداثي، كي يَحصر المسألة في نقطة واحدة: «يكتفي القرآن في مُحاربته المسيحية بنقطة واحدة يراها كفرا، وهي القول بالتّثليث[266]».

أخير حصلنا على اعتراف من هذا "الفيلسوف" المؤمن، بأن القرآن لا يكفّر فقط المسيحية، بل يُحاربها، وهكذا ذهبت مشاعر التقارب والتّحابب والانفتاح وحوار الأديان في أدراج الرياح، وحل محلها واقع الاضطهاد التاريخي المرير. لقد عدنا إلى براغماتية أبي تمّام: "السّيف أصدق أنباء من الكتب ... في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب". ولم يبدأ المسيحون بالعداوة، هكذا يقول الصدّيق، وهذا اعتراف آخر، افتُكّ منه عنوة، لأن القرآن نفسه هو الذي يُعلن ذلك صراحة، والصدّيق لم يفعل أكثر من مُجاراته وتبريره.

المسلمون إذن هم الذين بدأوا العداوة، والقرآن هو الذي انطلق في التجريح في عقيدة المسيحيين وانتصب عليهم كوَصِيّ يُعلّمهم أسس دينهم. لكن الصدّيق يُحمّل المسؤولية للمسيحيين: «لقد عمّقت مسألة التثليث (الثالوث) العلاقة الغيرية العدائية بين المسلم والنصراني». هذه مغالطة تاريخية فاقعة: المسيحية عاشت على معتقد التثليث لمدة ستة قرون، قبل أن ينزل القرآن، وقبل أن

يغزو المسلمون بلاد الشرق، ويتدخّلوا في معتقداتهم ويهاجموا مقدساتهم ويهدموا كنائسهم ويحطموا صلبانهم. على من يَقَع اللوم؟ أأنا في بلدي، أعيش بسلام بين أهلي، مؤمن بديني، وملتزم بعقيدتي ويأتيني شخص من أقاصي الأرض لكي ينقضّ عليّ ويَفتِك بي لأنني أُومِن بالتثليث؟ أيُّ منطق هذا؟ أين التسامح والانفتاح والمَحبة؟

لقد تجاوز هذا "الفيلسوف" كل حدود اللياقة والأخلاق، وسمح لنفسه بالتحدّث عن "أهل الكتاب"، وعن "فَرْض الجزية"، وكأن ذاكرته توقّفت عند عصر الخلفاء الراشدين، ونَسي أنه يعيش في القرن الواحد والعشرين، في دولة مواطنة ومساواة في الحقوق والواجبات. فالرجل متمسّك بهذه التقسيمات الطائفية التي عفى عليها الزمن (عادت مع داعش)، ويردّد حتى أكاذيب الشيوخ الذين، حينما يُواجَهون بنصوصهم وتاريخهم، يزعمون أن الجزية على المسيحيين واليهود فُرضت لحمايتهم: «أهل الكتاب يدفعون الجزية حماية لأنفسهم[267]».

وبعد أن حسّن صورة الجزية التي جُعِلت بالأساس لنهْبِ المسيحيين والتمييز بينهم وبين المسلمين، يعود على نفسه، وربما يؤنبه ضميره: «أعتقدُ أن مسألة الجزية ظلمٌ وفيها تمييز بين الناس. الجزية في الأصل، ضريبة يدفعها أهل الذمة من اليهود ومن النصارى عن قهر وذلّ، إلى بيت مال المسلمين. ومن المفروض أن بيْت المال لا يُدفع له إلاّ من المسلمين أنفسهم[268]».

كلام صائب وإنساني، رغم أنه مناف للتاريخ لأن بيت مال المسلمين هي بيت جباية ونهب لخيرات الشعوب، و"أهل الكتاب" هم الذين يدفعون لها القسط الأكبر من عرق جبينهم. لكن أن يقول إن الجزية هي ظلم فلا يمكن إلاّ أن نتفق معه ونزكّي قوله، إيمانا منّا بأن الدولة الحديثة هي دولة مواطنة وليست دولة دينية تتبع نهج التمييز الطائفي الذي سلكتُه في العصور القديمة، والتي يجب أن نتملّص منها ونقبرها في ذاكرة التاريخ. لكن بَهجَتنا تتلاشى، لأن هذا الرجل، إن لم يُجَنِّن قارئه بتحاليله الفيلولوجية المُلخبطة، فإنه يُجَنِّنه بتناقضاته المفزعة، وبتساهله مع أبسط قواعد المنطق والحس الأخلاقي السليم.

فعلا، بعد أن أنكر الجزية استتشهد مباشرة بهذه الآية التي جَلبتْ طوفانا من المآسي على المسيحيين: (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون). تحليل لغوي بسيط لهذه الآية: أمرٌ نازل من الله لمؤمنيه الأتقياء بأن يقتلوا كل أهل الكتاب، يعني يهود ومسيحيين، ممّن امتنعوا عن اتّباع دين الحق (يعني الإسلام). كلام واضح شفاف: تحريض علني على القتل. لكن لا واضح ولا شفاف، المقدمة مختلة: كيف يمكن لأهل الكتاب أن لا يؤمنوا بالله ولا باليوم الآخر؟ ألا تنطبق هذه القولة على الملحدين؟ أليس من أصول الإلحاد عدم الإيمان بالله والرسل والحياة بعد الموت؟

لكن قَتْل أهل الكتاب فيه مخاطر كبرى: أوّلا لأنك لا تستطيع أن تقتل الناس جميعا وتُقفر الأرض منهم، ولا يمكنك أن تلاحقهم إلى أقاصي الدنيا لكي تُفنيهم؛ ثانيا، لأنك لو قتلتهم لضيَّعت عمليّا فرصة التّمتّع بأموالهم وخَيْراتهم، وبالتالي الأفضل أن تُبقي عليهم في حالة عبودية، يَشتغلون لصالحك، أي أن تجعل منهم آلات مُتنفّسة، وتستغلّ ثمار أتعابهم وتنكح نساءهم. القرآن هنا لم يُخيّر المسلمين بين هذا أو ذاك، وإنما أجاز لهم فعل هذا وذاك: القتل متى شاؤوا، والابتزاز المادي كيْف شاؤوا. وهذا ما حدث فعلا وما قام به المسلمون عبر التاريخ.

كيف تَعامل الصدّيق مع هذه الآية؟ نَسَّبها، أي رَبطَها بواقعها التاريخي، وبالتحديد «بظرفيّة الحرب[269]». وهذا هو الملاذ الأخير الذي يلجأ إليه المسلمون للخروج من المأزق: تنسيب آيات القتل. لكن لا تظنّوا أن الرجل سيَثبتُ على موقفه دون ينقضه في الحين؛ فهو إسلامي وهابي، ولكونه كذلك، فهو غير مستعدّ لأن يتخلّى عن قدسية النص، أو يُنكر صلوحيته الدائمة حتى إزاء هذه الآية العنيفة.

لا ينكر الجزية، بل يبرّرها تبرير شيوخ الفضائيات قائلا بالحرف إن الجزية «أصبحت أداء معيّنا لحراسة دور عبادتهم (الكنائس والبيع). لأننا نعتقد أنهم من أهل الكتاب، وأن التعايش معهم عادي[270]»؛ لم يَتخلّ عن التسمية المهينة، "أهل الكتاب"؛ لم يتملّص من أكاذيب المسلمين في ادّعائهم أن الجزية جُعلت لحراسة معابدهم.

الرجل يتحدث عن التاريخ، لكنه لم يرجع إلى كتب المؤرخين العرب الذين رووا بالتفصيل كل الإهانات الفظيعة والاضطهاد والتهجير والإبادات الجماعية التي تعرّض لها المسيحيون طوال تاريخهم في ظلّ الخلافة الإسلامية، والتي انتهت بمجزرة الأرمن، والآن بمجزرة مسيحيي العراق وسوريا.

كل هذه المسائل المحورية لم يتطرّق إليها فيلسوفنا، ولم يعرّج عليها وإنما انطلق مُحلّقا في سماء التاريخ كما قرأه هو: «تاريخيّا تمّت هذه القطيعة بينهما [بين الاسلام والمسيحية] وتعمّقت بفعل مجمع نيقيّة سنة 352 أي بعد أكثر من ثلاثة قرون من صلب المسيح حسب ادعاء هذه الكنيسة[271]». مرة أخرى نحن أمام تزوير فاضح للتاريخ، وتهجّم سافر على المسيحية وبنودها الأساسية. عن أي قطيعة يتحدث هذا الرجل والإسلام لم يولد بعد؟ كيف يقول إن صلب المسيح هو ادعاء من طرف الكنيسة؟ ألم يُذكَر الصّلْب في الأناجيل الأربعة، بصريح العبارة؟

لكي يُثبت عقيدة القرآن، التي تنفي صَلْب المسيح، فقد لجأ إلى المسيحيين، دون أن يَأتي بمرجع أو دليل واحد، لأن المسيحي الذي لا يعتقد في الصّلب ليس بمسيحي. لكن الرجل مُصرّ على إهانة المسيحيين، وتهديم مقدساتهم، بكل الوسائل، حتى الكاذبة منها: «إن بعض الدراسات الجديّة

ومن المسيحيين أنفسهم تعتقد أنه لم يكن هناك صلب، لأن الصليب لم يكن معروفا بل كان شيء يشبه الخازوق عند الأتراك (pilori)، أما الصليب فقد جاء متأخرا جدا في تاريخ النصرانية[272]».

هذه آخر موضة استحدثها المسلمون: فقط لأن الصليب لم يُعرف في عصر المسيحية الأولى فإن يسوع لم يُصلب، وبالتالي القرآن صادق، والمسيحيون إلى الجحيم.

10. المسلم آريوس والكافر المسلم

ولإتمام مهمّة القضاء على المسيحية، واعطاء ذريعة ايديولوجية لتهجير المسيحيين أو الفتك بهم؛ ولِطَرح الإسلام كبديل نهائي، ثم تَصْفية الحسابات مع العلمانيين واللادينيين في البلدان العربية، فقد توجّه الصدّيق إلى الراهب آريوس. وهو الشخصية المحورية التي اكتشفها الإسلاميون في المدة الأخيرة، وقدّموه كمخلّص لهم من الورطة التي ورّطهم فيها القرآن. آريوس والأريوسيون، من هم؟ الصدّيق يتوسع في الشرح، ويغتبط باستعراض علمه الغزير، مُوفّرا للقارئ معلومات تاريخية قيّمة: «إن مَن عَادَى محتوى مجمع نيقيّة الحائر في طبيعة المسيح: هل هو من طبيعة إلهية؟ هل هو إله واحد أو مجموعة أقانيم؟ هل هو ابن الله؟ هو شخص يُدعى أريوس اعتقد في بشرية المسيح وأنه شخص بَشَرٌ إنسان. وكانت أفكاره منتشرة في جنوب البحر الأبيض المتوسط والتفّ حولها كثيرون. عادى أريوس بموقفه هذا مجمع نيقية الذي قرّر أن للمسيح طبيعة إنسانية وطبيعة إلهية وهو ابن الله (التثليث) وتأسست المسيحية التي ستصبح بعد ظرف قصير الكاثوليكية التي نعيشها وحاربتْها في ما بعد البروتستانتية مع المتديّن الألماني لوثر ..[273]».

هذه هي عُصارة فِكْره التاريخي الجديد، وفحوى سرديّاته العلمية الدقيقة التي يتباهى بها في كتبه وحواراته الصحفية. إنه لمن العجب حقا أن يسرد بهذه الطريقة السطحية جدا، مسألة عقائدية، تخص المسيحيين فقط، أعني ألوهية المسيح، وهم المسؤولون عنها، وهم سَعِيدُون بها، ولا دخل لنا فيها، ونَتمنّى لهم حظا سعيدا وإيمانا مقبولا.

لكن المسلم، اسوة بقرآنه، يتدخّل في كل شيء، ويزجّ بأنفه في عقائد الآخرين لكي يُغطّي على نقائص دينه وكتابه. صوتٌ في الصحراء لراهب ليبيّ عاش في القرن الرابع، أصبح بالنسبة للمسلمين قارب نجاة، لكي يبرهنوا على أن الإسلام سابق على الإسلام، وأن القرآن حق، وأن كل ما يعتقده المسيحيون باطل وضلال.

بعد أن استقرّ له التهكّم على المسيحيين والاستهانة بدينهم، بقي عنصر آخر يجب الحسم معه: المُرتدّ، يعني الإنسان الذي يعيش في بلد عربي ووُلد على دين الإسلام ولكنه اختار أن يُبدّل دينه أو يهجر الأديان كلها ويَعتنق الإلحاد. في دولة حديثة دستورية، كل فرد حرّ في الاعتقاد، وفي

عدم الاعتقاد، والمواطنون مُتساوون في الحقوق والواجبات، ولا يعاقب أي شخص على نقده للدين أو الكفر به علانية.

القرآني يوسف الصدّيق يتعجّب من إصرار المسلمين على قتل المرتدّ، فهو لم يجد هذا الحكم بتاتا في القرآن، والدليل على ذلك هذه الآية (مَن كفر بالله من بعد إيمانه إلاّ مَن أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم).

وإذا غاب الحكم من القرآن فالمبدأ إذن هو أن لا حدّ على المرتدّ، ولا حدّ على من يكفر بالله، ولا عقاب لمن ينسلخ من الإسلام وينكر نبوّة محمد ويمزّق القرآن. فالإنسان حر في اختياره الكفر، وكمواطن حر يعيش في دولة مدنية، له نفس حقوق المؤمن. من المفروض أن يكون هذا رأي الصديق، لكن في ثنايا أقواله بدأت الدائرة تضيق، وأخذت المبادئ تُنَتَّف هباءات، وتَتَناثر في الهواء. أوّل تَضييق هو هذا: «لم يقتل الرسول المرتدّين إلاّ في حروب[274]».

وهذا أول خرق للمبدأ. الخرق الثاني يمس العلمانيين واليساريين والملحدين في أرجاء العالم العربي الاسلامي. والذريعة هي المحافظة على السلم الاجتماعي، وقد استعملها راشد الغنوشي، رأس التكفيريين في العالم، للتضييق على حرية الفكر، باعتبار الملحد أو المجاهر بنقده للإسلام، أو المُفطر في شهر رمضان، هو شخص يهدّد السّلم الاجتماعي، وبالتالي وجب حبسه أو جلده أو قتله.

إن المواطن الملحد، في تشريعات الصّديق، نتسامح معه فقط إذا كان إلحاده مَكتوما في صدره، وبين أربعة جدران، يعني إذا كان مُنافقا، يتظاهر بالإيمان في الخارج، ويَكبت كفره في قرارة نفسه، أما المؤمن فلا ضير عليه في إظهار إيمانه والصلاة في الساحات العامة، كما فعل الاسلاميون بعد ما يسمّى بالربيع العربي: «إن الإيمان شأن مكتوم لا يظهر للعيان إلاّ إذا كانت المسألة ذات علاقة بالسلم الاجتماعي والأمن القومي فيتبجّح بعضهم على الملأ بأنه كافر بالله ورسوله ويُعادي الإسلام».

لقد قصّ علينا الصديق سيرة حياته ومغامراته الفكرية في فرنسا مع كبار مفكريها وفلاسفتها المشاهير، وعاش في مجتمع علماني، عرف عاداته وتقاليده وتراثه الفكري والروحي، أنا أسأله: هل أن مواطنا فرنسيّا، أعلن أمام الملأ أنه كافر لا يؤمن بالله ولا بيسوع ويعادي المسيحية، يُعتبر فعله مسّا بالسلم الاجتماعي؟ هل يُسجن لأجل كفره؟

إن هذه التّخريجة الغير حصيفة تُثبت إثباتا قاطعا أن الصدّيق هو إسلاموي شرّير، دخيل على الفلسفة، يتبنّى معتقدات السلفية الوهابية الأكثر تطرّفا وعنفا وتخلّفا، والتي جلبت الدمار للعالم العربي؛ إنه يُسرّبها في ثنايا كتاباته على جرعات متفرّقة، بين انفتاح وانغلاق، بين عبارة يونانية وأخرى لاتينية، بين خرافة وأخرى. وإلى كل من يشك في رأيي هذا فليَقْرأ العبارات القبيحة التي

وصف بها ناقدي الإسلام أو المجاهرين بالخروج عنه. إنّ نقْدَ الدين الإسلامي بالنسبة إليه هو فعلٌ «لا يأتيه إلاّ شاذّ قريب في تصرّفه من تصرّف الأحمق أو المجنون[275]».

بدل أن يقول "كافر"، "مرتدّ"، ويُقرّ بما يُفتي به السلفيون وشيوخ الإسلام كلهم، من وجوب إقامة حدّ الردة عليه، فقد اقترح سِجنه المؤبد في مصحّة عقلية، لأن من يُنكر الإسلام ويعاديه، هو شاذ وأحمق ومجنون. في دولة الصدّيق، المرتدّ لا يُقتل في الساحة العامة أمام كامرات الصحفيين العالميّين، كما يحدث في السعودية، المرتد يجب أن يُقتل اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا وفكريا، بالموت البطيء، في زنزانة انفرادية بمستشفى المجانين. لست أنا من يقول هذا بل الصدّيق نفسه: «إذا صرّح أحدهم على رؤوس الملأ بأنه يُفاخر بكفره ويتحدّى المجموعة المسلمة، فهو مجنون وجب أن يُعالج[276]».

***

لكي يَتجرّأ شخص على التفوّه بشيء من هذا القبيل يجب أن يكون دماغه مُعَتّما كليا بالتّعصب. إنّ دينا يلجأ إلى المحاكمات، إلى المشانق والمحرقة، بدل الأسوة الحسنة والتسامح، يثير الرعب أكثر من أيّ نظام استبدادي دموي. فالمستبدّ له، على الأقل، مَزيّة عدم المراوغة ويقدّم نفسه كما هو، لكن الدين يتظاهر بالدعوة للخير بينما ينشر الارهاب. إذا كان العالم هو مَسْكن يقع بين الشر والجنون، حيث أحدهما يحكم والآخر يأمر، الدين برهن على أنه كلاهما معا[277].

لِمَن لا يزال مُغتَرّا بيوسف الصديق، ويعتبره مفكرا عقلانيا حداثيا، أو حتى إسلاميا منفتحا، فإن هذا الرجل يتكفّل هو نفسه بتَسْفيه أحلامه والقضاء على آماله قضاء مُبرما، ويُظهر له وحشيّته التي تتجلّى في تفسيره لهذه الآية الوحشية هي نفسها: (واقتلوهم حيثُ ثقفتموهم..). وهذا أمر إلهي بقتل كل من يُعثَرُ عليه من الكفار في طريق المسلمين. بماذا أوحت هذه الآية للفيلسوف الصديق؟ لا شيء. لا شيء إلاّ أن «المقصود مِن "ثقفتموهم" ليس القوم الرّحَّل الذين لا قرار لهم، بل المقصود أولئك الذين يُقيمون في مجالس، أي المستقرّون[278]».

لن أعلّق ولو بكلمة واحدة. أترك التعليق والحكم للقارئ.

III

الجابري فيلسوف العقلانية الرشدية

القرآن يعلو على التوراة والإنجيل، والمسيحيون مشركون

1. القرآن استثناء

"القرآن استثناء"، هذا التصريح لم يخرج من فم داعية وهابي في احدى الفضائيات الخليجية، وإنما من الفيلسوف العقلاني الرّشدي محمد عابد الجابري. فيلسوف ناضل كامل حياته لترسيخ الفكر النقدي في الثقافة العربية المعاصرة، ومشروعه الأساسي، كما يكتب نور الدين أفاية، ليس ككل المشاريع «التي بشّر بها كثير من الباحثين والمفكرين العرب، بهدف قراءة التراث العربي الإسلامي قراءة جديدة، أو البحث النقدي عن الأسس الفكرية التي وقفت عليها ثقافة النهضة العربية[279]».

السيد أفاية يُلحق المشروع النقدي لعابد الجابري، بما قام به الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط: «لا يمكن [لِمَشروع الجابري] أن لا يُذكّر المرء بالنقدية الكانطية، في نقد العقل الخالص والعملي[280]»، دون أن يغيب المطلب النهضوي الذي يصبو إليه الجابري شخصيا، وخصوصا «إشاعة الأنوار[281]»، كما يقول أفاية.

لكن هذا الفيلسوف الذي وصلت شُهرته إلى الآفاق، وتُرجمت أعماله إلى عدّة لغات، لم تَمنعه شُهرته وعقلانيّته أو تنويره، من الغرق في تجْريح كُتب الأديان الأخرى، وتشويه تعاليمها في سبيل الاعلاء من دينه وكتابه المقدس.

فعلا، بالنسبة للجابري، كل المنتوجات الأدبية والثقافية السابقة على القرآن لا قيمة لها ولا ترقى إلى مصافّه، سواء أكانت شعرية أو نثرية أو فلسفية أو علمية، أو دينيّة[282]. القرآن له وضعية خاصة ومتميّزة جدا، لأنه بالأساس كتاب مقدس، ومُنزّل من الله، أضف إلى ذلك «أنه نَزل منجّما،

أي خرج إلى مجال الوجود البشري بصورة متدرّجة[283]»، ثم مرّ بمراحل عديدة، محافظا دائما على قدسيته ووحدته، «حتى أصبح كما هو الآن في المصحف[284]»، نما داخليا، سار نحو الاكتمال ثم تشكّل «كنصّ مصون عن الزيادة والنقصان[285]».

وفي مجال الدراسات القرآنية فإن التراث العربي القديم استوفى جميع المسائل، من حيث البحث والتدقيق والتحقيق، ولم يبق للأجيال اللاحقة شيئا ذا بال يمكنهم إضافته إلى أعمال القدماء. وكان سيتواصل الأمر على هذه الشاكلة وستبقى الأحوال مستقرّة، والوعي العربي مُستَكينا وسعيدا، لولا تدخّل مجموعة من المستشرقين الأشرار.

ماذا فعل هؤلاء المستشرقون؟ طرحوا أسئلة على القرآن، غايتها التشكيك في قدسيته، والبرهنة على أنه كتاب إنساني جمّع أساطير التوراة والتلمود والأناجيل المنحولة. جرم كبير، لأن هذه الأسئلة، في رأي الجابري، نابعة من ثقافتهم ومُشرَّطة بعقليّتهم الغربية، «أسئلة تجد مرجعيّتها الصريحة أو المضمرة في ثقافتهم الخاصة بهم[286]».

وبما أنها تابعة لثقافتهم المخصوصة، فهي فاقدة لأية قيمة علمية، لأنها تندرج في إطار ممارسة السلطة، من حيث أنها تُترجم عن وضعية السائل للمسؤول: «فالسائل فاعل، قد لا تخلو أسئلته من ازعاج واحراج حتى عندما يكون وراءها براءة وحسن نية، كما هو الشأن في أسئلة الأطفال[287]».

لكن ثمّة سببا آخر، في نظر الجابري، يُفسّر عدم مشروعية طرح الأسئلة من طرف المستشرقين على القرآن. وهذا السبب هو التّحريف. تابعوا الفكرة أرجوكم. يقول إن المستشرقين يرون أنه من الطبيعي طرح، على القرآن، نفس الأسئلة الخاصة بمسألة الصحة والصّدقيّة التي سبق وأن طُرحت على نصوص الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية.

أن يستعمل المستشرقون هذا المنهج الاستقصائي على الكتب السابقة فهذا أمر أكثر من مشروع، بل يجب تثمينه والانتفاع به، لكن أن يتجاوز الباحثون حدودهم وأن يُطبّقوا مناهجهم على القرآن فهذا أمر غير مقبول وغير جائز بتاتا. فأسئلتهم تفقد من مشروعيتها لأن كل الكتب السابقة محرّفة. فالتوراة يقول الجابري «لم يكتبها شخص واحد بل ساهم في تأليفها كتّاب كثيرون ـ كما يقول الباحثون الأوروبيون من رجال الدين وغيرهم ـ أوّلهم موسى الذي أوحى الله إليه بأن يكتب أوّل سفر للكتاب المقدس يُدعَى التّكوين، ثم واصل كتابتَه "بالوحي" أربعون كاتبًا من جميع طبقات البشر، واستغرقت كتابته ألفا وستمائة سنة[288]».

وهذا يعني أن التوراة ليست عملا موحّدا ولا مكتوبا بإصبع الله، كما يدّعي اليهود، وهنا فإن الجابري (وغيره) يُصدّق، دون أي نقاش أو تشكيك أو استفسار، كل ما يقوله المستشرقون عن

العهد القديم. لكن لا ندري من أين أتى بمعلومة أن موسى أوحى إليه الله بكتابة سفر التكوين؟ في أي كتاب من كتب المستشرقين قرأ هذه المعلومة؟

وإذا كانت التوراة مختلة ومشكوك في وحدتها فإن الإنجيل لا يقل عنها اختلالا وتشوّها، لا بل الإنجيل هو التحريف بِعَينه، يكفي أنه «ليس كتابا واحدا بل أربعة كتب، على الأقل، تروي ما حصّله أصحابها من كلام السيد المسيح وسيرته[289]».

وهكذا عدنا، مع الفيلسوف الجابري، إلى أطروحة الإسلاميين الدائمة، من أن القرآن يتميّز بوَضْعٍ «مختلف تماما[290]» عن التوراة والإنجيل، نظرا إلى أنه لا يتضمّن أي تدخّل بشري؛ إنه وحي إلهي خالص، كتابٌ منزّل من السماء، حرفا ومضمونا، لا يأتيه الباطل من أيّ جهة. وهذه، في نظره، حقائق أوّليك غير قابلة، بأي وجه من الوجوه، للنقاش أو التشكيك، وإلاّ فإن الإسلام سينهار وحياة المسلمين تصبح عدما في عدم. إن قدسية القرآن هي مسألة محسومة من الجذور، ومن العبث بمكان إثارتها أو الخوض فيها، ولم يبق للمفكرين العرب المحدثين إلاّ مناقشة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمُحكَم والمُتشابه.

والحال أن الجابري ليس لديه دليل مادي واحد على أن القرآن لم يكتبه محمد؛ لا يملك أية حجة مقنعة على أن أيَادِ أخرى لم تُغيّر شيئا من القرآن، ولم تحذف بعض المقاطع أو تضيف أخرى. لكن الرجل فيلسوف، وبصفته كذلك من المفروض أن يتحلّى بشيء من الرصانة والموضوعية العلمية، ويتفادى ترديد أطروحات الإسلاميين حرفيا، وألا يترك المستشرقين يخوضون معركتهم مع التوراة والإنجيل، مستثنيا القرآن من البحث العلمي.

عكس ما يُنتظر منه، فإن الجابري مُقتنع اقتناعا راسخا بأن القرآن «لم يكتبه الذي أُوحِيَ إليه به، محمد، بل كان يتلقّاه "قراءة" ويُبلّغه قراءة. ومع أنه اتّخذ كُتّابا يكتبون ما يُقرأ عليهم منه فإن المرجع في مسألة حفظه من الضياع كان في الدرجة الأولى هم قُرَّاؤه، أي الذين يحفظونه عن ظهر قلب[291]».

ما الجديد الذي جاءنا به الجابري؟ ألا نقرأ هذه الأطروحة في كل التراث الإسلامي، من الطبري إلى سيد قطب، وصولا إلى القرضاوي؟ لقد زَجّ بنفسه في مأزق معرفي كبير حينما نَسَّب أبحاث المستشرقين وحصرَها في مجالهم الثقافي، ثم تناقضَ في إطلاق قيمة أعمالهم بخصوص العهدين القديم والجديد، ورفْض تطبيقها على القرآن وعلى تراثه المقدس ككل.

لكن المستشرقين يمكنهم أن يُرجعوا عليه نفس الاعتراض، وأن يُنسّبوا أطروحاته باعتبارها محصورة في مجاله الثقافي الخاص، وليس لديه الحق بالتالي في أن يَفتكّ منهم نتائج بحوثهم في قطاع ما (التوراة والإنجيل) واستبعادها إن مسّت القرآن. والمستشرقون على أية حال

يتميّزون على الجابري في نقطة محورية، وهي أنهم يستخدمون مناهج بحث صارمة أثبتت نجاعتها وفاعليتها في دراسة النصوص القديمة وهي متعالية على الخصوصيات القومية ومقبولة من طرف الجميع.

وإنْ أراد الجابري، وغيره من المفكرين العرب، أن يُزاحموا المستشرقين في ميدانهم، فمن واجبهم أن يأتوا بمنهج جديد وبفيلولوجيا مغايرة للفيلولوجيا الغربية، ويَستحدثوا تاريخا نقديا يلائم أغراضهم. لكن، لا الجابري ولا النّقاد العرب، أتَوا بمناهج تأويلية جديدة، وإنما اكتفوا بنقل كل ما قاله المسلمون القدامى عن القرآن دون تحوير أو تشكيك.

ولكونه قد غيّب عمدا بحوث المستشرقين فقد سهل عليه المُضيّ في طريقه والتشبّث بموقفه التقليدي المشدّد على استثنائية القرآن: «فَرقٌ شاسع إذًا بين وضع "الكتاب المقدس" (التوراة والإنجيل) وتاريخ تكوينه، وبين وضع القرآن ومساره التكويني[292]». وهكذا فإن منهجية التعامل مع القرآن مقرّرة قبليّا ولا جدال فيها، ومحظور علينا التساؤل عن أصله وفصله، أو البحث عن مصادره الأولى. لماذا؟ «لأن الأصل هنا وحي، والوحي ينتمي إلى منطقة التسليم والإيمان، وليس إلى ميدان البحث والبرهان[293]».

لكن اليهودي يمكنه أن يردّ بأن هذا التوصيف ينطبق بالكامل على دينه، نظرا لأنه دين قائم أساسا على الوحي، والوحي، كما اعترف الجابري، ينتمي إلى مجال التسليم، ولا علاقة له بالبحث العلمي والبرهان العقلاني. المسيحي أيضا يمكنه أن يقول إن هذا الوصف ينطبق على دينه، لأنه يعتبر الوحي منطقة تسليم وإيمان، ولا دخل له بالعقل أو المنطق. إذن، لا واحد منهم يحتكم إلى العقل لتَقييم خطابه الديني وسَبر كتابه المقدس، بمن فيهم الفيلسوف الجابري، الذي تَحصّن بالإيمان وترك العقل خارج اللعبة.

لقد حصَر المقاربة العلمية للقرآن، في ميدان التفاسير الكلاسيكية، وضيّق فعاليّة الباحث إلى الحدّ الأدنى بحيث إن أقصى ما يمكنه القيام به هو طرح، باحتشام، بعض الأسئلة، ليس على القرآن مباشرة، ولا لكي يتمّ تمحيصه بالعقل أو التشكّك في قدسيته، وإنما على "الظاهرة القرآنية"، دون الادّعاء بإعطاء أجوبة قطعية أو كشْف حقائق نهائية. ورغم ذلك فإن الجابري لم يُفعّل أيّ من هذه الشروط، ولم يطرح أي سؤال جدّي على النص القرآني، أو على الظاهرة القرآنية، وإنما اكتفى بالقول إن القرآن يشرح بعضه بعضا[294]، مع تدقيق هام وهو أنه سيعمد إلى إقصاء «الاسرائيليات وأنواع الموروث القديم السابق على الإسلام[295]».

لكن هذا خطأ منهجي جسيم، لأن اقصاء ما يُسمّى بالإسرائيليات أو الموروث القديم هو تَعسُّف على الوعي التاريخي، وسلخٌ للإسلام من محيطه الثقافي. فالإسرائيليات هي العمود الفقري للقرآن، ومن دون الأساطير المتضمّنة في التوراة والتلمود والأناجيل المنحولة لن نفهم القرآن بتاتا.

2. جولة تاريخية: عيسى مَكْتُوب عند اليهود، ومحمد مكتوب عند اليهود والمسيحيين

ولقد تَسنَّى للجابري أن يقول كل ما يجول بخاطره ضد الكتب الأخرى لأنه تعسّف على التاريخ، وغيّب الأديان السابقة التي هي المَعين الأول للقرآن. بدأ بشبْه عنوان: «... النبي الأمّي ... مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل[296]». ثم استشهد بالآيتين: (الذين يتبعون الرسول النبي الأمّي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل)؛ (وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد، فلمّا جاءهم بالبيّنات قالوا هذا سحر مبين).

على هذين الآيتين احتج اليهود والمسيحيون، منذ أن اطّلعوا على القرآن، وقد فسّروا وبيّنوا أن ما يقوله القرآن هو طعن في دينهم واعتداء على مقدساتهم، وتحقير لرسالتهم الخالدة التي لا رسالة ناسخة بعدها. ومن خلال صريح هذين الآيتين، يبدو جليّا أن القرآن قد أغلق أي باب للتقارب أو للحوار بيْنه وبين أهل الأديان، ووَضَعَهم أمام خيار قاسٍ: إما أن يَقبلوه أو يَسقطوا في النكران والتجديف والكفر[297].

ولنا أن نتصوّر ذهول اليهود أمام هذا الادعاء، وهم الذين دشّنوا هستيريا النبوة والتقديس وفكرة الدين الحق. فالوضعية اللاهوتية التي وجدوا أنفسهم عليها، بين الدينين اللاحقين، شاقّة جدا، لأنهم لم يُضمّدوا بعد جراحهم من المسيحيين الذين افتكّوا منهم ارثهم الكتابي، وادّعوا أن كل نبوءات التوراة تُبشّر بمجيء يسوع المخلّص، وألزموهم بأن كتابهم هو الشاهد الأصدق على صحة هذه البشارة، وإذا بفِرْقَة جديدة تخرج لهم، من عمق الصحراء، لكي تُعْلِمَهم بأن المسيح المنتظر المنصوص عليه في كتبهم قد ظهر، وأن كل النبوءات تحققت في شخصه، ولم يبق لليهود (وللمسيحيّين) إلا اعتراف بالأمر الواقع والاذعان للحقيقة.

وهكذا فُتح باب السجال من جديد، وأعْلِنت الحرب بين الأديان الثلاث، بعد أن كانت تدور رحاها بين دينيْن فقط، وكل واحد يدّعي لنفسه أحقّية إرث البشارة الإلهية الطّاهرة المقدسة، وينفيها على الآخر. فأهْل الأديان لا يستطيعون أن يبرّروا وجودهم دون إقرار السابقين بهم، ولكن السابقين غير مستعدّين للاعتراف باللاحقين، وإلا فإنهم سيَقْضون على أنفسهم بأيديهم، ولذلك فإن كل دين

يجد نفسه في حالة دفاع وهجوم: اليهود نفوا نفيا قاطعا أن يكون يسوع المسيح مكتوبا في توراتهم؛ المسيحيون كذّبوهم، وكذّبوا ادّعاء المسلمين بأن محمدا هو الفارقليط الذي بَشّر به يسوع؛ والمسلمون كذّبوا اليهود والمسيحيين وقالوا إنهم أخفوا وزوّروا وحرّفوا.

ولا واحد منهم التجأ إلى العقل لكي يبرر وجوده، لأن العقل يفنّدهم جميعا ويقضي على استيهاماتهم قضاء مُبرما، ولذلك يتحاشونه، ويميحون إلى تأويلات مُتشعّبة وخيالية لكتاب أسطوري، هو المعين الأول للأديان الثلاثة.

المسيحيون والمسلمون يستدرجون اليهود بالقول إنهم يؤمنون بكتبهم ومُصدّقون لنُبوءاتهم، ولكنهم في الحقيقة، يَسخرون منهم ويستهينون بكتبهم، متّخذين من إرثهم مطيّة يمرون عليها بأمان للضفة المقابلة ثم يهدمونها. وقد عبّر ابن حزم أحسن تعبير عن هذه العقلية بقوله: «إنّا إنما آمنّا بنبوّة موسى الذي أنذرَ بنبوّة محمد، وبالتوراة التي فيها الإنذار برسالة محمّد، باسمه ونسَبه وصِفة أصحابه[298]». هذا في ما يخصّ اليهود، أما المسيحيون فلا يختلف الموقف إزاءهم: «وهكذا نقول في عيسى والإنجيل حرفًا حرفًا». وبالجملة المبدأ هو هذا: «لا نؤمن بموسى وعيسى اللذين لم يُنذرا برسالة محمد، ولا نؤمن بتوراة ولا إنجيل ليس فيهما الإنذار برسالة محمد وبصفة أصحابه»، وبالتالي لا يبقى إلاّ التكفير والحرب: «بل نَكْفر بكلّ ذلك، ونبرأ منهم، ولا نُوافقهم قطّ على ما يدّعونه[299]».

وليس الكفر بهم فقط بل لَعْنهم ولعن كتابهم، يواصل ابن حزم، لِمَا فيه من كفريات، مثل ادعائهم أن الله هو أبوهم الذي ولدهم، وهذا الادعاء أثار غيظ ابن حزم فانهمر منه سيل من الشتائم والتجريح: «كل من عرفهم [اليهود] يعرف أنّهم أوْضَر [أوسخ] الأمم بزّة، وأبردهم طَلعة، وأغثّهم مفاظع، وأتَمّهم خبثا، وأكثرهم غشّا، وأجنبهم نفوسا، وأشدّهم مهانة، وأكذبهم لهجة، وأضعفهم همّة، وأرعنهم شمائل، بل حاشا لله من هذا الاختيار الفاسد[300]».

إنّ تطاول اليهود على الله، يواصل بن حزم، لم يبق محصورا عندهم بل سرّبوه إلى المسيحيين وأتاحوا لهم بذلك وصف الله بما لا يليق به والامعان في التطاول عليه. فعلا، ما الذي أوحى «للنصارى وسهّل عليهم أن يجعلوا للهِ ولدًا إلاّ ما وجدوا في هذه الكتب المَلعونة المَكذوبة المُبَدَّلة بأيدي اليهود؟[301]». وكيف لا يكون الأمر كذلك وقد جاء في مزمور داود: "قال لي ربي: أنت ابني، أنا اليوم ولدتُك (مزمور 2: 7)": «فأيّ شيء تُنكرون على النصارى في هذا الباب؟ ما أشبه الليلة بالبارحة!». وقد جاء في مزمور 82: 3 "أنتم بنو الله، وبنو العليّ كلّكم"، تعليق ابن حزم: «هذه أطمّ مِن التي قَبْلها، ومِثل ما عند النصارى أو أنْتَن[302]».

كل كتب بني اسرائيل وكل براهينهم هي «محرّفة مُبدّلة مكذوبة»، وإذا كانت كذلك «فلا يجوز البتّة، في عقل أحد، أن يَشهد، في تصحيح شريعة ولا في نقل معجزة ولا في إثبات نبوّة، بنقلٍ

مكذوب، مُفترى، موضوع[303]».

هذه هي السمات المميزة لتعامل المُتديّنين فيما بينهم: تكذيب، وشتم وتكفير، ثم المرور من الكلام إلى الفعل، ومن التحريض على القتل إلى القتل، وهي صفة ملازمة ودائبة لكل دين من الأديان التوحيدية.

ولقد اتّبع هذا النهج التكفيري العدائي، المجادلون المسيحيون الأوائل، من جوستين إلى كليمانس الاسكندراني وأوريجينس، مرورا بترتليانس، ووصولا إلى اللاهوتيين المحدثين، حتى أصبح باب "نقض اليهود"، فصلا مسقرا في كتب المجادلين المسحيين. القديس جوستين، في حواره مع طريفون، حبر يهودي، يحاول استدراجه للوقوف على نقطة مشتركة، ثم ينقلب عليه ويسحب منه مشروعيته. وهي التقنية التي استعملها القرآن في ما بعد مع من أسماهم بأهل الكتاب، وذلك باستدعائهم لنبذ الاختلافات والاتفاق على مبدأ مشترك (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم)، ثم كَفّرهم وأمرَ بقتلهم إن لم يستجيبوا للدين الحق.

جُوستين يتوجّه للحبر اليهودي ويقول له: إن المسيحية تؤمن بالإله الذي تؤمنون به أنتم، لكنها لا تعتقد في أن الخلاص يأتي من اتّباع شريعتكم. وهذا الأمر، بالنسبة إليه، ليس ادعاء مجانيا وإنما مذكور في كُتبكم: «لقد قرأتُ أنه سيكون هناك ناموس أخير، وعهد أهمّ منه: إنه العهد الذي يجب أن يلتزم به الآن كل البشر الذين يدّعون امتلاك ميراث الله[304]». إن شريعتكم، يواصل جوستين، هي ناموس قديم (παλαιὸς νόμος)، وهي مخصوصة بكم وحدكم؛ لكن الشريعة الجديدة «هي للكلّ (πάντων) على الاطلاق ([305]ἁπλῶς)».

إن هذه الحجة التي تُقدّم المسيحية والمسيح نفسه، كعهد جديد وناموس جديد، متجاوزٍ للنواميس القديمة وماحٍ لها، تُلخّص نصف الأدلة المعارضة لليهود التي قدمها جوستين[306]. لكن في الحقيقة لم يستفرد بها جوستين ولم يُدشّنها هو الأول، فقد تقبّلها من التراث الجدالي ضد اليهود وربما من التراث اليهو ـ مسيحي الذي يعترف فقط بشريعة موسى. وتاريخ هذا التصوّر، يعود إلى الإنجيل ذاته حيث نجد في مرقس كلمة العهد الجديد (τῆς διαθήκης)، التي تفوّه بها يسوع في العشاء الأخير مع حواريّيه: "هذا هو دمي الذي للعهد الجديد (sanguis meus novi testamenti)، الذي يسفك من أجل كثيرين"؛ وفي انجيل متّى قال يسوع: "لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد (τῆς διαθήκης) الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا". بولس نفسه يتحدث عن عهد جديد "الله الذي جعلنا قادرين على أن نكون خدام عهد جديد (καινης διαθηκης)"، وكذلك في رسائل أخرى لبولس (رومية 3: 27؛ عبرانيين، الخ).

بالنسبة لجوستين ثمة مبدأ عام وهو أن أيّ ناموس لاحق يُضادّ ناموسا سابقا، يجب بالضرورة أن يَنسخه، وأيّ عهد يُبرَم بعد آخر، يُلغيه بالكامل، وبالتالي لا تفاهم ولا حوار، فالمسألة

محسومة مبدئيا: «بالنسبة لنا نحن، المسيح أعْطِيَ لنا، كناموس دائم ونهائي، عهد ثابت بعده ليس هناك أيّ ناموس، أيّ تعاليم وأية وصايا (οὐ νόμος, οὐ πρόσταγμα, οὐκ ἐντολή)[307]».

ثم تتنزّل المحاججة الكلاسيكية التي تعتمد على التوراة، والمتمثلة في افتكاك ارث اليهود من أيديهم والاستحواذ عليه للبرهنة على أنه، رغم فقدانه لفاعليّته في الحاضر، كان قد تنبّأ بيسوع وبعهده الجديد. فعلا، من خلال التوراة نفسها (اشعيا 55: 3- 5)، يواصل جوستين، تم التبشير بالعهد الجديد وبالشعب الذي سيأخذ المشعل بعدكم، ويحقق وعد الله؛ وكذلك أيضا من فم ارميا (31: 31-32) فإن كتابكم ينص على تأسيس عهد جديد مختلف عن العهد المبرم مع الآباء الأوائل الذين أخرجهم الله من مصر. «إذا كان الله هو الذي أعلن أن عهدا جديدا سيؤسس لتنوير الشعوب، فنحن مدركون جيدا ومقتنعون أنه باسم المصلوب نفسه، يسوع المسيح، سيتخلّى الناس عن الأوثان وعن كل المظالم، وينصرفون إلى الله مثابرين حتى الموت في تقواهم[308]».

وللامعان في تعرية اليهود وسَلْبهم إرثهم، كما سيفعل المسلمون لاحقا، فهو يقول لهم إنّ بني اسرائيل الحقّانيين والروحانيين، مثل، يهوذا، ويعقوب واسحاق وابراهيم، الذين تقبلوا من الله رسالة الإيمان الحق، بُوركوا وجُعلوا أسلاف لشعوب عديدة، هم «نحن، نحن الذين قادهم يسوع المصلوب إلى الله[309]».

وقد استعمل يوسابيوس القيصري نفس التقنية لسلب اليهود أحقيتهم في اعلان أنفسهم خدام الإله الحق. قال إن نبوءات اليهود وصلواتهم وقرابينهم قوبلت من طرف الله بمباركة ومودة، وبظهور الملائكة والأنبياء، الذين حصلوا على حدس صادق وتنبؤوا بالمستقبل. وهي نبوءات أفضل وأرقى من نبوءات الوثنيّين الإغريق التي تعج بالخرافات والقصص المخجلة عن الله[310]. لكن الأنبياء الذين يتحدّث عنهم يوسابيوس هم أقدم من اليهودية، وقد سبقوا ولادة موسى بكثير، بل أسبق من اليهود كأمة. وهنا قسّم يوسابيوس اليهودية إلى صنفين: يهودية مسيحية ويهودية عبرانية، كما يفعل المسلمون تماما: يهودية سابقة عن اليهود، وهي دين ابراهيم الحنيف؛ ويهودية محرّفة وهي التي استقرّ عليها اليهود الحاليون[311].

تابعوا تمييزات يوسابيوس: في بداية الأزمان اليهودية لم تكن موجودة بعد، والأوّلون كانوا يُسمّون عبرانيّين بالاسم والفعل، نظرا إلى أنه لا يوجد يهود، وهذا الاسم لم يكن متداولا قط[312]. هنا يمكننا أن نرى الفارق، يواصل يوسابيوس، بين العبرانيين واليهود: هؤلاء الأخيرين يستمدّون اسمهم من شيخ قبيلة، كان قد تملّك عليهم لمدة طويلة، والآخرون يستمدون اسمهم من "عِبر"، الذي هو جدّ ابراهيم. إن الكتب المقدسة نفسها تُعلمنا بأن العبرانيين سبقوا اليهود، وأن الطريقة التي كانوا يعبدون بها الله، لا تتجاوز عهد موسى وشريعته.

لكن العبرانيين السابقين لموسى، حسب ترتيب الأزمان، كانوا غرباء عن شريعته، فهم يملكون نظام عبادة حرّ ومتخلص من الفرائض، مُكتفين بالعيش على السّليقة، ومتبعين الطبيعة، دون الحاجة إلى قوانين تأمرهم بشيء، وذلك بفضل تآلفهم وعلمهم المستقيم بالفرائض الحقيقية للألوهية.

فهم لا يمارسون الختان ولا يتّبعون أوامر شريعة اليهود التي شرّعها لهم موسى: «هؤلاء لا يمكن أن نُسمّيهم، على وجه الدقة، يهودا ولا حتى وثنيين، نظرا إلى أنهم لم يَتبنّوا الشرك مثل اليونانيين والأمم الوثنية الأخرى. فهم عبرانيون بحسب صيغة الاسم، سواء اشتققنا هذه الكلمة من "عِبر"، أو من القيمة التي نُضفيها عليها من خلال الترجمة اليونانية: عابرين (περατικοὶ)؛ لأن هكذا يمكننا أن نسمّي أولئك الذين ليس لديهم من مهمّة، في الدنيا، إلاّ التوق إلى إله الكون ودراسة كمالاته في خلقه[313]».

والآن، يستطيع القارئ أن يدرك بسهولة الغاية التي يريد الوصول إليها المجادل المسيحي من خلال هذا التقسيم، وأن يعرف السبب الذي من أجله تعلّق بهذه الفرقة: سلب اليهود إرثهم وتَعريتهم من دينهم، ثم إلباس المسيحية ثوب القِدم بإلحاقها بالدين الأول، دين الفطرة؛ وبَطلُ هذا الدين هو ابراهيم[314].

فعلا، هؤلاء الناس الذين عاشوا في كنف الحكمة والتقوى، مترفّعين على الملذات الجسدية، فعلوا ذلك فقط عن طريق قوة التعقل النظري (λογικη θεωρια) والقوانين العُرفية اللامكتوبة[315]. ولقد برز فيهم الأب الذي يتفاخر به شعب كامل، ابراهيم، والذي شهدت له النبوءات المقدسة بعدالة لا يمكن أن تكون تلك المتوافقة مع شريعة موسى، نظرا إلى أن هذه الشريعة لم تكن موجودة بعد. وقد تنبّأت له العناية الالهية أنه سيُصبح أبا للعديد من الأمَم، وصرّحت له بأن من خلاله ستبارك كل الشعوب وكل قبائل الأرض: «نبوءة نراها اليوم وهي تتحقق بالكامل[316]».

أما النبي يعقوب فهو أيضا غريب عن اليهود، حيث وصفته الكتب المقدسة بأنه كان إنسانا كاملا، صادقا، عادلا، تقيّا، بعيدا عن أي عمل خبيث، وبالتالي فإن هذا النبي «لا ينتمي، في شيء، إلى الجنس اليهودي[317]». وكذلك من بعده يوسف الذي أبدى هو نفسه تقوى وحبا لله جديرين بإنسان فاضل، ولذلك، يؤكد يوسابيوس، «فهو لم يكن إلاّ عبرانيا ابن عبراني، وليس يهوديا، نظرا إلى أنه لم يوجد يهود بعد[318]».

إن عصر اليهود تَواصَلَ من موسى حتى ظهور مُخلّصنا يسوع المسيح، كما تنبّأت به كلمات أنبيائهم، وقد أخذت مكانهم اليوم تعاليم المسيح والعهد الجديد لمخلّصنا، والتي تتوافق بالكامل مع الوعود التي أطلقت في تلك الأزمان[319].

لكن اليهود لم يقبلوا بهذه البشارة، ولم يعترفوا بهذا العهد لأنه مكتوب عندهم أن شريعتهم لا يمكن أن تُنسخ أبدا، ولذلك فإن ردّ المسيحيين الأوائل اتّخذ منحى تهجميا قاسيا. جوستين، يشير إلى اليهود بإصبع الاتهام: أنتم عادَيتم هذا الناموس، واحتقرتم العهد الجديد المقدس، وإلى الآن أيضا لا تقبلونه، ولم تُكَفّروا عن خطاياكم: آذانكم صماء، وأعينكم عمياء، لا ينفعكم التطهّر بالماء لكي تغتسلوا من اجرامكم وتمسحوا خطاياكم، «ولا حتى ماء البحر بأكمله (θαλάσσης πᾶν ὕδωρ) يكفي لتَطْهيركم (καθαρίσαι)[320]».

كل شريعتكم لم تُفرض عليكم إلاّ لأن قلوبكم قاسية، كما يقول كتابكم المقدس نفسه، والختان الجسدي الذي تتباهون به، والذي دشّنه ابراهيم «أُعطِيَ لكم كعلامة تميّزكم عن الأمم الأخرى وعنّا نحن، لكي تعانوا أنتم فقط ما تعانونه الآن بالحق (بلادكم خربة. مدنكم محرّقة بالنار. أرضكم تأكلها غرباء قدامكم، وهي خربة كانقلاب الغرباء "أشعيا 1: 7") ولا أحد منكم يصعد إلى أورشليم[321]».

أنتم قَتَلة الأنبياء، يواصل جوستين، كما قال بولس (1 تيسالونيكي 2: 15؛ عبرانيين 11: 32 - 40؛ أعمال الرسل 7: 52؛)، ثم قتلتم يسوع، ولم تكتفوا بذلك بل إنكم «تَدْحَرون بخُبث أولئك الذين يضعون الرجاء فيه وفي مَن أرسله: الإله القدير خالق الكون؛ أنتم تُهينونهم بكل ما أوتيتم من حقد، وترفعون، في معابدكم، اللعنات ضد أولئك الذين يؤمنون بالمسيح. لأنكم لا تملكون القدرة على وضع أيديكم علينا وإيذائنا، بفضل أولئك الذين يحكموننا الآن، لكن كلما سنحت لكم الفرصة فعلتموه[322]».

جوستين يُحمّل اليهود مسؤولية استعداء الأمم الأخرى للمسيحيين، ويحمّلهم مسؤولية قتل كل من هو عادل في هذه الدنيا، وأوّلهم يسوع المسيح: «في البداية صلبتموه، الوحيد الكامل العادل، ذلك الذي جراحه تُوفّر العلاج لأولئك الذين من خلاله سيُرفَعون إلى الآب. ثم، حينما عَلِمتُم أنه قام من بين الأموات وصعد إلى السماء، كما كشفت عنه النبوءات، ليس فقط لم تَتُوبوا عن أعمالكم الشريرة، بل إنكم عَيّنْتُم مَبْعُوثين مُختَارين وأرسلتموهم من أورشليم إلى أقطاب الأرض كلها، لإعلام الجميع بأن بدعة كافرة، بدعة المسحيين، قد ظهرتْ، ولاتّهامنا بكل الموبقات بحيث إن أولئك الذي لا يعرفوننا يردّدونها ضدّنا. وهكذا فإنكم لستم مسؤولين فقط عن ظُلمكم لنا، بل عن ظلم الناس الآخرين كلهم (τοῖς ἄλλοις ἅπασιν ἀνθρώποις) وبإطلاق (ἁπλῶς)[323]».

بخصوص موقف المسيحيين الأوائل من اليهود أكتفي بهذا القدر، لأن موضوعنا الرئيسي منحصر في صراع المسلمين والمسيحيين، لكن تصوّروا استتباعات هذا الكلام على مجموعة من الناس تعيش بين أغلبية مسيحية مقتنعة بأن اليهود قتلوا إلههم في الماضي، ويتآمروا عليهم في الحاضر، ويشوّهون سمعتهم بين الأمم، أقول: كيف لا تؤدي هذه المعتقدات إلى أبشع الجرائم؟

3. المسيحية مسيحيّتان

نحن نتفهّم موقف هؤلاء المجادلين القدامى، دون أن نبرّرهم طبعا، لأن التعصب للدين كان يُعتبر فضيلة في العصور القديمة، نظرا إلى أن الدين يحدّد نوعا ما هوية الشخص في صلب المجموعة؛ لم تكن قد وُلدت بعد فكرة المواطنة، ولم ير النور مبدأ حرية العقيدة. لكن في وقتنا الحاضر، وفي أغلب بلدان العالم، التعصب للدين يُعَدّ رذيلة خطيرة لأنها مَجلبة للتّمييز والاضطهاد والطائفية، وتقود حتما إلى حروب أهلية طاحنة. المثقف العربي عليه أن يتصدّى، بكل ما أوتي من جهد فكري، إلى مثل هذه المنعرجات الأيديولوجية الخطيرة، وأن لا يقدّم أيّ دعم مفهومي لطرف ضد آخر.

كان من المنتظر من الجابري، كفيلسوف عقلاني، أن يتقيّد بموضوع بحثه، وأن يسرد الوقائع والأطروحات بكل تجرّد دون الدخول في مماحكات جدالية حول الدين الحق، لكن الرجل دخل المعمعة حاملا ثقل مَوروثه الديني، مُبْديًا موقفه التقديسي وإيمانه الجنوني بالوحي، الشيء الذي قاده إلى مجاراة القرآن في إقصائه للديانات الأخرى.

وهنا تتمظهر جليّا محدودية عمل الجابري واخلالاته المنهجية، فهو لم يقدّم أي دليل علمي على أن نبيّ الإسلام مذكور حرفيا في الكتب السابقة، وإنما ردد ما جاء في القرآن وفي كتب الإسلاميين الدعائية، قائلا بأن الآيَتيْن «صريحتان في كون التوراة والإنجيل قد بشّرا بقدوم النبي الأمي، أي من غير اليهود، اسمه أحمد. وبما أن أهل التوراة والإنجيل قد أنكروا أن يكون في كتبهم ما يؤكد ما ورد في القرآن فقد كان من الطبيعي أن يتصدى علماء المسلمين للرد والبحث في نصوص التوراة والإنجيل عما يؤكد ما ذكره القرآن[324]».

لقد تَفادى الجابري، مرة أخرى، التدقيق في هذه المسألة وانساق وراء إيمانه دون أن يتفكّر في التناقض القاتل الذي يخترق رأيه هذا. فالمفسرون المسلمون مجمعون، على أن كتب أهل الدينيْن السابقيْن محرّفة، والجابري يتبنّى هذا الرأي دون نقاش لأنه عثر عليه في القرآن قبل أن يعثر عليه عند المفسرين المسلمين، ولكنه لم يسأل نفسه: كيف يلجأ المسلمون إلى استخدام كتاب محرّف لإثبات كتاب غير مُحرّف؟

بعد أن استعرض آراء المسلمين ورُدود المسيحيين، مُستغلاً بعض المقالات الجدالية التي عثر عليها في انترنت، اقتلع مقطعا من القرآن زعم أنه يُثبت معرفة محمد بتاريخ الكنيسة. ثم قدّم معلومة بسيطة، يعرفها الجميع، وهي أن المسيحية نبعت من اليهودية، ومثّلت تطوّرا طبيعيا لتلك الديانة، وقد جاء في القرآن تلميح لهذا الأمر، من دون أيّ تعمّق أو تفسير (فآمنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة فأيّدنا الذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين). لقد تركت هذه الكلمات الغامضة المسلمين في تخبط: من هم النصارى؟ ومن هم المسيحيون؟ هل هما ملّة واحدة أم ملّتين مفترقتين؟

إنها مشاكل عتيقة طواها النسيان، وغير مطروحة حاليّا على المسيحيين، بعد أن تكفّل لاهُوتيّوهم الأوائل بالردّ عليها وتبكيتها، لكن المسلمين أعادوا إثارتها من جديد، وركّزوا عليها لغاية القدح في المسيحية، وتبرير اتّهامهم بتحريف نص الإنجيل وإفساد الدين الصحيح. الجابري اتّبع هذا النهج في الطعن وارتأى من جهته تشويه المسيحية وإنهاكها وذلك بتقسيمها إلى مسيحيّتين: طائفة المسيحيين وطائفة النصارى، وهذا يذكرنا بما فعله يوسابيوس وآخرون، بتقسيم اليهودية إلى طائفة العبرانيين وطائفة اليهود. إن هؤلاء "النصارى"، يكتب الجابري، «كانوا مثل "نصارى نجران" فرقة مبتدعة. وهذه النتيجة هي في الحقيقة كل ما يهمّنا من المجادلة[325]». النتيجة التي تهمّه مبدئيا هي فصل المسيحية الصحيحة، يعني المسلمة، عن المسيحية المحرّفة، يعني مسيحية المسيحيين. سؤال الجابري: «من هم يا ترى هؤلاء النصارى الذين آمنوا بالأمي قبل بعثته وبعدها، والذين يعتبرهم المسيحيون الرسميون فرقة مبتدعة؟[326]».

من السهل الاجابة، لأن الجابري هيّأ الأرضية للقارئ طوال صفحاته السابقة، حيث يرى أن القرآن تحدث عن النصارى، وليس عن المسيحيين، والنصارى «في عرف علماء المسيحية الرسمية ... فرقة ضالة غير مُعتَبرة[327]». لكن هذه الفرقة الضالة غير المُعتبرة هي، عند المسلمين، مُعتبرة، ومُهتَدِية إلى سواء السبيل، وأتْباعُها «هم المنحدرون من الحواريين (صحابة عيسى) الذين أيّدوه ونصروه، وهم الذين تحدّث عنهم القرآن في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله. فآمنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة فأيّدنا الذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين)».

ومَن الشاهد على ذلك؟ المفسّر ابن كثير في كتاب البداية والنهاية، إضافة إلى مجموعة من العلماء الغربيّين الذين يؤكدون هذه الحقيقة. وهنا يَقتبس الجابري من كاتبٍ مجهول آراء قادحة في المسيحية يروّج لها الإسلاميون في كتاباتهم الدعائية، والغرض منها، كما قلت، هو تثبيت أقوال القرآن وتسويغها بكل الوسائل.

ورغم أن الاسلاميين يقدحون في الغربيّين وفي علومهم الإنسانية ومناهجهم الفيلولوجية المُطبّقة على الكتب المقدسة، إلا أنهم يَغْتَبِطون بها ويَقبلون كل نتائجها حينما يتعلّق الأمر بالتوراة

والإنجيل، أو بالعقيدة المسيحية عموما، أما القرآن والإسلام فممنوع الاقتراب منهما. وها هو الجابري يُثني على ابن كثير ويَبتهج لأن أقواله تتوافق مع أقوال العلماء الغربيّين، حيث يرى أن قول ابن كثير «يكاد يتطابق مع ما يؤكده مؤرخو الدين المسيحي في الغرب».

لم يستشهد بمؤرخ واحد منهم، لم يذكر عنوان كتاب واحد، ولكنه سارع بالقول: «مِن المؤكد عندهم أن عيسى لم يترك كتابا منزلا يضم كلام الله على غرار القرآن، وإنما بَقِيَتْ تعاليمه الشفوية وأخبار نشاطاته الدعوية متداولة بين صحابته المؤمنين به، فقام بعضهم بروايتها في نصوص تسمى الأناجيل (كلمة بمعنى: البشرى) وهي أربعة تُنسب إلى الذين جمعوها وسجلوها وهم متى (Matthieu)، ومرقص (Marc)، ولوقا (Luc)، ويوحنا (Jean). وتُجمِع الأبحاث النقدية المعاصرة على أن هذه الأناجيل قد كُتبت بعد المسيح بنحو قرن من الزمان، وأنها قد تعرّضت للبتر والإضافة والتعديل، وأنها كُتبت باللغة اليونانية، وهي اللغة السائدة يومئذ، ليس في بلاد اليونان والرومان فحسب، بل في سورية وفلسطين ومصر[328]».

هل ثمة أدلّة أقوى من هذه للبرهنة على أن الأناجيل محرّفة؟ هل بقيَ للمسيحيين من ملاذ لنكران حقيقة فاقعة أجمعت عليها الأبحاث النقدية الغربية؟ هذه، في نهاية المطاف، هي الفكرة المركزية التي يريد أن يصل إليها الجابري، وهو في هذا لم يتخطّ اطلاقا مستوى الإسلاميين الوهابيّين، ولا تجاوز طعونهم المسترسلة والدائمة في الديانة المسيحية. لكن قد يعترض عليه المسيحي: هب أنّ كل ما قلتَه صحيح، ومُوثّق وثابت تاريخيا وفلسفيا، ما ضير المسيحية؟ ما دخلك أنت في عقائد الناس؟ هل ترضى بأن يعمد مفكّر مسيحي للقدح في كتابك وفي نبيّك؟

السؤال مشروع لأننا نَتحاور (بَعديّا) مع فيلسوف مرموق، صاحب مشروع فكري كبير، وليس مع اسلامي وهابي معروفة جيدا توجهاته العدوانية تجاه الأديان الأخرى[329]. ولكن، كما قلت، في ميدان قدح الأديان والطعن فيها، خصوصا المسيحية، فإنه لا فرق بين اسلامي متشدد، يعبّر عن نفسه بطريقة عنيفة فجّة، وبين علماني مُتأسْلم، يُعيد نفس الأطروحات بطريقة ملتوية ثم ينمّقها بأمشاج من المصطلحات الفلسفية. وكلاهما، في نهاية المطاف، مَحكومان بخطاب القرآن كمعيار للفصل بين الصواب والخطأ.

وقد ركّز الجابري على الثقافة اليونانية للوصول إلى نتيجة كان قد أعلن عنها يوسف زيدان في كتاب اللاهوت العربي، وهي أن الأساطير الهيلينية أثّرت في المسيحية وقوْلبت معتقداتها. لكن محاولة التوفيق بين العقلانية الفلسفية والإيمان المسيحي، أي بين «ما تُعطيه الفلسفة اليونانية التي تعتمد العقل، وبين ما يُعطيه الدين المسيحي، القائم على الإيمان[330]» باءت بالفشل.

ولا يمكن أن يغيب، في نطاق الحرب على المسيحية، معتقد التثليث، لقد أقضّ هذا المعتقد مَضاجع المسلمين، وحملوه على كاهلهم وكأنه قضيّة تخص عقيدتهم الشخصية؛ كأنهم لا يقدرون أن

يحيوا دون الخوض فيه. وفعلا، ليس هناك من اسلامي أو قرآني أو علماني متأسلم لم يتطرّق إلى التثليث، والجابري لا يشذ عن القاعدة: «كانت الأساس التي شغلت الفكر المسيحي هي تحديد طبيعة المسيح. فالعقيدة المسيحية تُقرر أن أمّه مريم ولدته من دون أن يمسسها بشر، ولكنه هو نفسه له طبيعة البشر![331] ».

انظروا إلى هذا التساهل وهذه الطَّلاقة في عرض معتقدات المسيحيين، وكيف أنه لم يَتَسنّ له قول كلمتين حتى عبَّر عن تَعجّبه. وهو في الحقيقة لم يقدّم شيئا يُعتدّ به علميا، لأن المسيحيين يمكنهم أن يردوا عليه بأن أقواله هذه ليست إلاّ تسطيحا مغرضا لمسألة لاهوتية بالغة التعقيد. والدليل على ذلك أنه لا يعرض الأمر كما يعتقده المسيحيون، ولم يأت بأي شهادة أو نصّ من أدبيّاتهم اللاهوتية، بل إنه بسّط لغرض القدح: «إذًا هو بشر له أمّ، ولكن من هو أبوه؟ الجواب: الله نفخ في مريم من روحه. ومِن هنا قالوا: إذًا الله هو الأب، وعيسى هو الابن، وبين الأب والابن هناك روح الله أو الروح القدس[332]».

وهكذا، بكلّ أريحيّة واستخفاف، الله نفخ في فرج امرأة فأنجبت ولدا، وأصبحوا عائلة مقدسة متكوّنة من رجل اسمه الله، وزوجته، واسمها مريم، وابنهما، يسوع. هل ثمّة في كتابات المسيحيين شيئا من هذا القبيل؟ هل قرأنا في الأناجيل أن الله نفخ في فرج مريم، أي في عضوها الأنثوي كما يصرّح القرآن؟ إن المسيحي لا يرى في هذه الأقوال إلاّ تجديفا على دينه وتهجّما على عقيدته، وتشويها لأسرارها الروحية، بل استخفافا بها وإهانة فظيعة لقدس أقداسه.

لكن الجابري لا يهتم بالمسيحيين بقدر ما يهتمّ بنشر فكره الوهابي واستعراض الانتقادات الكلاسيكية على عقيدة التثليث: «إذ هاهنا ثلاثة أقانيم أو عناصر، فكيف يمكن تحديد العلاقة بينها؟ تلك هي اشكالية عقيدة التثليث (Trinité)[333]». وهنا يدخل التاريخ على الخطّ، وتُفرَد مكانة خاصة للعلماء الغربيين، دون أن يَستشهد باسم واحد منهم أو بكتاب يمكن للقارئ الاستئناس به: «وحسب ما يؤكده مؤرخو العقيدة المسيحية فإن الاعتقاد في الطبيعة اللاهوتية للسيد المسيح، أعني في كونه إلها، لم تترسم إلاّ بعد نحو قرن من الزمن بعد صلبه[334]».

ويبدو أن الجابري، في هذه الجزئية، أكثر رأفة من الآخرين، فقد تفضّل على المسيحيين بتَقْدِيم الاعتقاد في التثليث للقرن الأول، بينما الأغلبية منهم يؤخّرونه إلى القرن الثالث أو الرابع، للتدليل على أنه معتقد مُصطَنع وفاسد. إن الغرض من هذا التأخير، سواء كان قليلا أو كثيرا، هو القول بأن المسيحية الرسمية، مُحرّفة، أما المسيحية (الإسلامية)، فهي صحيحة. وهذا هو رأي الجابري: «أما قبل ذلك، أي خلال القرن الأول الميلادي، فقد كان المؤمنون به أقلية من اليهود ... الذين رأوا في المسيح المخلّص الذي بَشّرت به التوراة. وهؤلاء الذين نصروه. ويرى جل الباحثين أنهم لم يكونوا يعتقدون لا في التّجسد (تجسّد الاله في شخص المسيح) ولا في التثليث، وإنما كانوا يرون فيه نبيّا بشرا مبشرا بالخلاص[335]».

إذن المسيحية الصحيحة ليست هي المسيحية الحالية، وإنما هي مسيحية أخرى، بشهادة الغربيين أنفسهم، والنتيجة هي أن كل المسيحيين الحاليّين هم خارج الدين القويم، وهم يُضيّعون وقتهم وحياتهم في اتّباع دين لا ماضي له ولا مستقبل. هذه ليست فذلكة، وإنما قناعة الجابري الصامدة التي يشترك فيها مع الوهابيين والسلفين، وهي أن ديانتهم ليست الديانة الصحيحة، لا من حيث المعتقدات اللاهوتية الرسمية (الثالوث مثالا)، ولا من حيث التاريخ، والمَنشأ أيضا.

وقد بَنَى هذه القناعة على أساس بحوث العلماء الغربيّين، واعتمادا على مؤرخين كبار لتاريخ الكنيسة. اللافت أن الجابري، رغم توفّر عدد مهول من كتب تاريخ الكنيسة على الشبكة، مِن أقدمها إلى أحدثها، لم يذكر ولو عنوانا واحدا، لم يستشهد ولو بصَفحة واحدة، وإنما لخّص ما قرأه بهذه العبارات: «نَقرأ في تاريخ المسيحية أن أحد علماء اليهود ـ المتفلسفين واسمه الأصلي شاول ـ كان من ألدّ خصوم السيد المسيح ومن أقساهم على أتباعه، لكنه ما لبث أن اعتنق المسيحية وصار من أكبر الدعاة فيها، خاصة في العالم الوثني اليوناني الروماني، خارج المجتمع اليهودي بفلسطين، وقد سُمّي ولُقّب بسبب نشاطه التبشيري ذاك بـ"بولس الرسول"[336]».

ماذا فعلَ بولس؟ أسّس المسيحية، طبعا المسيحية المُحرفة، ودائما بالاستناد إلى مَن أسماهم الجابري «مؤرخو الفكر المسيحي»، ولم يُكحّل عيْن القارئ ولو باسم واحد منهم، أو بعنوان كتاب من كتب تاريخ الكنيسة التي قرأها. فالدقة العلمية لا تَعْنيه بقدر ما يَعنيه الوصول إلى النتيجة، وهي أن بولس هو «أوّل من قام بالتوفيق بين العقيدة التي بشّر بها السيد المسيح التي تقول بإله واحد، وبين الأفلاطونية المحدثة التي تقول بضرورة الوسيط بين الله والعالم، معتمدا في ذلك على فكرة التثليث، وقد حدث ذلك حوالي عام أربعين للميلاد».

إنّ أقوال الجابري تُذكّرني بكتابات الاسلاميين السطحية المهلهلة، والفاقدة للمراجع، أو المحرّفة حتى للاستشهادات، والتي تنقل أحيانا من كتب أخرى دون ذِكرها. لو فتح الجابري أي كتاب لاهوت مسيحي لَعَلِم أن فكرة التثليث لم يَستحدثها بولس، ولم يَنشرها في رحلاته التبشيرية، كما يقول، ولم يُبشّر بها «من سوريا لآسيا الصغرى».

يكفي الرجوع إلى رسائل بولس الرسول، حتى ندرك أنه بَشّر بالمسيح كآدم جديد، وكمخلّص للبشرية، وأنه جاء لإخراجها من ضيق الناموس التوراتي إلى نعمة الغفران بدم المسيح. وقد لخّصها في هذه الكلمات من غلاطية: (لأني مِتّ بالناموس (δια νομου) لناموس [آخر] كي أحيا لله. لقد صُلبتُ مع المسيح، ولستُ أنا الذي يحيا، بل المسيح هو الذي يحيا فيّ. فما أحياه الآن في الجسد، فإنما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله، الذي أحبّني وأسلم نفسه لأجلي. لست أبطل نعمة الله. لأنه إن كان البرّ بالناموس، فالمسيح إذن مات بلا سبب!).

لكن الجابري لا يعبأ بما يقوله بولس والأناجيل، لأنه مهموم بكل شيء إلاّ بالدقة والموضوعية العلمية؛ غَرضُه الأوحد هو التجريح في المسيحية، واعتبارها هجين امتزج فيه اللاهوت بالوثنية اليونانية، في عملية مدّ وجزر، قُبول ونُفور: «استمرّ احتكاك المسيحية بالفلسفة في الاسكندرية بصفة خاصة حيث ازدهرت هي والعلوم اليونانية منذ عهد البطالمة، وكانت قد انتقلت إليها المسيحية في وقت مبكر إذ تأسست كنيستها القبطية عام 42 للميلاد. وعندما أُلّفت الأناجيل الأربعة واتخذت المسيحية صورة عقيدة مرسمة حصل اصطدام بينها وبين الفلسفة فقامت هناك في الاسكندرية، محاولات للتوفيق بين العقيدة التي تقررها تلك الأناجيل بين ما تقرره الأفلاطونية، من مبادئ ورؤى[337]».

4. أوريجينس الوهابي

وبعد هذه الجَرّة التاريخية المختلّة، التَفتَ إلى اللاهوتي أوريجينس لكي يُحيطنا علما بأنه كان أسقفا في الاسكندرية، وأن بعض المصادر «تذكُرُ أن أوريجينس ساح في النصف الأول من القرن الثالث الميلادي في الجزيرة العربية واعظا ومبشرا، ومن جملة من وعظهم أحد أمراء العرب[338]». ليس هذا فقط، بل ادّعى أيضا أنه كانت هناك نزعة توحيدية لدى نصارى جزيرة العرب، وأن أوريجينس هو المتسبّب فيها.

في نقطة ما يصل التزوير إلى مداه الأقصى ـ والقارئ يجب أن يعلم أننا بحضرة فيلسوف، عقلاني رشدي، تُدَرَّسُ كُتبه في الجامعات العربية ـ حينما قال، بخصوص تصور ذات الله، إن أوريجينس تَبَنّى «التصوّر الأفلاطوني للإله المتعالي فقال بالتنزيه المطلق: الله روح مطلق لا علاقة له بالمادة اطلاقا، وإذا كان الكتاب المقدس يصف الله بصفات أو يسميه بأسماء لا تتفق مع كونه روحا مطلقا، مثل وصفه بأنه نور ونفس وروح، فيجب في نظره أن يُحمل ذلك على المعنى المجازي. أما الله في حقيقته فمستقل كل الاستقلال على كل ما هو مادي، فهو لا يتحدد لا بالزمان ولا بالمكان، وبالتالي يمتنع علينا إدراك حقيقته أو التعبير عنها[339]».

لكن هذا ليس أوريجينس الذي نعرفه من خلال كُتبه ومواعظه وتفاسيره، وإنما أوريجينس المسلم، قبل الكلمة، والذي أُلبِس لبوس الوهابية وأصبح موحّدا خالصا، ناكرا للثالوث الشّركي، ناطقا بشهادة أن "لا إله إلاّ الله" ولا ينقصه إلاّ نصفها الثاني "..أنّ محمدا رسول الله". إن العبرة من كلام الجابري هي أن المسيحية الصحيحة هي الإسلام، أما مسيحية المسيحيين فهي محرّفة، بل وثنية وشرك، وبالتالي فإن المسيحيين هم وثنيون ومشركون.

أقول لو كان الجابري باحثا عن المعلومة الدقيقة، وحارصا على الموضوعية العلمية، لفتح أي كتاب من كتب تاريخ الكنيسة، ولو فعل ذلك لتفطن إلى أن اللاهوتي الاسكندراني أوريجينس لم يُسَمّ أسقف اطلاقا وإنما قسّ، مجرد قس وبطريقة رآها البعض أنها غير مشروعة.

إن هذه المعلومة البسيطة كان بإمكانه أن يستقيها من كاتب مسيحي قريب العهد من أوريجينس، أعني يوسابيوس القيصري الذي كتب في تاريخ الكنيسة: «إن اسقُفيْ قيصرية وأورشليم

ـ الذين كانا أشهر وأبرز أساقفة فلسطين ـ اعتبرا أوريجانوس خليقا بأعظم درجات الاكرام، فرسماه قسّا[340]»، ثم في موضع آخر، يُعيّن المكان والظرف الزماني، حيث قال إن أوريجينس أُرسِل إلى اليونان لضرورة مُلحّة تتعلّق بأمور كَنسيّة «فذهب عن طريق فلسطين، ورَسَمَه هناك أساقفة تلك المملكة قسّا في قيصريّة[341]».

لم يَسِح أوريجينس في الجزيرة العربية، كما ادّعى الجابري، ولم يطأها اطلاقا، ولم يلتق بأيّ أمير عربي، ولا أدري حقا من أين استمد هذه المعلومات وأي المُصنفات رجع إليها. إنها أخطاء تاريخية مربكة جدا، هذا إن لم تكن فظيعة، أخطاء جاءت مسطّرة في كتاب بعنوان مدخل إلى القرآن الكريم، يعني لو أن الجابري كان يُكرّم قرآنه لاحتَرَمَ قرّاءه ولأعطاهم معلومات دقيقة ومُوثّقة. لكن، للأسف، ليس هناك من مثقف اسلامي أو علماني مُتأسلم مستعدّ أن يتنازل عن حقه في التحريف والتزوير والهيام في الخيالات وتسويد صفحات ثم رَصّها بكلمات دون معنى.

لقد ذكر أوزابيوس القيصري، في كتابه التاريخ الكنسي، أن برعل "بوريلوس" (Βήρυλλος) أسقف بُصرى العرب (Βόστρων τῆς Ἀραβίας)، الذي ابتعد عن قوانين العقيدة وأدخل بدعة «غريبة عن الإيمان ... الخ[342]»، وقد عاش هذا الأسقف العربي في القرن الثاني وبداية القرن الثالث، في مدينة بصرى الشام العربية. وفي نفس هذه المدينة العريقة المتمسّحة منذ القرن الأول، حصلت بعض المجادلات اللاهوتية أدت إلى الهرطقة، فاضطر الأساقفة إلى استدعاء مجمع لمناقشة أصحاب هذه الآراء الهرطقية، وقد حضر أوريجينس لتصحيح معتقدات الهراطقة وهدايتهم إلى الدين القويم[343]. هذه الواقعة يمكن التأريخ لها بشيء من الدقة، لقد حدثت بين عامي 238 و 244 ميلادي. وهذا نص أوزيبيوس وجوهر المسألة المتنازع عنها: «كان هناك أناس آخرون، في بلاد العرب (τῆς Ἀραβίας)، برزت في تلك الفترة عقيدة غريبة عن الحقيقة: يقولون إن النفس البشرية، في هذا الوقت الذي نحن فيه، تفنى مع الجسد في ساعة الموت؛ لكن في يوم ما، في يوم البعث، ستحيى مرة أخرى معهم. وفي هذه الحالة أقيم مجمع هام، ومجدّدا تمّ استدعاء أوريجين [استُدعي المرة الأولى بشأن الأسقف برعيل]؛ وأخذ يقوم بمواعظ في المجمع حول الموضوع المثار، وقد كان متحمسا لدرجة أنه غيّر أفكار الذين كانوا قد وقعوا فيها[344]».

وبخصوص التصورات اللاهوتية لأوريجينس، يمكن القول بأنه لم يحد عن الإيمان الأرثوذكسي، وهذا بيِّن من خلال كتابه "في المبادئ (Περι Αρχων)"، حيث صدّره ببُنود الإيمان المسيحي التي يؤمن بها الإنسان المتعلّم والانسان العامي على حد سواء: «ثمة إله واحد، في بادئ الأمر، قد خلق كل شيء ... وفي الأزمنة الأخيرة أرسل الله ربّنا يسوع المسيح كما سبق فوعد بذلك عبر أنبيائه .. وقد أعطى هذا الإله البار، أبو ربّنا يسوع المسيح، الناموس والأنبياء والأناجيل: فهو إله الرسل، إله العهدين القديم والجديد».

أما يسوع المسيح فإن أوريجينس يقول فيه، ما يعتقده المسيحيين أجمعين، وهو أنه ابن الله بالجسد: «جاء يسوع ووُلد من الآب قبل كل خليقة. وكما آزر الآب في خَلْقِهِ كلَّ شيء، إذ به كوّن كل شيء، كذلك في الأزمنة الأخيرة، فقد تأنَّس مُلاشِيًا ذاته، وتجسّد فيما كان هو الله، ولبث بعد أن أصبح إنسانا ما كان عليه من ذي قبل، أي الله. وقد اتّخذ جسدا شبيها بجسدنا، مع فارق وحيد أنه وُلِد من عذراء ومن الروح القدس. ومن حيث إن يسوع المسيح قد وُلد وتألّم بالحقيقة».

إذن، "يسوع هو ابن الله"، هكذا يقول في تصدير كتاب المبادئ: «آمنّا بأن المسيح هو ابن الله[345]»، وهذه الحقيقة، يقول أوريجينس، تلقّنها المسيحيون من الله[346]. وككل المسيحيين فهو يفرق بين يسوع الجسدي ويسوع الإلهي، حيث يرى أن «الطبيعة الإلهية في المسيح، ابن الله الوحيد، أمرٌ وأنّ الطبيعة البشريّة التي اتّخذها في الأزمنة الأخيرة من أجل التدبير أمرٌ آخر[347]».

إن ابن الله الوحيد، يقول أوريجينس، قد تلقّى أسماء عديدة ومتنوّعة من بينها: الحكمة، ويُدعى أيضا "البِكْر"، كما قال بولس "هو بِكْر كل خليقة"، وليس هناك من بكر غير الحكمة، فهي طبيعته الأسمى وهي ماهيته تصديقا لبولس الذي قال "المسيح، قوّة الله وحكمة الله".

لكن أوريجينس، لرفع كل التباس، أو أي اعتراض يوحي بأن يسوع هو كيان عقلاني لا جوهري، يوضّح «لا يَظُنَّنَّ أحد فينا أنّنا نقول بأن المسيح خُلوّ من الجوهر حين ندعوه حكمة الله، وكأن بنا لا نجعل منه كائنا حيا وحكيما، وإنما شبه شيء يُكسِب الحكمة[348]». إن الابن في تصوّر أوريجينس هو جوهر قائم الذات، ومساوق لله في القدم: «نَعلم أن الله هو أبدا أب لابنه الوحيد، المولود منه، والآخذ عنه ما هو عليه، دون أيّ بدء، زمنيّا كان أم تَعليليّا[349]».

إذن، يسوع، ابن الله، حكمته القديمة، بمعنى أنها «وُلِدتْ بلا بدء يمكن تأكيده أو التفكير فيه، وفي كينونة هذه الحكمة، القائمة بذاتها، وُجدت الخلائق المستقبلية برمّتها، حاضرة بالقوة ومتخذة شكلا، سواء الكائنات التي وجدت بشكل أصلي، أم تلك التي ابتدرت لاحقا بها[350]». وهذا دليل أن المسيح يتماهى مع الحكمة التي خلق بها الله الكون، يعني أن المسيح هو خالقٌ مِن خالقٍ، إله حقيقي من إله حقيقي.

أما تسمية المسيح بكلمة الله، يؤكد أيضا، أنه كينونة جوهرية ثابتة قديمة «ما دامت تكشف للكائنات كلّها علّة الأسرار والخفايا المحتواة جميعا في حكمة الله: من هنا تَسميتها بكلمة، لأنها أشبه بمفسِّر أسرار العقل[351]».

وتدعيما لرأيه هذا فإن أوريجينس يستشهد بإنجيل يوحنا: «وقد أعلن يوحنا، في بدء إنجيله، بطريقة أسمى وأبهى، محددا تحديدا كون الكلمة الله، إذ قال: "وكان الكلمة الله، كان ذاك في البدء لدى الله"[352]». هذا الابن هو أيضا «الحق والحياة[353]». ثمة وحدة، إذن، جوهرية تجمع الآب

والابن في الفعل، وهذا مشهود به من طرف يوحنا الذي قال: "إن كل ما يفعله الآب يفعله الابن أيضا"، ويعلّق أوريجينس على تماهي أفعال الآب والابن: «إذ يفعل الابن كل شيء يفعله الآب، فإن صورة الآب مُماثلة بشكلها في الابن الذي يشاء مشيئاته لكونه مولودا منه، بازغا منه بالذات[354]».

لكن هذا لا يعني أن الطبيعة الالهية منقسمة انقساما جسميا، بل إن الأمر، يوضّح أوريجينس «أشبه بالإرادة التي تنبثق من العقل دون أن تقتلع منه جزءا، ودون أن تنفصل أو تنعزل عنه[355]».

وقد تجسّد ابن الله هذا في المسيح، واتّخذ هيئة جسم بشري لكي «يُبْرِز في نفسه عظمة الله الآب المقيم فيه اللامتناهية وغير المرئية، بسبب تماثل أعماله وقدرته. لذلك كان يقول لتلاميذه: "من رآني فقد رأى الآب"، وأيضا "أنا والآب واحد". وفي هذا المعنى يجب أن نفهم العبارة: "إن الآب فيّ، وأنا في الآب"[356]».

أما بخصوص الثالوث فإن أوريجينس يقول إن الكل يعترف بوجود إله خالق، ويقرّون بأن له ابنا بالرغم من غرابة هذا الأمر وعدم تصديقه من طرف الفلاسفة[357]، والثالوث، متكون من الآب والابن والروح القدس. والكتب القديمة نفسها، كتب اليهود، تشهد على روح القدس، حيث نقرأ في مزامير داود (المزمور 50) : "لا تنزع منّي روحك القدّوس"؛ ودانيال: "الروح القدس الذي فيك". أما العهد الجديد فالشواهد فيه وفيرة، عندما يروي لنا عن حلول الروح القدس على المسيح، وعن نفخ المخلّص في تلاميذه، بعد القيامة، قائلا لهم: "خذوا الروح القدس"، وقد أعلن الملاك لمريم أن الروح القدس يحلّ عليك. وبولس الرسول يعلّم: "لا أحد يقدر أن يقول: إن يسوع ربّ، إلاّ بالروح القدس". كذلك في أعمال الرسل (8: 18) «فهذا كله يبيّن لنا ما للروح القدس، ككينونة ذات جوهر، من عظيم سلطان ومرتبة، حتّى إن العماد الخلاصي لا يتمّ إلاّ بأَسْمَى سلطان الثالوث، أعني به استدعاء اسم الآب والابن والروح القدس[358]».

إن هذا الثالوث يقول أوريجينس «منزّه عن كل زمن، وكل دهر، وكل أزلية؛ لأن الثالوث وحده يفوق كل معنى يمكن فهمه، لا زمنيّ ... فإن سائر الكائنات، ما خلا الثالوث، تُقاس بالدهور والأزمان[359]».

لقد اخترتُ من بين أعمال أوريجينس العديدة، كتابه العمدة، في المبادئ، وتتبُّعت أفكاره حول بنود إيمان المسيحية، وهي كلها تفنّد أقوال الجابري، الذي ادعى فيها أن هذا اللاهوتي المسيحي كان له تصوّر توحيدي، قريبا من تصوّر المسلمين، نافيا عقيدة الثالوث والتجسّد بينما نصوصه تقول العكس.

5. النصارى هم المسلمون الحقانيون

بعد أن قَضَى أمره مع أوريجينس وأثبت بحجج ضعيفة وبنوع من اجهاد للأفكار والنصوص أنه كان موحدا إسلاميا، التفتَ إلى فرقة الأبيونيّة، واعتبرها فرقة معادية للتثليث المسيحي، وألْحَقَ أصحابها بالمسلمين، لأنهم موحّدون. قال إن الأبيونيين هم النصارى الذين تحدث عنهم القرآن، يعني أنصار المسيح الذين وعدهم الله بأن يكونوا الأعلون إلى يوم الدين (وجاعل الذين اتّبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة). وهذه الآية أحرجت المسلمين وأسْعدَت المسيحيين: المسلمون اشتدّت عليهم المحنة لأن شهادة القرآن تثبت أن المسيحيين على حق وهم الأعلون إلى يوم القيامة، والمسيحيون استدلّوا بها لإثبات أن قرآن المسلمين نفسه يشهد لصحّة دينهم ودوامه إلى الأبد.

والمسلمون في حيرة يتساءلون: كيف يمكن أن يكون المسيحيون على حق؟ كيف يشيد القرآن بأتباع المسيح؟ وما المكانة التي بقيت للإسلام بعد هذه الشهادة الإلهية؟ أليست هذه دعوة صريحة لاعتناق المسيحية؟ وفعلا المسيحيون يعتبرونها شهادة على صحة دينهم وبالتالي المسلمون لا خيار لهم إلا بالدّخول في المسيحة والتّقيّد بتعاليم الإنجيل. لكن هذا الأمر، بالنسبة للمسلمين، يعني الانتحار والفناء التام.

يجب اختراع شيء ما؛ تلفيق ذريعة، وعلى عَجل، للخروج من المأزق؛ يجب إما مُخالفة نص القرآن أو تشويه الأسماء وتزوير التاريخ. وهكذا فعلَ الإسلاميون المحدثون، جمّدوا وعد الله ليسوع وأتباعه بأن يكونوا الأعلون إلى يوم القيامة، تناسوا المعنى الحقيقي لهذه الآية، وفسخوا أتباع المسيح من أذهانهم، لكن حينما لم يستقم لهم الأمر بَدّلوهم، من أنصار المسيح، إلى مسلمين خالصين، وهكذا أصبح المسيحيون الحقيقيون يسمّون مسلمين، أما الأصليون فقد ذابوا في غياهب التاريخ. إن هذه اللخبطة التاريخية اللاهوتية، وهي التي قام بها أيضا المسيحيون بالنسبة للعهد القديم، قام بها المسلمون جميعهم، متعلّمين وجاهلين. والدليل أن فيلسوفا عربيا شهيرا، كالجابري، يُكرّر نفس أطروحة الإسلاميين المجانين، مع تَحْلِيَتها ببعض الأفكار الفلسفية.

الأبيونيون، يعني في عرف الجابري، المسلمون قبل الإسلام: «يستندون في تصوّرهم للدين الجديد على ما ورد في التوراة. كانوا يقولون بأن المسيح هو المخلّص الذي بشّرت به التوراة

وأنه رسول وإنسان كسائر البشر، ولدتْه مريم، كما يولد سائر الناس، ولكن من دون أب بل وُلِد بنفخة من روح الله، وأنه جاء لتطبيق تعاليم التوراة سواء على مستوى العقيدة أو السلوك الديني، ومن هنا حرصهم على الختان وإقامة السبت وتحريم أكل الخنزير ... هؤلاء يهود تنصّروا (قالوا إنا نصارى)، ولكن من دون قطيعة مع اليهودية، معتبرين عيسى هو المسيح الذي بشرت به التوراة[360]».

لا ينقص هؤلاء اليهود إلاّ القِسْم الثاني من الشهادة: "محمد رسول الله"، وهكذا يتمّ دمجهم عن جدارة في الدين الذي سيأتي بعدهم بستّة قرون. بهذه اللعبة اللاتاريخية يريد الجابري، مثل كل الاسلاميين، استدراج القارئ إلى نبذ المسيحية الرّسمية والتعلّق بمسيحية هي إرهاص للإسلام.

لولا أن جاء الشرّير بولس الذي قلبَ الطاولة على رؤوس الجميع وبَدّل دين الله القويم وحوّله إلى وثنيّة، حيث عمَد هو والقديس بطرس وغيرهما «مِن المُنَظّرين للدين المسيحي من تكريس فكرة التثليث وتدشين قطيعة مع الشعائر الدينية اليهودية وإقامة مسلكية خاصة بالمسيحية تنسجم مع نظرية التثليث[361]».

أين براهينه على أن بولس هو الذي ابتدع عقيدة التثليث؟ أين اطّلع عليها؟ أين قرأها؟ لا ذكر للمراجع ولا للشهادات، كلام غائم فضفاض الغاية منه هو كسر المسيحية وتبرير دينه. لكنه لو رجع إلى كتب المسيحيين واطّلع بجدّ على بعض أعمال لاهوتيّيهم لعَلم أن بولس لم يبتدع أي عقيدة جديدة، وإنما علّم ما هو علّمه حواريّو المسيح من قبل، وأن التثليث موجود في الأناجيل ومستمد من قول المسيح نفسه. وهم يستدلون على ذلك بهذا المقطع من الانجيل متّى 28: 19: (فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس).

إن هذا التصريح بالنسبة إليهم يمثّل الصيغة الحاسمة للثالوث من فم يسوع نفسه. كان في فترة سابقة يتحدث عن أبيه الذي في السماء؛ عن أنه هو الابن الوحيد للآب السماوي؛ يذكّر بعلوّ الروح القدس، وفي الأخير أصدع لتلاميذه بهذه الحقيقة النهائية وهي أن «الاله الواحد في الجوهر يحقق في حياته الداخلية ثلاثة أشخاص[362]».

هذا هو اعتقاد المسيحيين وتصوّرهم لإلههم، والذي لا يهم الفيلسوف في شيء لأنه خارج عن مجال تفكيره، لكن المطلوب منه، إذا أراد أن يناقشهم أو ينقدهم، أن يعرض على الأقل أفكارهم بأمانة وألاّ يتجنّى عليها أو يهشمّها لكي يعلي من شأن دينه. والجابري فعل هذا وذاك، لأن الرجل مُصرّ على رأيه أعلاه، وهدفه الوحيد هو إيجاد ثغرة لتمزيق عقيدة المسيحية وفصلها عن روحها، بجعل التثليث من غير جوهر المسيحة وغريب عن تعاليمها الأصلية.

ولأجل تأصيل هذه الفكرة الخاطئة، فكرة التثليث، أقدم بولس وبطرس وغيرهما من أوائل أتباع المسيح على عملٍ قبيح ولاأخلاقي، ألا وهو كبْت الدين الإسلامي، قبل الكلمة، دين اليهود الموحّدين، أو الأبيونيين. الجابري يتحدث بكل تساهل عن هذه الأشياء وكأن لديه مُستندات سرية ونصوصا دامغة تثبتها اثباتا قاطعا. وهو مُصِرّ أشدّ ما يكون عليه الإصرار أن بولس وأتباعه تَعمّدوا، طيلة القرن الثاني والثالث للميلاد، التّضييق «على أولئك الذين قالوا "إنا نصارى"، فشددوا الخناق عليهم ورموهم بِلَقَب "الأبيونيون" (Ébionites) ... وقد أطلق عليهم علماء الإسلام اسم "الموحّدون"[363]».

ولكي يُثبت رأيه هذا فقد رجع إلى علماء غربيّين مجهولين، لم يذكر منهم ولو اسما واحدا، أو مرجعا أو نصا أو استشهادا. قال: «كل ذلك يُرجّح لدينا ما ذهب إليه بعض الباحثين المعاصرين من أن الفرقة الأبيونية ليست شيئا آخر غير فرقة النصارى، ولكن لا بمعنى المنتسبين إلى مدينة الناصرة (حيث نشأ السيد المسيح) كما هو شائع، بل بمعنى الذين نصروا المسيح[364]».

لكنه في لحظة ما تكرّم على القارئ باستشهاد من مفكّر مسيحي مصري، وهو استشهاد نزل عليه مصدقا لما بين يديه؛ لم يقرأه في أي كتاب وإنما قصّر الطريق فاستنسخه من انترنت، ومفاده أن الأبيونيين جماعة تحفظ السبت اليهودي والناموس الموسوي حفظا حرفيا، وتنادي بضرورة الختان. وماذا ينتظر أكثر من مسيحي يعترف تقريبا أن الأبيونيين هم المسلمون؟ لقد سعد الجابري بهذه المعلومة واستنسخها من صاحبها الذي استنسخها، هو بدوره، من يوسابيوس: «كما ينقل صاحب المقالة عن يوسابيوس أنهم "اعتبروا السيد المسيح إنسانا عاديا قد تبرّر (صار من الأبرار) ... واعتبروه إنسانا عاديا كسائر البشر، ولد من أب هو يوسف النجار ومن أم هي مريم"[365]».

وعلى القارئ أن يتذكّر أننا إزاء كتاب مُخَصَّص للقرآن، وعنوانه "مدخل إلى القرآن الكريم"، وليس كتابا يؤرخ للكنيسة أو للثالوث أو لطبيعة المسيح. السؤال: لماذا لم يتقيّد الكاتب بموضوع بحثه؟ ما دخله بهذه الفرقة اليهودية الموغلة في القدم؟ ما علاقتها بالمدخل إلى القرآن، وبدين الإسلام ككل؟ الغاية من هذا السرد السطحي هي تثبيت فكرة أن الإسلام هو الدين الحق، وأنه لم يوجد عبر التاريخ إلاّ التوحيد، وأن كل الأديان حرّفته، حتى جاء الإسلام وأعاد احياء عقيدة التوحيد من جديد.

إنّ هذه الأطروحة الإسلاموية لا تتفق مع الواقع التاريخي، بل هي تسْطيح وتزوير لتاريخ الأديان، لأن عقيدة التوحيد جاءت متأخرة على التعددية، ولم تظهر ارهاصاتها الأولى إلاّ مع اخناتون وقبائل بني اسرائيل. لكن الجابري ثابت على نهجه ويزجّ بنفسه في عقيدة المسيحيين، مثيرا اشكالات لاهوتية وتاريخية كأنها تخص، عن قرب، دينه هو بالذات.

وبعد أن أشاد بالأبيونيين، لاعتقادهم في بشرية المسيح، انقلب عليهم لأنهم أنكروا الولادة العذرية، وأرجعوا نسب المسيح إلى يوسف النجار. وهنا يخرج الجابري من بوتقة الأبيونيين الموحدين ويَنظمّ إلى المسيحيين المُحرِّفين، ذلك أن يوسف النجار «تقول المصادر المسيحية والإسلامية إنه لم يدخل عليها[366]».

ما عدا هذه النقطة المشتركة يبقى الأبيونيون أفضل من المسيحيين، أهل الثالوث الكفرة، فهم، كما ينقل الجابري على الناقل: «اتّهموا بولس الرسول ـ صاحب نظرية التثليث ـ باتهامات مُرّة وقاسية، ووصفوه بأنه متمرّد ومارق عن الناموس، وأنكروا سلطانه ورفضوا رسائله، واكتفوا باستعمال النص العبراني لإنجيل متّى (محرفا) ولا يعيرون الأناجيل الأخرى أهمية تذكر[367]».

لكن هذه خصومة بين المسيحيين أنفسهم، ولا دخل لطرف ثالث فيها، ولا أحد مُخوَّل للبتّ في الصحيح منها والهرطقي، خصوصا إذا كان الحاكم يستند إلى معتقداته الدينية الخاصة به، كحال الجابري. فكما أن المسلمين يرفضون أن ينحاز المسيحي إلى المعتزلة، في مسألة الصفات، ضد الأشعرية المشبّهة، أو يعلي من شأن الشيعة على حساب السنة، كذلك المسيحيون لهم الحق في رفض تحيزات المسلمين لفرقة دون أخرى.

أُصِرّ على أن هذه مسألة تخص المسيحيين، ولكني أودّ أن أدلي بملاحظة، وهي أن الجابري، أبدى تساهلا وعدم دراية يؤسف لها في طرح المسألة، لأن المسيحيين يبرّرون تصنيف الأبيونيّين ضمن الهراطقة المارقين عن الدين الحقّ، نظرا إلى أنهم يتناقضون مع أسس الدين الذي يعتنقونه. فهم يتمسّكون بشريعة العهد القديم، وفي نفس الوقت يُصرّون على البقاء في المسيحية بعد إفراغها مما يميزها عن الدين السابق. إذ أن تعلّقهم بالموسوية، يقول أحد اللاهوتيّين، يوحي بأن «يسوع لم يكن أعلى من موسى، وبالتالي يخلصون إلى نفي ألوهيّته وتحطيم المسيحية التي يتباهون باعتناقها[368]». ولذلك فإن القديس أبيفانيوس يسمّي مؤسّس هذه الفرقة وحشا أو ثعبانا متعدّد الرؤوس مثل الهيدرا الأسطورية[369]. ويرى أن تعاليمه مشوّهة، لأنه أكْسَى نفسه بِقِطَعٍ من لباس الآخرين وأخذ من شتّى المذاهب كل أنواع التعاليم المروّعة، القاتلة، المثيرة للاشمئزاز، والقبيحة وغير المقنعة[370]. فهو سامري ولكنه يهودي بالاسم؛ هو على رأي الأوسائيين والناصريين؛ هو على شكل القيرنثيين؛ وعلى عناد الكربوقراطيين. ومع ذلك فهو يريد أن يحافظ على لقب مسيحي «بكلّ تأكيد، لا على أفعالهم وآرائهم ومعارفهم، وإجماعهم على الايمان بالإنجيل والرّسل». فهو قابع بين كل المذاهب، دون أن يُحصّل أيّ شيء.

6. آريوس: عبد الله المسلم

إن أكثر المؤشرات الدالة على أن الجابري لم يكن دقيقا ولا جدّيا في عمله، هو العنوان الذي وضعه للفقرة الرابعة من مقدّمته: ("عبد الله" آريوس والآريوسية)، ولا ينفعه وضع كلمة عبد الله بين ظفرين، لأن هذه العملية لا يمكن أن تَقلب الخطأ صوابا والصواب خطأ. ونحن نتساءل: كيف يمكن أن يسقط الرجل في مثل هذه الخزعبلات؟ كيف يستطيع، فيلسوف قدير، أن يَنسج على منوال الإسلاميين المزوّرين للتاريخ، مثل الداعية العريفي، وعدنان ابراهيم؟

الجواب الوحيد هو أن الجابري منهم: فهو سلفي في التفكير، رافض لعلمانية الدولة، ماكث على وضعيّة التقديس من زمان، ولا يعرف للموضوعية العلمية سبيلا إنْ تضاربتْ مع قناعاته الدينية. ويكفي عنوان كتابه: "القرآن الكريم" حتى يتبدّى لنا وضعه التقديسي في عرائه، لأن وصف كتاب ما بأنه "كريم" فهو من باب حكم القيمة المسبق، وهو وصْف غير فلسفي وإنما إسلاموي مناف للروح العلمية[371].

realpagex0203xنعود إلى "عبد الله" الليبي، المسلم قبل الإسلام بثلاثة قرون: بعد التزوير الأول والذي مفاده أن الأبيونيين هم (الذين قالوا إنا نصارى) يعني المسيحيين الحقيقيين (ما عدا الاختلاف في وضعية يوسف النجار)، يأتي التزوير الثاني، وهو ذو أهمية محورية بالنسبة للإسلاميين جميعا. وقد نشر هذا الافتراء التاريخي الوهابيون بجميع فصائلهم وخصوصا الإخوان المسلمون في مصر.

بماذا يتعلّق الأمر؟ يتساءل الجابري، وجوابه: «يتعلق بالفرقة الآريوسية نسبة إلى صاحبه آريوس الذي أحدث أزمة خطيرة في المجتمع المسيحي زمن قسطنطين العظيم[372]». المعلومة الجديدة التي يفيدنا بها الجابري هي أن هذا التزوير للمسيحية والترويج لأسطورة آريوس، له تاريخ طويل في الإسلام، حيث أن آريوس «تردّد اسمه في مراجعنا العربية الاسلامية مع نوع من التعاطف معه بوصفه حامل عقيدة التوحيد والمناضل من أجلها. وذلك إلى درجة استحق معها في بعض نصوص كبار المفسرين والمؤرخين اسم عبد الله فأطلقوا عليه عبد الله بن آريوس[373]».

ولكي يُعرّف هذا الرجل أعاد الخطأ السابق حيث قَرَن بينه وبين أوريجينس وسمّى هذا الأخير أسقفا في الوقت الذي لم يُعَيَّن أبدا أسقف، فهو مجرد لاهوتي، سُمّي قسّا، ولكن سُحبَت منه بسرعة. ثم قدّم كلامه بأطروحة اصطدام الفلسفة والمسيحية في الاسكندرية، وبروز محاولات التوفيق بين عقيدة الأناجيل وبين الفلسفة اليونانية[374].

آريوس، حسب الجابري، أعلن ثورة على القول بألوهية المسيح، «مؤكدا بشريّته، مقرّرا أن الآب وحده هو الإله، ومن هنا وُصف هو وأتباعه بالموحدين[375]». وتوحيد آريوس هو توحيد إسلامي قبل الكلمة. وقد عثر الجابري على أقوال لآريوس تُثبت ذلك، وكعادته، من غير أن يتكرّم على القراء بذكر المرجع الذي استقاها منه: «كان يقول: "إذا كان الله الأب مطلق الكمال ومطلق السمو ومطلق الثبات، وإذا كان منشئ كل الأشياء من دون أن يكون ذاته صادرا عن أي شيء آخر فإنه من الواضح أن كل شيء وكل شخص آخر في العالم منفصل عن الله (...) وإذا كان كل شيء منفصلا عن الله، فلا يمكن أن يكون هناك إلاّ إله واحد. ولهذا فلا بد أن يكون المسيح قد خُلق في زمن ما. لا بد أن يكون معرضا للتغير والخطيئة، وأنه لا يملك معرفة حقيقة فكر الله"[376]».

النتيجة مفروغ منها، وهي أن آريوس انتقل بعقيدة (الذين قالوا إنا نصارى) والأبيونيين «من مستوى التقليد اليهودي إلى مستوى التفكير النظري، فاعتُبر من طرف المصادر الأوروبية والإسلامية زعيم الموحدين[377]».

وإمْعانا في التزوير والنكال يفترض أن هذا الفكر التوحيدي لآريوس الذي تغلغل في إسبانيا «حسب بعض الباحثين كان له تأثير كبير في تحوّلها إلى الإسلام بسهولة عندما فتَحها طارق بن زياد[378]». يعني أن الفاتحين المسلمين لم يخوضوا أيّة معركة ولم يقتلوا أحدا من الإسبان، وإنما وجدوا الطريق معبّدا من طرف الآريوسية.

وما حكم القرآن على عقيدة التثليث؟ التكفير طبعا. وها هو الجابري يسرد علينا هذا الحكم بكل أريحية ودون أن يتفكّر في استنباعاته الوخيمة على جزء كبير من البشر يعتقدون في الثالوث. قال: «أما الكنيسة الرسمية التي جعلت التثليث عقيدة لها فقد اتّخذ القرآن منها موقفا واضحا في قوله (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلاّ إله واحد)؛ (وما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صدّيقة كانا يأكلان الطعام)[379]».

والحال إن هذه بشارة كارثيّة فظيعة للمسيحيين في كامل الوطن العربي، الذين لم يترك لهم الاسلاميون شجرا أو حجرا إلاّ وحطّموه بما في ذلك مقابرهم. ومن المؤسف حقا أن يسرد الجابري هذه الأشياء بكل طلاقة دون أن يتفكّر في النتائج السلبية المترتبة عن هذا التّكفير الصريح، ولا أظنّه قادرا على ذلك، هو الذي يسمّي القرآن "كريما" ويقدّسه بكل جوارحه. لا يستطيع أن يعارض هذا

الحكم أو يستنكره أو يتفكّر حتى في انعكاساته الوخيمة، لأن القرآن بالنسبة إليه كتاب إلهي وبالتالي فإن أحكامه نافذة إلى الأبد.

هكذا بكل أريحية يأتينا فيلسوف عربي قدير، كنّا ننتظر منه فكرا منفتحا ومتسامحا، وإذا به يُعِيد على مسامعنا، في القرن الواحد والعشرين، حكما تكفيريا بقي مُسلّطا كالسيف على رقاب المسيحيين منذ ألف وأربعمائة عام.

لقد استعاد الجابري تجريحات يوسف زيدان على الكنيسة القبطية، وأضاف من عنديّاته تزويقات فلسفية، ثم ماح إلى نسطور الذي رأينا كيف هام به زيدان، وجعل منه مسلما موحدا. نسطور حسب الجابري كان «ناكرا ومستنكرا اعتبار مريم أم الإله ... لكن رجال الدين في الكنيسة القبطية بالإسكندرية، وكانت أكثر تعصبا لعقيدة التثليث، شنّوا عليه حملة قوية، فكانت النتيجة أن رفض المجمع الكهنوتي[380]».

ورغم أن نسطور قد اقترب من عقيدة الإسلام فإنه، مع الأسف، لم يكن مسلما خالصا، وقد ألحَقَه الجابري باليهود الذين يؤلّهون عزيرا، والقرآن حسَم الأمر معهم نهائيا: كَفَّرهم جميعا. فعلا، القرآن جعل النسطورية «في مستوى واحد مع الفرقة اليهودية التي قالت: (عزير ابن الله)، ولذلك جمع بينهما في قوله تعالى: (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ... الآية)[381]».

نفس المصير خضع له يعقوب البرادعي، مؤسس الكنيسة اليعقوبية، هذا على الرغم من أنه اقترب نوعا ما من الإسلام لكن عقيدة الطبيعة الواحدة للمسيح تُلحِقه بالكفار، أي بأولئك الذين قال فيهم القرآن (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم).

7. خلاصات وآفاق: الاسلام هو الدين الحق

بعد أن قال إنه تَمكّن مِن جمْع «شتات حقائق تاريخية على درجة كبيرة من الأهمية[382]» - وهو، في الواقع، لم يجمع أية حقائق ولم يأت بأيّ مرجع يُعتدّ به - ادّعى أنّ الغموض الذي كان يلفّ عقائد الأديان السابقة «قد زال، وأن كثيرا من الشكوك التي كانت تحوم حولها لم يعد هناك ما يبررها[383]». وهكذا فإن اليهود والمسيحيين الذين عاشوا حيارى لمدة ألفي سنة جاءتهم البيّنات والحلول لكل مشاكلهم اللاهوتية والأخلاقية من طرف الفيلسوف محمد عابد الجابري.

أهمّ هذه الإشكالات التي قدّم لها حلاّ جذريا هي مسألة التبشير بمحمد نبي الإسلام في كتب الأديان السابقة. فعلا، بعد التجاذبات والأخذ والرد، الآن، يؤكد الجابري، هذه الحقيقة «لم تَعد تحتمل التكذيب بالطريقة التي كانت سائدة من قبل والتي كانت تعتمد على إقامة الحجة على أن الإنجيل ليس فيه مثل هذا التبشير[384]». ورغم أن الأناجيل التي بين يديه محرّفة، فإن الجابري متيقّن، من أنها بشّرت بمحمد، وأكثر من ذلك، المسألة تتعدّى التبشير بمحمد لكي تخترق قلب العقيدة المسيحية وتضربها في الصميم أي عقيدة التثليث، وهنا فقد تكاتف اليهود والهراطقة المسيحيون الأوائل، وعلى رأسهم آريوس، للتصدّي لهذا المعتقد[385].

فالآريوسية التي لُوحِقت واضطُهِدت لمدى قرون، ثم انحصرت في جيوب ضيّقة من العالم العربي، بقيتْ على تلك الحال حتى أتتها الفرصة لكي تعود من جديد وتطرح فكرة النبي المنتظر الذي تشخّص في محمد. هذا أمر طبيعي، يُسمّيه الجابري، مرسوم في دينامية التاريخ: «فقد كان من الطبيعي أن يقفز أصحاب المذهب المرفوض قفزة إلى الأمام يتجاوزون بها النقاش حول طبيعة المسيح عيسى. وهكذا طرحوا فكرة النبي المنتظر الذي بشّرت به نصوص بعض الأناجيل تصريحا أو تلميحا، أو على سبيل التأويل - لا فرق، لأن الإيمان بعقيدة دينية يكفي نفسه بنفسه، فلا يحتاج إلى برهان عقلي أو تاريخي![386]».

أينما توجّه المسيحيون وحيثما وُجِدوا فإنهم، حسب منطق الجابري، مُلزَمون بأن يَقبلوا بمحمد: إنجيلهم محرف، لكن بعض الشذرات الطفيفة جدا حافظت على ذكر محمد، وإذا غاب ذكره صراحة، فيمكن الأخذ بالتّلميح، إذا لم يكن هناك تلميح، فثمّة التأويل، وبالتالي لا مَهرب لهم إلاّ

بالاعتراف، وإذا غابت كل هذه العناصر فلا حرج، لأن المسلم غير محتاج للبرهان العقلي أو التاريخي.

ماهي المهمّة العاجلة الآن؟ وماذا تبقّى في جعبة الجابري من اقتراحات وحلول؟ بعد أن سَحل اليهود والمسيحيين ومرّغ معتقداتهم في التراب، وكفّرهم بنص القرآن، وأعلن انتصاره النهائي على أعداء غائبين، طفِق يتحدّث عن التسامح والانفتاح، انطلاقا من موقع الدوس على مقدسات الآخرين: «أما علاقة الإسلام بكل من اليهودية والمسيحية فهي ـ كما تتحدّد بنص القرآن وليس كما يفهمها المفسرون ... ـ علاقة تحكمها شجرة نسب واحد: جذعها المشترك ابراهيم الخليل، شيخ الأنبياء، وفروعها الأنبياء المنحدرون من صلبه. قال تعالى: (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى ابراهيم واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون)[387]».

وهكذا فإن القرآن هو الحَكَمُ الفصل في كل القضايا المصيريّة، وهو المُخَوَّل لإعطاء دروس لأهل الأديان الأخرى، ومن حقّه بالتالي أن يدعوهم للانضمام إليه وتَبنِّي ما يقوله هو عن دينهم، ويَتخلّوا عن كُتبهم المحرّفة. والمسيحيون، على وجه الخصوص، عليهم أن يَنبذوا عقيدة التثليث، ويَكفروا بألوهية المسيح، يعني أن ينتحروا انتحارا لاهوتيا بطيئا.

ماذا تَبقّى إذن من الانفتاح والتقارب إذا أصرّ الجابري على موقفه هذا من الأديان؟ لا شيء إلاّ كلاما عموميا فضفاضا، وذرّا للغبار على العيون من قبيل: نحن اخوة في الدين، ولا داعي للصراع في هذه المسائل اللاهوتية، وتَعالوا نتصالح ونُعيد المياه إلى مجاريها، ودَفَعَ الله ما كان أعظم: «هل ندعو إلى نوع من رجوع المياه إلى مجراها؟ إلى قيام مصالحة بين حفدة إبراهيم الخليل![388]».

العبرة النهائية هي هذه: «على كل حال هناك مثل مغربي، ولعله عربي وعالمي، يقول: "لا يختصم إلاّ الإخوة"، والغريب لا يختصم مع الغريب لأنه لا شيء يربط بينهما[389]».

ومع ذلك فإن هذه الدعوة لنبذ الاقصاء والعنف هي في اتجاه واحد، لأنه في الصفحات الأخيرة من كتابه عاد إلى نفس الموقف وزاده شحنة من التعصب والعنف والعدوانية لا مثيل لها.

العدل بالنسبة إليه هو قتل الناس جميعا شرّ قتلة، خصوصا اليهود: «فإن العدل يقتضي أن يكون عقاب الذين يحاربون الله ورسوله من اليهود ... أشدّ من قتل النفس الواحدة[390]»؛

الرحمة هي أن تُطبّق عليهم هذه الآية: (وإنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ... الآية)؛

والمسيحيون أن يُسحَل دينهم وتُنزَل العذراء والمسيح إلى الحضيض، دائما انطلاقا من القرآن الذي يؤكد باستمرار «على بشريّة عيسى في عدة آيات[391]». وأن عيسى ما قتلوه وما صلبوه بل قتلوا شبيهه، وأن عيسى أعلن نهاية مُهمّته قبل أن يُرفع إلى السماء فحطّم حياته وحيوات أتباعه إلى الأبد، لأنه بَشَّرَ بِنَبِيّ بعده اسمه أحمد؛ وأن اليهود كفار لأنهم قالوا إن عزيرا ابن الله، والنصارى كفّار لأنهم قالوا إن عيسى ابن الله[392]، وسلّملي على الانفتاح والتسامح والتآخي.

IV

محمد الطالبي

المسيحية دعارة مُحرَّمَة والإسلام بغاء حلال

1. سلميّة! سلميّة!

«الأستاذ محمد الطالبي، جامعي ومؤرخ ومفكر تونسي[393]»، متواضع جدا إلى درجة أنه «يَرفض أن تُطلَق عليه صفة "عالم"، ذلك لاعتقاده أنها صفة تؤدي إلى عدم التواضع[394]». هكذا يقدّمه، حسين بن عثمان، أحد قرّائه المخلصين، والذي يذكره التونسيون بقولته الشهيرة، في التلفزة على المباشر: " **بن علي** مات، بن علي مات"، يقصد الرئيس التونسي زين العابدين بن علي، والذي لم يَمت، ولكن خَطفوه ورَحَّلوه إلى السعودية، لكي يأتوا بالإسلاميين للحكم ويُذيقوا الشعب التونسي أشدّ العذاب.

إنّ هذا العالِم، يواصل بن عثمان، له اسهامات عديدة في شتى المجالات «مقالات ودراسات وكتب، أغلبها مجهول عند القارئ العربي غير المختصّ، لأن صاحبها كتبها في لغة غير عربية ونشرت في دوريّات ومراكز مختصة. ومن كتبه نذكر أطروحته عن تاريخ إفريقية عندما كانت امارة أغلبية، وكتابه ابن خلدون والتاريخ، وكتابه الإسلام والحوار، وكتابه تأملات في القرآن بالاشتراك مع موريس بوكاي، وكتابه الاصرار على الاحترام بالاشتراك مع أوليفي كليمان[395]». الأستاذ الطالبي هو من الجيل المؤسس للتعليم الحديث في تونس، والذي اضطلع بمهمّة «تكوين الجامعة التونسية وارساء تقاليد عصرية في البحث العلمي».

الطالبي درسَ في تونس أيام الحماية الفرنسية، ثم انتقل إلى باريس لمواصلة تعليمه، وفي ثنايا حوار نشره في كتاب "عيال الله"، روى نُكتة عن حياته في باريس. قال: «كنتُ سكنتُ في بيت **سيّدة فرنسية طيّبة جدا**، مؤمنة بعقيدتها المسيحية وتعلّمت منها الكثير. **فقد كانت تريد مني أن أنقلب إلى دين الحق، ودين الحق عندها لا يوجد في غير المسيحية** [...] كانت تطلب منّي من حين لآخر مرافقتها إلى الكنيسة، ولبُّيت طلبها عدة مرات، وحضرتُ طقوس المسيحيين الدينية أيام الآحاد، وقد كانت تجربة ثريّة بالنسبة إليّ. اطّلعت خلالها وعن قرب على عمق الحياة المسيحية في

قلوب المعتقدين حقا في صفاء وفي محبة لخدمة الإنسان من خلال تعاليم السيد المسيح وتعاليم الإنجيل[396]».

لكن، رغم مناشدات هذه السيدة المسيحية "الطّيّبة جدا" ودعواتها المتكررة لكي يَنقلب هو إلى الدين الحقّ (**المسيحية**) فإن الطالبي لم ينقلب ولم يبدّل دينه اطلاقا، بل قلبَ الآية وطلبَ من المسيحيّين أن يتخلّوا عن دينهم ويَنقلبوا إلى الدين الأحَقّ (**الإسلام**). والسبب في ذلك هو اقتناعه بأن الأديان السابقة تآكلتْ تاريخيّا وفَقدت مشروعيّتها مع مجيء الإسلام. فعلا، خطاب القرآن يقول الطالبي «مُوجّه للإنسان عموما، بينما كان الخطاب في التوراة، وكذلك فيما بَلَغنا من روايات الأناجيل، موجّه إلى بني اسرائيل. كَلَّف الله بني اسرائيل بنعمةٍ منه فضّلهم بها (على العالمين)، بمهمّة اضطلعوا بها زمنا، في وسط وثني، ثم مثّلت رسالة محمد خاتم النبيّين تحوّلا جذريا في الخطاب الإلهي [...] إن الخطاب القرآني موجّه دائما إما للإنسان كفرد مسؤول عن نفسه، ولا يزر وزره غيره .. وأما للناس عموما (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا)[397]».

وفقط لأجل هذه الخاصية الذاتية، فإن القرآن أصبح في نظر الطالبي «**يُمثل تحوّلا حاسما في حياة البشرية، ويَفتح عهدا جديدا**، من مجموعات مغلقة دمويا (القبائل) أو ثقافيا (الشعوب)، إلى الانفتاح على وحدة الشعور بوحدة الانحدار "من ذكر وأنثى" أي من أسرة واحدة، يصفها الحديث "بعيال الله"». وأكثر من ذلك فإن القرآن «سَمَا، بصفةٍ غريبة، وغير منتظرة في المحيط الذي أُنزل فيه، إلى ما لم نحققه إلى اليوم: **وحدة الإنسان**[398]».

وقد جدّد دعوته لليهود والمسيحيين الالتحاق بالإسلام في كتابه الأخير المربك، "أمة الوسط"، حيث قال هناك إن الله في البداية اصطفى بني اسرائيل وحمّلهم رسالة تبليغ التوحيد، وجعل فيهم النبوة وفضّلهم على العالمين، وتواصلت «النبوة إلى عيسى بن مريم عليه السلام، آخر أنبياء بني اسرائيل[399]».

وبِنصّ القرآن والإنجيل فإن رسالة عيسى تقتصر فقط على الانذار «بأنّ الساعة وشيكة ـ وهذا ما نجده فعلا التأكيد عليه في كامل الأناجيل التي بلغتنا ـ فكوّنت أوّل منعرج في الدعوة الإبراهيمية[400]». ثم انتهت مُهمّة يسوع كما انتهت من قبله مهمة اليهود، وفُسخ الميثاق الذي أبرمه الله معهم. يسوع هيّأ إلى «**تحوّل أعمق وأتمّ على يد "خاتم النبيّين"**»، واليهود بعد أن انتهى ميثاقهم «خلَفَه آخر عُهِد به إلى أمّة لا تنحصر في شعب، وإنما تتسع إلى كامل البشر، على أساس الانتخاب لا بالعرق، وإنما بالبرّ والتقوى[401]».

ودعوة الطالبي تُواصل تاريخيا دعوة نبيّ الإسلام وتحاكيها، حيث أن دستور المدينة سجّل مضمون ولادة الأمة الجديدة، أمة محمد، «**في دفتر التاريخ**[402]»، وخطاب آيات القرآن موجّه على الخصوص «لأهل الكتاب الذين أخذ الله أوّلا ميثاقهم، وفي الخطاب دعوة مُلحّة لهم كي يدخلوا في

الميثاق الجديد وفي الأمة التي التفّت في المدينة حول "خاتم النبيّين"، وأخذت تبرز للوجود بصفة ملموسة ومُنظّمة كي تضطلع بهذا الميثاق، وتؤدي للناس جميعا آخر رسالة إلهية لهم، وتشهد على ذلك[403]». ومن ذاك الآن فصاعدا، كل الارث اليهودي والمسيحي «يَجد في الدعوة المحمّدية تَتويجه الختامي[404]».

لكن، رغم هذا الكلام الجميل فإن محاولات السيد الطالبي تمّ تجاهلها بالكامل، ولم يَنضمّ لدعوته لا اليهود ولا المسيحيون. أمام هذا الفشل الذريع فإن الطالبي غيّر من تكتيكه وحوّل الدعوة من سلمية إلى حربية. لم يَعتبر نفسه قد انهزم، لم يُلقِ بسِلاحه وإنما وَجّهه ضدّهم، وأخذ يُجرّح في المسيحية، وجَمَع معها اليهودية، على طريقة الإسلاميين المتعصبين. بدأ بالعهد القديم، وهو أسهل لقمة في أيدي الإسلاميين، دون أن يتفطّنوا إلى أنّ نصف القرآن أو أكثر، مستمَدّ منه، وأن هذه الحقيقة معلومة ليس فقط للمحدثين من العلماء الغربيين، بل أيضا للمخاطَبين من رجال عصره، بشهادة القرآن نفسه. لقد سمّوا تلك الحكايات "أساطير الأوّلين"، ادراكا منهم بأنها مُستمدّة من مصدر يهودي قديم، أعني من التلمود الذي هو خزّان الأساطير والخرافات الأكثر منافاة للعقل والحس السليم، ولكن كاتب القرآن أراد أن يُدخل ثقافة التوراة وأساطيرها عنوة في مجتمع عقلاني نبذَها من زمان.

الطالبي رأى من واجبه أن يُهاجم التوراة على الطريقة الكلاسيكية، أعني ترديد أنشودة التحريف: «**يجب أن ننبّه ... أن التوراة بَلَغَتْنَا محرّفة في الصياغة التي صاغها عليها مُحرّروها** الذين تتالوا على تحريرها وتحريفها في أزمنة مختلفة ومتأخرة[405]». التوراة ليست محرّفة فقط، بل مملوءة خرافات «**لا يَقبلها مَن رُزِق أدنى ذرّة من العقل**».

أن تكون التوراة زاخرة بالخرافات فهذا أمر بديهي، يكفي فتح أيّ صفحة حتى تتأكّد من هذه الحقيقة. لكن قد يردّ اليهودي: وخرافة النملة والهدهد؟ وخرافة الجنّ والعفاريت وكرسي ملكة سبأ الذي طار في الفضاء كالصاروخ؟ أنت تُعيِّرنا بخرافات كتابنا، وتَستقوى علينا بالعقل، لكن لو كنتَ تملك ذرّة عقل، كما تتّهمنا، لالتفتَّ إلى خرافات القرآن التي أنزلها الله في كتاب غير محرّف، كما تزعم. نحن نعلم من أين استمدّ كاتب القرآن تلك الأساطير ونملك المصادر الأصلية، المِشْنا والتلمود، ولو أردتَ الاطلاع عليها لوفّرناها لك. لكن يجب أن تعلم أنّ تلك الكتب لا نعتبرها مقدّسة ولا نضعها على قدم المساواة مع التوراة، وإنما اجتهادات وتفسيرات اختلط فيها الفلكلور بالخرافة، ولذلك فإن العديد من أحبار اليهود العليمين بالتراث، استبعدوها كتأويلات زائغة عن روح التوراة. ومع ذلك فقد أصبحت، بفضل القرآن، وبفضل أجيال من المؤمنين، أشياء مقدسة ووحيا إلهيا صادقا، وهكذا فإن القرآن هو الذي أنقذ خرافات اليهود وانتشلها من غياهب النسيان.

"كتابكم مُحرّف"، هذا هو ردّ الطالبي: كيف؟ ومتى؟ وأين؟ لا جواب، المهمّ أنه محرّف وكفى. تصوّروا أن هذا الكلام صادر عن مؤرّخ حديث تخرّج على يديه مئات الأساتذة التونسيين والذين هم بدورهم الآن يدرّسون في الجامعات. بعد كتاب اليهود انتقل إلى إلههم وقال إنه شرير: «**الذي يهمّنا نحن هو أن إله الآلهة، وربّ الأرباب، كما يصوّره الكتاب المقدس شرّير**[406]».

وهذا صحيح، إله اليهود هو أشرّ كائن في العالم، ولكن نحن هنا أمام مَن يرى القشّة في عين الآخر ولا يرى الخشبة في عينه. أليس إله القرآن هو أيضا شرّيرا؟ ومِن أين استمدّ القرآن شر الاله؟ كله من العهد القديم: مَن الذي قسّى قلب فرعون؟ إله التوراة وإله القرآن. من الذي يتباهى بأنه يُغوي عباده ويَشمت في زلاّتهم؟ إله العهد القديم وإله القرآن. من الذي فاق التوراة في حقده على البشرية بقوله: (**لأملأن جهنّم من الجنة والناس أجمعين**).

لاحظوا كيف أنه من شدّة الحُنق، جمَعَ بين البعض والكل: "**من الناس**"، وبعدها "**أجمعين**". وقد أعادها في سورتي هود والسّجدة، بنفس العبارات، وبنفس اللهجة القاسية. أهذه بشارة سارّة ومريحة للبشرية؟ أمِن المعقول أن يتوعّد الله مخلوقاته الضعيفة بأنه سيملأ جهنّم ـ مكانٌ تعيس ومُرعب ـ من البشرية؟ إن الطالبي وجماعته من القرآنيين والإسلاميين عموما، مستعدّون أن يُبرّروا الكانيباليزم (أكل لحوم البشر)، لو أمَرَ به القرآن. لكن في الحقيقة، هذا الرجل وصَل إلى حالة من هذا القبيل، أعني إلى كانيباليزم مَعنوي، بقوله، بعد أن هدّد الله البشرية بقذفهم في جهنّم، إن الله يتصرّف «بعدلٍ ورحمةٍ وحكمة وتدبير[407]».

لكن الرجل تكرّم على الديانة اليهودية بوصفها «**أكثر الأديان تسامحا مع الأديان الأخرى**[408]»، وهذا غير صحيح لأنه لو فتح سفر الملوك الأول، الإصحاح 18، لرأى أن يهوه لم يكن متسامحا مع ديانة الكنعانيين، حيث أن النبيّ إيليا، بأمْر من يهوه، قام بذبح 850 كاهنٍ من كهّان الإله بعل، وأمره بِهَدم معابدهم وإحراقها فقط لأنه لا يحبّ أن يُعبد إله غيره.

بعد الإله يهوه مرّ إلى نزع الميزة التي يتباهى بها اليهود القدماء والمحدثون: التوحيد. اليهودية، يقول الطالبي، «**ليست ديانة توحيدية** (monothéiste)». إذن هي ديانة وثنية، ديانة شرك وتعدد الآلهة؟ كلا؛ اليهودية، اختَرَعَ لها الطالبي صفة خاصة: «**هي ديانة هناإلهية** (hénothéiste)[409]»، تدين بإله ليس إله كوني وإنما مخصوص لشعب واحد.

إن أسهل كتاب في العالم يمكن أن يُهاجَم ويُفتَكَ به فتْكا هو كتاب اليهود، لأنه فعلا يحتوي على كمية هائلة من الخرافات المُنفّرة للعقل والحس الإنساني السليم؛ في كل صفحة تقريبا نعثر على العنف والأسطورة والتقتيل والتشبيه؛ على إله غضوب مُنتقِم قتال، وعلى كل الشناعات التي لا يمكن تصوّرها. لكن قراءة بسيطة لتعاليم الإسلام، تُثبتُ، دون أدنى مجال للشك، أن هذا الإرث الخرافي الحربي العنيف مرّ بحذافيره إلى القرآن. فعلا، الله في القرآن يغضب، ينتقم، يستهزئ،

يُخادع، يقتل هو شخصيا ويرمي السهام، يتحسّر، يفرح، يكره، وما إلى ذلك من الصفات الإنسانية القبيحة؛ أقول قبيحة لأنك إذا قرأت في كتاب ما هذه الجملة (**فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم**)، يعني إله يُبرّؤ القاتلين الفعليّين وينسب إلى نفسه القتل هكذا جهارا ويتباهى بذلك، فهو إله إجرامي شرّير.

كان على الطالبي، حافظ القرآن عن ظهر قلب وصاحب جمعية القرآنيين التونسيين، أن يَتَمعّن في هذه المعضلة اللاهوتية التي تمس صورة الله في القرآن، وأن يجيب عن سؤال مدى أخلاقية أعمال القتل التي يقوم بها هذا الإله شخصيا، لكنه ترك المسألة خلف ظهره، وانطلق مُهَرولا إلى المسيحية، وأخذ يتهكّم على إله المسيحيين قائلا: «الرب يهوه .. الذي تغيّر اسمه في العهد الجديد فأصبح يدعى الأب الحنون[410]»، هذا الرب الحنون ألا يحق لنا، يتساءل الطالبي، أن نعتبره «**إلها ظالما ظلوما قاسيا متغطرسا، أشد ظلما وقسوة وغطرسة من كل الطغاة والجبابرة الذين عرفتهم البَريَّة منذ بدء الخلق؟**[411]».

سلّمنا بأن إله المسيحيين هو بكل هذه الصفات القبيحة، كيف هو إله القرآن؟ ألم يُعرّف نفسه بأنه اعتباطي، يُضلّ من يشاء ويهدي من يشاء؟ ألم يَعترف هو نفسه بأنه قتّال؟ ألا يتلذّذ بالقتل الأفظع في العالم: الصُّلب وقطْع الأطراف من خلاف. وما كُنّا لنُصدّق بأن هذه الشناعات يمكن أن يجرؤ أحد في العالم على القيام بها، لولا أن رأينا القرآنيين يُنفّذونها على مسلمين مثلهم في سوريا والعراق. وأشدّد على هذه التسمية، "قرآنيين"، لأن الإرهابيّين الذين يُفجّرون ويَذبحون ويَسْبون النساء والأطفال، هم أكثر الناس حفظا للقرآن وتمسّكا بتعاليمه، وحرصا على إقامة حدوده.

ومع ذلك فإن الطالبي يَعيب على المسيحيين دينهم وكتابهم، ويَتغبّط على حالهم التّعيسة، لأنهم أناس مجانين، بلا عقل، لا بل لا يملكون «**حبّة من العقل**[412]»؛ يَعيب عليهم جهلهم وتحريفهم لكتابهم، يُشنّع على إلههم، دون أن يَلتفت إلى إله القرآن، أو يتمعّن بجدّية في صفاته الانثربومورفية الغريبة.

لا يدري كيف يعارض المسيحية، أيّ مَأخذ يأخذه عليها، ما العناصر التي يجب التركيز عليها لنقدها، لأن المسيحية واليهودية والإسلام، كأديان توحيدية، بالنسبة للإنسان العقلاني، هي بؤرة الشرّ والعنف والاقصاء التي يجب على كل مفكر صادق أن يتصدّى لها بكل قوّة وحزم وأن ينزع سمومها القاتلة عن أذهان الناس. لكن المؤرخ الطالبي، بعد ضرباته العشوائية، عثر أخيرا على المَعِين الذي استمدّ منه الموادّ الأوليّة لمعارضة الخرافة، في الخرافة، وهذا جليّ من خلال معارضته لفكرة الصَّلْب المسيحيّة بفكرة اللاَّصلْب الإسلامية. الخرافة الإنجيلية - وأتكلّم دائما من موقف عقلاني بحت - عارضها بالخرافة القرآنية، المستمدة هي بدورها من خرافة "مانويّة - غنوصية"، ومفادها أن المسيح الحقيقي لم يُصلَب وإنما صُلِب شبيهٌ له. في البداية تفضّل على المسيحيين وأعلن حُسن نواياه قائلا: «**الصّلب واقع لا مراء فيه**[413]»، إذن المسيح صُلِبَ حقا،

والخُطوة للقول بأنه قام، قصيرة جدا، وهكذا يَعترف الطالبي، كاره المسيحية، بعقيدة المسيحيين. لكن القرآن يَفعل مَفعوله: ومِن أين لِقُرآني، استبْطَن خطابه وأحكامه، أن يَحِيد عنها؟

فعلا، بالنسبة للطالبي «**كان صلبا بدون قيامة**»، هذه الأولى. والثانية «**لا صَلْب النبيّ عيسى وإنما صَلبُ سَمِيّ له**[414]»، يعني شبيه له. صحيح، القرآن يروي هذه الحادثة بإيجاز لا يخلو من شيء من الكوميديا: قُبِض على يسوع وأحيل إلى العدالة، فحُكم عليه بالقتل، لكن الله تدخّل في الحدث، وخدع الناس فقدّم لهم شخصا نُسخة مُطابقة ليسوع ولكن ما هو بيسوع. لم يرفعه مباشرة أمام أعينهم كي يُثبت لهم قُدرته وفائق معجزاته، وإنما أراد أن يمزح قليلا، أن يتسلّى على حسابهم ويُركّب لهم مسرحية: هم يُنَصّبون المشنقة ويَدْعُون الناس للفُرجة، والله يُشرف عليهم هو والملائكة من فوق سبع سماوات ويسخر من غبائهم. ظنّوا أنهم يَصلبون نبيّه عيسى ولكنهم في الواقع يَصلبون انسانا بريئا (بالطبع لم يَتدخّل لإنقاذه) تمّ تبديله عن قصد، بينما رُفع المسيح الحقيقي إلى الفضاء، دون أن يَره أحد.

الطالبي تقبّل هذا السيناريو "التراجي ـ كوميدي" على أنه حقيقة واقعية، واستبعد الرواية الإنجيلية معتبرا إياها تزييف وخرافة، لا يقبلها من رُزق ذرّة عقل، لكن هل هناك ذرّة من عقل في هذه الأسطورة القرآنية؟ هل يمكن للقرآني الطالبي أن يُشغّل ملكاته العقلية لكي يتفكّر في هذا الزخم الخرافي، بدل أن ينهمك في شتم المسيحيين والتجريح في معتقداتهم من منطلق إسلاموي؟

حينما يلتزم قليلا بجُهد المفهوم، ويُشغّل ملكاته عن جدّ فهو يُفرز لنا عصارة تحريفيّة جنونية، من قبيل أن المسيح ليس هو المسيح بل مسيح آخر والمسيح الآخر ليس هو الآخر به شيء غيره. وإليكم أقواله واحكموا أنتم بأنفسكم: «إنّما صُلبَ سَمِيٌّ له، ثائر على روما، ادّعى أنه مَلك اليهود، والمسيح المنتظر لإعادة بناء عرش داود، فحوكم بهذه التهمة، ومن أجلها أعدم صلبا طِبق القانون الروماني، تحت لوحة تُبيّن، بصورة واضحة لا لُبس فيها، نوع الجريمة وسبب الاعدام، كُتب عليها (INRI)، بمعنى "يسوع الناصري ملك اليهود"[415]». والأناجيل «تذكر هذا الصلب» وتذكر أيضا «ما كُتِب على اللوحة[416]».

لكن هذه مُواصفات يسوع المسيح كما رَوَتها الأناجيل الأربعة، وكما دَرَج عليها التراث المسيحي كلّه، وهو معتقد أساسي، مرسوم في ذاكرة المؤمنين. وبعد، كيف يَسمح لنفسه بأن يستعمل روايات الإنجيل لضرب الإنجيل؟ أليس الإنجيل مُحرّفا كما أكّده سابقا؟ كيف يَثق بنصّ مُحرّف؟ حينما قلت إن القرآن سحقَ عقول المسلمين فأنا لم أبالغ ولا أمزح بتاتا. هذا الخور، هذا التزوير السافر لكُتب الأديان الأخرى، هذه السخرية المقيتة والتهجمات الحاقدة على الأديان، لا تفسير لها إلا بالمفعول الحمضي للقرآن على عقولهم.

ولكي لا يأخذنا الطالبي والقرآنيون في غمرة تحريفاتهم نورد نص الإنجيل برواية يوحنا الاصحاح 27، الذي رُوِيَت فيه "واقعة" صلب يسوع: (**ولمّا طلع الصباح عقد رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب اجتماعا آخر، وتآمروا على يسوع ليُنزلوا به عقوبة الموت. ثم قيّدوه وساقوه إلى بيلاطس الحاكم [...] ووقف يسوع أمام الحاكم، فسأله الحاكم: "أأنتَ ملك اليهود؟" أجابه: "أنتَ قُلتَ" وكان رؤساء الكهنة والشيوخ يوجّهون ضدّه الاتّهامات، وهو صامت لا يردّ. فقال له بيلاطس: "أما تسمع ما يشهدون به عليك؟" لكن يسوع لم يجب الحاكم ولو بكلمة، حتى تعجّب الحاكم كثيرا ... وكان عندهم وقتئذ سجين مشهور اسمه باراباس ففيما هم مجتمعون، سألهم بيلاطس: "من تريدون أن أطلق لكم: باراباس، أم يسوع الذي يُدعى المسيح؟" ... ولكن رؤساء الكهنة والشيوخ حرّضوا الجموع أن يطالبوا بإطلاق باراباس وقتل يسوع ... فأطلق لهم باراباس؛ أما يسوع فجلَدَه، ثم سلّمه إلى الصلب ... فصلبوه ثم تقاسموا ثيابه مقترعين عليها، وجلسوا هناك يحرسونه؛ وقد علّقوا فوق رأسه لافِتَة تحمل تهمة، مكتوبا عليها: "هذا هو يسوع ملك اليهود"**).

هذا هو المسيح الذي تكلم عنه الإنجيل، وهو في نفس الوقت شبيه المسيح الذي تكلم عنه الطالبي، الذي لا يخجل من تحريف كتاب في متناول الجميع والكلّ قادر على قراءته بأي لغة شاء.

أنا لستُ مُلزَما بالاعتقاد في ما يقوله الإنجيل، ولا مُلزما بما يرويه القرآن عن تزوير الله للحدث وعن المسرحية التي ذهب ضحيّتها صالبوا المسيح، وأكثر منه لا أصدّق أي كلمة مما قالها هذا المؤرخ التحريفي.

أخرجوهم من ديارهم، حَرَمُوهم من عروبتهم[417]، نزعوا عنهم إنسانيتهم، سَحَبوا منهم عقولهم والآن افتكّوا منهم مَسِيحَهم. فعلا، المسيح بالنسبة للطالبي، هو ليس المسيح كما يعتقده المسيحيون، بل شخص آخر كما علّمنا القرآن ونص عليه الوحي: «يجب أن نُفرّق، وبالنسبة إلينا القرآن هو الفرقان، بين النبي عيسى ـ عليه السلام ـ وبين يسوع، وألا نُطلق أبدا اسم الأول على الثاني[418]». من هو مسيح المسيحيين؟ هو ابن زنى، يعني ابن إله نكح امرأة، هكذا يقول الطالبي: «**ابن الأم مارية التي أخصبها الإله الأب في شبه إخصاب مَحارميّ** (incestueux)[419]». مسيحهم ليس مسيحهم ومَريمهم ليست مَريمهم، وواجبنا هو «**ألاّ نسمّيها أبدا مريم القرآنية**[420]».

لكن التنبيه الأشدّ وقعا على مسامع المسيحيّين هو هذا: يجب أن نفرّق بين الله الاسلامي والله المسيحي، والمسيحيون العرب لا يجب عليهم أن ينطقوا باسم الله ويضعوه على أفواههم أو يكتبوه في كتبهم، يجب عليهم أن يُفتّشوا لهم عن اسم آخر، إلاّ الله ممنوع عليهم النُّطْق به: «**يجب ألاّ نسمّي أبدا الله، إله المسيحية الثالوثي** (le Dieu Trine)، **كما هو به العمل في المسيحية الناطقة بالعربية وفي ترجمة الكتاب المقدس إلى هذه اللغة، لأن ذلك يشوّش المفاهيم تشويشا كبيرا**».

وقد علّمنا القرآن أن المسيحيين هم مشركون، وبالتالي لا يَحقّ لهم أن يَنطقوا باسم الله، لأن «**الثالوث شرك، والله في مَواطن عديدة من القرآن يُحذّرنا من الشرك**[421]». وبالجملة، إلههم ليس إلهنا، ونحن لا نَتبع مِلّتهم ولا تَجْمعنا بمعتقداتهم أيّة قرابة: «**الإله المسيحي ليس إلهنا الذي نجده في سورة الإخلاص** (قل هو الله أحد الله الصمد ...). **إلهنا هو المتعالي المطلق** (le Transcendant Absolu) الذي (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)، وهو القريب المطلق (l'immanent Absolu) الذي هو أقرب لعبده من حبل الوريد. إلهنا هو الذي يصف نفسه بنفسه، وذلك لا يوجد لا في العهدين القديم والجديد ولا في أي كتاب مقدّس غير القرآن، في قوله تعالى (هو الله الذي لا إله إلاّ هو عالم الغيب والشهادة. هو الرحمان الرحيم. هو الله الذي لا إله إلا هو: الملك القدوس السلام **المؤمن المهيمن** العزيز الجبار المتكبر..)[422]».

بهذا الإله الحامل لصفات متناقضة يريد الطالبي أن يحطّم الإله الثالوثي المسيحي. فالرّجل لا يتفكّر في ما يقول، يكدّس الكلام دون أن يتفطّن إلى التناقضات التي يسقط فيها من قبيل أن الله

"متعالٍ مطلق" و"مُحايث مطلق" في نفس الوقت، أو أنه مُؤمن ومُتكبّر. مؤمن بماذا؟ ومُتكبّر على مَن؟ أليس تشبيها حشويا هذا الوصف؟ هو فعلا تشبيه حَشوي مثل كل الصفات الإنسانية التي نسبها القرآن لله، ومن بينها ومن أخطرها "المُكر". لكن السيد الطالبي وجد مخرجا للورطة فزعم أن الله مؤمن بإيمان ليس كما نفهمه نحن، الله هو «المؤمن الأوّل بجدوى خلقه وبِثقته في الإنسان مهما وسوستْ له به نفسه[423]». أرأيتم هذا التشبيه الغريب: الله يؤمن بالإنسان عوض أن يؤمن الإنسان بالله؟

المهمّ بالنسبة للطالبي أن "الله" الإسلام، المؤمن، والذي لا ندري بالتحديد بماذا يؤمن، هو «**ليس إله المسيحية**[424]»، لأن «**إله المسيحية ثالوثي (Trine)**»، متكوّن من ثلاثة آلهة. والأوّل في سلسلة هذا الثالوث، أي الآب، هو أفظعهم لأنه «**إله أب مجرّد من الرحمة وممسوخ عن الطبيعة** (dénaturé) سَلّم ابنه الفريد إلى القتل بلا حنان ولا شفقة، وتركه يصيح من الألم ويستغيث ولا مُغيث ...[425]». تصوّروا هذا الكلام يصدر من شخص عاش في فرنسا ردحا من الزمن، درسَ فيها وتخرّج من أرقى جامعاتها، ثم عاد إلى بلده تونس، بلد ذو لون واحد: مسلم سني مالكي، لا يوجد فيه مسيحيّون ولا كنائس، ولا قساوسة، ولا رهبان، ولا صلبان، وإذا به يهجم على المسيحية وعلى رموزها، بالتجريح والشتم، ويفرغ عليها شحنة مكبوتاته الإسلامية بصورة جد فظيعة.

لم يَسْلَم منه أي مقدّس من مقدسات المسيحية، لا الآب ولا العذراء ولا الابن ولا الروح القدس، وإطاره المرجعي الدائم هو الإسلام. الثالوث المسيحي؟ مُضحك. فهو يشبه شمعدان يهودي «له **ساق واحدة**، عليها **ثلاثة رؤوس**: الإله الأب؛ والإله الابن؛ وروح القدس[426]». ويسوع المسيح؟ مَهزلة: هذا الاله الابن «بعدما صعد إلى السماء وجلس جسديا ... على يمين أبيه الإله الأب[427]»، ماذا فعل؟ «**استدعى أمّه ماريّة، أمه وأم الإله، فصعدت بجسدها حية إلى السماء، وجلست إلى جانب ابنها، الذي عيّنها في وضيفة ملكة الكون**[428]». وماذا حصل أخيرا؟ «**بعد فُرقَة طويلة ومتاعب وشجون، الْتَأم في السماء شمل الأسرة المالكة، التي تطلق عليها المسيحية اسم "العائلة المقدسة"**[429]».

لكن الوضعيّة العائلية لمريم، أم المسيح، غير واضحة، والطالبي يتساءل بتهكّم، وكأنه يُوعِز إلى أنها امرأة زانية، وأولادها لُقطاء مُشرّدون: «**لا ندري ما صنعت مارية بزوجها يوسف: اثنان حَمَلا هذا الاسم. فمن أيّ منهما أنجبتْ؟ ولا ندري ما صنعت بأبنائها الذين أنجبتهم من أحدهما**[430]». وبالجملة العائلة التي يقدسها المسيحيون هي عائلة أسطورية ماجنة، مشتّتة لا ندري ما وضعية أفرادها في الأرض ولا مكانتهم في السماء: «**في كل الحالات، أبناء أم الاله، وأخوة وأخوات الإله وابن الاله. فهل هم إذن أنصاف آلهة، كما هو الشأن في الميثيات اليونانية التي الاقتباس منها واضح، وما هو وضعهم الأرضي والسماوي؟ فهل هم في السماء سيُلحقون بالعائلة**

المقدسة، ويكوّنون حاشية الأسرة المالكة؟ وما هو وضع ذرّيتهم؟ أسئلة عديدة، لا جواب لها ولمثلها ولا متناهية[431]».

بهذا الخطاب الذي يزخر تهكما وطعنا وتجريحا في مقدّسات المسيحيين فإن السيد الطالبي، من مَوقعه الاسلاموي، يصل إلى النتيجة النهائية التي لا رجعة فيها: «عقائد اخواننا المسيحيين التي لا نشاطرهم فيها ولا نحسدهم عليها، نعتبرها خرافيّة[432]».

لكن إذا ردّ عليه المسيحيون بأنهم لا يطلبون منه مشاطرتهم عقائدهم، ولا يريدون منه أن يحسدهم، وإنما أن يحترمهم كما هم يحترمون دينه وأن يلتزم الحياد العلمي في بحثه، دون تَغليب دين على آخر، فإن الطالبي يجيبهم بالإمعان في إهانتهم والعودة إلى العائلة المقدسة التي نَغّصت عليه حياته: «**فهذه الأسرة المالكة التي مقرها في السماء والتي يلعب فيها روح القدس دور الحاجب، والتي منها يتكوّن الاله الثالوثي، لا نستطيع أن نطلق عليها اسم الله كما يصف نفسه بنفسه في القرآن، ولا ننخدع لتسميتها بهذا الاسم من طرف شيعتها**[433]». وهكذا فإن المسيحيين، لكي يعودوا إلى رُشدهم ويدخلوا في حضيرة العقل، عليهم أن يَعتنقوا دين الإسلام ويؤمنوا بإله القرآن، ويتقبّلوا بصدر رحب شتائم الطالبي.

4. الهوس بالجنس

القرآن يذكر وقائع محرجة تخص حياة نبي الإسلام، وأكثرها احراجا هي واقعة زواجه من زوجة ابنه زَيْد، وهي واقعة لو قرأها المسلمون في مُدوّنات حضارة ما، أو في كتب أديان أخرى لاتّخذوها ذريعة للقدح فيهم وفي أخلاقهم، ولو قرأوها في احدى روايات البخاري لكذّبوها ولَضَعّفوا الحديث أو عدّوه من بين الإسرائيليات المدسوسة. لكن وُرودها في القرآن بتلك التفاصيل المحرجة سدّت عليهم كل مَنفذٍ، جَعَلتهم يحومون في حلقة مفرغة، في فوضى ذهنية، بلبلت عليهم أفكارهم ومشاعرهم، إلى درجة أنهم لا يَطيقون سماع مَن يطرح مجرّد تساؤلات عن المغزى الأخلاقي لهذه المغامرة الجنسية.

المؤرخ محمد الطالبي، عوض أن يوضّح الموقف ويردّ على النقاد، فهو يشير بإصبع الاتهام إلى المسيحية وكأن المسيحيين هم الذين كتبوا القرآن أو اختلقوا الحادثة من محض خيالهم. وهذه واحدة من ردات الفعل التي اتّخذها، لكي يُغيّب الاحراج الأخلاقي لهذه الواقعة. يَهجم بكل صلافة على المسيح وعلى الأناجيل، ويقول: إذا أردتَ أن ترى أمامك الرذائل فاذهب إلى المسيحية: «الفسوق الجنسي، إنما استباحة كل الرذائل بلا قيد زواج أو أخلاق، في هذا الميدان لقد فازت المسيحية بقصب السبق[434]».

على حدّ زعم الطالبي إذن، كان على المسيحيين أن يَخجلوا من دينهم؛ أن يَذرّوا الغبار على رؤوسهم، أو ينتحروا مرة واحدة ويُريحُوا أنفسهم من حياتهم التعيسة لأن دينهم، الذي آمنوا به هم وآباؤهم لمدة ألفي سنة، هو بؤرة الفسق الجنسي، خزّان الموبقات والرذائل. أعيد وأكرر، هذا ليس كلام داعية وهابي من على احدى الفضائيات، بل عصارة أفكار مؤرخ قدير، درس بفرنسا، زار كنائسها، ربط علاقات مع قسيسين ورجال كنيسة، تمّ تكريمه في إيطاليا من طرف مؤسسة جوفانّي أنيالّي (Giovanni Agnelli)، صاحب شركة صناعة السيارات الشهيرة "فيات (Fiat)"، وإذا به يُكافئهم بوابل من الشتائم وبأبشع وأقذر النّعوت.

بديهي أن لكلّ باحث الحق في أن يَنقد أي دين، ومن واجبه العلمي أن يُجري نصوصه "المقدسة" وتعاليمه اللاهوتية على محك النقد التاريخي العقلاني. لكن هذا النقد المشروع لا ينبغي أن يُكبَح أو يُعاق حينما يتعلّق الأمر بالدين الموروث، ولا يمكن أن يوضع هذا الموروث كإطار مرجعي للحكم على الأديان الأخرى. الطالبي، فعل هذا وذاك: تخلّى عن مهمّة المؤرخ النقدية،

وعوض أن يُجيب عن سؤال: كيف يمكن لنبيّ أن يتزوج من امرأة ابنه؟ لماذا اختارها هي بالذات وترك مئات النساء من حوله؟ علّق المسألة وفتح النار على المسيحية وطفق يُلقي عليها بأبشع ما يتصوّره الخيال من شتائم.

فالرجل لا يَكلّ من القول بأن المسيحية هي دين الرذيلة بامتياز، وأن الأدلة موجودة في الإنجيل ذاته، فهو المصدر الأوّل الذي يُثبت فسوق المسيحية وفجور مؤسّسها، يسوع المسيح. يكفي أن تقرأ الإنجيل حتى تُدرك هذه الحقيقة الفاقعة. وهذا في حد ذاته أمر عجيب ومفزع في نفس الوقت، لأن المسيحيين، منذ ألفي سنة، وهم مُنكبّون على قراءة إنجيلهم في صَلواتهم وتَسابيحهم، ورغم ذلك فإنهم لم يتفطّنوا لما تفطّن إليه الطالبي، أي أنهم يَتّبعون رجلا فاسقا مُتعرٍّ عن الأخلاق، وبلا فضيلة: «إن الأناجيل لا تقول إن يسوع الاله قد تزوّج كغيره من الآلهة، بل حرّم الطلاق، وكان يُفضّل الخصيان[435]».

أين عثر على هذه الميول الجنسية "المنحرفة" ليسوع؟ وجَدَها في إنجيل متّى (1: 12). لكن ماذا نقرأ في هذا الاصحاح وفي هذه الآية بالذات؟ أسردُ النص في الترجمة العربية: «وبعد السّبي إلى بابل، يَكُنْيَا أنجبَ شألتئيل، وشألتئيل أنجب زُربّابل»؛ النص الأصلي لمن يعرف اليونانية: «Μετα δε μετοικεσιαν Βαβυλωνος Ιεχονιας εγεννησεν τον Ζαλαθιηλ δε εγεννησεν Ζοροβαβελ»؛ وللإسهاب نعطيه الترجمة اللاتينية القديمة (Et post trasmigratione Babylonis : Iechonias genuit Salathiel. Salathiel autem genuit Zorobabel).[436]

هذا المؤرخ لا يُحرّف فقط النصوص، لا يزوّر الحقائق بل يَسْتَبْله قرّاءه ويَسخر منهم، وفي هذا فهو يَسير على خُطى الإسلاميين في كتيّباتهم الدعائيّة الضّحلة. ويَكفي هذه السّقطة الفظيعة لكي تدفع القارئ إلى إغلاق الكتاب ورَميه في سلّة المُهملات، والكفّ عن محاورته وتركه في سكرة تزويره وعنفه. لكن، للأمانة العلمية، نواصل السّير معه، و"نوصّل السارق إلى باب داره"، كما يقول المَثَل التونسي.

قد يقول أحدهم ربما هناك خطأ في ترقيم الإصحاح والآية؛ لعلّه كان يقصد الاصحاح 12 الآية 1، ولا هذه تُنقذه من الورطة، لأننا في متّى 12: 1، نقرأ: (في ذلك الوقت مرّ يسوع بين الحقول في يوم السبت، فجاء تلاميذه، فأخذوا يقطفون سنابل القمح ويأكلون).

نَعلمُ من السيد الطالبي أن يسوع المسيح لم يكن مُتَسيّبا أخلاقيا فحسب، بل أكثر وأشنع من ذلك، كان يمارس الرذيلة، وكان مُتعوّدا على زيارة بيُوت الدّعارة: «كان يزور بيوت المُذنبات العاهرات (pècheresses) فيُسَارِعْن في إرضاء رغباته[437]». والدليل هو نص لوقا (10 : 38 - 42). للتثبت فتَحْنا إنجيل لوقا وقرأنا الآيات التي ذكرها: (وبينما هم في الطريق، دخل إحدى القرى،

فاستقبلته امرأة اسمها مارثا في بيتها. وكان لها اختٌ اسمها مريم، جلست عند قدمي يسوع تسمع كلمته. أما مَرثا فكانت منهمكة بشؤون الخدمة الكثيرة. فأقبلت وقالت يا رب، أما تبالي بأن أختي قد تركتني أخدم وحدي؟ فقل لها أن تُساعدني. ولكن يسوع ردّ عليها قائلا: "مرثا، مرثا! أنتِ مُهتمّة وقلقة لأمور كثيرة. ولكن الحاجة هي إلى واحدٍ، ومريم قد اختارت النصيب الصالح الذي لن يؤخذ منها").

قد يتساءل المسيحي: هل ثمة، في هذا النص، ما يُشير، من قريب أو بعيد، إلى نكاح أو دعارة أو ممارسة جنس مع نساء وغلمان؟ هل في هذا الكلام دعوة للرذيلة؟ لو قمنا بجولة سريعة في التفاسير المسيحية لما عثرنا ولو على ذرّة واحدة ممّا ادّعاه هذا الرجل. ولكي أبرهن على كلامي سأعرض بعض التفاسير التي قام بها المسيحيون أنفسهم، ونُقارِنها بما كَتَبَه المؤرخ التونسي، الدكتور محمد الطالبي، خرّيج جامعة السوربون.

بِيدَه المُبجّل (Vénérable Bède): «إن المُخلّص علّمنا في البداية محبة الله والقريب، بالكلام والأمثلة، والآن يُعلمنا إياها بالأفعال والحقائق[438]». أوغسطينوس: «لكن السيّد الذي جاء إليه، دون أن يريد أهله استقباله (يوحنا، 1)، استُقبِل هنا كغريب: "فاستقبلته امرأة اسمها مرثا في بيتها". لقد استقبلته كما يُستقبل المسافرون، ومع ذلك فإن الأَمَة تستقبل سيّدها، والمريضة تستقبل مخلصها، والمخلوق يستقبل خالقه. لا تقولوا: "يا لسعادة من يقبل يسوع المسيح في بيته، لا تغبّطوهم على سعادتهم، لأن ربّنا قال: "كل ما تفعلوه بأحد الصغار، فعلتموه لي (متّى، 25)". إذا سمح إذن بأن يُطعَم، فهذه نعمة حُظي بها الشخص الذي استضافه. مرثا كانت تهيئ كل اللوازم لكي تستقبل سيّدنا بلياقة، وتَتَفانى في خدمته، بينما ماريا، اختها، فضّلت الغذاء الروحي الباطني: "وكانت لها اخت اسمها مريم، جلست عند قدمي يسوع تسمع كلمته"[439]». كريزوستوم (فم الذهب) يعلّق: «الانجيلي لا يقول فقط إن مريم كانت جالسة بجانب يسوع، بل "كانت جالسة عند قدميه" لكي تُعبّر أكثر عن حماستها، عن حرصها، على التقاط كلمات يسوع، والاحترام العميق الذي تكنّه للربّ[440]».

أوغسطينوس: «كلما تواضعتْ أكثر بين يدي المخلّص، قَطَفتْ بوفرة كلماته الالهية، لأن الماء يسيل بغزارة في أعماق الوديان، بينما ينزل من قِمَم التلال التي لا تقدر على حفظه[441]». بازيليوس: «كل أفعال المخلّص، وكل أقواله هي لنا قواعد رحمة وفضيلة، لأنه لَبِسَ جسدنا لكي نقدر على محاكاة سيرة حياته بحسب طاقتنا[442]». كيرلس: «يسوع يُعلّم تلاميذه بسِيرته الحسنة التي ينبغي عليهم اتباعها حينما يتم استضافتهم في بيتٍ ما؛ يجب عليهم عند دخوله، ليس الاستمتاع بالراحة فحسب، وإنما ملئ أرواح أولئك الذين استقبلوهم بالتعاليم الالهية المقدسة. أما أولئك الذين يوفّرون لهم الضيافة، يجب عليهم أن يقوموا بها بسرور وعناية، لسببيْن: سيجدون موضوعا لبنائهم الروحي في تعاليم من استقبلوهم، وسيَنالون هم بدورهم مكافئة رحمتهم[443]».

أوغسطينوس: «مرثا كانت منشغلة بتوفير الضرورات الجسدية ورغبات الطبيعة الانسانية للرب؛ لكن ذاك الذي تراه لابسا جسدا فانيا، كان منذ البدء اللوغوس. إن هذا اللوغوس هو الذي كانت تُصغي إليه مريم. هذا اللوغوس المتجسّد، هو أيضا الذي تَخدمه مرثا. الأولى تشتغل، الثانية تتأمّل. لكن مرثا كانت مُجهَدَة بهذا العمل وبكل العناية اللازمة، تتوجه للربّ، وتشتكي من اختها: " يا رب، أما تُبالي بأنّ أختي قد تركتني أخدم وحدي؟". مريم بالفعل كانت مسلوبة بحلاوة كلام الربّ، مرثا تُحضِر الوليمة للمخلص، الذي هو نفسه يهيّئ لمرثا وليمة أكثر حلاوة. لكن، كيف لم تخش أن الرب، مضغوط من طرف اختها، سيقول لها: "انهضي وساعدي اختك"، بينما هي تتذوّق حلاوة كلام المخلّص، وقَلبُها كان غارقا كله في هذا الغذاء الإلهي؟ كانت غارقة في لذائذ لا توصف، أصْفَى وأرقى شأنا من لذائذ الجسد. وقد تقبّلتْ عتاب الخمول، وسلمّت أمرها لقاضيها، دون أن تتحمّل عناء الردّ، خوفا من أن الانشغال بالردّ فقط سيقودها إلى التلهّي عن كلمات الربّ. فأجاب الربّ: ""مرثا، مرثا! أنتِ مُهتمّة وقلقة لأمور كثيرة". هذا التكرار لاسم مرثا، هو علامة مودّة المخلّص لها، أو وسيلة لكي يجعلها أكثر انتباها للدرس الذي سيعطيها. "أنتِ بأمور كثيرة ... "، يعني أنكِ مشغولة بكثير من الأشياء. فعلا، حينما يُقْدِم المرء على خدمة ما، فهو يريد استكمالها بالتمام، ولكنه لا يستطيع؛ يبحث عما ينقصه، يُحضر ما هو متوفر بين يديه، وعقله سارح، في تشتّت واضطراب. وهكذا فإن مرثا ما كانت قطّ لتطلب من اختها أن تأتي لمساعدتها، لو كانت قادرة لوحدها على تأدية العمل. كانت مُنكبّة على كثير من الأشياء، همومها، انشغالاتها كانت متعددة، ومُوَزّعة على أصناف مختلفة، لأنها مُنصبّة على أشياء هذه الأرض[444]».

ها نحن أمام مجموعة من حُذّاق المفسرين المسيحيين الذين قرؤوا كلام يسوع في الإنجيل، ولم يعثروا فيه على أية دعارة أو شذوذ، بل إنهم استخرجوا منه مُثُل أخلاقية راقية، كالفضيلة والرحمة والصدق والاخلاص، والعفة. لماذا يزجّ المسلم بأنفه في أناجيل المسيحيين؟ لماذا يتعمّد التجريح في مقدساتهم ويتهم يسوعهم بأقذع النعوت؟ لماذا لا يعتني بدينه ويقف على مفارقاته؟

5. حديث النّكاح في المسيحية

أما الحادثة الأخرى التي استشهد بها الطالبي لإثبات أن يسوع كان يَرتاد بيوت الدّعارة وكان يُمارس الجنس مع المُومِسَات، وجدَها مرة أخرى في نص الانجيل، وهي مقاطع، حسب قناعته، تُورّط المسيح نهائيا: «وليلة صلبه، عندما كان مُتّكئا على سرير على الطريقة الرومانية، يشهد مأدبة فاخرة أقيمت على شرفه: (إذ امرأة من أهل المدينة، كانت تمارس البغاء، علمتْ أنه كان في بيت الفِرّيسيّين متّكئا للطعام، دخلت فجأة، وكانت معها قارورة طيب من المرمر. فانتصبت خلف يسوع، وكلّها دموع، جاثية عند قدميه، تُفيض عليهما دموعها، ثم تمسحهما بشعرها، وتطفق تقبّلهما، وتُفرغ عليهما الطيب) (لوقا، 7: 36 - 38)[445]».

إن هذه الواقعة، في رأي مؤرّخنا، تُثبت، بما لا يدع مجالا للشكّ، أن يسوع الإله «كان يُفضّل هكذا الزنا على الزواج، وما حاجته للزواج؟ وفي تعدد الزوجات؟ وكل "المذنبات" يشغفن به إلى هذا الحدّ، وهنّ ملك يديه، ما دَخَلَ مدينة وجلس إلى مائدة فاخرة إلاّ هرعن إليه![446]». لماذا يؤمنون به إذن؟ لماذا يؤلّه المسيحيون زير نساء، يجوب القرى ويشارك في عمليات نكاح جماعي؟

أنا لا أدافع عن المسيحية، ولستُ مَعنيّا بالدفاع عن أي دين، لأن موقفي من الأديان هو موقف الرفض الكلّي والتام والثابت، وقد عرضتُه في كتابي "تحقيق ما للإلحاد". أنا أدافع عن عقلي وأحمِي نفسي من جنون الأديان وتعاستها؛ أجتهد لكي أعرّي عجرفة المتديّنين وغرورهم واحتقارهم لبعضهم وحروبهم الدائمة فيما بَيْنهم.

إن الطالبي يُقدّم لنا مثالا حيّا، ومُحْزنا على هذه الحرب الشرسة بين الأديان، ويعطي نموذجا من سياسة التجريح المُتقَاطع، ولكن هذا الرجل فاق الجميع ببذاءته وكرهه الدفين للمسيحية، وإن كلّفه الأمر تزوير النصوص وتلفيق الشهادات والإتيان بتأويلات خيالية. الموضوعية العلمية تُحتّم على الباحث الجدي تقديم النصوص الأصلية، وعرض التأويلات التي قام بها المسيحيون أنفسهم والمعاني التي استخرجوها منها، وترْك الحكم للقارئ.

نبدأ بسرد النص الإنجيلي. الحادثة التي أوعز إليها الطالبي جاءت في انجيل لوقا (7: 36 - 50) كالتالي: (ودعاه أحد الفرّيسيين أن يأكل معه، فدخل بيت واتكأ. وإذا امرأة في المدينة كانت

خاطئة ("γυνὴ .. ἁμαρτωλός" ؛"mulier .. peccatrix")، إذ علمت أنه متكئ في بيت الفريسي، جاءت بقارورة طيب ووقفت عند قدميه من ورائه باكية، وابتدأت تبلّ قدميه بالدموع، وكانت تمسحهما بشعر رأسها، وتُقبّل قدميه وتدهنهما بالطيب. فلمّا رأى الفريسي الذي دعاه ذلك، تكلم في نفسه قائلا: "لو كان هذا نبيّا، لعَلِم مَن هذه الامرأة التي تَلمسه وما هي! إنها خاطئة". فردّ عليه يسوع قائلا: "يا سمعان، عندي شيء أقوله لك". فقال: "قل، يا معلم". كان لمُدَاين مَدْيُونان. على الواحد خمسمئة دينار وعلى الآخر خمسون. وإذ لم يكن لهما ما يُوفيان سامحهما جميعا. فقل: أيهما يكون أكثر حبّا له؟ فأجاب سمعان وقال: "أظن الذي سامحه بالدين الأكبر". فقال له: "بالصّواب حكمتَ". ثم التفتَ إلى المرأة وقال لسمعان: "أتَرى هذه المرأة؟ إني دخلتُ بيتَك، ولم تُعطني ماء لِغَسْلِ قدميّ! وأما هي فقد غسلت قدميّ بالدموع ومسحتهما بشعر رأسها. أنتَ لم تقبلني قبلة واحدة! أما هي فمنذ دخلتُ لم تكفّ عن تقبيل قدميّ. أنتَ لم تدهن رأسي بزيت! وأما هي فقد دهنتْ بالطيب قدميّ. من أجل ذلك أقول لك: قد غفرتُ خطاياها الكثيرة، لأنها أحبّتْ كثيرا. والذي يُغفَرُ له قليل يُحِبّ قليلا. ثم قال لها: "مغفورة لك خطاياك!". فابتدأ المتكئون معه يقولون في أنفسهم: "من هذا الذي يغفر الخطايا أيضا؟ فقال للمرأة: "إيمانُك قد خلّصك، اذهبي بسلام!").

لو كان السيد الطالبي موضوعيا، وراغبا في الحقيقية، لما تَلهّف على التّجريح والشتم والادانة، ولعَرَض النص بكامله، لا أن يَبْتره ويلوي عنقه لكي يستخلص النتيجة التي يريد استخلاصها، أي أنّ المسيح هو زير نساء. لو كان المسيح، حسب هذه الرواية، زير نساء، خليع وفاسق، لما قال لها: "اذهبي بسلام"، بل لقال لها: ادخلي الحجرة سآتيك ريثما أتناول الطعام.

إن المفسّرين الأوائل للإنجيل لم يعثروا على أيٍّ من القبائح التي عدّدها الطالبي ونسبَها إلى يسوع، بل استخرجوا من هذه الحادثة مَعانٍ أخلاقية ولاهوتية راقية، نعرض بعض المقتطفات منها. غريغور النيصي: «إن هذه الرواية تتضمّن درسا مفيدا جدا. ذلك أن أغلب أولئك الذين يعتقدون أنهم عادلون، كثيرا ما يكونون منتفِخين بادّعائهم وسخافة أفكارهم، فيَفصلون أنفسهم عن الناس كما ينفصل الخرفان عن الأبقار؛ إنهم يرفضون الأكل مع العامّة، ويُعادون المُنصِفين الذين يتفادون الافراط والتفريط، أو يتّبعون الوسطية في سيرة حياتهم. لكن، القديس لوقا، طبيب أرواح أكثر منه أجساد، يُرينا الربّ نفسه ومخلّصنا يَزور بطيبة خاطر كل الناس: "فدخل بيت الفريسي، واتّكأ"، لا لكي يَقتَنيَ شيئا ما من حياة الفرّيسي الآثمة، وإنما لكي يجعله مشاركا له في عدالته ذاتها[447]».

القديس غريغور: «هذه المرأة تَفكّرتْ الأدران التي لطّختْ حياتها الخليعة، فهرعَت لكي تتطهّر من منبع الرحمة ذاتها، لم تخجل من الظهور أمام الضّيوف؛ لأنها كانت تشعر في قرارتها بخجلٍ شديد من نفسها، بحيث إنها لم تَعتن كثيرا بما يأتيها من خارج. انظروا إلى الألم الذي يَنخر هذه المرأة التي لم تخجل أبدا من سَكْبِ الدّموع بين أفراح اللمّة[448]». غريغور النيصي: «مُقتنعة اقتناعا تاما بعدم أهليّتها، فقد مكثت خلف يسوع، العينان مَنكوستان والشعر مُتناثر، تُقبّل قدميه

وتسكبُ فيضا من الدموع، تُبدي هكذا بأعمالها الحزن المتمكّن من نفسها، وتطلب عفوه ... لقد انفتحتْ عيْناها على كل ملذات الحياة، لكن الآن، بالتّوبة، أطفأتْ نار عينيهما بفيضٍ من الدموع؛ كانت تستعمل شَعرها لتلميع جمال وجهها، والآن تستعمله لكي تمسح دموعها ... كان فَمُهَا يلهج بكلام نابعٍ من الخيلاء؛ الآن هي تُقبّل قدمي المخلّص وتَطبع شَفتيها على رجلي الفادي .. لقد استعملت العطور لكي تُعطي لجسدها رائحة زكيّة، وما أسرفت فيه لنفسها بطريقة مخجلة، قدّمته الآن لله كتضحية عجيبة .. وهكذا فإنها بقدر ما كانت تجد نشوة في ذاتها، بقدر ما تقدّم الآن من تضحيات؛ عدد فضائلها يساوي عدد خطاياها؛ تريد أن يتحوّل كل ما كان أداةٍ لإغضاب الله، إلى أداة نَدمٍ لإرضائه[449]».

كريزوستوم (فم الذهب): «وهكذا فإن هذه المرأة ذات السيرة السيّئة أصبحتْ أكثر فضيلة من العذارى، لأن هذا التّكفير المتحمّس عن الذنب، أُتبِعَ بمحبّة أكثر تحمّسا ليسوع المسيح. ولا نتحدّث هنا إلاّ على الظاهر؛ أمّا التّحمس الكبير الذي يعتمل في نفسها، الله فقط هو الشاهد عليه[450]». غريغور: «الفرّيسيّ، حينما رأى هذا المشهد، لم يُثر فيه إلاّ الاحتقار لهذه المرأة، وطفق يُلْقي بِلوْمه ليس فقط عليها، هي التي تجرّأت على الاتيان ليسوع، لكن على الربّ الذي استقبلها بحفاوة ... ها هو الفريسي باعتزازه المفرط وعدالته الزائفة، يُدين المَريض لسُقمِه، والطبيب للعلاج الذي يوفّره. لا شك أن هذه المرأة لو ارتمت بين قدميه، لدَحَرَها بازدراء؛ كان يَتخيّل أن هذا الاقتراب سيُلوّث روحه لأنه لم يكن مُتشبّعا بالعدالة الحقّة. وهكذا فإن البعض من الذين يمارسون مهنة الوعظ، كلّما قاموا بعمل عادل هزيل، إلا ونظروا بعين الاحتقار إلى أولئك الخاضعين لسلطتهم، ويزدرون كل المذنبين الذين يُصادفونهم. لكن يجب علينا، على العكس من ذلك، حينما نعتبر الحالة التعيسة للمذنبين، أن نتفكّر في أننا كنّا قد سقطنا بعد، أو أنه يمكننا أن نسقط في نفس الأخطاء. يجب التصرف بحكمة فائقة، يجب أن نكون صارمين إزاء الرذيلة؛ مملوئين اشفاقا على الأشخاص؛ إذا كان المذنب يجب أن يُعاقب، فالقريب له الحق في رحمتنا، بل أذهب أبعد من ذلك وأقول: في اللحظة التي يعاقب فيها المذنب نفسه بالنّدم عن الشر الذي اقترفه، فهو يكفّ عن أن يكون مذنبا، بما أنه يُعاقِب في نفسه ما تُدينه العدالة الإلهية. إن سيّدنا، بالتالي، كان بين مَريضيْن، لكن أحدهما، حتى في حُمّاه، حافظ على سلامة عقله، بينما الآخر فَقَدَ عقله؛ المرأة المخطئة تبكي الذنوب التي اقترفتها؛ الفرّيسي، على العكس، مغرور بعدالته الكاذبة، يبالغ في التّباهي بصحّته الجيّدة[451]».

كيرلّس الاسكندري: «جاء ليَصفح عن المثقلين بالدّيون، كثيرها وقليلها، وليرحمَ الصغير ويعطف على الكبير ... حرّر المرأة الخاطئة من آثامها الكثيرة قائلا: "غفرتُ لك خطاياك". يجدر الاشارة إلى أنّ مِثل هذه المرأة تستحق الغفران! إن كلمتَه ترتبط بسلطة عُليا. وبما أن الشريعة أدانت الخطّائين، فمن يقدر على أن يُعلن ما هو أسمى من الشريعة إلاّ الذي أعطاها؟[452]»

كريزوستوم (فم الذهب): «بعدما تَهطل المطر بغزارة، تستعيد السماء صفاءها؛ هكذا بعد انهمار غزير للدموع، يعود الهدوء، وغيوم ذنوبنا تتقشّع ونَتَطَهّر مجددا بالدموع والاعتراف، كما وُلِدْنا من قَبْل بالماء والروح: "من أجل ذلك أقول لك: قد غفرتُ خطاياها الكثيرة، لأنها أحبّتْ كثيرا". فعلا، أولئك الذين ارتموا بكامل أجسادهم في الشر، حينما يَتُوبون فإنهم يُقدِمون بنفس القدر من الطاقة على فعل الخير، متذكّرين الدّيون التي استدانوها[453]».

القديس غريغور: «إذن كلّما ازداد قلب المذنب احتراقا بنار الرحمة، كلما ازدادت هذه النار استهلاكا للصدأ ولأدران الخطيئة[454]». كريزوستوم: «فلتكُن أرواحنا مليئة بالحماسة؛ لأن لا شيء يَمنَع من أن نبلغ الكمال الأعلى؛ لا واحد من المذنبين يجب عليه أن يفقد الأمل في الخلاص؛ لا واحد من الصالحين يجب أن ينحدر في الخفّة؛ فليتّق الصالح الثقة المتعجرفة في النفس (لأن امرأة ذات سيرة سيّئة غالبا ما تسبقه إلى مملكة السماء)؛ ولا يَيأسنّ المذنب أبدا؛ لأنه بإمكانه أن يعلو على أتقى الناس: " ثم قال للمرأة: "إيمانُك قد خلّصك، اذهبي بسلام!"[455]».

القديس غريغور: «هذه المرأة إذن التي أتت مريضة لتُلاقي الطبيب، نالت الشفاء، لكن هذا الشفاء نفسه أصبح لأولئك الذين شهدوه سببا للمرض: " فابتدأ المتكئون معه يقولون في أنفسهم: "مَن هذا الذي يغفر الخطايا أيضا؟". لكن الطبيب السماوي لم يُعِر أي اهتمام لهؤلاء المرضى الذين تدهورت حالتهم بمفعول الدواء الذي يجب أن يخلّصهم، بينما يقوّي بالكلمة الرحيمة تلك التي شفاها: " فقال يسوع للمرأة: "إيمانُك قد خلّصك"، ذلك لأنها لم تتردّد في الإيمان بأنها ستنال ما تطلبه[456]». ثيوفيل: «لم يكتف سيّدنا بمنحها المغفرة لخطاياها، أضاف نعمة فعل الخير "اذهبي بسلام (يعني في العدالة)"، لأن العدالة هي سلام الإنسان مع الله، كما أن الخطيئة هي الحرب على الله؛ يقصد: اعملي كل ما يمكن أن يقودك إلى السلام مع الله[457]». غريغوار: «ماذا يرمز هذا العطر سوى أنه رائحة صيت طيّب؟ إذا فعلنا إذن أعمالا حسنة، تَفوح شهرتها مثل العطر في كامل الكنيسة، وهكذا ننشر بالمعنى الحق العطور على جسد الربّ. هذه المرأة انزوت عند رجلي السيّد، لأننا نتمسّك برجليه مباشرة عندما نقاوم مَسْلكَها في خضمّ خطايانا؛ لكن حينما نعود إليه، بعد اقترافنا الذنوب، في توبة نصوحة، عندها نسير خلفه، حذو قدميه، وهكذا نتقفّي آثاره التي كنا قد قاومناها[458]».

القديس امبروزيوس: «أنتم إذن أيضا أولئك الذين أخطأتم، ارجعوا لطُرق التوبة، اهرعوا إلى أي مكان تسمعون فيه اسم يسوع المسيح، أسرعوا لدخول كل بيت تعلمون أنه دخله يسوع؛ حينما تجدون الحكمة جالسة في أي مكان، اهرعوا لكي تَرْتَموا بين قدميها، واعترفوا بذنوبكم في الدموع. ربما لن يغسل يسوع المسيح قدميه في هذه الحالة، لكي نغسلها نحن بالدموع، دموع سعيدة تقدر ليس فقط على غسل أخطائنا، وإنما سَقْي رجلي الكلمة الإلهية، لكي تصبح خُطاه لنا منبعا لا ينضب للرحمة!». القديس غريغور: «نحن نغسل رجلي الرب بدموعنا، عندما، برغبة جامحة من العطف، نَنحني أمام الأعضاء المتواضعة للسيّد؛ نمْسح قدميه بشَعرنا حينما تدفعنا الرحمة لنجدة، بما

نملكه، خدّام الله القديسين». القديس امبروزيوس: «مَشّطوا شعوركم، القوا بين قدميه كل ما يزيّن جسدكم؛ إن الشعر ليس أبدا خسيسا، بما أنه يصلح لمسح قدمي يسوع المسيح[459]».

القديس غريغور: «هذه المرأة تُقبّل قدمي المخلّص بعد أن مَسَحَتْهما، وهذا ما نفعله نحن أنفسنا، حينما نحبّ بحنان أولئك الذين أنقذناهم من الفقر بسخائنا. بإصبع ربّنا يمكن أيضا أن نعني سر التجسّد؛ نحن نقبّل إذن قدمي الفادي عندما نتشبّث بكل قلبنا بسر تجسّده. نَسْكبُ العطور على قدميه، حينما نُعلن قوّة انسانيته بالصيت العالي للكلمة المقدسة». القديس أمبروزيوس: «المخلّص أخرج الفضيلة البطولية لهذه المرأة: " أما هي فمنذ دخلتُ لم تكفّ عن تقبيل قدميّ"، يعني أنها لا تريد أن تعرف غير لغة الحكمة، غير حب العدالة، غير تقبيل العفة». أمبرزيوس: «سعيد من يمكن أن يسكب زيت المسح على قدمي يسوع المسيح، لكن أسعد منه ذاك الذي يقدر على أن يُعَطّرها بالعطر؛ لأن جَمْع عدد كبير من الورود يشكّل خليطا من الروائح العبقة والمختلفة. وحدها الكنيسة لها الفضل في صناعة هذا العطر، هي التي تملك عددا لا يحصى من الورود التي تفوح روائح عديدة مختلفة؛ لا واحد يمكنه أن يحتكر لنفسه هذا الحب الكبير إلاّ الكنيسة التي تحب بقلبها كل أبنائها[460]».

أكتفي بهذا القدر، وأعتذر على الاطالة، ولكن الأمر مفروض علينا لأن هذا المؤرخ يُطالب الجميع بالصرامة العلمية، وبالدقة في الاستشهاد والتحرّي من النصوص وإيراد المصادر المؤيّدة، ونحن لبّينا مطلبه، وجئناه بالشواهد من منابعها الأصلية. الحوار الفكري النزيه لا يُجيز لأي أحد أن يتهجّم على أي دين وجرح حساسية مؤمنيه بهذه الطريقة الفجة وباستخدام هذا الكمّ الهائل من التعابير النّابية القبيحة، وذلك في سبيل الإعلاء من دينه والحط من دين الآخرين. الانطلاق الصحيح لنقد الأديان وكتبها "المقدسة" يأتي من قِبل العقل ومن العقل فقط، وهو الوحيد المُخوّل لحسم هذه المسألة وإعطاء القول الفصل.

6. المسيحية هي الفسق

ولكن بما أن الرجل ركّز على الجنس، كما يفعل كل المسلمين لنقد الديانة المسيحية، فإن المسيحيين بدورهم يستطيعون أن يردّوا عليه ويُبكّتوه، عن طريق نص القرآن نفسه، أما إذا استندوا إلى الأحاديث فإنهم سيَمْحَقونه مَحقا. قد يردّ الطالبي بأنه قرآني خالص، لا يعترف بأي حديث، وبأية شريعة، أو فقه، لكن هذا لا يخلصه من المأزق لأن القضية تتعلق تحديدا بنص القرآن لا غير.

لقد شن هجمته العنيفة على المسيحية، وساح في تجريحها، فقط لأنه وجد في القرآن، أن نبيّ الإسلام تزوّج امرأة ابنه وأن هذا الزواج تمّ بمُباركة من الله. ليس من المعهود، لا بين المتحضّرين ولا بين البدائيين، أن يتزوّج شخص زوجة ابنه، هذا فعل لا يليق بأي إنسان يحترم قيم الاجتماع وحُرمة الأسرة، وأخطر من ذلك أن تُنسب هذه الرخصة إلى الله: إنه مأزق أخلاقي ولاهوتي فظيع. الطالبي، من موقعه كإسلامي، يقدّس القرآن إلى حد التأليه، يريد أن يجد مخرجا كي يُخفف من وَقْع الصدمة، فلم يجد أمامه إلاّ تغييب القضية والخروج عن الموضوع. وبنوع من الضّربة الاستباقيّة حوّل وجهته إلى المسيحيين واتّهمهم بالمجون والخلاعة والفحش والفسوق، وبممارسة كل الرذائل التي يمكن أن نتخيّلها، ولم يكتف بذلك بل إنه التفت إلى يسوع المسيح ووصفه بصفات نابية، وقال إنه زير نساء يرتاد بيوت الدعارة ويتسكّع بين الغلمان. أقوال جارحة بالنسبة للمؤمن، لو تفوّه بنصفها أحد المثقفين المسيحيين ضد نبيّ الإسلام لأفتَى هذا الرجل بقتْله.

إن هذه المقدمة العنيفة ضد المسيحيين والزجّ بهم في مسألة تخص المسلمين ـ وكأن المسيحيين هم الذين كتبوا القرآن أو قصّوا حكاية زواج محمد من زينب ـ الغاية منها هي إلهاء القارئ ووقايته من الصّدمة التي تثيرها في نفسه حادثة مُحرجة من هذا القبيل. وعلى الرغم من أن هذا الرجل، مثل يوسف الصديق، ينفي مشروعية التفاسير القديمة وتراث الأحاديث، فهو يعود إليها لكي يذكّرنا بأن تلك الآيات التي نزلت في زينب بنت جحش «يمكن أن نضبط تاريخ نزولها بكل دقّة ويقين[461]».

لا أدري كيف يمكن لمؤرخ مُدقّق وصارم أن يقول شيئا من هذا القبيل؟ أين دليله المادي على حصول هذه الحادثة بالصيغة التي روتها الأحاديث؟ هل له وثيقة رسمية تُثبتُها اثباتا قاطعا؟ قد تكون ملابساتها موجودة في القرآن، لكن القرآن لا يذكر أي اسم، ما عدا أبا لهب وزيد؛ لا نجد فيه

حتى اسم أكابر الصحابة، مثل أبا بكر أو عمر أو علي؛ القرآن لا يُحدّد أي مكان وأي زمان، كلها ايماءات فضفاضة وكيانات بلا أسماء. لكن كل ما قاله وما سيقوله القرآنيّ، محمد الطالبي، مُستمدّ من تراث المسلمين الشفوي الذي جُمع في كتب الأحاديث والسيرة، والذي أنكره واتّهمه بأنه حرّف رسالة القرآن. الآيات، يقول الطالبي، تتحدث عن الظروف «التي تم فيها زواج النبي من زينب، ابنة عمّته أميمة. لقد تمّ هذا الزواج في ذي القعدة سنة 5 (أبريل 627)[462]».

ثم يُعيد علينا سرد الرواية كما جاءت في كتب المسلمين، ويُعلِمنا بأن هذا الزواج أثار ضجة كبيرة في المدينة، وسببها أن «النبي قد زوّج دَعِيَّه، أي ابنه عن طريق التبنّي، زيد بن حارثة الذي كان له عبدا قبل الإسلام فعَتقه وتبنّاه، من زينب ابنة عمّته، وكانت كارهة لهذا الزواج، فأخفق الزواج وانتهى بالطلاق. فتزوّجها النبي بعد طلاقها، وكان قد شُغف بها ويُخفي شغفه[463]».

لاحظوا هذه العبارات: "ابنه"؛ "كان عبدا"؛ "زوّجه ابنة عمّته"؛ "كانت كارهة للزواج"؛ "شغَفَ بها"؛ "يُخفي شغفه"؛ مذهل حقا. كيف يسرد هذه الأشياء المَعيبة ويمرّ عليها دون أن تسترعى انتباهه؟ نبيّ له عبد، أصبح ابنه، زَوّجه ابنة عمّته، فكرهتْ الزواج، ماذا فعل؟ تزوّجها هو. أنا أسأل ضمير هذا المؤرخ الكبير: هل هناك ذرة من المعقولية في هذه التصرفات؟ هل هناك ذرة من الأخلاق في سلوك من هذا القبيل؟ هذا الرجل يعيب على المسيحية رذائلها الجنسية، ويتّهم المسيح شخصيا بأنه يمارس الدعارة ويطوف ببيوت المومسات، ولكنه لا يعيب على رسول الإسلام أنه ترك النساء من حوله والتَفَتَ إلى زوجة ابنه. قال: «فشنّع عليه أهل المدينة هذا الزواج لأنه ينافي العرف السائد الذي يمنع زواج الرجل من زوجة دعيّه في حالة فراقه بالطلاق أو الموت، لأن الدعي بمثابة الابن[464]». لكن هذه مراوغة مفضوحة، لأن هذا العمل مناف للعرف والأخلاق ليس بالنسبة لأهل مدينة يثرب في تلك الفترة بالذات بل بالنسبة لأي تجمّع بشري سليم يحترم أخلاق الزواج؛ ليس من المعهود في روما وأثينا، عند والفرس أو الصينيين أو المغول أو في أي حضارة أخرى أن يتزوّج الأب زوجة ابنه، فقط لأنها كَرِهَت زوجها.

إن الطالبي، مِثله مثل المسلمين جميعا، مُستعدّ لفِعْل كل شيء كي يُبرّر هذه الحادثة؛ مستعدّ أن يقلب نظام العالم، أن يدوس على القيم الأخلاقية، ويضطهد مبادئ المنطق والعقل لكي يُنقذ دينه ويحافظ على تاريخه المقدس. فعلا، ما كان لأي واحد من الناس أن يفعل ذلك لولا نزول آيات قرآنية من إله الكون، وتصوّروا، ماذا فعلت هذه الآيات؟ في رأي الطالبي هذه الآيات: «نَقضتْ العرف، وأباحت للجميع ما كان مَحظورا، وعن إثرها وعملا بها، تزوّج النبي من زينب طبق هواه[465]».

نقْضُ العُرْف، إباحةُ أعمال لا أخلاقية (محظورة)، إطلاق العنان للهوى الشخصي، كل هذه لا تعني للطالبي شيئا، لا بل إنّ حَشْرَ الله في هذه الشؤون العائلية لا يُثير فيه أي تساؤل. أنا متأكد أنه لو جاء في القرآن أن أكل لحوم البشر حلال لوجَدَ له المُبرّرات، ولحَسَّنه وأثنى عليه. لكن النبي لم يتزوّج طبق هواه، تزوّج طبقا لهوى الله، الذي كشف ما كان يُبطنه نبيّه ويخشى البوح به،

يعني، بعبارة أخرى، الله فضح نوايا نبيّه الباطنية أمام الناس، وهذا أمرٌ مدهش حقا، لا نعثر على مَثيله في أي كتاب في العالم، أن يَفضحَ أحدهم نفسه بنفسه أمام الجميع، ويقول إنه أمرٌ إلهي، وهكذا يدوس على قدسية الله ويجعله شريكا له في الرذيلة.

المَخرَج الثاني الذي ارتآه الطالبي هو التركيز على ضعف الرسول وإنسانيّته المحدودة، وهكذا يتمّ بكل تساهل تغييب الله الذي، في مواضع أخرى، يتدخّل في كل صغيرة وكبيرة من حياة النبيّ، ويتمّ تغييب الوحي وقدسية القرآن والأخلاق الحميدة وما إلى ذلك من التعاليم السامية التي يَتَباهى بها المسلمون. فعلا، مَن ينتقد محمدا من المسيحيين، يقول الطالبي، فهو يُغفل هذه الحقيقة، وهي أنه «إنسان حقيقي ككل الناس، يحق له ككل الناس أن تُحترم حياته الفردية الذاتية الحميمة، ككل حياة ذاتية فردية داخلية[466]». ومَن قال العكس؟ مَن قال إنه يجب انتهاك حرمة الحياة الشخصية للناس؟ كان على الطالبي أن يسأل نفسه: مَن الذي لم يحترم الحياة الشخصية إن لم يكن القرآن ذاته الذي روى أشياء محرجة لا داعي للخوض فيها، من قبيل: زيد قضى من زوجته وطرا فزوّجناكها؛ امرأة مؤمنة تهب نفسها للنبي يستنكحها؛ ما ملكت يمينك.. الخ.

أما قوله إن محمدا هو «رجل ككل الرجال، رجل حقيقي لا ميثي، يأكل ويشرب ويغضب ويرضى، ويتألم ويهوى، ويشتهي ويحب[467]»، فهو لا يحل المشكلة الأخلاقية بل يُفاقمها. أين الله إذن؟ أين الوحي؟ وكيف يكون محمد رجلا ككل الرجال، خاضع لنفس إلزاماتهم، وهو الذي يصلّي عليه الله والملائكة؟ وكيف غاب الله في الوقت الذي كان الجميع ينتظرون تدخّله لاحترام الأعراف والأخلاق الحميدة؟ أم أن الله قد غُيّب هنا وأُقحِم هناك لكي يسوي حياة محمد الشخصية، كما تشير هذه الآيات التي استشهد بها الطالبي؟

تساؤلات عديدة لم يُجب عنها الطالبي، لكنه وضع نفسه في مأزق خطير، واختار المَوضِعَ الأكثر هشاشة في الإسلام والذي يتحرّك فيه المسيحيون بكل اعتداد وأريحية، ويُبكّتون فيه المسلمين تبْكيتا رهيبا، ويُلقّنونهم درسا في الأخلاق لن ينسوه أبدا. ونص القرآن نفسه هو الذي يُوفّر لهم هذه الفرصة، ويمنحهم السلاح لإدارته ضد الإسلام، أما الأحاديث، أعني أحاديث النكاح، فهي حقل لا ينضب، يجدون فيه كل ما لذ وطاب من اللواط والسفاح وشرب الخمر والتوضؤ به حتى، كما جاء في مسند أحمد. وهي كلها موثقة ومعترف بها من طرف كل المسلمين منذ أن خُتِمت مدوّناته الكبرى.

7. يَنقض نفسه بنفسه: من العفّة إلى الدعارة

في لقاء تلفزي سألتْ صُحفيّة تونسية محمد الطالبي: «البعض يعيب عليك أقوالك وكأنك تُحلّل ما حرّم الله». فأجاب: «أنا لا أحلل ما حرم الله، أنا أقول إن الشريعة كذبت على الله، حرّفت القرآن. أما الإسلام والجنس، فإذا قالت امرأة: أنا أريد أن أكون بغيّا، [ثم نَطَقها بالفرنسية خاطئة (une prostitution)، ثم بالعربية مرة أخرى]: أريد أن أكون قَحْبة، هذا هو الموضوع، أريد أن أشتغل قحْبة. لها الحق أن تشتغل قحبة». وما هو سنده الأساسي لهذه الرخصة؟ القرآن، هكذا يردّ المؤرخ، «القرآن يقول: (فلا تكرهوا فتياتكم على البغاء إذا ما أردن تحصنا)، والأصح (إن أردن تحصنا)، [تصوّروا قرآنيّا يخطئ حتى في التفوّه بآية بسيطة من القرآن]. ما المحرّم إذن؟ تسأل الصحفيّة. جوابه: المحرّم هو «الاكراه على البغاء (le proxénétisme)، أما هي إن أرادت أن تشتغل وتكسب الفلوس، تكسب الفلوس، محترمة، فهي مسلمة، كاملة الإسلام، يجب احترامها. النبي، البغايا، في زمنه يتجوّلن في الشوارع وفي أي ركن، لم يضرب أي واحدة منهن ولم يقتل أي واحدة، لم يعاقب أي منهن. هذا ما قاله القرآن».

لكن أليس جنسا هذا؟ تسأله الصُّحفية، التي أحسّت بامتعاض شديد فغَطّت وجهها بوَرَقة أمام الكاميرا من شدّة الخَجل، لا ليس جنسا، بل بغاء حلالا. ثم زاد من معلوماتها بأن روى لها واقعة المرأة التي لا تمنع أحدا من ملامستها، فقال النبي لزوجها اتركها واترك الاخرين يستمتعون معك. وهكذا، في عرف الطالبي، فإن نبيّ الإسلام أباح الاستمتاع الجماعي بالمرأة، يعني، النكاح الجماعي كما يحدث في جهاد النكاح المتفشّي بين الإرهابيين. لماذا نَعيب على الغربيّين الذين ينتقدون القرآن ويتّهمونه بالتسيّب الأخلاقي وبالتشجيع على الدعارة، "البغاء"، إذا كان لدينا مؤرّخ قرآني يؤكّد ما يقولونه، ويزيد عليه تفاصيل مخجلة؟

لكن بعيدا عن تصريحاته التلفزية هذه، وبغضّ النظر عن ردود المسيحيين المُفحِمة، فإن كتابات السيد الطالبي تُدينه، وتنقض كل ما قاله عن تَعفّف الإسلام مقابل شبقيّة المسيحية. في تأويله للآية (فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ...)، قال إن هذه الآية لا تُحرّم تعدد الزوجات، بل هي واضحة وصريحة في الاباحة، وهكذا فَهِمَها المسلمون القدامى بحيث إنها «لم تُعتَبر في أية فترة من الفترات كآية مُحرِّمة لتعدّد الزوجات[468]».

والمسيحي بدوره يسأله أين شرّع يسوع لتعدّد الزوجات في إنجيله؟ الطالبي ليس له أي جواب لأنه يؤمن بالله ورسوله ويعتقد أن القرآن هو كلام الله السرمدي وبالتالي تعدد الزوجات ليس محرما وإنما من يرفضه أو يمنعه، كما فعَل بورقيبة، هو الذي يخالف القرآن. وهذا نص كلامه: «الآن نحن نؤوّلها تأويل التحريم، وهنا يَكمن الإشكال، إذ لو كان الإسلام يحرّم تعدد الزوجات اعتمادا على هذه الآية، لَمَا وقع العمل بتعدّد الزوجات في حياة الرسول بعد نزول هذه الآية وإلى يوم الناس هذا[469]».

إنه يُلزم نفسه والمسلمين بهذه الآية، معتبرا ضمنيّا أن المُشرّع التونسي الذي منع التعدد بالقانون، وأن التونسيين الذين خضعوا لهذا القانون، هم خارجون عن الإسلام ومخالفون لتعاليم القرآن. القول بالعكس، أي بأن الإسلام حظر التعددية، هو كارثة ناسفة للقرآن من الجذور، بل إدانة تاريخية وأخلاقية للإسلام والقرآن ومحمد وتاريخ المسلمين من أول يوم حتى قيام الساعة.

وهذا بالنسبة لتقديسي متناقض، مثل الطالبي، لا يمكن أن يكون، وبالتالي يجب قبول التعدّدية مهما كانت النتائج: «إن المجموعة الإسلامية طيلة تاريخ الإسلام لم تتعامل مع هذه الآية على أنها تحريم، فهل يُعقَل أن جميع المسلمين أحلّوا الحرام ومارسوه إلى أن ارتفع اليوم صوت كشَفَ لهم أن الآية تُفيد التحريم؟! هذا غير معقول[470]».

غير معقول لأن نص القرآن مقدّس وهو كمؤرخ وأكاديمي لا يرى أي ضير في أن يحشو عقله بالمقدسات والمعجزات والخرافات: «قد قُلتُ وأكرر إنّ النص في نظر المؤرّخ مقدّس[471]». هذا هو مفهومه للتاريخ عموما وللمؤرخ خصوصا: إنسان تعرّى عن عقله وألقى بمهمّته الأكاديمية عرض الحائط، لكي يتشبّث بما يَهدِم أسس علمه: المقدس.

إنها كارثة علمية بأتمّ معنى الكلمة، كارثة تعدّت مجال العمل لكي تتمركز في مجال الحياة العامة للمواطنين وتَعْبَث بعقول الشبان. ولرفع كل التباس فقد شمّر السيد الطالبي على ساعديه لمجابهة واحدة من جملة الآيات التشريعية التي عذّبت القرآنيين وأدخلتهم في حالة هستيريا. الآية تقول: (انكحوا ما طاب لكم من النساء، مثنى وثلاث ورباع). كلام صريح فصيح، لم يستعمل فيه صاحبه فعل "تزوّجوا"، وإنما "انكحوا"، يعني "مارسوا الجنس، نيكوا"، ما اشتهيْتم من النساء، من اثنين إلى أربع. ثم استثنى (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة)، وهو استثناء هجين لأنه مربوط بمشاعر ذاتية، أما الكلمات التي تليه فهي حقا تفتح الباب على مصراعيه لجميع أنواع الرذيلة والدعارة (أو ما ملكت أيمانكم).

المُفزع أن الطالبي، تماشيا مع هذه الآية، لا يستنكر العبودية، ولا يُدين امتلاك رجلٌ لمجموعة من النساء كمَتاع؛ يَشتريهنّ من سوق النخاسة، ويستحلّ أجسادهن ويُمرّغ كرامتهن في التراب، كما تفعل داعش الآن وبُوكو حرام وأخواتها. مِن الأفضل للرجل، يقول الطالبي، «أن يكتفي

بزوجة واحدة، وبعدد غير محدود ممّا ملكت يمينه، أي من الجواري، اللائي لا يُشترط فيهنّ العدل[472]». أسمعتم؟ مُلك يَمين؛ جوارٍ؛ عدد غير محدود؛ لا يُشترط العدل بينهنّ. تذكّروا أن هذه الأقوال وردت في كتاب ألّفه سنة 1992، قبل أن تقام أسواق النخاسة بالفعل في الرّقة والأنبار.

لماذا نَعيب على داعش ما تفعله اليوم إذا كان لدينا مؤرخ وأستاذ جامعي ومؤلف كُتب تربو على الخمسين كتابا، يقول للمسلمين إنه، بالاعتماد على نص القرآن، يمكنهم أن يملكوا نسوة كما تُملَك الحمير. أليست شرعنة ما قبليّة لما تفعله داعش الآن؟ أليست جريمة في حق الإنسانية؟ كيف يمكننا أن نتحاور مع شخص لا يدين الرق ولا ملك اليمين لأنه لم يجد في القرآن ما يمنعها؟ ويريدون تعليم القرآن للأطفال في المدارس الحكوميّة بتونس، وتخريج جيلٍ من المجرمين والمرضى النفسانيين.

ألا يحق للمسيحي أن يسأل الطالبي: أين هذه القاذورات من الأناجيل؟ هل أمَرَ المسيح أتباعه بأن يَسترقّوا النسوة وينكحوا ما طاب لهم من الحرائر والعبدات؟ لكن الطالبي، مرة أخرى، ليس لدية أيّ رد معقول لمجابهة المسيحي بل إنه يبرّر تصوره للإسلام كدين جنساني عبودي: «إن النص القرآني لم يُحرّم التعددية الزوجية، كما لم يُحرّم الرق[473]». وهذا الدرس التَقَطَه جنود الإسلام في القاعدة وداعش وفعّلوه في الواقع.

8. آخر نداء للمسيحيين: ادخلوا في دين الدعارة الحلال

مَن المسؤول عن إعطاء صورة قبيحة للإسلام؟ السلفية، يجيب الطالبي، ووسائل الإعلام الغربية، والتي هي كلها مسيحية. فعلا، «السلفية هي التي تُزوّد وسائل الإعلام الغربية[474]» بالمَشاهد القاسية المرعبة المنفّرة، التي من شأنها أن تسعد السلفي المغيّب عن عصره، وتُشقي «المسلم الحزين ... وتزداد أعداد الانسلاخسلاميين، النافرين من الإسلام ومنه يُنفّرون[475]». لكن، قد يَعترض المسيحي والانسلاخسلامي، أليس كل ما يفعله هؤلاء موجود في تعاليم الإسلام وفي نص القرآن؟ ألم تَكتُب أنت نفسك، منذ الثمانينات، أن الرقّ حلال وأن ملك اليمين حلال؟ والآن، ألم تُحلّل الدعارة بنصّ القرآن؟ ألم تجعل الاكتساب منها مباحا؟

ليس صحيحا، يقول الطالبي «هذا يكذبه القرآن الكريم، الذي يحض على كرامة الإنسان، ومراعاة حقوقه، ويؤكد القيم الإنسانية العالمية التي تضمن كرامته وسعادته وحقوقه، في كل زمان من أرض الله الواسعة[476]».

لكن هذه القيم لا نجدها في الغرب اليهودي المسيحي، لأن المسيحيين هم أكبر من اضطهد اليهود على مر التاريخ[477]، أما الإسلام فأياديه نظيفة، لم يضطهد ولم يسترقّ أحدا عبر تاريخه. هذه الأولى، الثانية هي أن المسيحيين لا يعرفون مسيحهم حق معرفة[478].

ولكي يَنسلّ من لعبة المواجهة النزيهة، ويُبعد الأنظار عن مفارقات دينه، فهو يعود إلى مخزون الأحكام الإسلامية ضد كتب المسيحيين. الأناجيل: لا علاقة لها بالقداسة ولا سبيل لمقارنتها بالقرآن، كما يفعل المُغيّبون «في ملتقيات الحوار المسيحي الإسلامي[479]». الأناجيل هي أربعة أسفار قصيرة «تروي سيرة وأقوال عيسى/يسوع بخلطٍ كبير بين الشخصين، وتسمّيها المسيحية الأناجيل الصحيحة وتقول إن مؤلفها هو الإله (Dieu)، وأملاها الروح القدس على الإنجيليين الذين دوّنوها بدون غلط ولا خطأ، بضمان الروح القدس». فعلا المسيحيون يقولون ذلك، ويؤمنون به حق الإيمان، ويقدّسون أناجيلهم، وما دخل السيد الطالبي في معتقدهم؟ هل فرضوه عليه بالقوة؟

المسيحيون لم يَفرضوا عليه إنجيلهم لكن الطالبي يريد أن يَفرض عليهم قرآنه وكل ما يحتويه من تجريحات وإهانات، ومن ضمنها أن عيسى يهودي يدعو إلى الله «ويقوم برسالته بين

بني اسرائيل الذين أرسل إليهم. والله يضع على لسانه قوله لهم: "ومصدقا لما بين يدي من التوراة، ولأحلّ لكم بعض الذي حرّم عليكم ... الآية". إذن عيسى كان يتلو التوراة، مصدّقا لها، كما كانت تُتلى في عصره، ويسمّي الله باسمه في التوراة: يهوه وإيلهيم..[480]».

العهد القديم هو ذاته محرف، والدليل على ذلك أنه يستعمل كلمة يهوه وإيلهيم «العهد القديم المحرّف يتحدث على إله بني اسرائيل الشخصي الأوحد يهوه وإيلوهيم، ويتحدث عن آلهة أخرى[481]».

العهد الجديد محرّف، مضروب في عشرة، على عكس القرآن الذي لم يتبدّل قط ـ ويجب التذكير دائما بأن قائل هذا الكلام هو مؤرخ كبير، متشبّع بالفكر الغربي وبمناهج البحث العلمي، ومتخرّج من السوربون ـ العهد الجديد محرّف لسبب آخر وهو أنه «لم يبلغنا في اللغة التي كان عيسى ـ عليه السلام! ـ يخاطب فيها بني اسرائيل[482]». وبما أن اللغة اليونانية هي لغة وثنية فإن الإله الذي يُذكَر في الأناجيل هو إله وثني «إله من بين الآلهة، لا إله واحد أحدا، لأن هذا التصور غائب تماما في الفكر اليوناني وفي اللغة اليونانية، ولا يمكن إذن ترجمتها بكلمة الله من دون أن نقع في البلبلة وارتباك التصورات[483]». نصيحة الطالبي للعرب المسلمين هي هذه: «حيث نجد في الترجمات العربية للعهد الجديد كلمة الله، يجب أن نعوّضها بكلمة "الإله"، ما لم يكن هناك ما يفيد أن الكلام على لسان عيسى النبي حقا[484]».

أن تكون الأناجيل محرّفة، فهذه القناعة ليست من تخمينات الطالبي، أو ادعاءات أحد الاسلاميين السلفيين، بل هي نتيجة أحدث ما تمخّضت عليه النظريات العلمية التي تَكرَّم بها الغربيون علينا، وأَرَاحُونا من عناء البحث والتنقيب. فالسيّد الطالبي الذي يرفض رفضا باتا أن تُطَبّق المناهج الفيلولوجية على القرآن، ها هو ذا يُقصّر على نفسه الطريق ويلتجئ إلى علماء الغرب كي يَضْرب قدسية الأناجيل التي هي بين يدي المسيحيين[485]. لا شيء يجمعنا بالمسيحيين، (يسمّيهم "إخواننا المسيحين")، في الدين أو الكتاب المقدس: «قِبْلَة إخواننا المسيحيين الصليب الماثل في كل كنائسهم على المذبح، وقبلتنا مقام ابراهيم عليه السلام، لا نعبد نفس الإله. يجب إذن ألاّ ندعو إلههم وإلهنا بنفس الاسم. إلهنا الله كما يُعرّف نفسه في القرآن، وإله المسيحية ليس الله، يجب إذن ألاّ نطلق أبدا اسم الله على إله المسيحية، كي نترك سبيلا إلى التّعتيم المقصود، وكي نقي أنفسنا وأمّتنا من التضليل الذي يَغرّ اليوم المنقلبين من الإسلام إلى المسيحية أفواجا[486]».

المسيحيون في النهاية هم كفار يعبدون رجلا ميّتا ويقدّسون خشبة صليب وحياتهم عدم في عدم: «المسيحيون لا يعبدون الله الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفء أحد، وإنما يعبدون المصلوب علىٍ الصليب، يسوع، الإله بالمفهوم اليوناني للكلمة، لا الإله بالمفهوم القرآني ... المسيحيون يعبدون يسوع المسيح الماثل أمامهم على الصليب، ابن الله ... المسيحيون يؤدّون طقوسا عبادية إلى

مارية، أمّ يسوع ابن الإله وأم الإله، التي لا تخلو كنيسة من تمثالها حاملة ليسوع صبيّا[487]». وهذه المظاهر تتماهى، في عين الطالبي، مع وثنيّة القدماء (وقد رأينا يوسف زيدان كيف ركّز على هذه النقطة)، حيث أن «أمّهات الآلهة لا تكاد تُحصى في كل الأديان الوثنية القديمة في كل القارّات، ولقد بَلغتنا تماثيل لهنّ، كل منهنّ حاملة بإله[488]».

وكما أن يسوف زيدان جعل من قضيّة ماريا قضيته الشخصية حتى أنه توسّع في تقريب صورتها من صورة أم الإله الوثنية، كذلك فعَل الطالبي، لكن بأكثر حدّة وأشدّ نكالا: «الإله الأب فعَلَ بماريّة ما كان يفعل آلهة اليونان بالإنسيّات. زوس (Zeus) مثلا، أخذ شكل ثور جميل ليُخصب الفتاة الجميلة أوروبا (Europa) ويُنجب منها الأوروبيين[489]». هذه وثنيّة واضحة، في رأي الطالبي، لا بل تخريف محرّف يدعو للاستغراب: «كيف لا نرى في كل هذا خرافة محرّفة؟[490]». ومن الذي قوّم هذا التحريف؟ ليس الطالبي ولا علم التاريخ أو الفيلولوجيا وإنما القرآن، وبالتحديد في سورة (آل عمران، 3: 45 - 51) «يُقوّمها ويَضعها في احداثيتها الحقيقية[491]».

لكن مع المسيحية نَبقى دائما في صُلب الوثنية، وإله المسيحيين زانٍ، كاذب، مخادع: «كيف لا نصف الإله الأب، بالكذب المبيّت على مارية، أم يسوع، كي يُغويها ويُغريها ويستغويها، كما كانت تفعل الآلهة الوثنية؟ كي يجعلها تسلّم نفسها إليه، وعَدَها أنه سيجعل من ابنها ملك اليهود! فخان الوعد [..] هذا الإله الذي يقع على فتاة بريئة فيكذب عليها ليغدرها ويستغويها، هو في نفس الوقت، في خرافة أخرى، الإله الذي طرد الإنسان من الجنة[492]»

لم يَكتف المسيحيون بالشرك والوثنية بل إنهم أقدموا على عمل أشنع، وهو أنهم يَقْتَاتون من إلههم، مثلما يفعل الوثنيون: «المسيحيون، في قدّاسهم، يأكلون لحم الإله ويشربون دمه[493]». كل هذا التجريح الغرض منه مجددا هو تنبيه المسلمين الغافلين على أنه «من المغالطة السافرة، أن نُطلق على إله المسيحية اسم الله ـ جل جلاله وتباركت أسماؤه ـ وهذا ما أردنا أن ننبّه إليه ومنه نحذّر[494]».

الطالبي إنسان حربي قرر أن يُرسي مع "إخوانه المسيحيين" حوار مواجهة إيمانا منه بأنه «إذا ما تَخلّينا عن مواجهة حوار المواجهة، تكون الحجة البالغة علينا[495]». دون أن يخلّ بما يَكنّه من عميق المودة وفائق الاحترام للمسيحيين، كما يقول. وقد أبدى احترامه لهم بضرب دينهم واتهامهم بالوثنية وبأنهم يعبدون قِطعة خَشَب، ويأكلون إلههم ويشربون دمه. إن الطالبي له مشكلة شخصية مع المسيح ومع كل ما يرمز إليه في الديانة المسيحية، ولذلك صبّ عليه جام حُنقه، وقذفه بنعوت لا تُتَصوّر. إن هذا الدين الذي يَدّعي احتكار المحبة والاحسان «يجعل إلهه الأب، من أجل ذلك، يقتل ابنه معطيا بذلك أبشع صورة للألوهية وللأبوّة .. مِن بالِغ مَحبّته في الإنسان، الإله الأب، كلّف بإنفاذ مهمة المحبة شعبه المختار ... وسلّم إليه ابنه الفريد يسوع الإله، وتخلّى عنه، وتركه يُقتل

أرذل وأشنع قتلة على الصليب، رأسه مكلل بالشوك[496]». إن في صرخة يسوع على الصليب، يواصل الطالبي، «دلالة واضحة جليّة كعين الشمس، على أن يسوع لم يكن راضيا على أن يكون خروف الضحية في عيد الفصح اليهودي ... اليهود يضحّون بخرفانهم، والإله الأب يضحّي بابنه، وبهذا يشارك في الاحتفال وفي فرحة شعبه[497]».

ويجب التذكير أن كل هذه التهجمات تندرج في باب الحوار، حسب قاموس الطالبي. قلتُ بأن هذا الرجل له مشكلة شخصية مع المسيح، يريد أن يهدم صورته الإنجيلية بكل الوسائل. يسوع لا يبدو كبطل «بل يبدو لنا كرجل دون العادي، جبان، خائر القوى، يرتعد من الخوف، عرقه يسيل دما، لا يكحّل عينيه النوم من شدة الهلع والولع، يبتهل ... يتضرّع لأبيه الأصمّ لتضرّعه، كي يبعد عنه كوب الموت[498]».

لماذا يواصل المسيحيون في التشبّث بدينهم، والاعتقاد في مسيحهم؟ لماذا لا يتحوّلوا جماعات وزرافات إلى دين الحرب والغلظة؟ فالإسلام يوفّر لهم أمثلة بطولية لا يجدونها في دينهم: يسوع الجبان، التّافه الذي خَشي الموت يُقابله نموذج الارهابي المسلم الشجاع الذي يُفجّر نفسه في الأبرياء، ويقتل أكبر عدد منهم؛ ومريم التي تبكي ابنها تُقابلها الإرهابيات الإسلاميات، ومجاهدات النكاح، اللواتي هنّ «في مُقتَبل العمر، بجَلَدٍ ورباطة جأش وشعور بالاعتزاز، لا يَبكين ولا يتأوّهن[499]».

إن الإيمان بيسوع، في رأي الطالبي، هو جنون خالص بالمقارنة مع معقولية الإرهابي المسلم: «مَن هو يسوع الاله الذي يبكيه المسيحي كل يوم، بالمقارنة مع هؤلاء الذين لا يكاد يبكيهم أحد سوى أهلهم وأصدقائهم؟[500]». هو لا شيء بل إنه الكفر بعينه، والطالبي يحمد الله أنه كافر بيسوع، يعني كافر بالكفر: «الحمد لله الذي لم يجعلني مسيحيا، وفتح لي باب قراءة الأناجيل بدماغ غير مكيّف![501]». ومرة أخرى يتعجبّ من مكوث المسيحيين على الاعتقاد في يسوع ومن الطقوس التي يؤدونها له «إن الاحتفال المتجدد كل سَنة بالصلب، والنّحيب على المصلوب .. مسرحية، لا شك أنها مؤثرة جدا .. لكنها حديث خرافة. فنحن نعجب لها، ونعجب أكثر من إخواننا المسيحيين المعتقدين فيها، وكأنهم لم يتدبّروا قط الأناجيل بموضوعية وبأنفسهم، وكأنهم لا علم لهم بالتاريخ[502]».

وهكذا فإن الدعوة مفتوحة، ولا خيار أمام المسيحيين إلاّ التخلّي عن دين الدعارة الحرام، والدخول فورا في دين الارهاب والبغاء الحلال.

حقّ الردّ: هجوم المسيحيين المعاكس

بما أن زيدان والصديق والطالبي والجابري وغيرهم من المفكرين العلمانيين والعقلانيين العرب سَمَحوا لأنفسهم بالتجريح في الديانة المسيحية والتهجّم عليها بأسلوب يتراوح بين القدح الضّمني والإساءة اللفظية الصريحة من المنتظر أن يَنتصبَ المفكرون المسيحيون المحدثون للردّ عليهم والدفاع عن عقيدتهم. لكن هذا لم يحدث اطلاقا (باستثناء القنوات الفضائية: القمص زكريا بطرس، ورشيد المغربي، ووحيد وفدوة، الخ)، لا أعرف مفكرا عربيا واحدا، من خلفية مسيحية، ذا شهرة عالمية كتب كتابا للردّ على المسلمين بمنطقهم العنيف، أو توغّل في القرآن وسيرة محمد بالنقد والدحض، وأبعدُ منه أن يستعمل عبارات جارحة ومُهينة كتلك التي استعملها المفكرون العرب المسلمون ضد الأناجيل ويسوع المسيح.

على العكس من ذلك، نرى أن مفكرا مرموقا كإدوارد سعيد انبرى بالدفاع عن الدين الإسلامي وعن محمد ضد انتقادات المستشرقين واتّهم الاستشراق الغربي عموما بمعادة الإسلام ونبيّ الإسلام، حتى استحسن ذلك منه ليس العلمانيون فقط وإنما الإسلاميون أيضا. وجورج طرابيشي لو لم يَعرف أحدٌ خلفيّته المسيحية لَظَنّ أنه مفكر اسلامي سلفي، حيث وقف هو نفسه ضد نقّاد الإسلام، عارض الإلحاد في مقال كارثي وضعه في خاتمة كتابه "هرطقات 2 "، ثم ألّف كتابا يدافع فيه عن الإسلام الصحيح، إسلام القرآن ضد إسلام الفقهاء. لدينا أيضا عزمي بشارة الذي تحوّل رأسا إلى الوهابية وأبدى شراسة في الذبّ عن الإسلام، والقدح في العلمانية وصلت به إلى حدّ تزكية الإرهابيين قاطعي الرؤوس الذين يَفْتكون الآن بمسيحيّي العراق وسوريا ومصر.

قد يكون تصرّفهم هذا نابع من موقف تفهّمي حصيف، ومن وعي بخطورة الانزلاق في هذا المَطبّ الجدالي، خصوصا وأنهم بحضرة أناس متعصّبين، لا يقبلون النقد، ومُستعدّين لحرق الأخضر واليابس للدفاع عن دينهم؛ من المحتمل أيضا أن المسيحيين العرب تفطّنوا إلى أنهم لو ردّوا على تجريحات المسلمين بتجريحات مضادة لاتُّهِموا بإثارة النعرات الطائفية ولَعَرَّضوا حياتهم وحياة إخوانهم إلى الخطر. كل هذا صحيح، لكن أن يُشمّروا هم أنفسهم للدفاع عن الإسلام، وأن يَمتنعوا عن مجابهة المفكرين العرب الذين اختاروا الهجوم على المسيحية، والتّنبيه على خطورة تنظيراتهم، فهذا أمر يدعو للعجب حقا.

ثمّة إذن عدم توازن مبدئي في هذا السجال العقائدي، والكفة دائما مرجحة للكتّاب العرب المحدثين (ذوي الخلفية الإسلامية)، وغياب تام للجانب الآخر.

لكن الوضعيّة لم تكن على هذه الشاكلة في العصور القديمة، ولم يَبق المجادلون المسيحيون في حالة خنوع واستسلام بل إنهم ردّوا على المسلمين وهجموا هم أنفسهم على القرآن ونبيّ الإسلام وذلك بالاعتماد على المصادر الإسلامية نفسها وعلى النص القرآني ذاته. سأعرّج على أسماء بعض النقّاد العرب المسيحيين والغربيّين القدامى، وسأعرض، بكل تجرّد، ردودهم على تهجمات المسلمين، وكيف أنهم حاجّوهم بأدلة مستمدة من القرآن والسنة وبيّنوا عيوبهم وثغراهم بدقة وببراعة أكثر مما يتصوره الطالبي وغيره.

V
ثيودور أبو قرّة: نحن المؤمنون وأنتم الكافرون

لقد عبّر المتكلّم المسيحي ثيودور أبو قرة عن استيائه وغُبنه من هجمة المسلمين عليهم، ومن قَدْحهم المتواصل في مقدساتهم والاستهانة بدينهم. وإذ التزَم المسيحيون الصمت فهذا لا يعني أنهم يُعدَمون الموارد الفكرية للدفاع عن عقيدتهم، أو لا يملكون الحجج الدامغة لمجابهة تهجماتهم، وإنما لتعصّبهم المفرط وعنفهم المستشري: «لا تظنّ أننا ليس لنا حُجّة نحتجّ بها عن تصحيح ديننا إنما أوْجَب ذلك تَسلّطكم علينا ثم ازدراءكم بنا وقذْفكم إيّانا حتى يَظنّ كلٌ منكم أنه لا دين ولا حجّة نحتجّ بها عن نفوسنا، وسِرْنا من كثرة سُكوتنا عنكم بأحْقر المنازل عندكم وأذلّها في أعينكم. وليس لأحد نِصْفَةٌ، لِمَا فيكم من سرعة الضّجر والسلاطة والتجاسر والإعجاب[503]».

الظّلم وسَلاطة اللسان والتجاسر على معتقدات المسيحيين التي رأينا منها أمثلة حية من خلال كتابات المفكرين العرب المُحدثين، هي ليست إلاّ امتدادا تاريخيا وإيديولوجيا لسيرورة طويلة من القهر والاضطهاد والتقتيل والتهجير.

1. ورطة المسلم

وبعد؛ ما الشيء الذي يفوق به المسلم البشرية؟ ما هي الخصال التي يمتاز بها على غيره، وقرآنه قد أقرّ بأن الكون كله مسلم. إنه اعتراض رهيب من طرف مسيحي مُطّلع بالتدقيق على نصوص الإسلام المؤسِّسة والتي غالبا ما يمُرّ عليها المسلمون مرّ الكرام. المسلم المتشبّث بمبدأ الإقصاء الذي أكده القرآن في قوله: (ومن يتّبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين)، يتمّ نقضه بالقرآن نفسه: «كتابك أيها المسلم يَنقُض عليك هذا الكلام بقوله: (أسلم لله ما في السماوات وما في الأرض طوعا أو كرها). فإذا كان كما قلتَ قد دخل في الإسلام كل الناس والطير والسّباع والحيوان والشياطين، وقد صارت الخلائق بأسرها مسلمين شاؤوا أو أبوا، وليس منزلتكم إلاّ كواحد منهم، فلِمَ تفتخِر علينا بإسلامك وليس لك فضْل على أحد ممّن دخل معك فيه؟[504]».

ليس هذا فقط، بل إن القرآن يَنقض الإنسان المسلم مرة أخرى ويخرجه حتى من الدين الصحيح، ويورّط المسلمين جميعا في مفارقة لا يستطيعون الانفكاك منها. ألم يقل إن الأعراب قالوا آمنا، فنَهَرَهم وقال لهم: قولوا أسلمنا ولم تؤمنوا بعد؟ سَحبَ منهم الإيمان، الدرجة العليا من التديّن، إذن، وتَرَكَ لهم الإسلام، أدنى درجاته، وما دام المسلمون متعلّقين بهذا الاسم فهم خارج الإيمان الحق: «أيها المسلم إنّ نبيّك وكتابك شهد عن الله أنه أخرجك عن الإيمان[505]». ويجب بالتالي على المسلم أن يَحْسم مع دينه الذي عمد على اخراجه من الإيمان. أما إذا كان يُخالف نبيّه ويُكذّب قرآنه، أو يشكّ في صدقه، فهذا شأنه: «فإن كان نبيّك يشهد على الله إلهك بغير ما قاله، فأنتَ أخبَر وأعلم[506]».

لكن هذا لا يَعفيه من اعتناق المسيحية، لأن القرآن نفسه يميّز بين الأمرين: «الإسلام والإيمان ليس دين واحد، فأنتم المسلمون ونحن معشر النصارى المؤمنون[507]». فعلا، لقد مَنع القرآن الأعراب من الإيمان ومَنحهم الإسلام، لكي يَدفعهم ويُحبّبهم في الإيمان «بكلمة الله وروحه[508]»، يقول أبو قرة.

إن المسلم لم يُحقق الحد الأدنى من اليقين بخلاصه الأخروي، ومع ذلك فهو يواصل في الافتخار بنفسه، ويعتقد جازما أن الالتزام بشريعة قرآنه يخوّل له دُخول الجنة والتمتّع بالنساء،

وحور العين اللواتي "لم ينكحهن من قبل أنس ولا جان". بالنسبة لأبي قرة هذا الادعاء فاسد، فضلا عن أنه دليل على أن القرآن يُحقّر المرأة، ويهوي بها إلى قاع الجحيم، فهو لم يَكتف بقَمْعها في العالم الأرضي وإنما أدام دُونيّتها، وصعّد من قهْرها واضطِهادها حتى في العالم السماوي. والأغرب من ذلك، أن المسلمين جمَعوا بين الكفر والقذارة، ذلك أنهم ينسبون كل هذه الشناعات إلى الله، ومعاذ الله أن يفعل شيئا قبيحا. لقد تَرَكْتُم النساء، يواصل أبو قرّة، «في حُزن وكرب عظيم، وأنتم في غبطة وسرور مع حور العين، وتَسبّب الله للجور والظلم إذ قد جعل زوجات للرجال ولم يجعل أزواجا للنساء، فقد جار عليهن وظلمهن. ومعاذ الله من هذا عز وجل، عن هذه الحكاية. أما تَسْتَحي من هذا المحال وتَنسب ربّك إلى هذا وتحكي أنّ نبيّك يقوله؟[509]».

وكيف للمسلم أن يَسْتَحي وكل هذه الأشياء مذكورة في قرآنه؟ إن مَن يقرأ القرآن ويستوعب خطابه مُلزم بقبول كل ما فيه من تعاليم، بما في ذلك تناقضاته وتهديداته واستعدائه للآخرين وحتى للمسلمين أنفسهم. فعلا ألم يُهدّد الله المسلمين بأنه سيَقذفهم كلهم في النار؟ قال أبو قرة: «أنت تسأل الله النجاة والسلامة من حرارة النار الملتهبة»، لكن كتابك «يشهد بها عليك، إذ يقول: "وإن منكم إلاّ واردها كان على ربّك حتما مقضيا"». السؤال: كيف لك أيها المسلم، أن تناقض كتابك وتُكذّب وعيده، أي «أنْ تأملَ الجنة وحور العين وهذا الوعد لك وقدّامك وبين يديك؟ وقد قال كتابك: "لأملأنّ جهنّم من الإنس والجنّ أجمعين". فأنتَ تُبطل هذا الوعيد الذي أوضحه كتابك وترجو ما لم يُخصّصه لك[510]».

2. اعتنوا بمخارق دينكم

إنّ أعجب الأشياء، في رأي أبي قرّة، هو أن يتهكّم المسلمون على دين المسيحيين دون أن يروا مخاريق دينهم البيّنة، وشناعاته الظاهرة: «وأعجب الأشياء أنكم تهزؤون بنا لاتّباعنا المسيح الذي تُقرّون أنتم أنه "روح الله وكلمته"، وتَقبلون كلام من قد بَلَى ومات، على من لا يموت ولا يَبْلَى، وهو في السماوات كما تقولون أنتم. فكان من الواجب تصديق كلمة الله وروحه التي خلقت جميع ما في السماوات وما في الأرض». هذا إلزام منطقي قبل أن يكون إلزاما لاهوتيّا. لكن المسلمين يمرّون على قرآنهم دون أن يَكترثوا به أو يتفكّروه، لأنهم لو تفكروه لأُرغِموا على الاعتراف بأن "كلمة الله" هي المسيح الخالق، وبالتالي لتحوّلوا إلى المسيحية، بنص القرآن نفسه.

لكن الإنسان المسلم، هو إنسان مُغيّب، لأنه لا يهتمّ بقرآنه، بقدر ما يهتمّ بالشهوات الحسّية، ويتلهّف باستمرار على متعة الفرج والبطن، في الدنيا والآخرة، دون أن يُقدّم شيئا أخلاقيا للبشرية. فالمسلم، بكل كسل وتساهل، يتبَع « مَن قد بَلى ومات ودُفن في التراب ولم يُظهر من أفعاله آية يَفْضُل علينا بها، بل جعل لكم أربعة من النساء ومات هو عن أربعة عشر زوجة فما كان لهذا شُغْلٌ غير النكاح. وأعظم مِنْ هذا لمّا رأى امرأة زيد وهوِيَها، قال: إن الوحي نزل عليه، فقال: لما قضى زيد منها وطرا زوجناكها، وكان الله الخَاطِب وجبريل الشّاهد، وطلّق زيد امرأته وتزوّج هو بها بأمر ربّه. إن هذا لقبيح تحكيه عن نبيّك وتُصلّي به في صلواتك وتَنسبه إلى قول الله تعالى[511]».

وهكذا فإن المسلمين يعيشون في عالم مقلوب، حسب أبي قرة، عالم تنعدم فيه القيم الأخلاقية، وتحوّلت عندهم الفضيلة إلى رذيلة: «أنتم تُهوّنون العظيم الجليل، وتُعظّمون الحقير المنيف»، وتستسيغون المراوغة والكذب «ذلك أن لكم يمين لها كفّارة، فإذا حلفتم بها وفّيتم[512]».

أما بخصوص فكرة التحريف التي لا تجد إسلاميا واحدا لم ينطق بها، فإن أبا قرة يُديرها على المسلمين ويُبيّن لهم أن اعتناق هذا الرأي يعني إهانة قرآنهم وتكذيب نبيّهم الذي شهد على صحة كتب المسيحيين: «إنك تُهين كتابك وتُكذّب قول نبيّك حيث يقول: لتجدن أهل الإنجيل مؤمنين بما أنزل عليهم من عند ربّهم، وأن منهم قسيسين ورهبان وهم لا يستكبرون، وهم أقرب مودّة للذين آمنوا. فإن كتابك يدعونا مؤمنين، وأنتم تُسمّونا كافرين مشركين مجدّفين، تريد بذلك تَعْيِيبنا بعيبٍ، وترجو بذلك أن تَخلص من العيب[513]».

ليس الإنجيل، في الحقيقة، هو المحرف وإنما قرآنكم هو المحرّف: «لو عَلِمتَ الحق اليقين لعلمتَ أن كتابك هو الذي حُرّف»، وكيف حُرّف القرآن؟ إن مفهوم التحريف عند أبي قرّة هو مفهوم قويّ، يعني أن تَنْسِب إلى الله ما لا يَلِيق بجلاله وعظمته، وهذا عين التجديف والتحريف والكذب والتحقير لله، وبالتالي فإن الكتاب الذي يصف الله بصفات لا تليق به هو الكتاب المحرَّف بامتياز. أنت كمسلم «تقول الكذب عن ربّك»، لأنك تُقوّله كلاما لا يناسب مقامه، من قبيل (إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر) «أخبرني يا مسلم: مَن هذا العدوّ الأبتر؟ وحيث يقول أيضا: (تبّت يدا أبي لهب وتبّ، ما أغنى عنه ماله وما كسب وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد). وهذا شيء ما يُشبه الوحي ولا التنزيل ولا يُصدَّق أن رسولك قال شيئا من هذا[514]».

وبالجملة، بالنسبة لأبي قرة، لا الإسلام كدين ولا القرآن ككتاب، قادران أن يُحسّنا من أخلاق المسلم، ولا أن يَدفعا عنه الإتيان بالفواحش والتّكالب على الشهوات الحيوانية، التي وعده بها قرآنية، في الدنيا وفي الآخرة، لكنه هو، كمسيحي، لا تُغريه بتاتا، لأن جنة المسلمين، في نهاية المطاف، هي حديقة حيوانات: «فأما نعيم الآخرة الذي زعمتموه لي فما أوثر ذلك النعيم الذي يدعوني إيّاه من الأكل والشرب والنكاح لحور العين، من غير صلوات ولا تسبيح الله، لأني إنما أكون فيه بمنزلة البهائم[515]».

VI
عبد المسيح الكندي
الإسلام دين شيطاني وشريعته شيطانية

1. مهنة الاغارة والنكاح

إن مثال المسلم، وقدوة الحسنة، هو نبيّه محمد، ولكن ماذا جاء عن سيرته؟ ما هي الأعمال التي نفّذها؟ ماذا كانت مشاغله؟ على هذه الأسئلة يجيب عبد المسيح الكندي أن نبيّ الإسلام «ليس له همّة ولا فكرة إلاّ في امرأة يتزوّجها، أو قوم يُغِير عليهم ويَسفك دماءهم ويأخذ أموالهم وينكح نساءهم. ويشهد على نفسه أنه حُبّب إليه الطيب والنساء، وأن من علامات نبوّته أنه جُعل في ظهره من القوّة على النكاح مقدار قوّة أربعين رجلا نكّاحا[516]». وهذه بالنسبة لعبد المسيح «آيات الأنبياء التي لا تكون إلاّ في مثله[517]».

أما حادثة زواجه من زينب فإن الرجل يستنكف عن الخوض فيها أو التعليق عليها، لأنها واضحة بذاتها في النص القرآني، وظاهر اخلالها بمبادئ العفّة والأخلاق. قال: «إني أكره أن أذكرها، بل أجلّ قَدَر كتابي هذا عن ذكرها، ولا أنجّسه[518]»، وبالتالي فإن «كل ذي عقل» يكتفي من القصة بما جاء في القرآن. ثم عَدَّدَ نساء النبيّ، وقال كانت «خمس عشرة حرّة وأمَتين[519]»، رغم أن المسلمين لهم تعداد أعلى، يَصل بهنّ إلى ثلاث وعشرين بين عبْدة وحُرّة.

هذه، بالنسبة لعبد المسيح، ثغرة كبرى تقدح في نبوّة محمد بالمقارنة مع تعاليم الإنجيل: «قال بولس، رسول الحق، رسول سيّدنا ومخلّص العالم: (إن الذي له زوجة إنما غايته أن يصرف عنايته إلى رضى زوجته. والذي لا امرأة له، فعنايته إلى رضى الله). وقد صدَقَ، وقوله الحق، لأنه يحتاج أن يتشاغل بما يُرضي امرأته. وهو الذي قاله المسيح سيّدنا: (إنه لا يمكن للعبد أن يخدم ربّين في وقت واحد، ولا بدّ له أن يُرضي أحدهما ويُسخط الآخر)[520]». الاعتراض معقول من وجهة

نظر إنسانية وأخلاقية بحت: «إذا كان لا يمكن للرجل أن يخدم امرأة واحدة ويُرضيها إلاّ بسُخط خالقه، فكم بالحريّ من يريد صرف عنايته كلها إلى رِضى خمس عشرة امرأة؟[521]».

من المحال أن يَتفرّغ أحدهم لله وهو يَعيش مع هذا العدد المهول من النّسوة، لا بل إن الحياة العمليّة نفسها تعيقه عن أداء المناسك، وتمنعه من التفرّغ الكلّي للدين؛ والحياة العملية يَقصد بها الحروب والاغارات. قال: علاوة على النساء فإن نبي الإسلام مارس مهنة الحرب والاغارة: «الشغل الذي كان فيه منغمسا، من تدبير الحروب على الرجال وقَتْلِهم، وسَبْي الحريم وسَلب الأموال، وتوجيه الطلائع وتعبئة الكراديس لإصابة الطرق وشنّ الغارات». اطّلعوا على السيرة فلن تستطيعوا أن تكذّبوا ولو كلمة واحدة مما قاله عبد المسيح، وبالتالي استنتاجه قائم ومَبنيّ على معطيات ثابتة، وتساؤله في حقه: متَى يمكن لشخص كان شُغله الدائم الإغارة والحروب أن يتفرّغ «للصوم والصلاة والعبادة، وجَمْع الفكر وصرْفه إلى أمور الآخرة وما يشاكل الأنبياء؟ ولا شك في أنه لا نبيّ تقيّد بلذّات الدنيا مثل صاحبك[522]».

أما دلائل النبوّة فلم يأت بشيء منها، ودلائل النبوّة بالنسبة للمسيحيين هي المعجزات الخارقة، والتي بها يتم للنبي ترسيخ دعوته وتَبْكيت خصومه. هذا الأمر غائب تماما عن نبيّ الإسلام، فهو «خُلوّ من ذلك، ولم يكن له فيه حِيلَة ولا أوْمَأ فيه بشيء». وقد شدّت انتباهه اعتذار القرآن على عدم الاتيان بآية في قوله (وما منعنا أن نُرسل بالآيات إلاّ أن كذّب بها الأوّلون)»، ومعناه الصريح حسب عبد المسيح: لولا أن يُكذّبوا بآياتك، كما كذّب الأولون، لأعطيناك الآيات. هل هذا جواب معقول؟ اطلاقا: «لعمري، إن هذا لجواب مُمتَنعٌ عند منتقدي الكلام والناظرين في قوانين المنطق[523]».

فعلا كيف يمكن للإله أن يمتنع عن إظهار قدرته فقط عن طريق قياس الشاهد على الغائب، وهو أكثر القياسات هشاشة؟ لماذا لم يُمهل ولم يُمَحّص ولم يضعهم في التجربة قبل أن يستنتج؟ لهذه الأسباب، ونظرا لغياب المنطق في هذا الجواب، فإن عبد المسيح يستنتج أن محمدا خلا «من اسم النبوّة، ولم يستحقّ منها شيئا بوجه من الوجوه، ولا بمعنى من المعاني[524]».

لكن الرجل عزّت عليه هذه القضيّة فعاد وأثارها مرة أخرى لكي يُظهر تهافت جواب القرآن وهشاشة الذريعة التي قدّمها لعدم الإتيان بمعجزات: «لعَمري، إن هذه ليست حجة مُقنعة، وجواب صحيح يجوز عند ذوي العقول، ويَرضى به العلماء والفلاسفة والمنتقدون الباحثون عن أصول الأخبار[525]».

وإذا دَقّقنا في المسألة ونظرنا إليها بعين العقل الناقدة لرأينا أن هذه الذريعة هي آخر ملاذ اتّخذه نبيّ الإسلام للتّهرّب من مسؤولية الاتيان بمعجزة. أما على المستوى التاريخي فإن تهافتها بَيّن

للعيان: إذا كان الأوّلون من اليهود كذبوا بآيات الأنبياء، فالأعراب بآيات أيّ نبيّ كذَبوا؟ يتساءل عبد المسيح، أليس من المرّجح أنه «لو جاءهم ببعض الآيات لصدّقوه ولم يُكذّبوه[526]».

إن حجّة القرآن، يسمّيها عبد المسيح «حجّة مُبَهرجة تتلاشى عند الامتحان»، لكن هناك حجّة بيّنة جدا، ولا تتلاشى إطلاقا، وهي أقوى وأكثر فاعلية من الآيات الماورائية، ألا وهي السيف. فعلا، في فترة لاحقة، عمَدَ رسول الإسلام، يقول عبد المسيح، إلى التخلّي عن ذكر الآيات وأخرَجَ السيف من غمده، وهو نفسه يقول إنه «بُعِث بالسيف تسليطا، وأن كل مَن لم يقرّ أنه نبيّ قَتَله، أو يؤدّي الجزية ثمنا لكفره فيَدَعه[527]». وهكذا فإن المسألة حُسمت بالقوة، بحدّ السيف، ولم يَبق أي مجال للتقوى والصلاة والعبادة، ودُفنت تماما قضيّة المعجزات. وهذا بالنسبة إليه أقوى دليل على بطلان نبوة محمد: «فهل تريد دليلا أوضح، أو حجة أقنع أو برهانا أصحّ على بطلان ما جاء به صاحبك غير هذا؟[528]».

2. شريعة الجور والشرّ بعينه

إن شريعة محمد بالنسبة لعبد المسيح هي شريعة شيطانية، ذلك أن الشرائع (الأحكام) لا تخرج من ثلاث: «1) إما أن يكون الحُكم حُكما إلهيا، وهو الذي فوق العقل والطبيعة، ويليق بالله؛ 2) وإما أن يكون حكما طبيعيا قائما في العقل، مولودا في الفكر، يقبله التمييز ولا يُنكره، وهو الحكم العدل؛ 3) وإما أن يكون حكما شيطانيا، أعني حكم الجور، وهو ضد الحكم الإلهي وخلاف الحكم الطبيعي[529]». أين نضع الإسلام؟ في الخانة الثالثة، يُجيب عبد المسيح. فعلا، بينما اليهودية[530] والمسيحية[531] هما بالتّوالي ديني الحكم الطبيعي والحكم الإلهي فإن الإسلام لا يمكن أن يكون إلاّ الحكم الشيطاني، أو ما أسماه بالحكم المحال «الذي هو الجور والشرّ بعينه[532]». يطلب المعذرة لاستعماله هذه التوصيفات، ولكنه يَعتبر نفسه في معركة مَصيريّة؛ يخوض صراع حياة أو موت، وهو مُرغَم على الدفاع عن نفسه (يسمّيه جهادا، ولكن روحي وليس بالسلاح)، ذلك لأن البادي هو المسلم الذي ما فتئ يتهجّم على دينه ويسبّ إلهه: «نحن لا ندع المجاهدة بما عندنا من السلاح الروحاني، ذبّا عن دين الله القيّم الذي نرجو به النصر والظفر على عدوّنا[533]».

قد يقول المسلم إن القرآن جاء بالحُكمَين: الإلهي والطبيعي، يعني حكم المسيح وحكم موسى، حيث نقرأ: "العين بالعين والسن بالسن"، ثم أتبعه بقول المسيح: "وأن تعفوا أقرب إلى التقوى"، لكن، ينتفض الكندي: «هذا كلام متناقض، كقول القائل: قائمٌ قاعدٌ، وأعمى بصير، وصحيح سقيم في حالة واحدة[534]». وبالتالي فإن هذا الكلام لا يُستجاز إطلاقا «لأنه محال[535]». وأكثر من ذلك هو كلام هجين لأن صاحبه سَرَقَه من «مَوْضعيْن مختلفيْن، أعني التوراة والإنجيل». وأهل هذين الدّينيْن يمكنهم أن يردّوا عليه بأنك «دخيل عليهم في حقوقهم تحاول مجاذبتهم عليه ومنازعتهم فيه، فهم لا يَدَعوك تأخذ حقوقهم التي لهم وفي أيديهم»؛ لا بل «إنّك مُتَعدّ ظالم، تروم أخذ إرثنا من أيدينا، مع إقرارك أنتَ أنه لنا، غير جاحدٍ له، فإن حاولتَ أخذه فأنتَ غاصب لا حقّ لك، بل آتنا أنتَ بما في يدك وعندك، ممّا ليس في أيدينا ولا عندنا، لنعلم أنك مُحقّ في ادّعائك[536]».

وإن لم يكن في الإسلام من حكم طبيعي وحكم إلهي إلاّ ووُجِد قبله، فما الشيء الجديد الذي جاء به؟ القرآن هو الحجة البالغة، يقول المسلم، والذي لا يقدر أن يأتي بمثله أنسيّ ولا جنّي. لكن بالنسبة لعبد المسيح هذه كلّها "أغلوطات" للتّوْرِية على عدم إتيان نبيّ الإسلام بمعجزة ظاهرة. وهذا

الادعاء هو في الحقيقة سحق للعقل وتدمير للروح، ولقد وضع الكندي الاصبع على الجرح الذي لم يندمل إلى يومنا هذا: «ولعمري: لقد أضلّ هذا الكلام قوما كثيرين، ولقد آوَيْتَ من هذا الكلام إلى رُكنٍ ضعيف القواعد مُتداعي الدعائم، واهي القوائم[537]».

المجادل المسيحي يَعِد المسلم بأنه سيداويه من مرضه العضال هذا، وينصحه بأن يَصبر على العلاج وعلى بطّ قرحه: «ولا بدّ لنا من كشف هذه القضية، وإن كان في كشْفِها بعض المرارة عليك. فإنّ بَطّ القروح لا بدّ أن يَنال صاحبها منه أذى وألم. فاصبر لألَم الحديد قليلا، تَجِد الراحة وحلاوة العافية عندما يتّضح لك الحق ويظهر لك القول وتدليسه عليك[538]».

الترياق الأوحد لهذا المرض، أعني مرض الإعجاز، والوعي بهذه «الدعاوي المُدلِّسة التي لا بقاء لها على الامتحان ولا ثبات لها على الفحص» هو الرجوع إلى التراث الإسلامي نفسه. ستجد أن الرّواة والمؤرخين لم يَثبتوا على رأي واحد بخصوص أصل القرآن وعدد آياته وكيفية جمعه، ومن تكفّل بجمعه، ومختلف القراءات، والناسخ والمنسوخ، واختلاف المصاحف، وسقوط آيات كثيرة، وتداول الأيدي عليه ...الخ. النتيجة هي أن القرآن ليس بمعجز ولا يمثّل دليلا على نبوّة وإنما هو «كلامٌ منثورٌ لا نظام له ولا تأليف، ولا معنى مُنتَسق، بل هو متناقض، كلّه ينقض بعضه بعضا[539]».

إن الإنسان الذي يتحصّن خلف معتقد الإعجاز، يُثبتُ، حسب الكندي، أن به لوثة ذهنيّة، أنه مُصاب بخلل في التفكير، لا بل منافق وغارق في مُستنقع الجهل: «أيّ جاهل أجهل ممّن ادّعى أن هذا الكتاب حجّةٌ ودليلٌ لمَن جاء به، وشاهدٌ لنبوّة نبيّ مبعوث، مثل فَلَق البحر لموسى وإحياء الموتى وإبراء الأكم لسيدنا المسيح؟[540]».

شتّان بين هذا وذاك، بين من يُقدّم برهان المعجزة الساطعة وبين من يأتي بأقوال معدومة المعنى: «إن هذا حقا لجاهلٌ مائق، لأنه لم يعقل كيف يشبّه ويُقرّب بين الأشكال. على أني لا أظنّ أحدا، به أدنى مِسْكةٍ من عقلٍ أو له أدنى تمييز، يجترئ أن يُفكّر في هذا فضلا عن أن يتفوّه به. ولم يخطر مثل هذا قطّ إلاّ على بال غبيّ غارِبِ العقل مُختلس اللبّ ضعيف القلب[541]».

فالمسلم الذي يُدرك ملابسات جمع القرآن واختلاف المصاحف والتحريفات والزيادات التي طرأت عليه، يجب عليه، حسب الكندي، أن يخجل من تقديم إعجاز القرآن كدليل على نبوة محمد: «أفَتَراكَ تحمل نفسكَ في صحّة عقلكَ ودقّة نظركَ وكثرة فحصكَ، على أن تحتجّ بمثل هذا الكتاب، مع ما عرفتَ من أخباره وأصوله أسبابه؟[542]».

حجّة واهية في ذاتها، لا يمكنها أن تنطلي على أصحاب العقول الوقّادة والقرائح الصافية، الذين أفنوا عمرهم في البحث والتحقيق والاستقصاء: «فهذه حجة منكسرة عند مثلي من ذوي

التفتيش والبحث عن أصول الأخبار. وأنت تعلم أنّي الرجل الذي قرأتُ الكتب وعَنيْتُ بمعرفة الأصول، وكيف كانت من أوّلها إلى آخرها، وأن المُبهرَجة من الأخبار والمُدَلَّسة من الأحاديث غير جائزة على مثلي ولا نافعة عندي[543]».

لكن القرآن، في عرف المسلمين، هو معجز من جهة فصاحة اللغة، وبلاغة الأسلوب واتقانه. ليس هناك ولو ذرة إعجاز في لغة القرآن، يردّ الكندي. هذا ادعاء مجاني لا يرقى إلى مستوى الحجة المقنعة، لأن كل واحد يستطيع أن يتحصّن به ويستخدمه لنقض الآخر، بحكم أن «كل لسان له كلام فصيح عند أهله من سائر الألسن، ولهم ألفاظ فصيحة يتخاطبون بها، وهي كلها عندك أعجميّة، كما أن لسانك العربي الفصيح عندك عندهم أعجمي[544]». هل القرآن عربيا فصيحا؟ فيه شكوك لأن حضور ألفاظ أعجمية وبكمية كبيرة دليل على أن عربيّته مطعونة: «إن العربية ضاقت عليه، فلم يكن فيها من الاتّساع ما لا يلجأ معه إلى لسان غيره، أو لأنه لم يَعرف أسماء هذه الأشياء بالعربية[545]». وإذا تذرّع المسلم بأن هذه الكلمات مُنزَّلة من عند رب العالمين، على لسان جبريل، فهذا يضعه حتما بين خيارين أحلاهما مرّ: «إمّا أنك تُوقع النّقص بالمُرسِل أو بالرّسول[546]»،

فعلا «إن كانت من عند صاحبك، وقع النقص به، لأنه لم يعرف أسماء هذه الأشياء بالعربية ولم يُدرك علمها، فلذلك أعْجَزَتْه[547]». وكيف لا يكون الأمر كذلك والتراث العربي القديم يزخر بالشعراء الفطاحل والفصحاء والخطباء البلغاء الذين كانوا قبل مجيء رسول الإسلام «أفْصَحُ ألفاظا منه وأرقّ مَعانٍ، بإقراره لأهلها حيث حاجّوه فقطعوه، فقال: "هم قوم خصمون". خاصموه بأبْلَغ حجة، فكانوا خصما أصحّ حجة وأبلغ في الخطاب منه[548]».

أما التحدّي بالإتيان بمثله، من حيث تنضيد الألفاظ وتصنيفها، فهو تحدٍّ واهٍ لا يَحسم الموقف لصالح القرآن اطلاقا، بل يمكن إرجاعه ضدّه، لأنّ «تنضيد الشعراء لشِعرهم، ووَزنِهم إيّاه الوزن الصحيح الذي لا يُغادر بعضه فيه بعضا، واختيار الألفاظ النقيّة الصافية العربية الخالصة، مع اتّساق المعنى الحسن، أكمل في الأحكام وأصح في الصِّنعة[549]». لكن القرآن يخلو من كل هذا الفن، ولا تَعْثر فيه على بلاغة راقية أو أسلوب مُميّز، فهو كلّه «سجْعٌ مُنكسرٌ وكلامٌ مختلفٌ، وتكبيرُ معانٍ لا معنى لها[550]».

ما هي المعاني الصحيحة والعظات الكبرى التي نستمدّها من القرآن؟ لا شيء، يقول الكندي، كلّها دعاوٍ مجانية وضروب أقوالٍ فارغة. السؤال مطروح على المسلم بالدرجة الأولى، والبَيّنة عليه هو كمُدّع: «عن أيّ معنى ظفرتَ به فيه؟ أدلِلْنا عليه وأعلمنا به حتى نتعلّمه منك، وأيّ معنى صحيح وجدتَه فيه ففُزتَ بمعرفته؟ خبِّرْنا به وأوْقِفنا عليه، أو أيّ خَبرٍ لم نسمعه على غاية التّمام والكمال من الشرح والصحة في شيء من الكتب المتقدّمة استفدته منه؟[551]».

نحن قرأناه ونعرف خباياه، يقول الكندي، ووقفنا على معانيه وبَحَثنا عن أصوله وفتّشنا عن خبره، ولكننا لم نجد فيه شيئا مما تدّعيه. وعلى أية حال، البيّنة على من ادّعى والمهمّة مُلقاة على كاهلك أنت كمُسلم بأن تقول لنا أي شيء وجدتَ في كتابك، وأن تُرِنا «الآيات العجيبة التي يعجز عن فعلها إمكان الآدميّين، حتى يصير حجة ودليلا على بَعْثِهِ نبيّا، يُوجِب الاقرار له بالرسالة والنبوة، حتى يُقاس به ويُرى فيه آية مثل فلق البحر وسائر آيات الأنبياء المعجبة؟[552]».

الحقيقة هي أن القرآن لم يتسنّ له أن يطغى على الأذهان إلاّ لأن المُتَقبّلين كانوا يَشْكُون قصورا ذهنيّا كبيرا، الشيء الذي سَهّل عليه إيقاعهم فريسة الأكاذيب المتعمّدة واعتناق مُعتقدات فاسدة: «صار كذلك بالتدليس والبهرجة، ووصفه بالفصاحة وحُسن التنضيد وجَوْدة الإعراب، وأن الإنس والجن لا يقدرون أن يأتوا بمثله، لأنه وقع لقوم أمّيين[553]».

3. اغراءات دنيوية لا أخلاقية

أما على الجانب الديني الأخلاقي، فإن الخلل بَيّن في تركيز دعوة القرآن على الشهوات الحسية ومسايرة غرائز البشر الوَضِيعة من أكل وجماع وحرب. والسبب في ذلك أن القرآن جاء في بيئة قاسية فقيرة، شحيحة الموارد، ولذلك لم يجد محمد أمامه من حلّ لإدخالهم في دينه إلاّ بترغيبهم في ملذات الأكل والجماع: «حيث لوّح لهم بذكر أنهار خمر ولبنٍ وأنواع الفاكهة واللحم الكثير والأطعمة، والجلوس على الأسرّة والاتّكاء على فرش السّندس والحرير والاستبرق، ونكاح النساء اللواتي هنّ كاللؤلؤ المكنون واستخدام الوصائف والوُصَفاء، والماء المعين المسكوب والظلّ الممدود التي هي صفات منازل الأكاسرة، فوقع هذا في خُلدهم ... فاستطاروا فرحا وظنّوا أنهم قد نالوه فعلا عند سماعهم إيّاه قولا[554]». لكن أتباعه استعجلوا مُتَع الحياة، ولم يكتفوا بالقول والأمنيات، بل مرّوا إلى الفعل والطلَب: «حملوا أنفسهم على محاربة أهل فارس، فأخذوا ذلك منهم وظفروا بهم[555]».

لقد جمع الاسلام تحت ظله كل من هبّ ودب من المتسكّعين والسافلين أخلاقيا، عدّدهم الكندي، ووصل حتى المسيحيين الذين يرغبون في التّملّص من الموانع «فلم يتهيّأ لهم ارتكاب المحارم ونكاح الفروج التي حرّمها الله عليهم مع بقائهم في الديانة النصرانية إلاّ بالدخول في هذه المقالة [الإسلام][556]».

الإنسان العقلاني الحصيف، صاحب المبادئ الأخلاقية السّليمة، لا يَقْبل بهذا الدين اطلاقا، بل يقبل العقيدة التي تمُدّه بالغذاء الروحي، والغذاء الروحي، في رأي الكندي، لا يوجد إلاّ في المسيحية: «هل رأيتَ أو بلَغَكَ أنّ مَن له بصيرة في الديانة أو عِلم أو معرفة أو تحصيل الأمور أو قراءة الكتب وتفتيش لها، واعتقاد صحيح، أو نظر في حكمة أو مدّعي فلسفة، صحيح العقل والفكر، انقاد إلى غير ديانة النصرانية أو خرج عنها جاحدا مقالته؟» لن يتجرّأ على الخروج من المسيحية واعتناق الإسلام إلاّ من أراد نيْل «الأمور الخسيسة التي كانت الديانة النصرانية تحظرها عليه وتُقبّح له فعلها[557]».

إذا انتقلنا إلى الطقوس الإسلامية، وأخذنا طقس الحجّ، على سبيل المثال، فإن غرابته ومنافاته للعقل تبرز للعيان بوضوح: أنْ يَحْلق أحدهم رأسه كالقَرعة «ويَتعرّى ويَعْدو ويرمي

بالجمرات[558]»، فهذا جنون خالص. لا بل إن أفعالا من هذا القبيل لا يجرؤ على القيام بها إلاّ «مَن غَرُبَ عقله وأنكر فهمه، ومن تخبّطه الشيطان[559]».

وإذا كان المسلمون يسخرون من طقوس الأديان الأخرى، يعتبرونها سخيفة وقبيحة فإن الكندي يُرجع التهمة على المسلمين ويقول: «فما أنتم فاعلوه من الحلق والتعرّي والرمي بالحجارة والهرولة أقبح[560]»، بل إن الأماكن التي تؤدَّى فيها تلك الطقوس، هي في حد ذاتها، مُوحشة غريبة، فعلا «أيّ عجبٍ أعجب من تلك المواضع عند ذوي العقول والتّمييز، التي يُرتَكَبُ فيها ما يُرتَكَبُ من ظُلم العقل والتّمييز، الذي فُضّل به الإنسان على سائر البهائم؟».

إنها مَواضِع دميمة، تنعدم فيها البركة، بل هي شيطانية جالبة للكآبة والجنون والموت، لم تنفع أي زائر لها، روحيا أو جسديا: «أيّ مَريض مضى إليها فبَرئ من مرضه؟ وأيّ زَمِنٍ قصَدَها فنهض عن زمانته؟ وأي أبْرصٍ زار ذلك المكان فذهب عنه برصه؟ وأي أعمى صَيَّرته إلى تلك البُقعة فانفتحتْ عيناه؟ وأيّ مُخَبَّط من الشيطان حُمِل إلى ذلك البلد فرجع صحيحا سليما؟[561]».

إن طقس الحج في حد ذاته بائس وقبيح، وأقبح منه المعاملات والتشريعات القرآنية في موضوع الحياة الزوجية: «أقبح منه ما جاء في ذكر الطلاق، ونكاح المرأة رجلا آخر، الذي يسمّى الاستحلال، وأن يَذوق من عُسيلتها وتَذوق هي من عُسيلته، ثم مراجعة الرجل الأول بعد ذلك. هذا وقد يكون لها أولاد رجال نِبال وبنات نساء كبار ذوات بيوت، والزوج الذي له الشرف النفيس والحسب الخطير، وتكون هي المرأة النبيلة في قومها، البهيّة في أهلها، ولها المجد الرفيع، فهذا أقبحُ وأشنعُ مِنْ فِعْل المجوس[562]».

ولا حتى الحيوانات العجم بقادرة على أن تَستسيغ شيئا من هذا القبيل، فهو أمر «تَستشنعه البهائم وتستقبح فعله»، لا بل إن البهيمة «لو سُئلتْ لأخبَرتْنا بقُبْح هذه الأفعال واستشناعها إيّاها وأعْلَمَتْنا، لو استَجَبْنا إلى دعوتك، أنّنا ظَلَمْنا تمييزنا وطباعنا[563]».

أما تهمة التحريف التي يرددها المسلمون جميعا، متعلّمين وجهلة، فهي «الكهف الذي يتستّر به أي مسلم»، ويعتبرها المجادل المسيحي أمرا مثيرا الشفقة؛ بؤرة مظلمة طُمِروا فيها ولم ينهضوا منها بتاتا، وبقوا يتخبّطون «من كثرة الجهل وصَرْعَته، لأن مَصْرَع الجهل وخيمٌ جدا[564]». والجهل، في هذه التهمة، يتمظهر جليّا من خلال الواقع التاريخي والتعاليم اللاهوتية.

من الجانب التاريخي هناك حقيقة لا مراء فيها: «أنت تعلم أننا واليهود، الأعداء الكافرين الجاحدين لما جاء به المسيح مخلصنا، قد اجتمعنا، عن غير تواطئ، على صحّة الكتاب وأنه مُنزّل من عند الله، لا تحريف فيه ولا تبديل ولم تلحقه زيادة ولا نقصان[565]». فكيف يتسنّى للأعداء أن يتواطؤوا على الخطأ؟ أن يجتمعوا على تحريف كتاب يعتبرونه مقدسا؟

وإنْ تمادى المسلم في غيّه، وواصل في سَكرة اتّهامه، فإن الكندي يَضعه أمام تحدٍّ حاسم: «نحن ندعوك إلى واحدة، آتنا، أنت المُدّعي علينا التحريف والتبديل إن كنتَ صادقا، بكتاب غير محرّف ولا مُبدّل[566]».

في النهاية يبدو أن أصحاب فكرة التحريف يُهينون قرآنهم لأنه أثْنَى في أكثر من مَوضع على المسيحيين ومَجَّد كتابهم، ولكن إذا تمعّنا في الأمر عن قرب، فالقرآن هو الذي يُهين نفسه لأنه يَمدح مرة ويتّهم مرة أخرى. وهذه المفارقة أحدثت شرخا في نفوس المسلمين وتركَتهم يتخبّطون بين القطبين، بين "لتجدنّ أشدّ الناس .."، وبين "يحرفون الكلم..". وقد عبّر عنها عبد المسيح أحسن تعبير: «كيف وكتابك يشهد بصحة ما في أيدينا شهادة قاطعة إذ يقول: "فإن كنتَ في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك". ثم فسّر هذا القول وأكّده معترفا لنا بالفضيلة التي أوتيناها: "الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته. أولئك يؤمنون به، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون"».

لقد وضع القرآن المسلمين في مأزق خطير، لأنه وصف بالخسران كل مَنْ لا يؤمن بكُتب أهل الكتاب من يهود ومسيحيين، وبالتالي فهو نفسه شهد لهم بحق التلاوة، وأمرَ بأن يُسألوا ويُقبَل ما يقولونه «كيف تدّعي وتقول أنه وقع منّا التحريف والتّبديل للكلام عن مواضعه؟[567]».

نحن أمام التناقض بعيْنه، يقول الكندي «حكمان متناقضان: إذ كنتَ تشهد لنا بحقّ التلاوة ثم تعود فتُزيّف شهادتك وتُكذّب نفسك وتقول بالتحريف والتبديل[568]». ماذا نسمّي هذا؟ عبد المسيح ليس لديه شك: «هذا غاية المحال والشناعة[569]».

على من تَقع تهمة التحريف، في النهاية؟ هل على المسيحي الذي أخذ كتابه عن قوم جاؤوا بالآيات والعجائب «واتّفقت عليه الأمم المختلفة والألسن والأهواء والديانات والبلدان البعيدة الذين لا يمكن أن يقع بينهم التواطؤ بحيلة من الحيل» أم الذي قَبِلَ كتابا «بلا حجة ولا دليل ولا شهادة عن نبيّ، ولا ذكَرَ أعجوبة تشهد له، وإنما قَبِله عن ناقل نقله بلسانه ولسان أهل بلده؟[570]». كتاب مأخوذ عن قوم «كانت بينهم الإحن والضغائن، فكلٌّ زادَ ونَقّص واجترأ على نَسْبِه إلى الله، وزعم أنه دليل على نبوّة نبيّه، وأنه شاهد عدل له بأنه رسول رب العزة». لكن هذه الشهادة مزوّرة لأنها تزامنت مع حمل الناس بقوّة السيف على الاعتقاد، والتهديد بقطع الرؤوس. ذلك أن نبي الإسلام لم يَرض بالدعوة السّلمية، بل «تخطّى فقال: مَن لم يَقبَل كتابي ويقول إنه مُنزل من عند الله، وأنه نبيّ مُرسل، قتَلْتُه وسلبتُ ماله وسَبيْتُ ذراريه واستبحتُ حريمه"». والنتيجة أن القرآن «قُبِلَ منه كُرها وخوفا لما توعّد به من البلاء والشقاء بلا حجة ولا برهان[571]».

VII
ريكولدو (Ricoldo) من بغداد

إذن، ليس الغربيّون، كما يعتقد بعض مفكرينا، هم الذين انتقدوا الإسلام والقرآن، بل إن العرب الأوائل، من مُلحدين ومسيحيين هم الذين بدأوا حملة التصدّي لهذا الدين. وهؤلاء الأخيرين مُبرّرون في ردّة فعلهم، لأنهم رأوا دينهم يُهان، ومعتقداتهم تُداس من طرف أناس دَخِيلين عنهم ولا يعلمون شيئا صحيحا عنها. وإذا أردنا الدقة فإن الغرب جاء متأخّرا، ولم تصلنا مجادلاته الكبرى إلاّ منذ أواخر القرن الثاني عشر، حيث انكبّ علماؤه على دراسة العقيدة الإسلامية من منابعها الأولى: القرآن والسنّة، وانبروا بالردّ عليها وتفنيدها.

سأحاول عرض بعض الفصول من نصوص لاهوتِيّين إيطاليّين، وأجوبتهما على الانتقادات التي صوّبها المسلمون ضد دينهما، وعلى الطّعون التي مَسّت قدس أقداسهم: ألوهية المسيح، التثليث وقدسية الأناجيل. أبدأ باللاهوتي الايطالي ريكولدو دي مونتكروتشي (Ricoldo da Montecroce 1243-1320)، وهو راهب دوميناكاني طاف في بلدان الشرق العربي ووصل بغداد في عام 1291 م، وهي تحت سلطة المغول، بعد رحلة خطيرة وشاقة، حيث استطاع أن يتعلّم هناك اللغة العربية والاطّلاع، عن قرب، على تعاليم الإسلام على أيدي شيوخ بغداد.

وبعد عودته من الشرق، ألّف كتابا جداليّا بعنوان "ضد شريعة المسلمين (Contra legem sarracenorum)"، قصّ فيه رحلته، من فلسطين إلى بغداد، مرورا بتركيا وإيران، وختَمها بنقد معمّق، قاسٍ، وجازمٍ، للقرآن ولشريعة الإسلام.

1. المسلمون أفضل عباد الله

وإحقاقا للحق، يجب القول أن ريكولدو لا يَكره المسلمين في ذاتهم ولذاتهم، وإنما يكره دينهم، وقد انصبّت انتقاداته كلها على القرآن والشريعة الإسلامية، أما الأشخاص فهو يَكِنّ لهم شديد الاحترام. لقد افتَتن بعادات المسلمين وأخلاقهم وقال إنه وجد مسيحيّين دون مسيحية، وأن في مجال المعاملات فإن المسلمين يحق لهم أن يقولوا للمسيحين: "اخجلي يا صيدون (أشعياء 23: 4)"[572]. وهذا الاعتراف الشجاع من طرف راهب مسيحي عاش في القرن الثالث عشر، في عز الحروب الدينية والعداوات والتعصب الديني الأعمى، لهو أمر مذهل حقا. فهو لا يتجنّى على المسلمين في أشخاصهم بل يُثني عليهم، ولا يخجل من الاعراب عن افتتانه بأخلاقهم، بينما في القرن الواحد والعشرين، يأتينا رهط من المثقفين العرب الحداثيين لكي ينقضّوا على المسيحيين ويُمزّقوهم بأقلامهم وألسنتهم.

إن ريكولدو، يروي أشياء عاينها هو شخصيا في ترحاله، ويُصرّح بها علنا دون أي عقدة نقص، بل يبدي شيئا من التحسّر على وضع المسيحيين بالمقارنة مع المسلمين. حينما وصل إلى بغداد، صُعق من ضخامة ما رآه، رغم كل الدمار الذي لحق بها من طرف التتار، فقد بدت له وكأنها روما الثانية (altera Roma). يقول إن بغداد هي مدينة رائعة (civitatem mirabilem)[573]، مدينة عظيمة (magnam civitatem)[574]، لطيفة ومتألّقة جدا (amenissima civitas)، يَسكنها أكثر من مائتي ألف مسلم، ويتواجد فيها الآلاف من المسيحيين واليهود (Christianos et Judeos)؛ فيها أسقفيّة المارونيين، وهي المقرّ الرسمي للخليفة (ibi Califa stabat)، فضلا عن أنها المركز الرئيسي، سواء للدراسة والدين والحكم، عند المسلمين[575].

إنها مدينة تزخر بمدارس العلم، يقول ريكولدو، يجتمع فيها كبار العلماء والدارسون ورؤساء المذاهب المختلفة. فيها زوايا للمتزهّدين ـ يسمّيهم المُجرّدين ـ يقصد المتصوّفة الذين تجرّدوا من حب الدنيا وهجروا ملذات الحواس، وقد أذهله الاستقبال الحارّ الذي حظي به هو وأصحابه من طرف الخواص والعوام في بغداد.

قال إنهم يستقبلوننا في مدارسهم وجامعاتهم، في ديرهم وكنائسهم ومعابدهم اليهودية، وفي بيوتهم، كملائكة من الله (recipiebant nos sicut angelos Dei) ومكثنا مندهشين

(obstupuimus) من حفاوتهم وطيبتهم، وهي خصال، يقول، لا تتوافق مع شريعتهم القبيحة[576].

ريكولدو يقارن فضائل المسلمين، برذائل المسيحيين، لا لكي ينصحهم باتباع الإسلام، أو يُعظّم من شأن هذا الدين، وإنما لكي يَرُجَّ وعي المسيحيّين ويُرْبِكهم، (ad confusionem Christianorum)[577]. يقول: «مَن ذا الذي لا يندهش، إذا اعتبر بعناية، كم من الحماسة يبديها المسلمون لطلب العلم، كم تفانيا في الصلاة، رحمة بالفقراء، توقيرا لاسم الله وللأنبياء وللأماكن المقدسة، دماثة أخلاق، لُطفا بالغرباء، وئاما ومحبة في ما بينهم[578]».

وفي المدارس العامة، بمدينة بغداد، التي يأتونها من كل بَرّ وولاية (diversis provinciis)، لطلب العلم، خُصِّصت لهم أماكن عديدة فقط للدراسة والبحث، مثل الأديرة الكبرى في البلاد المسيحية. والمجموعة هي التي تتكفل بإيواء الطلبة في منازل خاصة وتوفّر لهم اللّوازم والمأكل. وفي المدارس العمومية (scolis communibus)، حيث يفسّرون القرآن، أي شريعة محمد، لا يدخلونها أبدا إلاّ وهم حفاة القدمين (nisi pedibus discalciatis)، ولذلك، فإن جميعهم، سواء المعلّم الذي يفسر أو التلاميذ المستمعون، يتركون نِعَالهم في الخارج، ويدخلون القاعة حفاة، وبكل انتباه وتواضع يقرؤون ويتناظرون (legunt et disputant)[579].

إنّ تَورّع المسلمين وتَفانيهم في إقامة العبادات سبّبت لريكولدو أزمة نفسية، وقد عبّر عنها بكل صراحة وبصيغة مأساوية: «ماذا أقول عن صلواتهم؟ إنّ تفانيهم في إقامة الصلاة لكبير جدا، وإخلاصهم هو من الشدة بحيث بَقِيتُ بهتا، ولقد عاينتُ ذلك بالتجربة وشاهدته شخصيا[580]».

ومن بين الخصال الحميدة التي يذكرها ريكولدو، عطف المسلمين على الفقراء، قال إن المسلمين هم أكثر الناس تَصَدُّقا (sunt maxime elemosinarii)، ولهم في القرآن أوامر صارمة بإعطاء العشر من أموالهم. الكثير منهم يتركون إرثهم لبيت المال، تستخدمه المجموعة لفداء الأسرى. قال أيضا إنهم غالبا ما يفتدون مسيحيين مأسورين عندهم، يأخذونهم إلى المقبرة، وكل واحد يقول: "أفدي هؤلاء لروح أبي، أفدي أولئك لروح أمّي"، ثم يمنحونهم وثيقة عِتْق، ويُخْلُون سبيلهم[581].

قال إنهم يَرفقون كثيرا بالحيوان، ويُطعمون الكلاب السائبة، بل ثمة من يترك وصيّة بإطعام الكلاب (testamenta pro canibus nutriendis)، والعناية بها بعد موته. وقد وجدنا، يواصل ريكولدو، أن الكلاب لهم وُكلاء (procuratores) مُكلَّفون بالبحث عن الوصايا المتروكة لصالحها، وحينما لا يجدونها، فهم يَجوبون المدينة، لجمع الصدقات والتبرّع بها للكلاب. ولقد رأينا ذلك في نينوى وبغداد، مدينتين كبيرتين.

ليس هذا فقط، بل إن المَجَانين الذين كثيرا ما تمّ اعتبارهم في أوروبا كائنات ملعونة لأنهم مسكونون بالشياطين والأرواح الشريرة، وبالتالي يعاملون معاملة سيّئة، فإن وضعهم في بغداد مختلف كليّا. إن المعاملة الإنسانية التي يُعامِل بها أهل بغداد المجانين أثارت استغراب ريكولدو، ولم يفوّت الفرصة للإشادة بها. قال: «في بغداد، حيث الكثير من الناس يُصابون بالجنون من فرط الحرارة، فإن في أحواز المدينة هناك مكان جميل جدا (pulcerrimum locum) مُخَصّص لهؤلاء المرضى، حيث يَنعمون بالراحة التامة، على نفقات المجموعة، ويوفّرون لهم المأكل والخَدَم، ويضعون على ذمّتهم طبيبا ممتازا، وكل هذا من مال الخزانة العامة».

وبخصوص التقوى، يقول إن المسلمين يعظّمون كثيرا اسم الله بحيث إنهم لا يفعلون شيئا ذا بال أو يقولون أو يكتبون شيئا دون أن يبدؤوا باسم الله (incipiunt a nomine Domini)، وفي مراسلاتهم يبدؤون رسائلهم بكتابة اسم الله، ويتقيّدون بها، بحيث إنهم لا يمزقون أي مكتوب أو يرمون به على الأرض. وإذا عثروا على صحيفة مُلقاة في الأرض فهم يَلتَقطونها، ويضعونها بعناية في مكان عال، في فرجة حائط (fixuris murorum)، كي لا يُداس اسم الله. وحينما يعرض لهم اسم الله، سواء قراءة أو حديثا، لن تسمعهم أبدا ينطقونه بمفرده، ولكن دائما مقترنا بتعظيم ما، مثل "الله جل جلاله"، أو شيئا من هذا القبيل.

أما أماكنهم المقدسة ودُور عبادتهم، يقول ريكولدو، فهي دائما نظيفة ناصعة، ولا يَدخلونها إلا حافيي القدمين، لا يبصقون فيها ولا يُلوّثونها اطلاقا.

وبخصوص أخلاق المسلمين فقد بالغ في الثناء عليها بصورة عجيبة. قال إن دماثة أخلاق المسلمين (gravitas in moribus) وتواضعهم لهو أمر مذهل: «لم أر أبدا رجلا مسلما يمشي الخيلاء، ورأسه مرفوعا، أو عينيه مرفوعة إلى السماء، أو عنقه منتصبا أو صدره مُنتفخا أو يُجَذّف بيَديْه، بل يمشون بخُطى موزونة، كما يليق بمتديّنين ذوي أخلاق جليلة، وكذلك الأطفال الصغار[582]». وفي كامل السنين العديدة التي مكثتُ فيها معهم، في بلاد فارس، وفي بغداد ـ يقول ريكولدو ـ لا أذكر أني سمعت لغوا أو كلاما سخيفا، لكن دائما تعظيما لله وتوقيرا لأنبيائه. ومن بين خصال المسلمين التي عدّدها ريكولدو أن لا أحد يَسخر أبدا من شخص آخر، أو يَقذفه، أو يَعيبه[583].

وقد تحدّث ريكولدو عن تعامل المسلمين اللطيف والمتحضّر مع الغرباء (affabilitatem et urbanitatem ad extraneos)، وقال إنهم يستقبلوننا كملائكة (ut angelos) حينما ننزل ضيوفا على النّبلاء والعلماء. إن فرحتهم في الترحيب بنا، يقول ريكولدو، كانت كبيرة لدرجة أن كثيرا من الأحيان، بدا لنا وكأننا ضيوف عند اخواننا الرهبان، أو بين إخوة في منزلهم. قال إن وأولئك الذين يضيفونا في بيوتهم، غالبا ما يطلبون منا، بتحضّر ومودّة، أن نقول كلمات عن تعظيم الله أو تمجيد المسيح. وحينما يذكرون المسيح أمامنا، فهم لا يذكرونه أبدا إلاّ بالثناء والتعظيم، مثل "عيسى عليه السلام"، أو شيئا من هذا القبيل. يقول إن العرب على وجه الخصوص من بين عموم

المسلمين مشهورون بكرمهم وحسن ضيافتهم، ولا ينهرون أيّ غريب إذا جلس ليتغدّى معهم. ويقولون إن من يضيّف شخصا ويتقاسم معه الخبز والملح (panem et salem)، يصبح أخاه، ومستعد لحمايته من أيّ مُعتَدٍ، حتّى وإن قتل أباه (etiamsi occidisset patrem suum)[584].

ثمة ميزة أخرى يمتاز بها المسلمون، وهي التوافق فيما بينهم، والمودة التي يُبدونها لبعضهم البعض، كما لو كانوا أخوة عن جد. وحينما يُخاطِب أحدهم الآخر يقول له: "يا ابن أمي (O fili matris mee)". وهم لا يتقاتلون في ما بينهم، ولا ينهب بعضهم البعض، بل إن المسلم، يسافر بكلّ أمان، في أي مكان شاء وبين المسلمين الغرباء منهم، والبرابرة. وللتدليل على السلم المستتب بين المسلمين، يذكر أن جيشيْن مسلميْن كانا على أهبة خوض معركة فقالوا لبعضهم: "ألسنا مسلمين؟ أليس حرام أن نَتقاتل في ما بيننا؟ امْسكوا الشخص الذي تمرّد على السلطان، ونبقى جميعا في سلام". وهكذا على الفور، يقول ريكولدو، عمّ السلام واستتبّ الهدوء بينهم، ولم يُقتل من جيش كبير إلاّ رجل واحد (unus solus occisus).

وقد أدّته هذه الواقعة إلى النّعْي لحظّ المسيحيين الذين يَتقاتلون في ما بينهم بشراسة ودون رحمة. وهذه بالنسبة إليه من أعجب العجائب، لأن دين الرحمة أنتَجَ وحوشا قتّالين، ودين القسوة أنتج مُسالمين وَدِيعِين: «هم الذين لديهم شريعة القتل والموت، يرفضون أن يَقتَتلوا، بينما المسيحيون التعساء (miseri christiani)، الذين لهم شريعة حياة ووصايا سلام ومحبة، يقتلون بعضهم دون أيّ رحمة (sine aliqua miseracione)». وحينما يقتل مسلم مسلما آخر، عن خطأ أو حتى عن قصد، من النادر أن يَعمَد ابنُ أو أخ المقتول إلى الانتقام، بل إنه يقول له، إن قتلتُك لن أعيده إلى الحياة، وإذا كان شرا قتْل مسلم، فأشرّ منه قتْل مسلمين اثنين، ويقول له: "يكون بالله (sit Dei)"، ويتركه في سبيله.

وأمام هذا التسامح والغفران، فإن ريكولدو يبدي تحسّرا شديدا على عدم وجوده عند المسيحيين، رغم أن دينهم يأمرهم بالغفران: «ماذا كان بوسعهم أن يقولوا لتبرير أنفسهم، المسيحيون الذين يردّدون كل يوم: "اغفرْ لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين إلينا"، بينما المسلمون يتجاوزونهم في مغفرة الاساءة؟[585]».

وقد ختَمها ريكولدو بمعلومة مذهلة، لو لم يعاينها هو شخصيا لما صدّقناها، وهي جديرة بأن يفتخر بها العرب المسلمون، إذا قارنّا حالهم بما يحدث اليوم في العراق وسوريا والدول العربية الأخرى. قال إن الكثير من المسلمين يَنْفرُون من القتل (occisionem abhorrent) إلى درجة أنهم لا يجرؤون حتى على قتل دجاجة أو فرّوج (occiderent nec gallinem nec pulicem)، وإذا أرادوا أن يأكلوا دجاجة، يُمسِكونها حيّة بأيديهم على قارعة الطريق، ويترجّون أحد المارّة أن يذبحها لهم[586].

وقد ختم عرض شمائل المسلمين بالقول إن المسلمين في معاملاتهم يُخجِلون المسيحيين، ويمكنهم أن يقولوا لهم، كما قال أشعيا: اخجلي، يا صيدون (Erubesce, Sidon !).

2. الإسلام بؤرة الهرطقات

ولكن ريكولدو يُحذّر قراءه، مرة أخرى، بأنه لا يُعدّد خصال المسلمين للثناء على دينهم أو تَحْبيب الأنفس فيه، وإنما لكي يُربِكَ المسيحيين (ad confusionem Christianorum)؛ لكي يُزعْزعهم ويوقظهم من تخاذلهم في دينهم، هم الذين لا يريدون اتّباع شريعة الحياة (pro lege vite)، بقدر ما يفعل المَلعونون لصالح شريعة الموت (pro lege mortis)[587].

الإسلام، بالنسبة لريكولدو، هو المرحلة الثالثة من المصائب التي ضربت المسيحية: الأولى كانت اضطهادات اليهود والوثنيين؛ الثانية فتنة الهراطقة في صُلب المسيحية؛ الثالثة برزت في عصر هرقل وهي متواصلة إلى اليوم، يعني الإسلام. لقد انتصب «ضد الحقيقة وضد كنيسة الله، تنِّين شيطاني (draco diabolicus)، رجل فاسق، ومُدمن على الأعمال الفاحشة، اسمه محمد، والذي، بمَشورة ومُساعدة من هو "كذّاب وأب الكذِب"، ألّف شريعة جائرة ومُشينة، مُقدّما إياها على أنها نابعة من فم الله: هذه الشريعة سماها "القرآن"، كما لو أنها كانت مجموعة من التعاليم الإلهية. محمد هذا اضطهد كنيسة الله أكثر من كل أولئك الذين اضطهدوها وسيضطهدونها[588]».

لقد طوّق الكنيسة، ومَحقَها في أي مكان حلّ به، ولتحقيق هدفه، يقول ريكولدو، استعمل طرقا ثلاثة: «هيْمنة ضارية؛ شريعة مُضلّة؛ خداعا نِفَاقي للبسطاء[589]»، بهذه الطرق استطاع أن يُوقِع في الغواية أجزاء كبيرة من العالم (magna partem totius orbis seduxit).

«أنا، إذن، الراهب ريكولدوس، أصغر عبد في رهبانية الواعظين، متألّما لمُصيبة بهذه الضّخامة " فكّرت في طُرقي، ورددت قدمي إلى الشهادات". وبعد أن عبَرتُ بحارا وصحاري، وصلتُ إلى بغداد، أشهر مدينة للمسلمين، حيث مَقّر أكبر مراكز التعلم، وهنا تعلّمت معا اللغة العربية والكتابة. قارئا بعناية كبيرة شَريعتهم ومُستشيرا، غالبا وبإلحاح، مُعلّمي مدارسهم، أدركتُ بالتجربة فساد تلك الشريعة. وإذ شرعتُ في ترجمتها إلى اللاتينية، وجدتُ فيها الكثير من الخرافات، والأكاذيب والكفريّات، وأكثر من ذلك فهي تتكرّر باستمرار، بحيث أصابني الغثيان، فتركتُ المهمة، وعلى الخيبة التي أصابتني من هذه الكُفريات كتبتُ بعض الرسائل للكنيسة المنتصرة، كمتنفّس لروح معذّبة[590]».

في الفصل الأول، تحت عنوان: "الأخطاء الأساسية للقرآن"[591] كتب لقرّائه المسيحيّين: «يجب أن تَعلَم أن قاذورات كل الهراطقة القدامى (omnium antiquorum haereticorum feces) التي زرعها الشيطان هنا وهناك، تقيّأها مجدّدا (revomuit) كلّها في محمد. فعلا، هذا الرجل يَنفي، مع سابيليوس، الثالوث ويَفترض في الأشخاص الإلهية طبيعة ثنائيّة، وهي عدد وضيع (numerus infamis) ومبدأ الغيرية. يفترض أيضا وجود ماهية إلهية لها روح، لذلك فإن عديد المرات يُقدّم الله في القرآن وهو يتكلّم بضمير الجمع (pluraliter loquentem). وهكذا يبدو أن الروح ذاتها ويسوع ذاته يحلاّن في جوهر مختلف عن الله، وبالتالي فإن المسيح أقل مكانة من الله وخاضع له. وفي هذا فهو موافق لآريوس وأونيميوس اللذان يعتقدان أن المسيح هو مجرد مخلوق، رغم أنه أسماها [...] محمد إذن يعتقد أن يسوع هو إنسان مقدّس في أعلى المراتب وله فضائل تفوق كل أنواع الفضائل، ويبدو أيضا أنه يعتقد أن يسوع يملك شيئا يسمو به على كل ما هو إنساني. فعلا، يسمّيه كلمة الله، روحه، ولكنه يعتبر من غير اللائق أن يكون إلها حقيقيا. ولكي يبرهن على ذلك فهو يأتي بدليلين: في البداية يقول إن المسيح لم يصرّح بذلك شخصيا ولم يُشر إليه حتى إشارة؛ ثم، يبدو أن هو نفسه (المسيح) قال العكس. لذلك يقول محمد: "قالت النصارى المسيح ابن الله" ولكن المسيح ذاته يقول لليهود: " اعبدوا الله ربي وربّكم"[592]».

إن هذا الهجوم القرآني على معتقدات المسيحيّن ولّد فيهم نوعا من الاستياء والغبن، وأثار فيهم مشاعر من الحيرة، أقول حيرة لأنهم لم يفهموا أين يُصنفوا هذا الدين الجديد، هل هو هرطقة أم خطأ؟ الراهب بطرس المبجّل (Petrus Venerabilis) رئيس دير كلوني (Cluny)، أوّل المجادلين الغربيين ضد الإسلام، احتار في هذه المسألة: حسب التعريف المتعارف عليه للهرطقة فالإسلام لا يمكن أن يُعدّ من بين الهرطقات المسيحية، لأن اسم هرطقة لا ينطبق «إلاّ على ما يَخرج من الكنيسة ويَرتدّ على الكنيسة. ولذلك أنا أسمي هراطقة، أولئك المسيحيّين الذين عَانَدوا أيّ جزء من أجزاء العقيدة الأرثودوكسية، ويسمّى هرطقة كل ما يتصورونه ويُعلنونه، بطريقة خاطئة[593]». المفارقة هي هذه: «إذا كان يجب تسمية خطأ محمد هرطقة، وأتباعه هراطقة أو وثنيّين، فهذا ما لا أستطيع أن أفهمه تماما[594]».

فعلا المسلمون، يقول بطرس، يتقاسمون أشياء مع المسيحية وأشياء مع الهراطقة وأخرى مع الوثنيّين: «فهم يَقبَلون، من جهة، مثل الهراطقة، بعض الأشياء من العقيدة المسيحية وأشياء يرفضونها، ومن جهة أخرى يتصرّفون ويُعلّمون حسب عادة الوثنيين الذين لا يمارسون أي هرطقة. فعلا، بالاتفاق مع بعض الهراطقة، كما كتب محمد في قرآنه المملوء أخطاء، فإن أتباعه يقرّون بأن المسيح وُلد من عذراء؛ يعتبرونه أعظم من أي إنسان، بما في ذلك محمد نفسه؛ يقولون إنه عاش دون خطيّة؛ وأنه بشّر بتعاليم صادقة وأنه عمل أشياء باهرة؛ يُصرّحون بأنه روح الله، كلمة الله». لكن هذه التصريحات هي ظاهريا مشتركة مع المسيحية، لأن المسلمين، يقول بطرس «لا يَفهمونها كما نَفهمها وكما نُفسّرها نحن[595]».

أما في مواضع أخرى فإن قربهم للهراطقة ظاهر، ذلك أن المسلمين «عن آلام وموت المسيح لا يقولون فقط، مثلما يقول المانويّون، إنها خياليّة، بل أيضا لم تحدث قطّ. هذه الأشياء وأخرى يتقاسمونها مع الهراطقة، بينما مثل الوثنيين يرفضون التّعميد، يَنفون التضحية المسيحية، يهزؤون من الكفّارة ومن الأسرار الكنسية الأخرى».

لكن إذا طبّقنا التعريف الأوغسطينيّ للهرطقة[596] فإن الإسلام يدخل عن جدارة تحت صنفها: «هرطقي، في رأيي، هو ذاك الذي، من أجل مَصلحة دنيوية، وعلى وجه الخصوص، من أجل المجد والسلطان، يَدفع الناس لاتِّبَاعِ آراء مُبتَدَعَة وخاطئة[597]». وهذا التعريف، حسب بطرس، ينطبق على محمد نبي الإسلام، وبالتالي فإن التركيز هنا ينتقل من الصفات اللاهوتية للهرطقة إلى الشخص الذي ابتدعها، ويُترك في الدرجة الثانية موضوع أرثودكسية العقيدة.

هذه العناصر الهرطقية في التعاليم والشخص أدت ببطرس إلى قراءة تاريخ بروز الإسلام على أنه عمل شيطاني مُصَوّب ضد المسيحية، وأن السلسلة، بالنسبة إليه، مُصاغة كالتالي: الشيطان، آريوس، محمد، المسيح الدجال. لكن مرة أخرى، مثلما اعتقد ريكولدو أن الله هو الذي شاء بروز هذا الدين، فإن بطرس، هو بدوره يرى أن محمدا ليس هو المسيح الدجال وإنما المهيّء لظُهوره: «تلك الهرطقة إذن، صِيغَتْ في البدء من طرف الشيطان، نُشرتْ من خلال آريوس، وبعده شهدت ازدهارا كبيرا مع هذا الرجل الشيطاني، محمد، وأخيرا سيتمّ تحقيقها بالكامل من قِبَل المسيح الدجال، بحسب المخطط الشيطاني [...] وبحقٍّ، محمد الكافر، تمّ وضْعُه بعناية من طرف الشيطان بينهما [بين آرويس والمسيح الدجال] بحيث يكون تقريبا مُكمّلا لآريوس وأكبر داعم للمسيح الدجال الذي سيقول أشياء أسوأ في قلوب الكفار[598]».

ريكولدو، هو بدوره ينطلق من هذا النمط من السّرد التاريخي اللاهوتي، حيث يرى أن الاسلام هو مرحلة من مراحل تنفيذ مخطط الشيطان للتصدي للمسيح: «لقد توقفتُ كثيرا عند هذه النقاط لأننا نعلم جميعا أن ما بدأه الشيطان مع آريوس، ولكن لم يستطع اتمامه بعد، حينما خَفَتتْ حماسة الكنيسة وتصاعدت الشرور، أتمّه بواسطة محمد وسينتهي منه عن طريق عدوّ المسيح الذي سيُقنِع العالم أن المسيح لم يكن لا إلها حقيقيا، لا ابن الله، ولا إنسانا عادلا. لكن الهدف الأساسي لمحمد كان اقناع الناس بأن المسيح لم يكن لا إلها، لا ابن إله، وإنما كان إنسانا قدّيسا وحكيما، وأعظم الأنبياء، وُلد من عذراء دون أب. وفي هذا فهو يتفق مع الهرطقي كاربوكرات.

يقول أيضا إنه محال أن يكون لله ولد نظرا لأنه لم يتّخذ زوجة، وحتى في هذه النقطة فهو يتفق مع الهرطقي كاربوكرات. يضيف أنه لو اتخذ الله ولدا، لتَعرّض الكون كله إلى الدمار لأن بينهما سيَنْشب خلاف كبير. وفي هذا فهو يتفق مع الهرطقي كيردونيوس ومع اليهود. يقول إن اليهود لم يَقتلوا المسيح ولم يَصلبوه ولكن واحدا شبيها به، وفي هذا فهو يتفق مع المانويّين. يُضيف أيضا بأن الله رفع إليه المسيح، وأنه سيظهر في نهاية الأزمان، سيَقتل المسيح الدجال وبعدها

سيسْمَح الله له بالمَوت. ولكن بما أنه يُنكر آلام المسيح، فهو ينكر كل أسرار الكنيسة، التي تَستمدّ فاعليتها (نجاعتها) من الآلام الإلهية. وفي هذا فهو يتفق مع الهراطقة الدوناتيّين.

يزعم أيضا أن الشياطين [الجنّ] يمكنهم أن ينالوا الخلاص وأن العديد منهم، حينما سمعوه، أصبحوا مسلمين، وفي هذا الشأن فهو يُحاكي نوعا ما أوريجينس، الذي قال إن الشياطين ستَنَال الخلاص. ادّعى أن الله، حينما بعث له جبريل، صعد معه إلى السماء ووصل إلى حضرته، وأن الله وضع يده على كتفيه فأحس جراء تلك اللمسة ببرد شديد وصل حتى نخاعه الشوكي. وهذا هو رأي الأنثربومورفيين (الحَشويّين) الذين يسندون إلى الله صفات جسدية. يبدو أنه يعتبر الروح القدس مخلوقا، وفي هذا فهو يتفق مع المقدوني. يرى أيضا أن الملائكة أصبحوا شياطين لمّا امتنعوا عن السجود لآدم، بعد أن أمَرَهم الله بذلك. وفي هذا فهو لا يحاكي أحدا.

محمد يُصرّح أيضا بأن سعادة الإنسان الأبدية تقتصر على الطعام ولذة الجماع، في لباس فاخر وعيشٍ في جنان تكثر فيها المياه. وفي هذا فهو يتفق مع الهرطقي قيرينتوس ومع بعض الهراطقة الآخرين... يسمح باتّخاذ العديد من النساء، جَوارٍ وإماء، بعدَدِ ما يستطيع أحدهم أن يأسرَ منهنّ في الحرب، وبحسب مَقدرته على الإنْفاق عليهنّ. وفي هذا يبدو أنه على اتّفاق مع الهراطقة النيقولايتيّين. يقول أيضا إنه يجب قتل كل الذين لا يعتقدون في شريعته، ما لم يدفعوا ضريبة. يبدو أنه يُبيح اللواط والسّحاق، وهذا موجود في آية من سورة البقرة، حتى وإن عمَدَ المسلمون إلى اخفاء ذلك بتأويلات رحيمة».

إن الهدف الرئيسي لمحمد ـ يواصل ريكولدو ـ هو حذف كل ما يصعب اعتقاده ويَعسر انجازه، وفي مقابل ذلك إباحة كل ما يرغب فيه العامّة، والعرب على الخصوص، أعني الأكل والسطو والجماع. لكن بخصوص فضائل مثل التواضع، والصبر، والسلم، والعفة، وحُبّ الاله والقريب أو الكمال الأسمى، لم يَقل شيئا يستحقّ ذكره. وبما أنه من هذه الأشياء يمكن بسهولة إدراك خبثه وخداعه، سواء بالاعتماد على سلطة العهدين، القديم والجديد، أو من خلال كتابات الفلاسفة الذين تناولوا مسألة الفضيلة والرذيلة والكمال، فقد أمَرَ بأن لا يُعتقَد إطلاقا في أي شيء مخالف لشريعته، وأن يُقتَل المعارضون. وعلى الرغم من ذلك فهو يُمجّد المزامير، والأنبياء الآخرين، وشريعة موسى، ويُعظّم، على وجه الخصوص، إنجيل المسيح، ويقول إن المسيح قد تنبّأ به وتكلّم عنه لبَني إسرائيل قائلا: (ومبشّرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد). أتباعه يؤكدون أن اسمه مكتوب على عرش الإله منذ الأزل، في الواجهة العليا، على الجهة اليُمنى. ولكي ينال التصديق بهذه الأشياء فهو لم يأت بأية معجزة، وإنما أخرج سيفه من غمده وقال إن الله لم يُرسِله بقوّة المعجزات بل بقوّة السلاح[599]».

هذه هي السمات الأساسية لهذا الدين، وفحوى التعاليم التي نجدها في الكتاب الذي يقدّسونه، ويتّخذونه مصدرا لشريعتهم. الأخطاء التي يحتويها القرآن، والأكاذيب الواردة فيه، يقول

ريكولدو، لا تُحصى ولا تُعدّ؛ الفظائع الأخلاقية المتضمّنة فيه لا يمكن حصرها، وبالتالي فإن هذا الكتاب لا يمكن أن يكون، على الاطلاق، وحيا من الله. وهذا استنتاج مُرتَقَب، لا نعجب منه، لأننا موضوعيا، لا يمكن أن نَنتظر من مُتكلّم مسيحي، مُتشبّث بدينه، أن يُسلّم عن طيب خاطر بأنّ القرآن هو وحي إلهي.

ولكن ريكولدو يدّعي بأنه وصل إلى هذا الاستنتاج بعد فحص عقلي دقيق، ومقارنة تاريخية وتعاليميّة بين القرآن وبين الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية. يقول إن القرآن ليس شريعة الله، ولا يمكن أن يكونه لفقدانه المشروعية التاريخية، حيث أن «لا العهد القديم ولا العهد الجديد يشهدان به، بينما القرآن يشهد بأن كليهما شريعة الله. لكن محمدا يُثني على نفسه بنفسه، ويشهد لنفسه بنفسه. والحال أن شريعة الله هي مثل السلسلة المتواصلة المسبوكة من نفس الصانع بحيث إن كل حلقة فيها ترتبط بسابقتها وبلاحِقتها: فعلا كل واحد من الأنبياء بُشّر به وذُكِرَ من طرف السابق، وكلهم أنذروا بقدوم المسيح.

إنْ كانت شريعة المسلمين هي فعلا شريعة الله، وإن كان اعتناق تلك الشريعة ليس انحرافا وإنما هداية، كما يزعمون، فَلِمَ بقيتْ مَخفيّة على كل الأنبياء السابقين إلى حدّ أن لا واحد منهم تكلّم عن محمد؟ لم نر أن موسى أو نبيّا آخر أو المسيح نفسه تلفّظ بشيء عن محمد أو عن شريعته، سوى وصيّته بأن يحذروا الأنبياء الكذبة (متى، 7، 15). المسيح نفسه قال: "إن الشريعة والانبياء تذهب حتى يوحنا (لوقا 16، 16)"، لكي يُنذِر الناس أجمعين أن بعد هؤلاء لن يأتي أي نبيّ عالمي آخر؛ بينما محمد يقول بأنه نبيّ عالمي. أن يكون هو نبي فهذا ما لا نعلمه، لكننا نعلم، مع شديد الأسف، أنه لم يُولَد في العالم مِن فتّان مثله استطاع أن يسوق وراءه عددا كبيرا من الناس في وقت قصير من الزمن».

3. تحريف التحريف

ومع ذلك، يقول ريكولدو، فإن المسلمين مقتنعين بأن موسى والأنبياء الآخرين تنبؤوا بمحمد، وأن المسيح تحدّث عنه أكثر وأوضح من أي نبيّ سابق إلى درجة أنه نطق باسمه، مُعلنا لبني اسرائيل: (ومُبشّرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد). لكن اليهود، يقول المسلمون، حرّفوا شريعة موسى والأنبياء، والمسيحيين حرّفوا الإنجيل، بحيث لم يبق في شريعة موسى وفي الأناجيل إلا ما ذكره القرآن. «أن يكون هذا الأمر غير قابل للتصديق، أبرهن عليه في البدء من خلال قرانهم نفسه. لقد جاء في فصل [سورة] يونس (فإن كنتَ في شكّ مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك). ومعلوم أن أولئك الذين يقرؤون الكتاب قبل المسلمين هم اليهود والمسيحيون الذين أنزلت عليهم التوراة والانجيل، كما يقول محمد نفسه. فهو إذن ينصح المسلمين المتشككين أن يطلبوا إيضاحات من عند اليهود ومن عند المسيحيين. كيف يستطيع محمد أن يُوجّههم إلى شاهدي زور، إذا كان، كما يزعمون هم، نبيّا بحقّ؟ إذن في زمن محمد كتب اليهود والمسيحيين لم تكن محرفة، ومحال القول أنها حُوّرت فيما بعد. يقال فعلا في فصل الحجر، والله هو الذي يتكلم (إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون) ...

هم يسمّون "ذكرا" الإنجيل وشريعة موسى، وبالتالي فإن الله قد حفظ دائما شهادة كُتبه عند مؤمنيه قبل محمد وحفِظَها بعد محمد. هكذا في فصل (سورة) المائدة، حينما سأله الحِبر أبيّ عن حكم ما، أجابه: "وإن حكمتَ فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين. وكيف يحكّمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله". علاوة على ذلك فإنه من المستحيل أن يكون ذلك التحوير والتزوير للكتب شاملا وعاما لأن، في هذه الحال، سيَعلمه الناس كلهم، وما كان بإمكانه أن يختفي تماما، وستبقى بعض الكتب مكتَمَلة دون أي تخريب في الوقت الذي نعلم فيه أن الشريعة الموسوية والإنجيل مكتوبان بنفس الصيغة في كلّ لغة وفي كلّ مكان. بالإضافة إلى ذلك فإن الأناجيل الأربعة لم تكتب لا في نفس الوقت، لا في نفس المكان، لا بنفس اللغة، لا من نفس الكُتّاب، وإنما مَتَّى كتب بالعبرية في يهوذا، يوحنّا باليونانية في آسيا، لوقا باليونانية في آكاسيا، ومرقس باللاتينية في إيطاليا. من هذه الكتب تم القيام بنسخة لاتينية من طرف جيروم ومن طرف كتّاب آخرين عاشوا قبل محمد وبَقيت منها نُسخ بكل اللغات. لذلك من المحال أن يتمّ تحويرها من طرف أحد المزوّرين دون أن يَعلم به الجميع[600]».

[...] وبعد، يُضيف ريكولدو، كيف كان بإمكان المسيحيين التوافق مع اليهود، وهم مُفترقون فيما بينهم بكره عتيق، لكي يحرّفوا الكتب المقدسة وخصوصا لكي يُضيفوا ما هم متنازعون فيه؟ فعلا اليهود لا يقولون إن المسيح هو الله ولا هو إنسان صدّيق. في هذه النقطة فإن المسيحيين هم أكثر اتفاقا مع المسلمين، الذين يقولون على الأقل إن المسيح كان رجلا قديسا. قبل مجيء محمد، المسيحيون، خصوصا مسيحيو الشرق، كانوا منقسمين إلى فرق عديدة، مثل النسطورية واليعقوبية. النّسطوريون على وجه الخصوص يتّفقون مع المسلمين، ومحمد ينصح بإجلالهم. لكن كيف يمكن أن يتفق اليعقوبيون مع النّسطوريّين لتحريف الانجيل، في الوقت الذي هم أعداء ويقتتلون فيما بينهم؟ [...] وبعد لماذا وجب على المسيحيين أن يفسخوا اسم محمد من الأناجيل رغم أنه يثني كثيرا على المسيح، على أمّه وعلى الإنجيل إلى حد أنه قال في القرآن إن إنجيل المسيح فيه هدى ونور، ولم يَفسخوا، على العكس من ذلك، اسم الشيطان أو بيلاطس الذي جلدَ المسيح، أو يهوذا الذي خانه؟ ثم لأي سبب أضاف المسيحيون في الإنجيل أن يسوع قد صُلب ومات، بينما يبدو للبشرية أنه أكثر مجدا له لو أنه لم يُصلَب، إذ أن الصَّلب غير ملائم لمكانته كإلَه حق، كما يقال في الإنجيل؟ وكيف يكون منطقيا أنهم أضافوا بمبادرتهم الشخصية قولان متضاربان، أعني أنه إله حق وأنه حقا مات؟ لكن، حتى إذا سلمنا أنهم قاموا بإضافة كل هذا في جميع الكتب، من الذي يستطيع أن يُقنع الناس جميعا بهذا الأمر وأن يُدخله في قلوبهم؟

[...] إذن، سواء من خلال سلطة القرآن أو لأسباب متينة وبيّنة، واضح أن الإنجيل لم يخضع لأي نوع من أنواع التزوير والتغيير. بما أن محمدا يُثني على الإنجيل أكثر من أي كتاب آخر، وبعد ذلك على العهد القديم، المسلمون مجبرون على تقبل سلطة الإنجيل والعهد القديم[601].

وأيضا القرآن في فصل "المائدة" يقول: "يا أهل الكتاب لستم في شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربّكم". أهل الكتاب يعني المسلمين، كما يفسّرونها، يقول إن لم يُطبقوا الشريعة والانجيل و "ما أنزل إليك من ربّك"، يعني القرآن الذي أنزل على المسلمين فقط كما يقولون، وبالتالي فهم مُجبَرون على تقبّل شريعة موسى والإنجيل والقرآن أيضا والتقيّد بها».

ومن هنا يطرح ريكولدو تحدّ مماثل لذاك الذي طرحه عبد المسيح الكندي: «إذا تمادى المسلمون، وأصرّوا على أن العهد القديم والإنجيل محرّفان، فليرونا النسخة الأصلية الكاملة والغير مُحرّفة، ونحن سنقبلها منهم. ولتَكُن نسخة متكاملة في كل اللغات كما نُريها لهم نحن[602]». وإذا لم يفعلوا، وهم بالفعل لم يفعلوا إلى يومنا هذا ومكثوا يتخبّطون في أكاذيبهم، فالنتيجة بديهية، كما يقول ريكولدو: «من الواضح إذن أن القرآن ليس شريعة الله، لأن العهد القديم والإنجيل، هما مصدرها الإلهي، ومحمد يعترف بهما (يشهد بهما)، لكنهما لا يشهدان به، لا بل يُناقضانه».

4. وَهْمُ الإعجاز

أما بخصوص عقيدة الاعجاز اللغوي للقرآن، وهي العملة الدائمة التي يستخرجها المسلمون لإثبات قدسية القرآن، فإن ريكولدو لم يكن ليجهل مثل هذه "الحجّة"، وهو الذي احتكّ بالمسلمين عن قرب واستوعب خطاباتهم، لكنه يردّ عليها ردّا ذكيّا مفحما. يقول: « يجب أن تعلَم أن القرآن ليس شريعة الله لأنه، لا يملك أسلوبا ولا مضمونا متوافقا مع شريعة الله. فهو ذو نمَط إيقاعيّ موزون، كلامه مداعب وأقواله خيالية. أن يكون ذا أسلوب إيقاعي، فهذا يبدو واضحا من خلال تمشّي الكتاب كله بالنسبة للذين يقرؤونه في لغته الأصلية. لكنني لا أستطيع أن أعطي أمثلة على ذلك لأن الإيقاع والقافية العربية سيضمحلان إنْ تُرجِما حرفيا إلى اللاتينية. المسلمون والعرب يَفخرون كثيرا بأن كتابهم مُعبَّر عنه بأسلوب إيقاعي، ويقولون إن هذا الايقاع يُظهر بجلاء أن الله هو الذي عمل هذا الكتاب وأوحى به إلى محمد كلمة كلمة. وبما أن محمدا كان رجلا أميّا، فما كان بمقدوره أن يُجِيدَ ذاك الأسلوب وذاك المضمون.

لكن العكس يبدو جليّا. فعلا، في كتابنا الإلهي نرى أنّ الله يتكلم مع موسى، يعقوب والأنبياء الآخرين دون أن يُعبّر عن نفسه بواسطة الإيقاع أو الوزن والقافية. ومع ذلك فإن محمدا يقول إن شريعة موسى والإنجيل تأتيان من الله وأن الله أعطى تلك الكتب إلى موسى وعيسى، مع أنها غير مكتوبة بالقافية ولا مَوزونة. لا أحد من الأنبياء الآخرين سمع كلام الله ثم قال إن الله يتكلم بأسلوب شعري، أسلوب حتى الحكماء والفلاسفة لا يُوقّرونه على الإطلاق. لذلك تم توجيه شتائم إلى محمد، كما جاء في فصل "الأنبياء" حينما قالوا له: "أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر"، وشتائم أخرى مماثلة، معتبرين أن قرآنه لا يمكن أن يكون، ليس فقط أسلوب الإله، بل أسلوب الأنبياء.

هل القرآن فيه بلاغة وإعجاز لغوي؟ هل يحتوي على حكمة وتعاليم أخلاقية راقية؟ جواب ريكولدو، كلاهوتي مسيحي، بالنفي: «هذا الكتاب مداعِب في عباراته أكثر ممّا يمكن تصوّره وافتراضه. أحيانا طِوال فصل كامل (سورة كاملة) لا يقول شيئا مفيدا، لكن فقط إن الله كبير، عَليّ، حكيم وجميل، له ما في السماوات وما في الأرض، وما بينهما، ويحكم بالقسط. في كل كلمة يكرر "الحمد لله"، وهذا دون أي سبب، لمائة مرة؛ وإثرها يقول "لا إله إلا الله، آمنوا بالله ورسوله"، مُسمّيا هكذا نفسه بنفسه رسول الله بامتياز. ويقولون إن كل هذه التصريحات خرجت مباشرة من فم الله، وإن محمدا ما كان ليَخْتَرِعَها بنفسه أبدا».

لكن السؤال الذي يطرحه ريكولدو يمسّ مشروعية أن يتكلم الإله بهذا الأسلوب، ويُخاطب نفسه بهذه الطريقة: «هل هي عادة الله أن يخاطب نفسه كمَا لو كان شخصا آخر [بضمير الغائب]، أو أن يقول للناس إن "الله كبير عليّ" وأشياء أخرى من هذا القبيل والتي سيكون تكرارها مُملّا؟ مهما كان الأمر، في ما يخص الأسلوب والعبارات، من الواضح لكل أولئك الذين يقرؤونه، أن تلك الشريعة (القرآن) هي خياليّة في تصريحاتها، وهي كذلك تقريبا في كُلّيتها، وسأعرض منها، بعض التفاصيل الجديرة بالذكر[603]».

التفاصيل التي ركّز عليها ريكولدو مازال المسلمون إلى اليوم يعانون منها ويجتهدون لكي يُعقلنوها، ولكن أتعابهم ذاهبة سدى لأنها أساطير غير قابلة لا للعقلة ولا للتأويل الرحيم. نبدأ بأسطورة سليمان والنمل. يقول ريكولدو: «جاء في فصل "النمل"، أن سليمان جمَع جيشا عرمرما من رجال وملائكة وحيوانات، وبينما هم سائرون وجدوا نهرا من النمل، وهنا قامَتْ نملةٌ وقالت: "يا أيّها النّمل ادخُلوا مَساكنكم لا يحطمنّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون"، ثم تبسّمت. وبعد سطور وجيزة يكتب أن سليمان " تفقّد الطّير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين. لأعذبنّه عذابا شديدا أو لأذبحنّه أو ليأتيني بسلطان مبين. فمكث غير بعيد فقال أحطتُ بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين. إني وجدتُ امرأة تملكهم وأوتيَتْ من كلّ شيء ولها عرش عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله"، وهكذا دواليك.

في فصل القمر يقال: "اقتربت الساعة وانشق القمر". وقد فسّر علماؤهم، هذه القولة بأن محمدا كان يوما ما مع صحابته فقالوا له "أرنا معجزة"، فأشار إلى القمر بإصبعين، يعني السبابة والأوسط، فانشقّ القمر لنِصْفين، واحدة منهما سقطت على جبل قبيس الذي يُطلّ على مكة، الأخرى على جبل يسمى الأحمر الذي يقع على الجانب الآخر من المدينة. وبعد أن انشقّ القمر، سقطت قطعة منه في قميص (كُمّ) محمد ثم أعاد لأمَ الأجزاء معا. في فصل "سبأ" قال إن دودة نبّهت الشياطين بموت سليمان؛ وتفسيرها أن سليمان، بينما كان متكأ على عصاه، أصيب بسُقْم شديد أدّى إلى موته على الفور، لكن بمعجزة إلهية لم يَهْو على الأرض. الشياطين الذين يخدمونه، طالما يرونه جالسا في مكانه، اعتقدوا أنه حيّا يرزق. لكن طلعت من الأرض دودة ونَخَرتْ العصا التي كان يتّكئ عليها، فسقط سليمان على الأرض حينها تفطّن الشياطين أنه مات ومنذ تلك اللحظة بدؤوا يؤذون البشرية بكل ما أُوتُوا من جهد».

ثم تحدّث ريكولدو عن أسطورة هاروت وماروت كما رواها المسلمون في مدوّناتهم. لكنهم، كما هو الشأن بالنسبة لكلام القرآن الذي جاء على شكل تلميحات أو جمل غير مرتبطة، اختلفوا في تفسير هذه الاشارة وذكروا في ذلك قصصاً كثيرة صنّفها الآن المفسرون الجدد (القرآنيون) في عداد الإسرائيليات. لكن الاعجازيّين المحدثين لا يستطيعون أن ينفكوا عن الاستشهاد بها وإيرادها دون جزع وكأنها آية عظمى من آيات الله. يستشهدون بسلطة مدوّنة كبرى لا يمكن الشك فيها وهي سلطة الأحاديث، ومن بينها الحديث الذي أخرجه أحمد في مسنده وابن

حبان في صحيحه عن ابن عمر أنه سمع النبي يقول: "إن آدم عليه السلام لما أهبطه الله إلى الأرض قالت الملائكة أي رب: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ قال: إني أعلم ما لا تعلمون" قالوا: ربنا نحن أطوع لك من بني آدم، قال الله تعالى للملائكة: هلمّوا ملكين من الملائكة حتى نهبطهما إلى الأرض، فننظر كيف يعملون. قالوا: ربنا هاروت وماروت، فأهبطا إلى الأرض، ومثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر، فجاءتهما فسألاها نفسها. فقالت: لا والله حتى تتكلما بهذه الكلمة من الإشراك، فقالا: والله لا نشرك بالله شيئاً أبداً، فذهبت عنهما، ثم رجعت بصبي تحمله، فسألاها نفسها، فقالت: لا والله حتى تقتلا هذا الصبي، فقالا: لا والله لا نقتله أبداً، فذهبت، ثم رجعت بقدح خمر تحمله، فسألاها نفسها، فقالت: لا والله حتى تشربا هذا الخمر، فشربا فسكرا، فوقعا عليها، وقتلا الصبي، ولما أفاقا. قالت المرأة: والله ما تركتما شيئاً أبيتماه إلا قد فعلتماه حين سكرتما، فخُيِّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا".

تعليق ريكولدو، بعد أن استشهد بهذه الرواية الأسطورية: «هذه، وأشياء أخرى مماثلة متضمّنة في هذا الكتاب، ولذلك فإن أي حكيم يمكن أن يدرك هذه الاخْتِلاَقات وأن يَفهم أنه لا يمكن أبدا أن يكون القرآن شريعة منزلة من الله. فعلا ليس من عادة الله أن يتكلم للبشرية بهذه الخرافات[604]».

القرآن لا يمكن أن يكون شريعة إلهية لسبب آخر، وهو أنه مشوّش ومختل، بينما كل ما يصدر من الله هو مُتْقَن ومُنظّم، كما يقول بولس (رومية 13: 1). شريعة موسى تنطلق من الخليقة وتُواصل بانتظام زمني وبترتيب حدثي محكم، أما الانجيل فهو يسير أيضا بترتيب زمني، والاحداث مروية فيه بحسب المادة: يبدأ بتجسّد المسيح وولادته، يواصل بالحديث عن حياته وتعاليمه ومعجزاته، ثم موته، قيامته وصعوده.

أما القرآن، على العكس من ذلك، يقول ريكولدو، فلا يوجد فيه أي نظام؛ لا يحتوي على أيّ ترتيب زمني ـ فهو لا يحدد الحقبة والسنة ـ، ولا تسلسل بحسب التتابع التاريخي. الفصل الأول يُسمَّى الفاتحة، يبدأ بصلاة ودعاء لله، ولكن إثرها مباشرة في الفصل الثاني (البقرة) يواصل الحديث عن البقرة الصفراء ـ المستحمرة (Vacca rufa) التي ضحّى بها موسى والمذكورة في (اللاويين 16: 2؛ والعدد 19: 1 ـ 10). الفصل الثالث، آل عمران ـ وعمران هو أب موسى ـ يُصرّح فيه أن مريم العذراء هي أخت هارون، بعده يأتي الفصل الرابع، النساء، وهكذا دواليك في الفصول الأخرى، دون تنظيم، إلى درجة أن "ليس هناك إنسان في العالم (non est homo in mundo)" يستطيع أن يَعقل تتابع الأحداث ويفهم ترتيب الفصول.

علاوة على الاختلال في التّرتيب الزمني، فإن القرآن ينقصه أيضا التنظيم في المادة: لا يطوّر على الاطلاق موضوعا مُعيّنا ولكنه يَنتقل فجأة من موضوع إلى آخر، مختلف تماما عن الأول، مثلما يحدث للمجذوب المُتحمّس (sicut arrepticius). يَفتقد لنظام برهاني أو استدلالي،

وكل تعاليمه هي ثمرة خيالات؛ يضع قضية صادقة بذاتها، ومنها يستنتج أخرى لا علاقة لها بالأولى. يقول باستمرار إنّ الله عَلِيٌّ قدير وإن محمدا رسوله، لكن ما العلاقة المنطقية بين محمد نبي حق وبين الله هو الله؟ كذلك في فصل المائدة يقول: "جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام .. ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم". لكن من هو الشخص الذي بهذا القدر من الغباء لكي يشكّ في حقيقة أن الله يَعلم كل شيء؟ وهب أنّ شخصا ما، يشك في ذلك، كيف يمكن القول إن الكعبة والشهر الحرام يقودان إلى استنتاج أن الله يعرف الكل؟

أحيانا يتكلّم مثل الحالم (loqui sicut sompniator)، ففي آخر الكتاب يبدو أنه قد انفرَطت منه الكلمات. فعلا في فصل الكافرون يقول حرفيا: "يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين". لكن كل هرطقي يمكنه أن يتفوّه بأشياء من هذا القبيل لكي يستبعد أي موضوع للبحث عن الحقيقة. لا أذكر أني عثرت اطلاقا في كامل الكتاب (in toto libro) عن مادة واحدة في المكان الصحيح وفي الترتيب المناسب (recta positione et convenienti ordine).

5. كتاب لا أخلاقي

لقد حاول ريكولدو أن يبرهن، بالاعتماد على تراثه المسيحي، أن القرآن هو كتاب يخالف تعاليم الإنجيل، فضلا عن أنه بذيء وأحكامه لا أخلاقية. أن يكون كذلك، يقول ريكولدو، فهذا يبدو واضحا تماما من خلال النص ذاته، حيث جاء في الأحقاف وسورة الجنّ، أن الشياطين سمعوا القرآن فَأعجبهم وآمنوا به. لكن الشياطين، يعترض ريكولدو، هم لا أخلاقيون وفاسقون، ولا شيء يعجبهم إلاّ إذا كان شرّا.

القرآن هو سبب كل أنواع الشرور في العالم: قتل، سطو، كفر وأشياء مماثلة. فهو يفتري على الله، ويُلفّق كثيرا من الأكاذيب والموبقات، يُلقيها كلها على كاهل الله (omnes redundant in Deum).

في سورة الأنفال يقول: "الأنفال لله والرسول ... واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل". لكن، يعلق ريكولدو، «هل أن الله هو بهذه الدرجة من الشر لكي يُضفي شرعية على السرقة والاستحواذ على الخمس؟ أو هل وصل إلى هذا المستوى من العوز كي لا يتوفّر على ما يُطعم به فقراءه، أي الأرامل والأيتام والسائحين الذين يتحدث عنهم، إلاّ بالسماح باللصوصية، كي يكسب شيئا ما؟ محمد جعَل الله مشاركا له في الشر (consortem sibi in malo)، هو الذي لم يقدر على أن يجعله شريكا له في الخير».

وأخطر من ذلك أن قرآنهم شرّع لهم نَكْث العهود في سورة المائدة (الآية 89)، ومن هذه الرخصة تَنبَع كل الرذائل والشرور، فهُمْ يُبِيحون لأنفسهم كل شيء: «لا يتوانون عن السرقة، عن الغش، عن نكث العهد، لا يتقيّدون بالكلمة المعطاة، بينما المسيحيون يؤكدون أنه ينبغي التزام الصدق حتى مع العدو والكافر». وبالجملة، في مُوازَنة بين الدينين، فإننا مع الإسلام، يقول ريكولدو، نجد أنفسنا إزاء «شريعة شرّيرة منها تنبع كل الشرور (lex mala ex qua secuntur omnia mala)، وهي شرّيرة لأنها تَسْكُب على الله أكاذيب كبيرة لا تحصى ... شريرة لأنها أعجبت الشيطان، الذي هو شرير بطبعه ويدفع إلى الشر. وبالتالي لا تأتي من الله الذي هو الخير الأسمى، منبع كل خير».

القرآن بالنسبة لريكولدو «لا يتفق في كلامه مع أي من الكتب الأخرى»، ونحن نتفهّم موقفه هذا بسبب مرجعيّته الدينيّة الخاصة، واعتباره عقيدته المسيحية معيار الدين الحق. لكنه موضوعيا لم يكتف في براهينه بما جاء في كتابه المقدس، بل إنه استخدم تعاليم قدماء الفلاسفة لكي يدعّم إضافيا أطروحته. قال إن القرآن «لا يمكن أن يكون من الله لأن، علاوة على الخلل في الأسلوب والمضمون، فهو لا يتفق لا مع شريعة الله ولا مع الحكماء الذين تحدثوا عن الفضائل وعن غاية الإنسان القصوى. الفلاسفة وضعوا سعادة البشر في الجزء العقلاني الذي يُمثّل، في الإنسان، القوة الأسمى التي يجب أن تتّجه إلى المعقول الأعلى، وأن الفضيلة يجب أن تكون مكافأة للفضيلة، وأنها تصبو نحو أهداف وعرة وأشياء أخرى مشابهة والتي، رغم أنها حقيقية، لا يقدرون على فهمها باكتمال[605]. المسيح يُعبّر عن نفس التعاليم في إنجيله حينما يقول: "ادخلوا من الباب الضيق! فإن الباب المُؤدّي إلى الهلاك واسع وطريقه رحب؛ وكثيرون هم الذين يدخلون منه. ما أضيق الباب وأعسر الطريق المؤدي إلى الحياة! وقليلون هم الذين يهتدون إليه (متّى 7، 13 - 14)". وفي هذا فإن يسوع يتفق مع أرسطو الذي قال إنه من الصّعب الفعل بحسب الفضيلة كما إصابة وسط الدائرة، القليل هم قادرون على إصابته (1106 ب، 30 - 35).

المسيح وضع أيضا سعادة الإنسان في تأمل الإله قائلا: "الحياة الأبدية، هي أن يَعرفوك أنت الإله الحق وحدك (يوحنا 17، 3)". وقد وردت هذه الأشياء في العهد القديم، حيث يقول الرب «لقد وُجُّهت الوعود لإبراهيم ونسله (غلاطية 3، 16)". وعلى وجه الخصوص أعطاه سَندَه "أنا ترس لك (التكوين 5، 1)"، علاوة على وعْده بالأرض الموعودة وبتكريم ذريته. وموسى أيضا الذي منحه الله خيرات كثيرة حتى أنه كان يرى الله على شكل مخلوق، غير معتبر ذلك كافيا، طلب بإلحاح شديد أن يرى وجه الله ومجده (الخروج 33، 18)[606]».

لكن الأمر مختلف عند نبيّ الإسلام، فهو «لم يعتن أبدا بالفضائل، بل بالحروب والنّهب، مختارا هكذا، كطريق مُريحة له ولأتباعه، الطريق الأوسع، أي طريق الموت. وبالتالي فإن بالنسبة للخلاص، لا يوجد شيء عنده، سوى القاعدة التي يكررها المسلم "لا إله إلا الله محمد رسول الله". وحتى بخصوص الغاية القصوى لا يتفق مع أحد ما عدا مع بعض القدماء [الأبيقوريّون] الذين انتَهجوا نهج حياة خليعة ولم يقوموا بأي تمييز بين العقل والحواس، مُماهين السعادة بالأشياء الحسّية، يعني بالأكل والإسراف، والجنان الفارهة الغنيّة بالماء والملابس الفاخرة، أشياء سنتوقف عندها لاحقا. ولا يمكن القول إنه يتحدث عنها مثلما تحدَّث الإنجيل عن مأدبة الأكل وأشياء مشابهة موجودة في الحياة الأبدية (متى 8، 11؛ مرقس 12، 25): مَعلوم أن هذه الأشياء قيلت في الإنجيل على سبيل الاستعارة، لأن الأمر يتعلّق بالسعادة الحقيقية. أما القرآن فمن البيّن أنه لم يأت بشيء يخص السعادة الحقة، كما يجب أن تكون عليه، بل إنه صوّر السعادة حرفيّا كما يبحث عنها الإنسان الشهواني الخليع».

هل تحتوي شريعة القرآن على شيء صادق؟ هل تنبّأ رسول الإسلام بأحداث مستقبلية تحققت فعلا؟ ريكولدو يقول إن القرآن وشريعة محمد فيهما أمر واحد صادق: «رغم أنه لم يعرف ولم يحثّ الإنسانية على البحث عن السعادة الحقيقية، بإرادة من روح القدس، فإنه كتب أشياء حقيقية وجديرة بالذكر حول الغاية القصوى للمسلمين. لقد قال محمد نفسه: "ستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة، واحدة ناجية، والباقي في النار". هذه القولة لها بالنسبة إليهم قيمة كبرى لدرجة أنه لا عالم ولا جاهل منهم يشك في صحتها. هناك تصريح آخر ورد في القرآن، في سورة مريم، حيث يقول إن كل المسلمين سيذهبون إلى جهنّم. أنا أعتقد أن هذا التصريح، حتى وإن كان صادرا من فمٍ كاذبة، فهو عين الحقيقة. وفي هذا فإن النبي الكاذب يتفق مع الحقيقة الأولى، التي تقول "واسع الباب ورحب الطريق الذي يؤدي الى الهلاك وكثيرون هم الذين يدخلون منه! (متّى، 7، 13)"».

إذن، ليس المراقب الخارجي هو الذي يشهد بفساد الإسلام بل إن القرآن ونبيّ الإسلام يشهدان بذلك: «يبدو جليا ممّا قيل أن شريعة المسلمين واسعة وكثير هم المسلمون الذين سيمُرّون من خلالها إلى الجحيم. وهذا لا ينبع من فم الحقيقة فحسب، بل أيضا من فم النبيّ نفسه». علاوة على ذلك فإن القرآن، «لا يتفق مع شريعة الله في الأوامر والنّواهي، ذلك أن شريعة الله تُحرّم القتل، واللصوصية والاغتصاب؛ كلها أشياء يأمر بها القرآن أو يسمح بها[607]».

ولقد شدّت انتباه ريكولدو الآية 33 من سورة النور وقال إن القرآن لا يتّفق مع فكرة العفة والقداسة التي وردت في التوراة والإنجيل، حيث أن في سورة النور يحرّم فقط اجبار النساء على ممارسة الرذيلة (البغاء بلغة القرآن)، لكن يسمح بمباشرتهنّ إن وَافَقْن. ونفس الشيء جاء بوضوح في فَصل "المؤمنون" حيث يسمح بمباشرة سواء الزوجة أو النسوة المسبيات في الحرب. النتيجة التي يستخلصها ريكولدو من هذه الآيات القرآنية هي التالية: «من الواضح إذن أن شريعة القرآن ليست شريعة الله ولا تأتي من الله، إلاّ أنه سمح بها كما سمح بأشياء أخرى شرّيرة. فهي منحرفة فعلا، سواء عن الشريعة الحقة أو عن غرض الله، الذي يرغب في خلاص الكلّ[608]».

6. كتاب متناقض

وقد عقدَ ريكولدو فصلا بعنوان تناقضات القرآن، حاول أن يُثبت فيه، ببراهين مستمدة من القرآن نفسه، أن شريعة القرآن ليست منافية للشريعة الإلهية فحسب، بل تناقض نفسها بنفسها. قال: إن قناعة محمد عبّر عنها في سورة النساء "أَفَلَا يَتَدَبَّرون القُرآنَ ولَو كان من عند غير اللَّه لَوَجَدُوا فيه اختلَافًا كثِيرا". لكن من الواضح أن فيه كثيرا من التناقضات ويحتوي على أقوال تنفي بعضها البعض. فهو يُعلِن، في العديد من المواضع، أن الله لا يَهدي المُذنبين[609]، ومع ذلك فهو يُحرّض الناس على الدّعاء من أجل هداية المذنبين واخراجهم من الظلمات إلى النور، ومن الزّيغ إلى الطريق السويّ[610]. عن نفسه قال إنه: «كان "يتيما وضالاّ[611]": مشهور فعلا أنه كان وثنيا[612]».

يزعم أنه نبيّ عالمي[613]، ولكنه يقول إن القرآن نزل عليه بالعربية وأنه يجهل لغات أخرى غير العربية[614]. في فصل البقرة يقول إن اليهود والمسيحيين والصابئين سينالون الخلاص[615]، لكن في فصل آل عمران يقول لا أحد ينال الخلاص إلاّ إذا آمن بشريعة المسلمين[616]. يَنصح أتباعه بأن لا يُجادلوا أهل الملل الأخرى باستعمال كلمات خشنة، وإنما كلمات لطيفة[617]: ليس للإنسان هداية الناس إلى الطريق السويّ، الله فقط هو الفاعل للهداية، وكل واحد ليس مسؤولا إلاّ على نفسه دون الآخرين. إلاّ أنه في مكان آخر، وفي العديد من المواضع، يأمر بقتل ونهب كل من لا يؤمن به حتى يُسلِم أو يَدفع ضريبة[618].

في فصل الشورى يقول: "والذين اتّخذوا من دونه أولياء، الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل". هناك إذن تناقض صارخ: من جهة يأمر بقرار إلهي، في العديد من المرات، بقتل كل من لا يؤمن، ومن جهة أخرى يقول إن لا أحد مسموح له بمعاقبة خطيئة بهذه الخطورة إلاّ الله. في فصل "ص"، في الخاتمة، يصرّح: "وما أنا من المتكلّفين"، ولكن كيف يكون منهم، من يأمر بقتل ونهب من لا يؤمنون؟ ما هو الإكراه الأكثر إقناعا من القتل؟ في فصل البقرة يسمح بممارسة اللواط سواء مع الذكور أو مع الإناث، مترجم الكتاب للإيطالية رأى أن ريكولدو التَبَسَتْ عليه جملة "ولا تنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ"، وهي آية ملتبسة في الأصل، لأن كاتب القرآن كان عليه أن يحدّد الأسماء ويفصّل الضمائر، بدل أن يلقي بهذه النصيحة في المطلق. وعلى النساء، يواصل ريكولدو، فهو يقول "نساؤكم حرث لكم، فاتوا حرثكم أنى شئتم"، في الوقت

الذي يقول في فصل آخر "ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين[619]".

يقول إن نوحا وابراهيم واسحاق ويعقوب وأبناءهم كانوا مسلمين[620]، ولكنه يصرّح بأنه أوحِيَ إليه أنه هو أول المسلمين[621]. ويتساءل ريكولدو: «كيف يمكنهم أن يكونوا مسلمين إذا كان محمد هو "أوّل المسلمين"؟[622]». فعلا، حسب رأيه لم يكن هناك أناس اتّبعوا شريعة الإسلام إلاّ بعد أن أعطِيَت هذه الشريعة للمسلمين، وشريعة المسلمين هي القرآن الذي جاء بعد شريعة موسى وبعد الإنجيل، كما كُتب في القرآن. لا بل إنها لم تمرّ سبع مائة عام بعد من زمن محمد، بينما نوح وابراهيم واسحاق ويعقوب عاشوا سواء قبل الإنجيل أو قبل شرائع موسى.

القرآن يقول إن محمدا بُعث إلى العرب لأنه لم يكن لديهم رسول[623]، ويقول أن القرآن نَزلَ باللغة العربية فقط وأنه لا يعرف لغة أخرى سوى العربية[624]. ولذلك، بما أنه انضمّ إلى محمد يعقوبي اسمه بحيرا، وسلمان وعبد الله بن سلول، وحينما قال بعض الناس إن هؤلاء يُعلّمونه، فما كان منه إلاّ أن سقط على الأرض مغشيا عليه وتصلّبت يداه ورجلاه فألقى عليه أصحابه بردائهم. في الأخير، لما استعاد وعيه، قال: "إن الله أمرني أن أعاتبكم على الكلام الذي قُلتُموه، أي أن أولئك يُعلّمونني". وقرأ عليهم آية موجودة في آخر فصل النحل: "ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلّمه بشرٌ. لسان الذي يلحدون إليه أعجميّ وهذا لسان عربيّ مبين". ولذلك قال لهم: "كيف يمكنهم أن يعلّموني وأحدهم فارسي والآخر يهودي؟". أجابوه: "ممكن أنهم يخاطبوك معبّرين بلغتهم وأنت تحوّر كلامهم". فلم يجد لذلك جوابا. ويعترض ريكولدو: إذا كان لا يمكن أن يُعَلَّم من طرف يهودي وفارسي، اللذان كان قريبان منه كلغات، كيف يمكنه أن يُعلِّم أناس يتكلّمون لغات قاصية، بعيدة جدا؟ ومع ذلك فهو يقول إنه أُرسل إلى الناس أجمعين؛ في فصل الشعراء يقول: "وما أرسلناك إلاّ كافة للناس". ولكن كيف له أن يصل إلى كل الناس الذين يتكلموا سبعين لغة مختلفة، هو الذي لا يقدر على عرض رسالته إلاّ بلغة عربية؟ «واضح إذن التناقض والتمويه من أنه بُعث إلى العرب فقط، ثم إلى الناس كافة. لا يمكن لشريعة إلهية أن يوجد فيها هذا الكم من التناقضات[625]».

7. مأزق غياب المعجزات

القرآن لا يمكن أن يكون شريعة الله، ومحمد ليس برسوله، والسبب في ذلك، حسب ريكولدو (السبب السابع من سلسلة الأسباب)، هو أنه لم يأت بأيّة معجزة كما كان عليه الحال بالنسبة للأنبياء السابقين. فالله حينما بعث بموسى لفرعون أظهر على يديه معجزات كبرى، وكذلك إيليا، واليسع وأنبياء آخرون، وخصوصا أولئك الذين أتوا للعالم بأشياء جديدة، عملوا معجزات عظيمة وباهرة. وعلى رأسهم يسوع الذي جاء بمعجزات وآيات كثيرة، كما اعترف بذلك محمد نفسه في قرآنه. ولكن إذا أصرّ المسلمون على أن محمدا قام بالعديد من المعجزات، مثل شق القمر، أو تدفّق الماء من أصابعه، فيجب محاجّتهم بنص قرآنهم الذي يذهب ضد هذه الخرافات التافهة[626]. فهو يزعم بأن الكفار لفّقوا العديد من الأكاذيب على الأنبياء السابقين، ولكي لا يحدث له شيء من هذا القبيل، يجب أن يُصَدَّق فقط على أساس سلطة القرآن. وبما أنه لم يستظهر بأية معجزة، وكان راغبا في التأكيد على صدق نبوّته، فقد عمد إلى تمثيل الله يتكلّم قائلا: "الله قال لي: هذا هو السبب الذي من أجله لم أسمح لك بأن تقوم بالمعجزات، لأنني أخشى أن يحدث لك ما حدث للأنبياء الآخرين[627]". إذن، بشهادته الشخصية، يبرهن على أنه لم يُنجز أيّ معجزة.

محمد نفسه في قرآنه غالبا ما يُكرر أنه عندما يسأله قومه: "أرِنَا آية، كما فعل يسوع وموسى والانبياء الاخرين"، يجيبهم أن موسى والأنبياء وخصوصا يسوع بعثهم الله بالمعجزات الكبرى، لكن الناس لم يصدّقوهم واتهموهم بأنهم سَحرة أشرار[628]؛ لذلك فإن الله لم يُرخص له بالقيام بمعجزات نظرا إلى أن قومه سوف لن يصدقوه؛ وقد عَوّض المعجزات بقوّة السلاح.

إن امتناع كاتب القرآن عن الاتيان بمعجزات، ووهَن التبريرات التي قدّمها، اذهلت المسيحيّين لفرط تعلّقهم بهذا الفصل، وشدّة تشريط أذهانهم بما روته الأناجيل (والقرآن) عن الكمّ الهائل من الأعمال الباهرة ليسوع، وهذه هي النقطة التي على أساسها شنّوا حملة على نبيّ الإسلام وعلى قرآنه. وقبل ريكولدو، كتب توماس الأكويني، في "الخلاصة ضد الفرق الضالة"، خاطرة ربما استقاها منه ريكولدو، حيث يقول إنه بالمقارنة مع طريقة المسيحية في الاقناع: «أولئك الذي ابتدعوا مِلَلا خاطئة ساروا حسب طرق مضادة، كما هو واضح في حالة محمد، الذي غَرّر بالأمم عن طريق وُعود ملذات جسدية، هم كانوا ميّالين إليها، ومُتَهافتين على لذة الجنس. فضلا عن أنه

أعطى تعاليم مطابقة لهذه الوعود، مُطْلِقًا العنان لغرائز اللذة، والتي من السهل جعل رجال شهوانيين بطبعهم ينصاعون إليها. ولم يُعط أي تعاليم خارج تلك التي يمكن لأي إنسان متوسط التعليم أن يقدمها ويفهمها بقريحته الطبيعية؛ لا بل إن الحقائق نفسها التي جاء بها كانت مختلطة بالخرافات وبتعاليم جدّ فاسدة. ولا حتى أتى بمعجزات فوطبيعية، التي تشكل الشهادة الوحيدة المناسبة للوحي الإلهي، بما هي ظاهرة منظورة، لا يمكن أن تُسند إلاّ إلى الله، وتبرهن على أن من قام بها موحى له من طرف الله. ولكنه قال إنه أُرسِل بقوّة السلاح: ميزة لا تنقص اللصوص والطغاة. علاوة على ذلك لم يؤمن به في البداية رجال متمرّسون في الأشياء اللاهوتية والإنسانية، إنما رجال متوحّشون يسكنون الصحراء، جاهلون كلّيا بالأشياء الإلهية؛ ومستخدما إثر ذلك كثرة عددهم، أرغم الآخرين على اعتناق شريعته بقوّة السلاح. لم يَحز اطلاقا على شهادة الأنبياء السابقين؛ لا بل أفسد كل تعاليم العهدين القديم والجديد بحكايات خرافية، كما يبدو واضحا من قراءة قرآنه. هذا هو السبب الذي جعله، بشيء من المُكر، يَمنع أتباعه من قراءة كتب العهد القديم والجديد، لكي لا يُتّهم بالتزوير. لذلك فإن أولئك الذين يعتقدون فيه يرتكبون عملا طائشا[629]».

ريكولدو من جهته يرى أن التعلّة التي جاء بها رسول الإسلام لعدم اتيانه بمعجزات هي تعلّة طائشة: «كيف كان باستطاعتهم أن يكذّبوه، لو أنه قام بمعجزات، أولئك الذين صدّقوه دون أن يأتيهم بأي نوع من المعجزات؟ فعلا، لقد أمر بأعمال تستهوي الرجال دون حاجة إلى أية آية أو معجزة، أعني القتل والسطو، والاغتصاب وقانون السّن بالسنّ والعين بالعين. الرجال ميّالون إلى هذه الشناعات إلى حد أنه بشقّ الأنفس يَنْزَجرون بقوانين وعقوبات صارمة[630]».

ولكن حتى قولة محمد بأنه جاء بالسلاح، يعتبرها ريكولود، خدعة فاقعة، لأنه لم يكن دائما مُنتصرا، كما كان موسى ويشوع وإيليا، الذين آزرهم دائما ملاك الرب وجعلهم منتصرين «محمد أحيانا ينتصر وأحيانا أخرى، مثل كل الطغاة، ينهزم: فعلا في احدى الحروب كُسّرت أسنانه وشجّ رأسه[631]».

صاحب القرآن، يقول ريكولدو، لكي يبرهن على دينه لم يظهر معجزات، وإنما أخرج سيفه من غمده. وقد تحداه قومه بأن يأتي لهم ببرهان يثبت صحة دينه، كما فعل الأنبياء السابقون، وهذا مذكور بوضوح في سورة الأنبياء حيث نقرأ أن معارضيه قالوا له: (فليأتنا بآية كما أرسل الأولون)، فما كان منه إلاّ أن أجابهم: (ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون).

الأمر مختلف بالنسبة للمسيحية، لأنها ترسّخت بالمعجزات الظاهرة التي قام بها يسوع ورُسله. وإذا قال المسلمون بأنهم لا يصدّقون هذه المعجزات، أو أنكروا حدوثها، يقول ريكولدو، فإننا نأتيهم بأعظم معجزة تحققت على وجه الأرض: لقد استطاع المسيحيون أن يُخرجوا الروم والأمم الأخرى من عبادة الأوثان، ويَجعلوهم يتقبّلون العقيدة المسيحية؛ ولم يؤمنوا فقط بيسوع

المصلوب، كإله حقيقي، وإنما أيضا احتقروا كل الآلهة الأخرى، ولم يتذمّروا من شيء من الإيمان المسيحي الذي يطلب من الناس تضحيات كبرى، على عكس الوثنية التي لا تفرض أشياء عويصة.

المسيحية تَقبّلوها رغم أنها تفرض عليهم زهدا في الدنيا واحتقارا للذّات، وتأمرهم بالصلاة من أجل المضطَهِدين، الاحسان للمُسيء، وتحرم عليهم تمنّي أشياء الآخرين، وتحضّ على التبرّع بالمتاع. العالم تقبّل كل هذه الإلزامات وهجَرَ الدين السابق سواء كان ذلك عن طريق المعجزات أو بدونها. لكن المعجزة الأكبر قد تحقّقت دون أي معجزة، فقط بفضل رجال بسطاء ومعدومي القوة؛ والمسيحيون عملوا كل هذا دون أن يَقتلوا أحدا، بل تحمّلوا بصَبر الموت الذي حلّ بهم.

النتيجة، حسب ريكولدو، هي أنه من الواضح، من كل الجوانب، أن العقيدة المسيحية مَبنيّة على معجزات تثير العجب، في الوقت الذي لا ترتكز فيه شريعة محمد على أي معجزة. فهي كذلك لأنها لا تحتاج لأي معجزة، خصوصا وأنها تتوجّه إلى رجال غريزيين وشهوانيين. الآخرون، على العكس من ذلك، يعني الرجال الأذكياء، المُتعلّمون والفضلاء، لا يُعيرونها أهمية تذكر[632].

8. شريعة لا عقلانية

لقد أتى محمد بشريعة وأحكام تتضارب مع العقل، وغير قابلة اطلاقا للتصديق. أوّل مَعَالِم اللاعقلانية تَتَبَدّى في طبيعة المُرسَل إليه، يعني في شخصيّة النبي محمد نفسه. وهنا نحصل على نُسخة مقابلة لما قاله المؤرخ التونسي محمد الطالبي عن يسوع الأناجيل. يقول ريكولدو: «مِن اللامعقول أن شريعة مقدسة، كما يدّعون، جاءت في كتاب هو كلام الله الحق (sit recte sermo Dei) أعطيَت لإنسان شرّير (sceleratum hominem)، لصّ (raptorem)، زانٍ (adulterum)، ناكح محارم (incestuosum)، وقاتل (homicidam) ومُقترف لكل الخطايا الأخرى التي هي واضحة للذين يعرفون سيرة حياته[633]».

ففي الوقت الذي باح فيه أنبياء العهد القديم بإثمهم حينما اقترفوا الخطايا، وتابوا إلى الله، فإن محمدا لم يقرّ بذنبه ولم يستغفر أو يندم على ما اقْتَرَفه، بل على العكس «أضاف إلى الخطيئة الكفرَ، مُبرّرا فعله بشريعة جائرة[634]». وتأكيدا لذلك، يذكر ريكولدو حادثة ماريا القبطية ونساء النبي، وكيف احتجّت حفصة بنت عمر على مُواقعتها في بيتها. ثم يستشهد بالآية من سورة التحريم التي تحدّثت عن هذه الواقعة العائليّة المحرجة: (يا أيها النبيّ لمَ تُحرّم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك.. قد فرض الله لكم تحلّة أيمانكم.. وإذ أسرّ النبيّ إلى بعض أزواجه حديثا. فلمّا نبّأت به وأظهره الله عليه، عرّف بعضه وأعرض عن بعض فلمّا نبّأها به قالت من أنبأك بهذا قال نبّأني العليم الخبير ").

ويواصل ريكولدو، قائلا إنه بعد أن وعدها بعَدَم اقتراف الخطيئة في المستقبل، نقضَ وعده، مُدّعيا أن الله أحل له ذلك، والشاهدان هما جبرائيل وميكائيل، الشيء الذي حدا بإحدى زيجاته للقول: «ما أرى ربك إلاّ ويسارع في هواك (Deus festivavit in tuo desiderio)»؛ فَسَّرها ريكولدو على أنها ربما أرادت أن تقول: «الله الذي في السماء قَبِل بفعلتك الآثمة». وأضافت، حسب ريكولدو: «هل الله نفسه الذي أمرك بهذا الفعل بينما أنت لا تريد أبدا فعله؟ ربما أراد الله أن يرضيك بهذه الطريقة والتقرّب منك؟». فما كان منه إلاّ أن أكمل على نسائه قراءة سورة التحريم وقال، كما أن الله هو الذي يتكلّم: (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) كما لو أنه قال لهنّ: «توبا إلى الله لأنكما

اتّهمتماه بالزنا[635]». وبعدها أضاف: (عسى ربّه إن طلّقكنّ أن يبدله أزواجا خيرا منكنّ مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيّبات وأبكارا)، حينما سمِعن هذا، قُلن: تُبْنا إلى الله.

كذلك فعلَ مع زوجة زيد ابنه بالتبنّي، يقول ريكولدو، مصرّحا بالقولة الموجودة في فصل الأحزاب، حينما قال له الله (وتُخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه)، لقد أسند محمد هذا الفعل لله، وهكذا ضاعف الذنب، حيث أنه «عن طريق خطيئة عظمى غطّى على خطيئة صغرى (palliavit minus peccatum per majus): فعلا، مثلما يقول محمد نفسه: (ومن أظلمُ ممّن افترى على الله كذبا). إضافة إلى ذلك، سلّمنا أن خطأ بسيطا مسموح به لنبيّ ما، لكنه غير مسموح إن كان الخطأ ماجنا وقذرا (lubricus et inmundus)، نظرا إلى أن روح القدس، في لحظة الجماع، لا يلمس قلوب الأنبياء، كما يقول القديس جيروم. والفيلسوف أرسطو يقول هو أيضا إن في تلك اللحظة من المحال أن يكون الإنسان قادرا على التفكير[636]».

النتيجة هي أن بالنسبة لريكولدو «مِن المنافي للعقل بمكان أن نبيّا مؤسس شريعة، كما يقولون، نافعة جدا، هو رجل شهواني ونجس، ويفتخر حتى بأنه يملك من القوة والقدرة على الفعل الجنسي تساوي أربعين رجلا، على الرغم من أن الله حَرَمَه من الذرّية الذكور، فعلا، يقال إنه كانت لديه ابنة واحدة[637]».

إن هذه الشريعة تتعارض مع العقل ليس فقط من جهة مؤسِّسها، نظرا إلى أنه متفسّخ وحسّي، وإنما أيضا لأنه جاهل وغير متيقّن إلى حد أنه صرّح في القرآن بأنه لا يعلم ما هو مصيره ومصير أتباعه المسلمين، ويجهل هل هو وأصحابه في طريق الخلاص أو الهلاك[638].

أما من جهة المحتوى فإن القرآن يُبدي لا عقلانيته رهيبة، إضافة إلى قاذورات لا تليق بكتاب مقدّس: «في المقام الأول، يحتوي على كلمات غير لائقة ومُخجلة تتعلّق بالفعل الجنسي: في كثير من المقاطع يستخدم عبارات مشينة جدا مثل "أنيكُ، ونِكتَ [يقصد نكح، نكاح]"، وهو الأمر الذي لم يجرؤ عليه أي كتاب آخر، حتى أنه بالكاد استخدمه بعض الشعراء الذين تناولوا مواضيع مخجلة وشهوانية. ولا أذكر أني وجدتها عند أي شاعر قديم، ما عدا هوراس الذي كتَبَ بلا خجل: "لا أخاف وأنا أنيك"[639]».

لا عقلاني أيضا في ادّعائه بأن لا أحد في العالم قادر على أن يفهم قرآنه؛ وهذا الادعاء أذهل ريكولدو اقتناعا منه بأن أي كتاب مقدس يجب أن يكون واضحا ومفهوما لكل المؤمنين وإلاّ فلا فائدة منه. فعلا، كيف يأمر محمد بالتقيّد بقرآنه وتطبيق أحكامه إذا لم يفهمه أحد؟ يتساءل ريكولدو [640].

ليس هذا فقط، بل إن القرآن هو كتاب لا عقلاني من جهة التعاليم اللاهوتية التي يسردها من قبيل أن الله أمر الملائكة بأن يسجدوا لآدم وأن أولئك الذين لم يقبلوا حوّلهم إلى شياطين وأولئك الذين سجدوا له بقوا ملائكة. كيف يمكن لهذا الإله ـ يعترض ريكولدو ـ أن يأمر بالشرك وأن تُخصّص لكائنات أخرى العبادة التي يجب أن يَنفَرد بها هو وحده دون سواه؟

إنّ الشيء الأهم والضروري في هذه الشريعة، والذي يؤكد عليه المسلمون باستمرار، هو شهادة "لا إله إلاّ الله محمد رسول الله"، ويضيفون أيضا: "الله أكبر". لكن ما المغزى من هذه الرسالة؟ ليس هناك من إنسان عاقل يقول إن الله صغير. علاوة على ذلك فإن القضية "لا إله إلاّ الله" هي صادقة بذاتها ولا يمكن أن تُنقض سواء أكان الله واحدا أو متعددا. إن هذه الطوتولوجيا تنطبق على كل القضايا، كأن تقول مثلا: "لا ملاك إلاّ الملاك"؛ "لا إنسان إلاّ الإنسان"؛ "لا حمار إلاّ الحمار"؛ أما القول "محمد رسول الله" فهو محل شكّ كبير[641]. فعلا، ما العلاقة بين هذين القضيّتين: واحدة مَعلومة بذاتها والأخرى مجهولة بذاتها؟ ما القيمة والقوة التي تملكها هذه الأقوال لكي تُخلّص من يَنطق بها؟

يقول محمد في قرآنه إن الناس كانوا أمة واحدة، أي طائفة مُوحّدة، على دين واحد، وأن الله أرسل لهم أنبياء فاختلفوا[642]. لكن هذا الكلام لا يملك حتى مظهر الحقيقة، لأن الله، الذي هو واحد ويحبّ الوحدة وخلاص الناس، لا يمكن أن يُشتّتهم إلى طوائف متعددة ويُوقعهم في أخطاء ومهلكات، بل إن هذا هو العمل الحقود الذي يقوم به الشيطان والإنسان الشرّير[643].

محمد يأمر في قرآنه بقتل الكفار[644]، أو أولئك الذين هم ليسوا بمسلمين، ويقول إن هؤلاء لا يهديهم الله[645]. لكن من الخُلف بمكان أن يُقتل من لا يعتنق الدين أو يُرغم عليه بالقوة، بل إن هذه الحقيقة اعترف بها محمد نفسه، حيث جاء في موضع من القرآن: "لا إكراه في الدين"، وفي فصل يونس (99 ـ 100) قال: "ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين. وما كان لنفس أن تؤمن إلاّ بإذن الله"، وهكذا فإن إجبار الناس على الايمان حَكَمَ عليه باللاعقلانية والخلف محمد نفسه.

إن هذه الشريعة، يواصل ريكولدو، هي بلا عقل بالنسبة للقضايا التي تطرحها والأمور التي تخوض فيها. فالقرآن يحتوي على فصل مخصّص للنّملة، آخر للعنكبوت، وآخر أيضا للدّخان، ولكن، يتساءل ريكولدو، لماذا يخوض الله في الحديث عن النملة والدّخان؟ هل من المعقول أن تُتَناول مثل هذه المواضيع في كتاب موحى من السماء؟ يقول أيضا إن الله لا يَغفر للمسلم الذي يولي ظهره للعدوّ[646]. لكن أيّ ذنب يقترفه شخص يهرب في الحرب إن رأى نفسه في خطر؟ يبدو أن محمدا أراد أن يُخرج رجالا شجعانا وحربيّين[647].

هذه الشريعة أيضا هي لاعقلانية من حيث العبادات التي تفرضها: تأمر المسلمين بأن يتوضؤوا قبل الصلاة ويغسلوا أيديهم ووُجُوههم وأدبارهم وأعضائهم التناسلية، وأرجُلهم، وفي حالة ما إذا لم يَجدوا ماء يجوز لهم أن يغمسوا أيديهم في الرمل ويَفرُكوها، وهي ملطخة، على وُجُوههم. إن الوضوء الجسدي هو شيء معقول، ولكن أكثر عقلانية لو أنهم غسلوا قلوبهم كما يقول إرميا "اغسل من الشر قلبك". ما معنى أن يُلطّخ أحدهم وجهه بالتراب؟ كلّما كان الوضوء عقلانيا، كان تَغْبِير الوجه وتَقْذير الجسد عبثا وخروجا عن المعقول[648].

لكن هذه الشريعة تُبدي أقصى لاعقلانيتها في موضوع حسّاس جدا مثل موضوع الطلاق. ذلك أن المسلم يمكن له أن يطلّق زوجته ثم يرجعها مرّتين، لكن بعد الطلاق الثالث لا يمكن أن يعود إلى زوجته إلاّ إذا تزوجت رجلا آخر ويتمّ اعلانه أمام الجميع في الساحة العامة. لكن أحيانا يَحصل أن تُعجِبَ المرأة الزوج الثاني، ويُعلن أنه لا يريد الانفصال عنها، وبالتالي فإن الزوج الأول، يَهدر أمواله التي أنفقها ويَخْسر زوجته معا، وهكذا يُقضّي حياته تعيسا. أيّ شريعة هذه؟ شريعة لا تتناسب مع أناس ذوي عقل وإنما مع حيوانات بلا عقل. أكيد أنها لا يمكن أن تُنسَب إلى الله الذي رتَّب كل شيء بعقل![649].

وتتمظهر لاعقلانية الشريعة القرآنية أيضا في وُعودها الأخروية والسعادة التي تتصوّرها. في كامل القرآن يقال إن سعادة المؤمنين تتمثل في جنان يانعة، أزواج، إماء عديدة، فتيات جميلات فاتنات، ملابس من حرير، كؤوس من ذهب وفضة موضوعة على طاولات عليها أكلات شهيّة. هذه الأشياء تمّ سردها خصوصا في الفصل بعنوان "الرحمان". هنا تكمن النقطة الجوهرية للقرآن ولفرقة المسلمين عموما، ذلك أن السعادة يتم تمثّلها أساسا في تَلبية رغبات البطن والفرج. ولا يتعلّق الأمر باستعارات أو كنايات، كما هي الحال في الكتاب المقدس حيث تُذكر الأطعمة والمائدة بخصوص الحياة السعيدة. لكن، مِن السعادة الحقيقية، مثل رؤية الله وكمال النفس، لم يذكر محمد منها شيئا قط، لأنه ما كان يُريدها ولا كان يَعرفها؛ هو وَعَدَ فقط بما يرغب فيه[650].

وفي هذا الشأن فهو يُظهر جليا أنه يتبنّى مَواقف مناقضة للمسيح ولكل الأنبياء، ولكل الفلاسفة ولكل أولئك الذين يستخدمون عقولهم، والذين يُجمعون على أن السعادة القصوى تتمثل في معرفة الله، حسب ما يقوله يوحنا[651]: "وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك".

أرسطو يقول إن الحياة طبقا للعقل هي أفضل الحيوات[652]، أما الحياة المُنغمِسة في شهوات الأكل والجماع فهي سيّئة لأنها تمنع من مُمارسة التعقل. لكن بما أن المسلمين لا يعترفون بسلطة الكتب المقدسة ولا حتى بسلطة الفلاسفة، يجب الالتجاء إلى الحدّ الأدنى من العقل الذين، رغم أنهم

لاعقلانيون، لا يمكن أن ينكروه تماما. ولو تمسّكوا بالعقل، يقول ريكولدو، لعَلموا أن بعد الموت لن تكون لدينا حاجة للأكل والجماع لأن البعث هو بالروح، والمتعة ستكون روحية فقط[653].

هذا الكتاب هو أيضا لاعقلاني لأجل العديد من التعاليم اللاهوتية الثاوية فيه، مثل تصويره الله وهو يُقسِمُ بـ"البلد الأمين"، أو بـ"التّين أو بـ"الزيتون"، وهذا في رأي ريكولدو حطّ من قيمة الله. إذ أن الناس يُقسِمون بأشياء أكبر منهم، الله مثلا أو القديسين؛ أمّا الله الذي لا يوجد أحد أكبر منه يُقسِم به، فهو لا يُقسم إلاّ بنفسه، كما قال لإبراهيم في سفر التكوين[654]. أن يقسم الله بالتّين والزيتون فهو أمر جنوني ولا عقلاني[655].

مشرّع المسلمين يحرّم على أتباعه شرب الخمر لكي لا يسكروا وتطير عقولهم، كما يظهر من عدة مقاطع في القرآن، لكن بما أن الخمر في ذاته ليس شرا، كان الأجدر به أن يَكتفي بالتحذير من السكر فقط. لكن بِمَنعِه فهو يشك في أن لا أحد من المسلمين يمكنه أو يرغب في تناول الخمر باعتدال ورصانة، وبالتالي فإن هذا التّحريم يدفعنا للقول إما أن الخمر على وجه الخصوص هو شر، أو أن المسلمين عموما هم مفرطون[656].

9. أكاذيب القرآن العشر

لقد جاء في القرآن، في سورة يونس: "قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتّبع أمّن لا يهدي إلاّ أن يُهدى"، وبعدها: "وما كان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله"، لكن في رأي ريكولدو، ما هو باطل وكاذب يقال دون تدخّل الله، ذلك أنه، كما قال أوغسطينوس «لو عُثر في الإنجيل على خطأ واحد، فإن كل الإنجيل سيصبح مشبوها ويُحكَم عليه بالبطلان[657]». صحيح أن القرآن يحتوي العديد من الحقائق المستعارة من الإنجيل، وأخرى من شريعة موسى والأنبياء، لكن محمدا يُدمج فيها عمدا الكثير من الأشياء الخاطئة وبالتالي فإن شريعته يجب النظر إليها على أنها مشبوهة كليا وباطلة وهي عَمَلُ مَن هو "كذاب وأبو الكذب (يوحنا 8: 44)[658]".

كم عدد الأكاذيب التي نجدها في قرآن محمد؟ حسب ريكولدو هي عشر: 1) يقول أشياء كاذبة عن نفسه؛ 2) عن المسيحيين؛ 3) عن اليهود؛ 4) عن الرّسل؛ 5) عن الأنبياء؛ 6) عن الشياطين؛ 7) عن الملائكة؛ 8) عن مريم العذراء؛ 9) عن المسيح؛ 10) عن الله.

1) عن نفسه يقول إنه آخر وخاتم ونهاية الأنبياء كلهم (finis et sigillum et silentium omnium prophetarum)، ويأمر بأن يُقتل كل من يأتي بعده مُدّعيا النبوة. اعتراض ريكولدو: لماذا تُغِلّ يد الله هكذا وتَحظر عليه أن يمنح لواحد بعده روح النبوّة؟[659] ليس المسيحيون واليهود فقط، وإنما المسلمون أنفسهم يقولون إنه قد ظهر بينهم العديد من الرجال الذين أُلْهِموا روح النبوّة.

2) عن المسيحيين يقول إنهم يزعمون إن الله اتخذ صاحبة، لكن هذا ظاهر البطلان، يعترض ريكولدو، لأن المسيحيين يُعَلِّمون، مدى تاريخهم وفي العالم أجمع، أن الله هو واحد بإطلاق وبسيط. في فصل التوبة، يقول إن المسيحيين "اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله"، وهذا أيضا باطل. لقد استطاع محمد أن يقول هذا لأنه لا يعرف اللغة، ذلك أن المسيحيين الكلدان والشرقيين عموما يسمّون الأساقفة والرهبان "ربّا"، وتعني "معلّما" أو "سيّدا"، يستعملونها للتبجيل، بينما في العربية ـ يقول ريكولدو ـ "ربّ" هو اسم الله والذي يعني "سيدا" على الإطلاق،

وتُنسب فقط إلى الله، كما نقول نحن "الربّ معك". لهذا السبب إذن اعتقد محمد أن المسيحيين يسمون أحبارهم آلهة.

ويقول أيضا عن المسيحيين إنهم يؤلهون مريم، وفي فصل

المائدة، يُمثل المسيح وهو يطلب المعذرة من الله على عدم قوله للناس أن أمه إلهة. أكيد ولا حتى المسيحيين يقولون إن مريم هي إله أو إلهَة، لكن يقولون إنها امرأة طاهرة، والدليل على ذلك أن الإنجيل لا يسميها إلهة أو ملاك، وإنما امرأة. وفي فصل المائدة أيضا يقول إن المسيحيين واليهود ليسوا أبناء الله ولا أحبّاؤه، ويبرهن على ذلك أنهم يعانون من المصائب بسبب خطاياهم[660]. لكن هذا برهان فاسد تماما، فعلا، لقد جاء في الكتاب المقدس: "كثيرة هي مِحن الصدّيقين"، وبولس الرسول يقول في العبرانيين "الله يَجلد كل ابنٍ يَقْبَله". لكن، حتى وإن كان بشكل مختلف، سواء الصديقين أو الأشرار، مجلودون من الله: فعلا المسلمون أنفسهم مُعذّبون أشد العذاب من طرف التّتار (flagellati sunt a Tartaris) الذين لا يملكون شريعة [إلهية][661].

3) عن اليهود محمد يقول في فصل التوبة إنهم يؤلهون عزيرا ويقولون إنه ابن الله[662]. من الواضح أن هذا الادعاء باطل، لأن اليهود لا يؤلهون أي إنسان ولا يقولون إنه ابن الله. في فصل النساء ادعى أن اليهود قالوا إنهم قتلوا "المسيح عيسى بن مريم رسول الله"، لكن هذا كذب واضح لأن اليهود لا يقولون عن يسوع إنه كان "مسيحا" ولا حتى "رسول الله"، وإنما هو رجل شرير قُتل من أجل كفره[663].

4) عن الرُّسُل يقول في فصل آل عمران إنهم أقرّوا وشهدوا أمام يسوع بأنهم مسلمون وأنهم أتْبَاع السفير أو الرسول، أعني محمد. وهذا في غاية البطلان، لأن يسوع والرسل عاشوا ستة مائة سنة قبل محمد، الذي ظهر في زمن الامبراطور هرقل. كيف يمكن إذن للرسل أن يكونوا مسلمين وأتباع محمد الذي أُمِرَ، كما يقول هو نفسه في فصل الأنعام، أن يكون أوّل المسلمين؟ الدين الإسلامي بدأ مع محمد، والرسل إذن لا يمكنهم أن يكونوا مسلمين أو أتباع من جاء بعدهم بستة مائة سنة؛ وإن كانوا مسلمين فهو لن يكون أول المسلمين.

5) عن الأنبياء محمد يقول نفس الشيء، فهو يصرّح، في عديد المواضع من القرآن، أن ابراهيم، واسحاق ويعقوب كانوا مسلمين. ونوح أيضا يقول إنه كان مسلما وأن الطوفان حلّ بهم لأنه كان يدعوهم للإسلام وهم رفضوه. من الواضح أن هذه كلها أكاذيب فاقعة. فعلا، كيف يمكن لنوح أن يكون مسلما وهو قد عاش ألفين وخمسمائة سنة قبل محمد والذي من جهة أخرى يقول إنه هو أول المسلمين؟

6) للشياطين خصص القرآن فصلا كاملا حيث يؤكّد أن عددا كبيرا منهم سمعوا القرآن ففرحوا وظنوا أنهم من خلاله سينالون الخلاص، وهكذا اعتنقوا الإسلام ونالوا الخلاص. كم من الأباطيل في هذا الكلام! لا يستحق بتاتا عناء الدحض[664].

7) بخصوص الملائكة يقول في عديد المقاطع إنهم عبدوا آدم كلهم ما عدا الشيطان. وقد قال أشياء أخرى باطلة نتركها لآخر الكتاب. ويبدو أنه يعتقد أن الملائكة ذات أجسام، فهو يقول في سورة ص وفي مواضع أخرى عديدة أن الملائكة مخلوقة من نار وأن الإنسان من طين، وفي مواضع أخرى يصفها بأن حجمها كبير.

8) عن مريم العذراء يقول إنها ابنة عمران، لكن هذا خطأ فادح لأن عمران كان أب موسى وهارون. في سورة مريم يقول أيضا إن مريم، أم يسوع، هي أخت هارون. فعلا، موسى وهارون كان لديهما أخت اسمها مريم، وثلاثتهم أبناء عمران، لكن بين مريم هذه والعذراء، أم يسوع المسيح، مَرّت ألف وخمسمائة سنة، ومريم الأولى ماتت في الصحراء حينما كان موسى يقود بني اسرائيل نحو الأرض الموعودة. على هذا الخطأ الكرونولوجي يعلّق ريكولدو: «إذن، روح القدس سمَح لمحمد بأن يَكْذب بالمكشوف لكي يتمكّن كل واحد أن يتفطّن بسهولة إلى كذبه[665]».

9) عن المسيح يقول إنه لا إله ولا ابن الله، وأن المسيح نفسه لم يقل ذلك عن نفسه، ولكنه اعتذر أمام الله، ونَفى أنه قال للناس شيئا من هذا القبيل. واضح أن هذا باطل تماما. في انجيل يوحنا جاء صراحة أنه قال بأنه ابن الله وأن اليهود هموا برجْمه لأنه تفوّه بكبيرة (جدّف). ويقول أيضا عن المسيح أنه لم يُصلب ولم يمت، وأن الله سيموّته في نهاية الأزمان، ويقول أيضا أباطيل أخرى منافية للإنجيل وللكتب المقدسة الأخرى.

10) عن الله يقول إنه لا يمكن أن يكون له ولد لأن ليس له زوجة، وهذا يُعيده ويكرّره باستمرار، كما لو كان حجّة مقنعة. لكن هذا كما لو قال إن الله ليس جوهرا لأن ليس فيه أعراض، أو أن الله ليس بِحَيٍّ لأنه لا يأكل ولا يتنفس. إن هذا التصوّر، يقول ريكولدو، هو سخيف وغير منسجم، جدير برجل فاقد للعقل والمنطق. فعلا، المسيحيون لا ينسبون إلى الله ابنا ولدتْه امرأة، ولكن مثل الحرارة الصادرة من النار، مثل النور المشعّ من الشمس، مثل الكلمة الصادرة من المتكلّم، كلها كيانات يمكن أن نقول إنها وُلدت، ولكن ليس كما تُولد من امرأة. كذلك الابن فهو النور وكلمة الآب الأزلي، مساوٍ له في القِدَم وفي الجوهر. كما أن الحرارة والنور لا يمكن أن تَنْفَصل عن النار، ومع ذلك فإن أحيانا يمكن أن يأتينا شعاع النار دون الحرارة، مثل حالة القنديل، وفي ظروف أخرى حرارة النار دون الضوء، مثل الحديد المسخّن جيدا دون أن يتوهّج، هكذا أيضا ابن الله أمكنه أن يتجسد دون أن يتجسد الآب والروح، رغم أن أفعال الثالوث هي غير منظورة، كما يقول القديس توماس الأكويني[666]. المسيحيون يقولون إن المسيح، الذي هو كلمة الله، هو ابن الله، ومحمد قال عنه تقريبا نفس الشيء، دون أن يتفطّن إلى ذلك ودون أن يَفهمه. فعلا يقول في القرآن، في سورة النساء:

"إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه"، لماذا لم يقل محمد إن الله لا يمكن أن يكون له لا كلمة ولا روح نظرا إلى أنه ليس له زوجة. يجب طلب من المسلمين أن يسألوا محمدا حينما يقول إن المسيح هو كلمة الله وروح منه، هل يتكلم عن روح الله وكلمته بالمعنى العرضي أو الجوهري، أي هل هو مخلوق أو غير مخلوق؟ في الحالة الأولى، يأتيان من الله ليس فقط كلمة وروح المسيح، ولكن أيضا كلمات وأرواح الأنبياء والصديقين؛ إذا كان الأمر على هذه الشاكلة فليس من الثناء في شيء قول هذه الأشياء على يسوع الذي يريد محمد أن يُمجّده ويُعليه على كل الناس، ولا يمكن أن يكون بسبب هذه الكلمة وهذا الروح أن يتحدث الله عن نفسه في كلّ القرآن بضمير الجمع. لكن إذا كان يقصد الحديث عن كلمة وروح الله الخالدين والجوهريين، إذن فهم يتفقوا معنا سواء على سر التجسد أو على الثالوث[667].

وأيضا في فصل "المؤمنون" محمد يقول عن الله، أنه "ما تخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذن لَذهبَ كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض". لكن هذا الاعتراض خاطئ تماما لأنه يفترض مسبقا أن الله لا يمكن أن يكون له إلاّ ابنا شريرا، متمردا وعاقا، بينما نحن نقول إن ابن الله هو كلمة الله وفعل الآب الذي من خلاله تم خلق كل شيء.

وفي فصل الأحزاب يقول محمد إن الله والملائكة يُصلّون على النبي وعلى المسلمين. نترك جانبا الملائكة، لكن الله حينما يصلّي عليهم، لمن يُصلّي؟ للملائكة أم للبشر أم لنفسه؟ إنها كذبة أن يُصلّي لنفسه، خصوصا إذا قيلت من طرف محمد الذي يَنفي تجسّد الكلمة ولا يفترض أي تمييز في شخص الألوهية[668]. من الواضح لكل العقلاء، يَختم ريكولدو، أن هذه الشريعة لا تأتي من الله نظرا إلى أنها تحتوي على كمّ هائل من السفاسف والشناعات.

لكن ريكولدو يكشف عن أمر مذهل، يذكّرنا بواقعنا العربي المعاصر، حيث أن العديد من المثقفين لا يؤمنون بالقرآن ولكن ليس لديهم الجرأة لإعلان ذلك جهارا: «أنا أعلم علم اليقين أنّ أحذق المُتعلّمين والحكماء مِن المسلمين (maxime literati et sapientes) لا يعتقدون في كلام القرآن ويدركون تفاهة تعاليمه؛ والدليل على ذلك أنهم يرفضون الخوض في هذه المسألة في العلن مع غيرهم من الحكماء، كما عاينتُ ذلك من خلال تجربتي الشخصية (sicut experimento ego probari)[669]».

وفي موضع آخر يقول إن العرب المُتضلّعين في الفلسفة يعارضون السنة والشيعة، وحالما كرسوا أنفسهم لقراءة كتب أرسطو وأفلاطون، بدأوا في احتقار كل الفرق الدينية وازدراء القرآن نفسه (contemnere ipsum Alchoranum). وحينما تفطن الخليفة لذلك أسّس، في مدينة بغداد، المدرسة النظامية ومدرسة المستعظمية، وهما أشهر المدارس الإسلامية. وقد حوّر طريقة تعليم القرآن وأمر بأن يؤتى من كل ولاية بطلبة لدراسة القرآن، وقرّر بأن المسلمين الذين يَدرسون القرآن لا ينبغي عليهم بأي حال من الأحوال الاقتراب من الفلسفة: فعلا، هم لا ينظرون بعين الرضى ولا

يعتبرونهم مسلمين صادقين أولئك الذين يتعاطون الفلسفة، لأن هؤلاء جميعهم يحتقرون القرآن (omnes tales contemnunt Alcoranum) للأسباب التي عرضناها في الفصل الثامن والتاسع[670].

وفي الجهة المقابلة هناك أشخاص متعصبون للقرآن، يقول ريكولدو، لدرجة أن يغتمّون كثيرا لو قُرئ القرآن من طرف شخص غير مسلم، ولا يريدون اطلاقا أن يُترجَم إلى لغات أخرى. لكننا نعلم، يردّ ريكولدو، «أنّ الذهب الإبْريز لا يخشى الصَّقل ولا مواجهة النار. ولذلك فإن المسيحيين، الذين يَثِقون في حقيقة الربّ المَتينة والباقية إلى الأبد، بكل سُرور يُناقشون الإنجيل مع الأمم الأخرى، وهم سعداء حينما يُقرَأ من طرف آخرين، يرغبون في نشره للجميع وتَرجمته للّغات الأخرى. وليس فقط بالكتابة، وإنما عن طريق لوحات فنيّة ومَنحوتات يُبرزون آلام المسيح، التي تعتبرها الشعوب الأخرى مهزلة وعار[671]».

أخيرا ريكولدو، يعرّج على ثلاث علامات تثبت عنف شريعة الإسلام ودمويّتها (انتبِهوا إلى العلامة الثانية والثالثة). العلامة الأولى: أن محمدا قال إن شريعته ستدوم ما دام انتصار سلاحه وقوّته الدنيويّة. صحيح هذا ما يذهب إليه يوحنا فم الذهب حينما قال: «تلك هي طبيعة الحقيقة التي، كلّما تمّ معارضتها، خَرجتْ مُعزّزة؛ الكذب، على العكس من ذلك، حتى وإن طُعّم من طرف الكثيرين فهو يذوب في ذاته». الحقيقة، إذن، لا تحتاج إلى دعم الحكم الدنيوي، خصوصا حقيقة الرب الباقية إلى الأبد. شريعة المسيحيين اضطُهِدت لثلاث مائة سنة، ولكنها تنامت كثيرا سواء عن طريق عدد المؤمنين أو المعجزات الظاهرة.

العلامة الثانية: حينما يجتمعون لسماع خطبة [الجمعة] وتفسير القرآن، يَسلّ الخطيب سَيفه من غمده ويَحمله في يده بينما يُلقي خطبته، أو يضعه في مكان مرتفع لإثارة الرعب. ألا يذكرنا هذا الحدث الذي رآه ريكولدو بما يفعله المسلمون الآن؟ لقد مرّت ثمانمائة سنة على هذه الحادثة ولم يتغيّر شيء إلى يومنا هذا. لكن على العكس من ذلك، فإن «المسيحيين، يقول ريكولدو، لا يرفعون السيف وإنما الصّليب، لكي يظهروا ليس أمارات العنف، وإنما البراءة الخاصة بالرجال المرسلين من المسيح "مثل الخرفان بين الذئاب"».

العلامة الثالثة: يسميها ريكولدو علامة الموت والعنف، ذلك أن المسلمين فقط يُجنّدون "انتحاريين (حشاشين)" أي قاتلين مأجورين. فهم يَعدون هؤلاء، سواء قُتِلوا أو قَتَلوا أناسا آخرين، بحياة أبدية؛ يُرسلونهم إلى أي مكان، وهم مصدر رعب ليس فقط للمسيحيين بل أيضا للتّتار الذين لا يتّبعون أي شريعة إلاّ شريعة الطبيعة. قارنوا بين ما قاله ريكولدو وبين الانتحاريين الحاليين الذين يَعيثون في العالم أجمع فسادا.

بخصوص انتقادات ريكولدو للإسلام وللقرآن أكتفي بهذا القدر، وأنتقل إلى مجادل مسيحي آخر، عاش بعده بثلاثة قرون، وهو الإيطالي فيليب كوادانيولو.

VIII

كوادانيولو (Guadagnolo) الاسلام دين دعارة ومُجون ولاعقل

قلتُ بأن محمد الطالبي والإسلاميين عموما، في مماحكتهم مع المسيحية، يَلعبون في غير صالحهم، وقد أوْقعوا أنفسهم في فخ خطير حينما اختاروا الموضع الذي يتنافى تماما مع أهدافهم، لأن في ميدان الجنس والنكاح بأنواعه، فإن التراث الإسلامي المقدس ليس له أيّ منافس. وقد شدّت هذه الظاهرة انتباه المسيحيين، نظرا لحضورها المكثف في القرآن والأحاديث، فركّزوا عليها واعتبروها دليلا على فساد الإسلام ومنافاة تعاليم القرآن للأخلاق الحميدة.

أحد هؤلاء المجادلين الكبار هو الراهب الايطالي فيليب كوادانيولو (1596 - 1656) الذي ألّف كتابا في الرد على داعية مسلم اسمه أحمد بن زين العابدين الاصفهاني، هاجم العقيدة المسيحية على الطريقة الكلاسيكية وجرّح في الأناجيل واعتبرها محرفة وأن الثالوث كفر، وأن محمدا هو الفارقليط الذي بشّر به عيسى، وأن المسيحية شرك، وما إلى ذلك من الاتهامات التي رأينا أمثلة منها في كتب المفكرين العرب المحدثين.

فانبرى كوادانيولو بنقض هذا الداعية وكتب كتابا بعنوان: "دفاعا عن المسيحية"، رَدّ فيه نقطة نقطة، وفنّد دعاويه من خلال نصوص التراث الإسلامي ومن أقوال الفلاسفة المسلمين أنفسهم.

1. وشهد شاهد من حكماء المسلمين أن دينـهم شهوانـي

قال إن تعاليم الإسلام هي تعاليم شهوانية مرذولة «وشهدَ على ذلك أبو علي ابن سينا في علم الالهيات، في الفصل "في أحوال النفس الإنسانية"، حيث يتكلّم عن الكمال الأخير للإنسان وعن السعادة الحقّة، وقال: إن السعادة هي مقاربة الحق الأول، وفي ذلك الفصل بَرهَن أبو علي على أن من يقول إن سعادة الإنسان هي مباشرة النساء أو الجواري فهو جاهل وأحمق، وهكذا قال جميع اللاهوتيين وأرسطوطاليس معهم أجمعين. ولم يقل كذلك في القرآن محمد بل وعد سعادة بالنكاح ومباشرة النساء في جنّته[672]».

وفي موضع آخر عاد إلى ابن سينا لكي يؤيد موقفه من أن معارضة شهوانية تعاليم الإسلام لم تصدر فقط من طرف المسيحيين بل من داخل الإسلام نفسه «هكذا يقول أيضا أبو علي بن سينا، ولم يكن يهوديا ولا مسيحيا أو من الفلاسفة اليونانيين القدامى بل مسلما. قال في الكتاب الثاني من الالهيات في الفصل في أحوال النفس الإنسانية إن السعادة هي مقاربة الحق الأوّل، وقال هناك أيضا إن الحكماء الإلهيين يستهينون بالالتذاذ الحسّي ويختارون الغرامات والآلام[673]. وهنا يتفق الفيلسوف المسلم ابن سينا، مع اليوناني أرسطوطاليس، الذي عبّر عن هذه الفكرة في كتاب الأخلاق (الإيثيقا) «في الكتاب العاشر من الإيثيقا قال إن الالتذاذ الأفضل هو الالتذاذ بعمل الحكمة وفي الكتاب السابع من الإيثيقا قال إن الالتذاذ الجسداني يُفسد عمل الحكمة، وفي الفصل الحادي عشر من الكتاب السابع قال أيضا عن التذاذ الشهوة إن التلذذ يُفسد العقل، وكلّما ازداد التلذذ نَقص العقل، وحينما يتلذذ أحد في شهوته فهو لا يعقل شيئا، وبالتالي لا يجوز أن تكون سعادة الإنسان في التلذذ الجسداني الذي يستهين به الحكماء[674]».

ضد الطّالبي، الذي ركز الدعارة والفسق والرذائل في المسيحية والأناجيل، واعتبرَ يسوع المسيح زعيم الداعرين، فإن كوادانيولو يُدير التهمة على الدين الإسلامي والقرآن وسيرة نبي الإسلام: «لو تمَعّنا في كلام الإنجيل وكل شريعة المسيح لعرفنا للفَور كرامتها وغضاضتها وعفوها وطهارتها وقدسيّتها فلا نحتاج إلى برهان على ذلك لأنه مُبين من صحائفها وكلامها[675]». لكن في الجهة المقابلة لا نجد إلا الفاحشة: «القرآن وكل شريعة محمد مملوءة أقاويل قبيحة وفواحش، وأمَرَتْ بفواحش وساء سبيلا، فلا يقدر قارئ على قراءتها دون أن يخجل لأجل قبائحها. فهي تُحدّث

بجماع النساء وبكيفية الجماع وأنواع المباشرات مع النساء والجماع مع الجواري في الفردوس أيضا وقوة محمد عند الجماع، وزنا محمد ومباشرة صبيّة كانت لها سبعة أو ثمانية سنين، ونكاح محمد لقَريباته وكثرة الزوجات لرجل واحد وإباحة محمد أن يزنى مع كل امرأة حرة أو أمَةٍ، قريبة أو غير قريبة، وغريبة أو غير غريبة، وما إلى ذلك من قبائح شريعة محمد التي تُقَيِّح قلب من يفكّر فيها وتصمّ أذن من يسمعها[676]».

الشواهد موجودة في القرآن، يقول كوادانيولو، قبل أن تكون في التراث: «مَنْ مِنَ الناس الكرماء والأعِفّاء لا يَخجل عند سماعه قول القرآن في سورة البقرة: "نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم"، أي باشروهن من دبورهن ووجوههن ومن جانبيهن وحسب الطبيعة وخلاف الطبيعة. إنما تلك الكلمة "أنّى" معناها أين ومتى وكيف حسبما قال القاموس[677]».

ومَن الذي يسمع ما يقوله القرآن «في سورة البقرة ولا يخجل ولا تصمّ آذانه حيث قال عن المرأة المطلقة ثلاث مرات لا يحلّ لها أن ترجَع إلى زوجها لو لم يباشرها رجل غيره. فقال القرآن: "فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره". ومن لا يبهتُ وتتخثّر حواسه إذا سمع قول الكتاب الذي اسمه "الشمائل"... أن من سُنته عليه السلام أنه كان يطوف على نسائه في ساعة واحدة وهن احدى عشر[678]».

ومَن لا يتحيّر، يضيف كوادانيولو، «إذا قرأ القرآن ورأى كيف يخوض دائما في كلام قبيح. فهو يتحدّث في هذا الموضع عن النساء وحَيضهنّ، وفي هذا الموضع عن البغايا والآن عن الجواري والآن عن النكاح والآن عن الجماع، عن وضع الجماع وكلّما يتعلّق بالجماع حتى لا يفنى قط كلامه في الجماع[679]». أمّا كتب السنة المملوءة نكاحا فإن كوادانيولو يستنكف عن ذكرها والخوض فيها: «فَلْنَسْكتْ ولا نَذكر من هذا الأمر أكثر ممّا ذكرناه لئلاّ يُدرِك سمّ التلذّذ الجسداني قلوبنا، ويقتل حياة نفوسنا فنكتفي بأننا أدركنا السمع بذكره ليعرف المسلمون غرور محمد. وبعد لنتركه ونذكر الأمور الأخرى لئلا يَصل سُمّ الهوى عقلَنا ونِيّتنا فتَبِيد نعمة الله عن روحنا[680]».

2. دين عدواني مقابل دين مسالم

لم يَنتشر الإسلام بالمعجزات البيّنة أو بالموعظة الحسنة والأخلاق الحميدة وإنما بالسيف من جهة، والترغيب الجنسي من جهة أخرى: «شريعة محمد تخلو من العجائب الإلهية ومن النعمة، وقد اجتذبت كثيرا من الناس لا بقوّة نعمةٍ أو بمعونة الله بل اجتذبهم تخويفا بالسيف وتهديدا بالموت: وهذا بيّن من القرآن في سورة التوبة حيث قال: " قاتلو الذين لا يؤمنون بالله ..." وبعد ذلك إلى تمام تلك السورة قال، ليحضّ المسلمين ويحثّهم حتى يقاتلوا غير المسلمين: "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ...الخ"[681]».

أما الجانب التّرغيبي الجنسي فإن شريعة محمد، يقول كوادانيولو «اجتذبت كثيرا من الناس لأنها أحلّت بتنعّم حواسّنا وجسدنا واسترخت استرخاء شديدا فيما يَتلذذ به هوانا ولم يفرض للناس أن يؤمنوا إلاّ بأشياء سهل الإيمان بها، فلم يكن فيه شيء عجيب، إذ قَبِل الناس ما يتلذذون به ويتنعّمون به». ثم إن هذه الشريعة الشهوانية «اجتذبت رجالا أمّيين وغير متضلّعين في أمور الدين كما يشهد القرآن في سورة البقرة وفي مواضع غيرها ..[682]».

وكيف لا يَغرّنهم وقد فرضَ لهم «كل ما يشتهونه من سعة العيش وسعة هوى الجسد وسعة في الزيجة وسعة في التحليل لهم مباشرة جميع إمائهم[683]». لكن إنْ لم يقبلوا دينه فإن محمدا وأصحابه «يهدّدونهم ويُخوّفونهم بِقتْلهم، فلم يكن عجيبا إن قبلوها لخوفهم من الشر والقتل[684]». في رأي كوادانيولو ليس من العدل أن يُرغِم واحد من الناس الكافرين «ليقبلوا الإيمان، أيّ كان ذلك الإيمان. وما يليق بأحد أن يحاربهم لأجله إلاّ إلى أن يَحفظوا الشريعة الطبيعية، لأنها واجب عليهم من حيث هم بشر، لكن من غير اللائق أن تُشنّ الحرب للإيمان بما هو فوق الطبيعة. وهذا بيّن من الإنجيل حيث المسيح لم يقُل لتلاميذه: انطلقوا وقاتلوا وأرغموا الناس على الإيمان بأسرار الإنجيل، بل قال: انطلقوا بَشّروا بالإنجيل وما إلى ذلك. لكن الإيمان بالأسرار التي هم كانوا يَكرزون بها فقد تركه لإرادتهم[685]».

ومن خلال المقارنة التاريخية يبدو أن الكفة مرجّحة للمسيحة على الإسلام، ذلك أن المسيح فرض ما يَعسُر الإيمان به، وفي هذا يقول كوادانيولو «يتبيّن أن شريعة المسيح كاملة تامة، والدليل على ذلك أنها ردّت إلى المسيح العالم أجمع في وقت وجيز بقول صيّادين أميّين، واجتذبهم إلى

الايمان بأسرار فائقة وبما ليس يفهمه الناس، واجتذبَ أناسا كبيرين وصغيرين، عالمين وأميّين، شيوخا وعجائز بل أيضا عظماء وملوكا وسلاطين واجتذبهم بقوّته وإن كانوا هم يَأبَوْن، واجتذبَهم إلى خشونة العيش وإلى الضيّقات والشدائد وكل ما يبغضه جسدنا وأهواؤنا. ولم يجتذبهم إلى التنعّم أو إلى التلذّذ ولا إلى ما تشتهيه حوسّنا، واجتذبهم إذ هم لأجل الإيمان بالمسيح واقعون على مشارف الموت لأنهم حينما آمنوا بالمسيح صاروا أعداء للسلاطين والملوك ورؤساء العالم[686]».

والمسيح هو أول من ضحّى بنفسه من أجل العقيدة «كأنه رأس الشهداء»، يقول كوادانيولو، حيث أنه «اختَبَرَ في جسده غضب اليهود، وبَعْدَه تلاميذه، وإذ لم يَكْفِ اليهود معارضة الايمان بالمسيح، بل ازدادت عليهم الأمم والملوك والسلاطين أيضا، وهم كأنّهم غير متفكّرين في شيء غيره [..] وهكذا لاحَقَ الملوك والرؤساء الايمان بالمسيح ثلاثمائة سنة في جميع أقاصي الأرض، ولم يتركوا المؤمنين بالمسيح يستريحون في بقعة من الأرض. ولكن إيمان المسيح انتصرَ دائما ولم يقدروا عليه ولم يغلبوه وإن ظلموا عليه ظلما ثلاثمائة سنة وإن كانوا يَتكتّلون جميعا عليه، السلاطين والرؤساء والملوك والشعوب واليهود والأمم، بل إيمان المسيح كأنه عريان في وسط سلاحهم دخل في العالم الذي كان يقاومه، وإيمان المسيح تَغلّب على العالم إذ كان العالم كله مُتسلّحا ضده. وكل يوم كانوا يَقتلون مرات كثيرة ألوفا منهم ولم يُفنوهم، بل كانوا يَكثرون كلما قتل أعداؤهم منهم. كان دَمُهم مَطَرا من السماء ويَسْقي إيمان المسيح كأنه نباتٌ يزداد نَبْتا ويَتورَّق به ويَغتصِن به ويُنوّر حتى يُثمر ثمرة الصلاح في السماء[687]».

وأعجب من ذلك، يواصل كوادانيولو، هو «ثبوت الشهداء قُدّام الظالمين وصبرهم في عذابهم وغلَبَتهم إذ هم مائتين، فغلَبوا قاتليهم وازداد هذا الأمر عجبا لأن من الشهداء كثيرون هم ضعفاء ولم يكونوا رجالا فقط وأقوياء بل أيضا كانوا منهم شيوخا وهرمى ونساء وصبيان وفتيات وهم جميعهم كانوا في العذاب صابرين وثابتين وجريئين، وهم في العذاب فرحين لئلا يَكْفروا بالمسيح واستأثروا بالموت لكيلا يخطؤوا إلى المسيح[688]».

وعلى العكس من تضحيات المسيحيين فإن مشرّع المسلمين أغرى الناس ووعدهم بالدنيويات والشهوات. ومن بين أغرب الوعود التي وعد بها محمد أتباعه هي الجنة: مَوقعها وحجمها وصفاتها. لقد أثار هذا الأمر في كوادانيولو نوعا من الاستغراب والتهكم: «وفي سورة آل عمران قال القرآن: "وجنّة عرضها السماوات والأرض أعدّت للمُتقين". وهذا القول هو كذب لأن السماوات والأرض هما الكلّ والجنة هي جزء منه، فكيف يكون الجزء مساويا للكل؟ فالمهندسون يقولون جهرة إن الكل أعظم من الجزء، فكيف يقول القرآن إن الجنة عرضها السماوات والأرض؟[689]».

وهب أننا سلّمنا بوجود هذه الجنة على الشاكلة التي وصفها القرآن، فما موقع المرأة فيها؟ إنها جنة رجالية فقط، ذلك أن محمدا «رأى حاجة الرجال ولم ير حاجة النساء، فقد أعطى الرجال

لكل واحد منهم جارية ولم يُعط النساء لكل واحدة منهن غلاما. فما أشدّ حزن النساء وغيرتهنّ على الذين قد كانوا رجالهنّ في الدنيا، إذا رأينهم مُتَعَانِقين بالجواري وهن بلا رجل وبلا غلمان وبلا تنعّم وبلا مباشرة كأنهن مُهمَلات، وأكثر منهنّ النساء اللواتي قد أحبَبن رجالهن في الدنيا[690]».

3. عبادات أضحوكة: صوم رمضان

ولم تلتزم شريعة محمد بالعقل والاستقامة حتى في العبادات التي فَرَضَها صاحبها على أتباعه. لقد بدا طقس الصيام لكوادانيولو وكأنه طقس هجين، متناقض، خال من التقوى، ومناف للطبيعة: «قال في سورة البقرة: "أحلّ لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم وكلوا واشربوا حتى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد"». هل هذه عبادة؟ هل تنطبق صفة صيام على هذه الشّعيرة؟ «هذا هو الصيام الذي فرضه لهم محمد، أي أن يأكلوا ويشربوا الليل كله حسب مشيئتهم وفي النهار يمتنعوا: إن هذا الأمر ليس بصوم بل لا يكون شيئا آخر غير تبديل النهار ليلا وتغيير الليل نهارا والعكس بالعكس ... بينما الانسان العادي يأكل ويشرب في النهار وينام في الليل، أمّا أن يأكل ويشرب وقت الليل وينام وقت النهار فهذا مخالف لِطبْعنا[691]».

ومعلوم أن النفس لا تخشع وهي مُفخّخة بالطعام؛ لا تستطيع «أن تُصَلّي بعد الأكل والشرب إذ سَكرتْ من الطعام والشراب، فهذه الوصيّة ليست امتناعا (nihil abstinentiae) وإنما هي ليست شيئا آخر غير تبديل الزمان (nisi tantum variatio temporis) أي أن يُفعَل ليلا ما قد كان يُفعل نهارا، فحوَّر الليل نهارا والنهار ليلا (nox in diem et dies in noctem vertatur)[692]».

ولقائل أن يقول: إن القرآن لم يأمرهم بأن يناموا في النهار بل قال إنهم يَعتكفون في المساجد للصّلاة، لكن هذا غير صحيح، يردّ كوادانيولو «لأنه لم يُرتّب الأمر ترتيبا حسنا، ولم يتّخذ أوساطا (non assumat proportionata media) واجبة لتمام الصلاة إنما لو كان مُراده أن يحثهم ويحضّهم على الصلاة نهارا لما حضّهم على جماع النساء وعلى الأكل والشرب كامل الليل، ولما قال "كلوا واشربوا"، فإن الأكل والشرب والجماع التي هي أعمالهم في الليل تُلزِمُهم على النوم في النهار بدل الصلاة. فالمسلمون إذ هم عاكفون في المساجد بعد سهرهم ليلا، ينامون نهارا في المساجد ولا يُصلّون، فإنهم مضطرّون إلى النوم بسبب سَهرهم في الليلة السابقة. والقرآن أيضا يشهد في سورة النساء قائلا: وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ..." وهذا ناتج عن نوع الصيام الذي فرضه لهم محمد في القرآن[693]».

أما الصيام الحقيقي، يقول كوادانيولو، فهو صيام النصارى «إذ هم يأكلون مرة واحدة في اليوم وقليلا، ولا يأكلون اليوم كله، فمن هذا النوع من الامساك ينتج لهم قوة ويَقْدِرون على الصلاة ليلا وفي النهار أيضا لأنهم لا يثقلهم الطعام والشرب». لكن وضع المسلمين مغاير، فهم في حالة تعيسة، وفي غبن ومرض جراء صيامهم الذي يدمّر أرواحهم وأجسادهم، إنه طقس، يقول كوادانيولو، من شأنه أن «يُظَلِّم عقل المسلمين بالأكل والشرب ويحثّ جسدهم إلى النوم وقت الصلاة، أو إذا هم اجتهدوا بالصلاة يَقْتلون أبدانهم بانعدام النوم الذي يحتاجون إليه، إنه صيام غير نافع، صيام أضحوكة[694]».

4. قرآن مُشوّش

إن التشويش لا يَعبث بالقرآن من جانب العبادات والشرائع فحسب، بل أيضا من حيث الأسلوب والقصص والتمشّي المنطقي. فهو غير منسّق في محتواه، ولا يَسير على نهج واحد؛ ينتقل من موضوع إلى موضوع، ومن نبيّ إلى نبيّ أو يكرّر نفس القصة مرات عديدة. وهذا دليل، في رأي كوادانيولو، على تشوّش القرآن واضطرابه، وذلك بيّن «لكل من يقرأه، وجميع من يقرأه يرى اختلاطه وباطله. إذ أنه ينقل كلامه من شيء إلى شيء باطلا بلا اتفاق بينها مرّات عديدة، ويخلط قصص الأشياء والأمور ويعود إلى قص أمر واحد مرات كثيرة، وإذا بدأ يقصّ أمرا لا يتمّه. فإن قص ميلاد موسى وحياته مرات عديدة وغالبا ما يقصه في أكثر سور القرآن، ثم قصص ابراهيم وسدوم ولوط والياس وصاموئيل وداود وسليمان وزكريا ويحيى المعمدان وبواقي القصص التي قصّها الكتاب المقدس مُرتّبة درجة درجة، لكن القرآن خلطها ببعضها بعض، وخلط فيها أباطيل كثيرة حتى يظهر أنه مشوش فيُظَلّم على نفوس من يقرؤونه ويخلط عقولهم[695]».

وإذا ما قارنّا نص القرآن بالكتاب المقدس، وخاصة بتلك المواضع التي اقتبس منها بعض القصص، فإن الحقيقة تبرز للعيان فورا، وهي أن القرآن يقصّ «قصصا باطلة»، يقول كوادانيولو، ثم يُجري التّشبيه التالي: «ومن مقابلتهما تراءى لي القرآن كأنه سارق هائب فازع يجتنب ظهوره لئلاّ تتكشف سرقته ويهرب من هنا إلى هناك ولا يثبت هناك وبسرعة يهرب إلى هنالك دون أن يتجاسر على المكوث في مكان زمانا لئلا يُدرَك ويَنكشِف. كذلك هو القرآن إذا بَدأ يقصّ أمرا لا يُكمله بل يبدأ قص أمر آخر دون أن يَستنفذه، وكذلك إذا قال شيئا لا يُكمل قوله بل يَنقل كلامه إلى شيء آخر وكأنه هارب مُستَرق بأقواله وفازع من ظهوره لئلا ينكشف كذبه[696]».

وبالجملة القرآن، في رأي كوادانيولو، كأنه ثوب خَلِق مُرَقّع بعدّة رُقع ذات أحجام وألوان مختلفة: «إن القرآن كأنه ثوب مصنوع من شقاق كثيرة فوضَع في هذا الموضع شقة وفي ذلك الموضع شقة أخرى وخَلَط في جميع المواضع قصص الأمور ليظهر بقوله أنه كلام غرور وخديعة[697]».

أما الكتب المقدسة، أي التوراة والإنجيل وبقية الأسفار من كتاب النصارى المقدس، فهي منسّقة ومنسجمة حيث «تبدأ بقص الأمور وتواصلها وتستنفذ قصصها استنفاذا تاما وهكذا فهي

تظهر جهرة أنها ما تجتنب فزعا ولا تخاف أن ينكشف فيها سوء أو باطلا وكأنه ثوب كامل من حرير لا من شقاق لكن من نسخة كاملة فتظهر بقولها صحّتها[698]».

لقد خلط القرآن الكثير من الكذب بيَسِير من الحق لكي لا ينكشف كذبه، ذلك أنه أجمل واختصر «ولم يذكر أمورا كثيرة من الكتاب المقدس لكي يقول الحق لكن ليَسْتر بصدق قول الكتاب المقدس أباطيله لئلاّ ينكشف كذبها. إنما الكذب، بغير مخالطة حق، يَنكشفُ بيُسْرٍ، أما إذا اختلطَ الكذب بالحق فلعلّه لم يَنكشف سريعا. ومَرارَة الغرور إذا اختلطت بحلو الحق لا يحسّها ذوق عقل البشر بيُسر، فمغرور لاختلاطهما يجتذبهما إلى بَطنٍ آمَنَتْهُ، ويؤمن به، فيبْتَلع السّموم متلذذا بها. وكذلك خلط القرآن جميع الأشياء تغريرا بالناس ... وهكذا فإن شريعة محمد مختلطة غير مضيئة وإنما مُظلِمة على عين العقل[699]».

5. شريعة على مقاسه

في رأي كوادانيولو شريعة محمد جائرة سواء في ذاتها، أو بالنسبة للآخرين أو حتى بالنسبة لأتباعه: جائرة للآخرين لأنه أمَرَ المسلمين بأن «يُكرِهوا بدينهم غير المسلمين وأن يحاربوهم حتى يكونوا مسلمين أو يُعطوهم الجزية، وأن يَنْهَبوا أموالهم وأن يستعبدوهم[700]».

أما جَوْرُه إزاء المسلمين أنفسهم، فهو ظاهر من خلال قَهْرِ أتباعه بشريعته وعدم التفكير في الصالح العام، بل حرص دائما على ضمان مصلحته الشخصية: «لم ينظر إلى خير الجماعة وفائدتها لكن نظرَ إلى فائدته وتَنَعُّمِه وتلذّذه. فإنه ضَيَّق بعض وصايا شريعته للآخرين وأباحها لنفسه وخاصة تلك التي تُعنَى بالجسد واللذة[701]». فعلا، بتَتَبّع خطاب القرآن، يقول كوادانيولو، نرى أن محمدا أمَرَ المسلمين «في سورة النساء ونهاهم عن الزيجة بين الأقارب وقال: "لا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا".. "حرّمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم ..."، فنهى بهذا القول الزواج بين الأقارب درجة درجة وحَسِبَ عددهم جميعهم، وقال إن نكاح الأقربين هو فاحشة[702]».

لكنه، يا للمفارقة، خرَقَ قوانينه وأحَلّ لنفسه المحظورات: «استباح هذه الشريعة وكأنّ الله يحثه على التلذذ بالجسد. فقد قال في سورة الأحزاب: "يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك .. وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين .. الآية"». على هذه الآية، المحرجة جدا والتي عذّبت القرآنيين الحاليّين، كتب كوادانيولو تعليقا مُطوّلا، وطرَح استفهامات خطيرة على نبيّ الإسلام وتصرّفاته الشخصية. قال: «فأيّ سبب كان يطلب هذا الحال لشريعة محمد حتى يبيح لنفسه هو التلذذ والتنعم بجسده ويحلّل له نكاح جميع النساء سواء كنّ من أقربائه أو من غير أقربائه؟ ألَعلّ حلال له جميعهن لأنه نبيّ وشارع الشريعة؟ لكن هذا محال وينبغي أن يقال خلاف ذلك. فإن كان محمد شارعا بالفعل لوَجَب عليه أن يفرض لعباده أمثالا صالحة ويريهم أعمالا مقسطة وفاضلة ولا يجب عليه أن يريهم أعماله بهواه وبالتلذذ والتنعم بالجسد والحواس، وكان واجب لنبي أن يُظهر لأتباعه أنه طاهر وقور. وإن كان هو قد قال إن نكاح الأقرباء هو فاحشة وساء سبيلا للناس الرذيلين فلماذا لا يكون فاحشة للأنبياء، بل من المفروض أن تشتدّ الفاحشة فيهم لأجل حالهم، ذلك أن النبي

يجب أن يكون أفضل من الناس الذين ليسوا أنبياء ولا طاهرين، وقد يَحِل لرجل رذيل القيام بعملٍ غير صالح ولكن لا يَحلّ بتاتا لنبيّ. لأن العيب تشتدّ قباحته في ثوب مَنْ هو فاضل أكثر مما في ثوب مَن هو رذيل، والعيب أشد قبحا في الأشياء الفائقة مما هو في الأشاء الرذيلة. فنكاح الأقرباء أقبح في نبيّ مما هو في إنسانٍ غيره. ولو كان واجبا أو حلالا لغير نبي فلا يكون حلالا لنبي، لأن النبي واجب عليه أن يكون طاهرا، ويَحفظ فروجه أكثر من أن يُكثر استعمالها فوق الناس[703]».

بالمقارنة مع شريعة المسيح فإن كوادانيولو يستخلص أن شريعة محمد هي شريعة خليعة وماجنة. فعلا، المسيح «لم يقل ذلك في إنجيله ولم يفعل كذلك بل كان يمتنع حتى من التلذذ الحلال، ولم يفعل إلا خيرا، ولم يأمر إلا بخير وعمل أفضل مما أمر عباده واستطاع أن يقول في الفصل السابع والثلاثين من إنجيل لوقا: "إن للثعالب أحجرة ولطير السماء أوكارا وأما ابن الإنسان فليس له موضع يسند رأسه". وكان يسير بالمدن والقرى وتعب وجاع وعطش بإرادته ولم يتجنّب العُسر ولم يتّبع اليُسر ولكن أسلم نفسه لأعدائه ليُخلّص عباده. وقال لأعدائه في الفصل الثامن والثلاثين من إنجيل يوحنا: "إني أنا هو، فإن كنتم تطلبونني دعوا هؤلاء يذهبوا". وموسى أيضا كأنه لم يحسب خلاصه ليخلّص شعبه ويستغفر الله عن ذنوبهم فقال في الفصل الثاني والثلاثين من سفر الخروج: "فالآن إن أنت غفرت لهم هذه الخطية وإلاّ فامحني من سفرك الذي كتبتَ" فما أبعد حال محمد من حال المسيح وموسى: فالمسيح وموسى لم يحسبا فائدتهما وخيرهما بل أسلما نفسيهما للآلام والضيقة ليخلّصا شعبيها[704]».

أمّا محمد، يواصل كوادانيولو، فقد عمل شريعة على مقاسه: «اتّبع فائدته وتلذُّذ جسده وحواسه ولم يَحسب خير أو شرّ الشعب»، بل ازداد ظلما في حق أتباعه لأنه شرع لنفسه ما حرمه على الآخرين «إذ أحل للمسلمين أن يتخذوا لهم زوجات كثيرات ولم يحلل لهم أن يقهروا عليهن ظلما في العيش والمباشرة وثيابهن وما ينبغي لحياتهن لئلا تكون خصومة بينهن. وهذه الوصايا فرضها لهم في سورة النساء. لكنه هو، محمد، أباح لنفسه التشريع في هذا الأمر أيضا وقال في سورة الأحزاب: "ترجى من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممّن عزلت فلا جناح عليك..". وها أنه قد أباح لنفسه الشريعة وقال إن له حلال ما لم يكن بحلال لغيره أن يفعل بنسائه حسب إرادته عدلا أو جورا. فلماذا أحلّ لنفسه ما لم يحل لغيره إذ هو قال إنه نبيّ وكان ينبغي للنبيّ أن يُظهِر لشعبه أعمالا خيّرة لا شرّيرة[705]».

ليس هذا فقط بل إن شريعته تجاوزت الجور على نسائه لكي تَنصَبّ على نساء غيره: «وإن افترضنا أنه حلال له أن يفعل ما يشاء لنسائه، جَوْرا أو عدلا، رغم أن ذلك فيه مفارقة، لأن القبيح هو قبيح في نبيّ أو في رجل غيره، لماذا قال أيضا إن حلالا له أن يفعل ما يشاء بنساء غيره؟»[706].

هذا أمر مناف للعرف والعقل والطَبيعة البشرية وحتى لشريعة محمد نفسه فضلا عن شريعة موسى وعيسى: «فإن شريعة ثابتة شرعها الله من البدء إذ خلق في عقلنا نور الحق والواجب والصواب، ثم ثبتها بناموس موسى ثم ثبتها المسيح بإنجيله وأقرّ بها محمد في قرآنه وهي شريعة واجبة على جميع الناس. وتلك الشريعة والوصيّة لئلا يشتهي رجل امرأة غيره ولئلا يباشرها وهذه شريعة خاصة لطبيعة الناس حتى أن الوثنيّين أيضا كانوا يحفظونها ويحسبون أن مباشرة امرأة الغير هي فاحشة جدا وساء سبيلا ويَجتنبون الفاسقين والفاسقات أو من يباشر زوجة غيره. ومحمد أيضا في القرآن في سورة النور أمر بأن يعذّب الزانية والزاني ويجلدهم».

هذه الشريعة المكتوبة في قلب الإنسان والمرسومة في أعرافه، نَقَضَها محمد، في رأي كوادانيولو، لأنه «اشتهى امرأة زيد، بل ناكحها وأخذها من زيد ظلما وأرغمه بأن يطلّقها. وهذا القول ليس بباطل أو كذب بل محمد نفسه شهد به في سورة الأحزاب قائلا: "وإذا تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه امسك عليك زوجك واتّق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه .. الآية"[707]». النتيجة هي أن محمدا: «لم يكتف باستباحة شريعته في ما يخص الزواج بالأقرباء، ولم يكتف بالشريعة الخاصة لنفسه أن يفعل ما يشاء بنسائه جَورا أم عدلا، بل أكثر من ذلك أحل لنفسه اشتهاء امرأة غيره أيضا، بل أخذها من زوجها ومباشرَتها[708]».

جاء في سورة الأحزاب 52، هذا الأمر الالهي الموجّه شخصيا لرسوله: "لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدّل بهنّ من أزواج ولو أعجبنك إلاّ ما ملكت يمينك ". في تفسير الطبري نقرأ: «لا أن تُبادل من أزواجك غيرك، بأن تُعطيه زوجتك وتأخذ زوجته[709]». وقد فصّل ابن زيد المسألة مرجعا هذا الأمر إلى عادة سائدة في الجاهلية، قال: «كانت العرب في الجاهلية يتبادلون بأزواجهم، يعطي هذا امرأته هذا، ويأخذ امرأته، فقال "لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدّل بهنّ من أزواج ولو أعجبنك إلاّ ما ملكت يمينك"».

إن نص القرآن هنا واضح وصريح: ينهى عن عمل كان يمارسه محمد في فترة ما، فنُهِيَ عن أن يَقترفه مرة أخرى في المستقبل، لكنه نَهْيٌ جزئيّ، يعني مخصوص فقط للنساء الحرائر، أما الإماء المَسبيّات فلا يَنطبق عليهن هذا المنع. فعلا، إزاء هذه الفصيلة من النّسوة فهو يحافظ على الوضعية السابقة، ويُطْلِق الحكم، بحيث تبقى للمؤمن الحرية التامة في تبديلهنّ كما يروق له وكما كان يفعل من قبل. وهكذا فهم المسلمون التمييز المنصوص عليه في القرآن. قال ابن زيد: «لا بأس أن تُبادل بجَاريتك ما شئت أن تُبادل، فأما الحرائر فلا». لكن الطبري، تحرّج من هذه الرخصة، رغم أنها الصواب من خلال سياق الجملة، فقال: «وأوْلى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: معنى ذلك: ولا أن تُطلّق أزواجك فتستبدل بهنّ غيرهنّ أزواجا». كلام غير مقنع لأن الله، بصريح النص، أباح له أن يفعل كل شيء: أن يَنكح أي امرأة أعجبته وأن يسرّح أي زوجة من زوجاته بكامل الحرية، فلا يعقل أن في نفس النص، يتراجع ويمنعه من القيام بشيء عادي جدا.

إن هذا المقطع القرآني العجيب، أذهل الغربيين منذ القديم، وزاد ذهولهم بسبب الخليط المشوّش الذي نعثر عليه في القرآن، حيث نجد جنبا إلى جنب كلمات الرحمة والرفق، مع النكاح والتمتع بالسبايا، والقتل وأشياء جنسية أخرى. إن هذه الأقوال أثارت استهجان كوادانيولو، ووفّرت له ذريعة لكي يهجم على القرآن بعنف ويَنفي قدسيّته بالكامل: «إن القرآن لا يمكن أن يأتي من الله (Alchoranum à Deo esse non posset)»، والسبب في ذلك أنه «لا يُظهر في أي موضع أنه كتاب إلهي، بل إنه في عديد المواضع يظهر الكذب. نرى فعلا، أن النفوس عن طريق القرآن لا تَهتدي بل تُخرّب: لا تؤمن بل تكفر، الصغار لا يُصبحون حكماء بل جهلاء، لا يُعلّم العدل بل الجور، ويسعى لخدمة مصالح محمد ولتحقيق شهوانيته: ليست شريعة نورانية، مضيئة للأعين، لكن قواعد تافهة مشوّشة[710]».

وبخصوص "لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهنّ من أزواج ولو أعجبك حسنهنّ"، التي اطّلع عليها كوادانيولو من خلال النص العربي للقرآن، لأن الرجل لاهوتي مستشرق، متخصص في اللغة العربية، فقد زادت من جزعه واستهجانه، لأنها تنص حرفيا على أن نبي الاسلام كان يبدل النساء مع الآخرين. يقول كوادانيولو: «مِن الواضح أن محمدا انتهك حرمة نساء أخريات ... يقول فعلا مستعملا ظرف الزمان: "مِن بَعد (in posterum)" كما لو أنه انتهك سابقا أمرا محرّما، فلو أنه لم ينتهك شيئا، لما وضع ذلك الظرف. وهكذا فهو مستعدّ لجمع محاصيل الإناث كلها لنفسه، بحيث إن نَهَم شهوة الجماع الشاملة تغذي طلب الجماع باستمرار[711]».

في سورة النساء، يواصل كوادانيولو، محمد يحرّم زواج المحارم، لكنه يتساءل: «لماذا؟ أقول (cur inquam) وما السبب الموجب، في كون محمد، دون أي استثناء أو تمييز، يمكنه أن يتزوّجهنّ جميعا؟». تقولون إنه منعها وسماها "فاحشة ومقتا وساء سبيلا"، لكن كوادانيولو يرد بأن هذا الأمر معروف بذاته دون الحاجة إلى نُزول تشريع من السماء لكي يمنعه. أن يكون الشيء فاحشا فهذا، حسب كوادانيولو، «ما تُمليه الطبيعة ذاتها (natura ipse dictante) ... ولا يصير فاحشا لأن قانونا وضعيّا مَنَعَه، بل على العكس، فهو محظور لأنه فاحش في ذاته ... هكذا كما قال أرسطو في الكتاب السابع من الأخلاق أن من بين أقبح القبائح الشهوة الجسدية. إذن، إذا كان المسلمون يمنعون زواج المحارم، لماذا أجاز لنفسه التمتع بهذا الأمر المشين؟ لماذا هو ليس مشين بالنسبة لمحمد؟ إجابة المسلم: لأن محمدا لم يكن فاحشا، لأنه نبي ومشرِّع، أو رسول الشريعة. يا للجواب الرائع، يا للعلة التي يقدمها ... لو كان محمد نبيّا، رسول الله، وسيط الشريعة، وقديسا وكاملا، كما صرّح في نفس السورة (الأحزاب 40) أنه "رسول الله وخاتم النبيّين"، للزم عليه البرهنة بالعفّة (castitate) على أنه خاتم النبيّين، وليس بالشهوات الجنسية والنكاح، التي تُظهره على أنه خاتم الفاسقين بدل النبيّين (sigillum vitiorum quam Prophetarum)[712]».

لقد عامل الإسلام النساء معاملة قاسية، واعتبرهنّ عبيدا، مثلما تفعل الأمم الغير متحضّرة: «شريعة محمد تقهر النساء جورا وتستعبدهن وليس ذلك إلاّ عمل الأعجميين ولم يكن واجبا للكرام الفضلاء حسبما قال أرسطوطاليس رئيس الفلاسفة في الفصل الأول من الكتاب الأول من البوليطيق قائلا: إن هذا هو خاص بالأعجميّين فعندهم الزوجة والعبد متساويان شرطا[713]». وفعلا هكذا هي حال المرأة في شريعة الإسلام إذ أن «كثرة النساء زادت شرّا على النساء، إذ حللت شريعة محمد أن يتزوّج رجل معا بنساء كثيرات ليتبيّن جهرة أن النساء بشريعة محمد كأنهن عبيد وإماء مستعبدات، لا زيجات لرجالهن. ولذلك حلّل أن يتزوجوا بكثيرات معا كما هو حلال أن يتسلّط رجل على عبيد كثيرين فتكون شريعة محمد قهرا وظلما للنساء[714]».

إن وضع المرأة، في شريعة الإسلام، هو وضع تعاسة وبؤس، ليس في الحياة الدنيا فقط، بل في الآخرة أيضا، ذلك أن السعادة «التي وعد بها محمد هي للرجال فقط، ولم يذكر سعادة للنساء. ألا تُرينا هذه أن شريعة محمد هي أوليغارقيا، تُسلِّط الرجال تسليطا، غير واجب، لإخضاع النساء، إذ أهْمَلَهُنّ في أمور كثيرة. وفي شريعة محمد النساء كأنهن بالطبيعة غير الناسوت وكأنهن حيوانات غير ناطقة أو كأنْ لم يكن لهنّ طبيعة بشرية بعينها، بل طبيعة أخرى. لكن، في الحقيقة، ليس هناك اختلاف بين الرجل والمرأة إلاّ اختلاف التأنيث[715]».

أما شريعة المسيح فهي مخالفة تماما، فهي كلية شاملة، ومُقسِطة للجميع: «نَظرتْ إلى خير الجميع بما هو واجب للجماعة ولفائدة الناس كلهم. والرجال والنساء جسم واحد [وشريعة المسيح] اعتنتْ بحالهم وحالهن، ولم تُهمل ممّا يجب لجميعهم وجميعهن شيئا. فلم تحلّ شريعة المسيح للرجال أن يَستعبدوا نساءهم ولا اعتبارهنّ كأنهن إماء بل مُعِينَات لهم، وليَحكمن مع رجالهن على أهل بَيتِهما. لكن المرأة تطيع رجلها لأنها امرأة ولا أَمَة أو عبْدة، كما أمر الله في البدء إذ خلقهما، فلم يقل لنَعمل عبدة أو أمَة ليتسلط الرجل عليها ويستعبدها، بل قال الله ليس بواجب أن يكون الإنسان وحيدا، فلنعمل مُعِينا له مثله. وبهذا القول عنى الله أن المرأة لم تُخلق ليَستعبدها رجلها بل لتكون له معه كمُعِينةٍ وصاحبةٍ وزوجة، لا كعبدة. ولذلك الزواج يقال "زواج"، ولا يقال "عبودية" ولا "مُلك"، والرجل لها "زوج" ولا يقال "ربّا" أو "سيدا" أو "سلطانا"»، النتيجة هي أن القرآن «فرَضَ للناس القهرَ ظلما والاوليغارقية، أي تسّلط الأقوياء الجائر على الضعفاء[716]».

6. الاسلام هو دين فاشل

هل تحقّقت وعود محمد؟ هل نجح في إرساء نظام اجتماعي عادل وتحقيق السلم بين أتباعه؟ الواقع التاريخي يكذب وعوده، يقول كوادانيولو: «لقد وعد محمد زورا آخر، قال في سورة الفتح: "محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ... الآية"»، لكن في الواقع «تلاميذ محمد كانوا أشدّ بعضهم على بعض واشتدّوا غاية ما يكون عليه الشدة كأنهم وحوش ... حيث قصّ مؤرخ من المسلمين أن تلاميذ محمد قَتل بعضهم بعضا وتحاسدوا وتقاتلوا وقُتلوا جميعا من أجل شدّة بعضهم على بعض». وهذه الوقائع رواها المسلمون أنفسهم في تواريخهم: «مات عثمان ومَوّته عليّ ليتسلّط عوضه على ملكوته، وبعده قُتل عليّ نفسه من طرف معاوية، ثم معاوية مَوّته الحسن بن عليّ ثم الحسن ابن عليّ مَوّته قريب لمعاوية وكان يجعل رأسه على مائدة إذ كان يأكل طعاما، ومثلهم واحدا واحدا جميع المسلمين وصولا إلى ملوكهم الثلاثة الذين قتلوا بعضهم بعضا وهم تلاميذ محمد الأولون. الأول الذي قُتل منهم عثمان وهو كان صِهرا لمحمد، وعليّ الذي قتله كان أيضا صهرا وأخا لمحمد وهما تلميذان لمحمد من تلاميذه الأولين بل عائشة هي كانت زوجة لمحمد ومن تلاميذه وهي أعطت سيفا بين يدي عليّ لقتل عثمان وتركا جسده في براز ولم يدفناه. فهذه هي الرحمة والرأفة التي استعملها تلاميذ محمد بينهم .. هم فعلوا عكس ما قاله محمد، فلم يكونوا رحماء بينهم بل أشدّاء بلا رحمة وبلا رأفة[717]».

وهذا دليل، في نظر كوادانيولو، على أن نبوءة محمد كاذبة وأن شريعته فاسدة، على عكس شريعة المسيح وأتباعه الذين كانوا على قلبِ رجل واحد: «ليس كمثلهم تلاميذ المسيح الذين يحبّون بعضهم بعضا حتى كأنهم قلب واحد ونفس واحدة، كما رواه مَار لوقا في الفصل الرابع من سفر الابركسيس: "وكان لمحفل القوم الذين كانوا آمنوا قلب واحد ونفس واحدة. ولم يكن أحد منهم يقول في الأموال التي كان يملك إنها له لكن كل شيء كان لهم مشاعا" فكملت نبوّة المسيح إذ قال في الفصل الثاني والثلاثين من إنجيل يوحنا: "بهذا يعرف كل واحد أنكم تلاميذي أن كان فيكم حبّ بعضكم لبعض" .. فتلاميذ المسيح اكرزوا بالإنجيل ولم يقتلوا بعضهم بعضا بل كانوا يبشرون في العالم إذ هم يحبون بعضهم بعضا وبالتواضع وبالسلام والمحبة وبجميع الفضائل». لكن محمدا وتلاميذه «ثبّتوا ملّة الإسلام بقتالهم وبحربهم، قسوة وقتلا، ظالمين مُغتنمين وناهبين الأرض

ليتسلطوا على الآخرين، وقد جعلوا شريعة القرآن ليليق لهم الفسق والزنا وجميع الرذائل والقتل والسرقة حتى يقتلوا بعضهم بعضا ليستولى كل واحد منهم على ملك صاحبه[718]».

دين خائب وشريعة مشوشة، غير ثابتة، تنقض نفسها بنفسها، والأدلة على حُكمه هذا، يستمدّها كوادانيولو دائما من القرآن: «قال القرآن مرة إن النصارى شريعتهم صالحة وهم ينالون الخلاص ويدخلون الفردوس ولا هم يحزنون، ومرة أخرى قال ساءت شريعتهم وهم بلا شريعة، ومرة قال إن اليهود والصابئين نِعْم الناموس ناموسهم ويَدخلون الجنة ولا خوف عليهم ولهم أجرهم عند ربهم وأنه حلال على الناس أن يكونوا يهودا أو نصارى أو صابئين، ومرة أخرى قال أن من يَتّبع دينا غير الإسلام لا يُقبل منه. ومرة أخرى قال إن محمدا هو رسول إلى العرب فقط، فلذلك أعطِي قرآنا عربيا حسبما قال في سورة الأحقاف لكنه في مواضع غيرها قال إنه جاء للناس جميعا. ففي هذا الموضع يقول إنه لا يُرغم أحدا على قبول شريعته، وفي ذاك الموضع يأمر المسلمين بأن يُرغموا جميع الناس ويقاتلوهم حتى يكونوا مسلمين. وفي هذا الموضع يقول إن الشيطان يوسوس في غير المؤمنين فقط لكن في ذلك الموضع يقول إن المؤمنين والأنبياء أيضا جميعهم يوسوس الشيطان في صدورهم، ثم في هذا الموضع يمدح الحافظين لفروجهم، لكن في ذاك المَوضِع يَمدح الهوى واستعمال الفروج وجَعَل بقوله سعادة الناس في استعمال الفروج؛ ثم في هذا الموضع قال للمسلمين أن يسألوا النصارى واليهود عن حقيقة الكتاب المقدس وعما ينبغي للدّين، لكن في ذاك الموضع يقول لهم أن يجتنبوهم لأنهم خادعون، ومثل ذلك في وصايا كثيرة، مرة يأمر بها ومرّة ينهى عنها، ويقرّ بذا وينكر ذا حسب مَرْضَاته ولا حسب صواب الحق[719]».

النتيجة هي أن المسلم هو إنسان مُشتّت الذهن لا يدري بم يلتزم ولا أية قاعدة يستعملها في حياته: «ليس في شريعة محمد وصيّة ولا أمر ثابت اذ تُرَجّح أمره بين النهي وبين الأمر ولذلك فإن عبد تلك الشريعة لا يعلم ما ينبغي أن يفعله[720]».

ولا عجب في ذلك، يقول كوادانيولو «أن لا يعلم عبّاد القرآن ما هو مراد القرآن لأن القرآن نفسه قال في سورة آل عمران إن الشارع ذاته، أي محمد بعينه، لا يعلم ولن يعلم ما هو معنى القرآن، وكذلك قال أيضا في سورة الشورى إلى تمام السورة، أن محمدا نفسه لا يفهم معنى ومُراد قول القرآن وأن الله وحده يعلمه. وقال إن محمدا جاهل بماهية الدين والإيمان، فأعطى محمد أوامره دون أن يفهم ما يَأمر به، فليس من المستغرب أن لم يفهمه أتباعه. فوصايا شريعة القرآن هي غير ثابتة لأن شارعها بعينه لم يفهم ما يشرّعه، فشرّع شريعة بلا عقل[721]».

وفضلا عن أنها بلا عقل فإن هذه الشريعة دمّرت السابق، ولم تخلّفت إلاّ الفراغ: «اجتهدت بأن تنقض شريعة الله ثم شريعة الطبيعة وشريعة موسى وشريعة المسيح[722]»، لماذا؟ «لأنها هي نقضت نفسها بنفسها[723]».

وهذا أقوى دليل على أنها شريعة باطلة، ويؤكده ردة فعل القرآن على معارضيه، ذلك أن أباطيله «كان يضحك منها الحمق والجهال حتى استاء محمد فقال باطلا أقبح من أبَاطِيله ليُغطّي على الأباطيل الأخرى. فقال في سورة آل عمران إن القرآن وكُتب شريعة محمد غير معلومة عند الناس ولا يَعلم تأويله إلاّ الله، وكذلك قال أيضا في مواضع غيره[724]». لكن هذا القول يراه كوادانيولو ظاهر البطلان «لأنه لا يُحْسَن أن تأتي شريعة لا يفهمها الذين تُفرَض لهم أن يَحفظوها لأنهم لو لم يَفهموا ما أمَرَتْ به فلا يقدرون على حِفظها نظرا إلى أنهم لا يعلمونها، والله فرض شريعته للناس ليحفظوها، فلا يَليق أن تكون غير معلومة حتى لا يعلم تأويلها إلاّ الله[725]».

7. التحريف المستحيل

أن تزعموا بأن كُتبنا محرّفة، يقول كوادانيولو، يعني أنكم تُكذّبون القرآن جهارا وتناقضون صريح أقواله. لقد جاء في سورة يونس (فإن كنتَ في شك مما أنزلنا إليك فسل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك) وهذا دليل، حسب كوادانيولو، أن القرآن يأمر محمدا بأن يسأل اليهود والنصارى، وبالتالي فكتبهم المقدسة موجودة في وقت محمد وإلاّ لا معنى لسؤالهم[726].

والقرآن يكرّر، في مواضع عديدة، أن التوراة والإنجيل وكتاب موسى وإنجيل عيسى، نور وهدى للناس، وبالتالي «يلزم المحمّديين أن يقبلوها كأنها من الله لأن القرآن ذكرَها اسما اسما، بل أيضا يجب على المحمديّين أن يقبلوا الكتب كلها التي يقبلها اليهود والنصارى، ذلك أن القرآن سمّى أنبياء كثرا بأسمائهم، لكنه شهد أن ثمة آخرين لم يذكرهم، كما قال في سورة النساء: "ورسلا قد قصصناهم عليك ورسلا لم نقصصهم عليك" ولأجل ذلك أمر القرآن المحمديين، الذين سمّاهم المسلمين، أن يصدّقوا بالكتاب تصديقا»، وأن يَستمدّوا معارفهم من اليهود والنصارى «وليس من غيرهم[727]».

فعلا، كيف يُميّز المسلمون الأنبياء والرسل الآخرين الذين قال عنهم القرآن إنهم ليسوا مقصُوصين عليه؟ إذا كان القرآن يتحدث عن الكِتاب ويأمر المسلمين بأن يؤمنوا به كله وإلاّ فإن لهم عذاب مهين «فبهذا الكلام ـ يُعلّق كوادانيولو ـ أمرَ القرآن المسلمين أمرا واضحا بأن يقبلوا جميع الكتب بلا استثناء وأن يؤمنوا بجميعها بلا تفريق، لأن إنْ كَفَرَ أحد بواحد من الكتب حتى وإن آمن بسَائرها فهذا لا يُفيده شيئا ويعذّب في الجحيم كأنه كافر بكلها، وكأنه غير مؤمن. ولأجل ذلك أمر القرآن المؤمنين به في سورة آل عمران أن يعتقدوا بهذا النوع: "قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم".

وفي سورة البقرة كرّر هذا الكلام بعينه، وفي موضع آخر من نفس السورة قال: "أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاّ خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون"[728]».

إلزام كوادانيولو هو أنّ مِن نص القرآن ذاته، إذا لم يؤمن المسلمون بكتب اليهود والمسيحيين كلها فإنهم يصيرون «لأجل ذلك في موقع العذاب الذي أنذرهم به القرآن في سورة النساء وفي سورة البقرة، فيكون لذلك المحمديون كلهم غير مؤمنين في الجحيم[729]». كوادانيولو، يقول إنه لم يختلق شيئا من عنده، بل عرَضَ أقوال قرآنهم الصريحة: "يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل"، وهذه، في رأي كوادانيولو، شهادة ناصعة، اقتُلعت من نبيّ الإسلام، على صحّة وقدسيّة كتب المسيحيين: «ها قد تعظّمت قوّة الحق حتى يقول القرآن نفسه أنه وأهله ليسوا بشيء لو أنهم لم يؤمنوا بالتوراة والإنجيل. فالقرآن وأهل القرآن هم في باطل دون التوراة والإنجيل، وكذلك جميع الناس هم على الباطل لولا يقيموا التوراة والإنجيل[730]».

إن مواصلة تشبّث المسلمين بالتحريف يغدو، على أساس هذه الحيثيات، تكذيبا لصريح القرآن، ولذلك فإن القول بأن اليهود والنصارى، حوّروا كُتبهم المقدسة عن قصد «هو قول مَضحوك منه لا يستأهل جوابا آخر غير الضحك. فعلا، أمِن المعقول أن يجسر أحد على تحريف الكتاب الذي يكرّمه ككتاب مقدس، وبعد تحريفه يقف ويُواصل في إكرامه أيضا كأنه كتاب الله بعد التحويل والتغيير والتبديل. والنصارى أكرموا دائما ويكرّمون إلى هذا اليوم الكتاب المقدس ككتاب الله. فالإنسان لا يخدع نفسه قصدا، ولكن الخادع يختلق الخديعة على غيره ولا على نفسه. فلا أحد يفسد شيئا كرها لنفسه بالقصد. فلا أحد يفسد كتاب الله وبعد ذلك يؤمن به كما آمن به من قبل أن يفسده لأنه لن يقدر على الإيمان بما هو عالم بنقيضه ولن يقدر على الإيمان بأن ذلك الكتاب هو من الله لأنه عالم بأنه افتعاله واختلاقه وليس من الله[731]».

ثمة استحالة أخرى تنبع من طبيعة العلاقة بين الدينين، ذلك أن التحريف: «لا يخلو من أمرين: إما أنهم أفسدوا كتابهم فرادى، أي النصارى من هنا واليهود من هناك أو اليهود والنصارى متوافقين على ذلك. لكنهما محال. لو قام به النصارى فقط منفردين سرّا لكان يُقرأ في نسخة اليهود غير ما يُقرأ في نسخة النصارى، ولو أفسده اليهود لكان يُقرأ في نسخ النصارى غير ما يقرأ في نسخة اليهود، ولَمَا كانت قراءة واحدة ولا كتابا واحدا متوافقا مع الآخر بل لكان يتبيّن الاختلاف بين نسخهما. ولكن نسخهما متوافقة فقراءة نسخ اليهود وقراءة نسخ النصارى هي قراءة واحدة، ولذلك لم يُفسِد اليهود نسخهم ولا النصارى نسخهم متفارقين. أضف إلى ذلك أن اليهود والنصارى يختلفون في مراد وفي معنى كلمات الكتاب. والنصارى يبرهنون ضد اليهود على أن عيسى المسيح إلها ولو أفسدوه معا متوافقين فلم يكن يقدر النصارى ضد اليهود على برهان من الكتاب في ذلك ولم تكن قوة في براهينهم ضدهم. واليهود كانوا يقدرون على إجابتهم توبيخا للنصارى قائلين إن الكتاب قد عَلِمْنا أنه فاسد مغيّر غير صالح وليس تأليف الله بل هو افتراؤنا ونحن غيّرناه وحوّلناه وبدّلناه معا متوافقين، وحينئذ ليس يقدر النصارى على توبيخ اليهود لو كان ذلك[732]».

ليس هناك من غاية معقولة لأجلها أقدم المسيحيون على تحريف كتابهم، هذا إن أقدموا بالمرة على هذا الفعل: «لأي غاية أفسدنا لأجلها نحن النصارى الإنجيل أو كتابا من الكتب المقدسة؟ هل لكي نكذّب محمدا؟». لكن المسلمين يقولون إن المسيحيين غيّروا الكلمات كلها في الإنجيل سيّما الموضع الذي ذكر فيه الفارقليط الآتي، ويقولون إن المسيح كان يعني به محمدا.

احتمال مستبعد، في رأيه، لأن المسيحيين «لو أفسدوا الإنجيل لأجل الغاية المذكورة لحرّفوا عن ذلك الموضع الكلام من قَبْل، ولَمَا تركوه وحده سالما حينما أفسدوا المواضع كلها غيره، لأن ذلك الموضع هو في هذا القول كأنه رأس الشك للمحمديين، أما النصارى لم يغيّروا هذا الموضع حيث الإنجيل يذكر الفارقليط، فلم يغيّروا ولا موضعا من المواضع الأخرى. ثم لم يكن إفساد الكتاب لأجل ذلك إلاّ بعد ميلاد محمد لا من قبله، لأن قبل ميلاده محمد لم يُعرَف ولم يكن هناك سبب يبغضه أحد لأجله، أو سبب للتحريف قبل ميلاده[733]». لم يكن تحريف، لا قبل ولا بعد محمد لأن «الكتب المقدسة والإنجيل خاصة هو بعينه الآن وقديما، منذ البدء، قبل محمد وبعده».

وإذا اقتنع المسلم بقدم الإنجيل، فهو قد يخرج باعتراض آخر، ويقول «إن النصارى أفسدوا وغيّروا الكتاب المقدس ليُضْفوا الألوهية على يسوع المسيح»، لكن لو كان هذا قصدهم، يردّ كوادانيولو، لحوّروا المقاطع الأخرى التي لا تليق بيسوع كإله: «لقد تبيّن جهرة في العالم قداسة المسيح وعجائبه وآياته وعظائمه فكان ينبغي عليهم أن يسطروا في الإنجيل عظائم المسيح فقط ويزيدوا على عظائمه، وأن يستَكْتِموا وما يَذكروا تجاربه ولا جوعه ولا عطشه ولا طرده ولا أتعابه ولا مسكنته ولا دموعه ولا جروحه ولا موته لأن هذه كلها يعسر من أجلها الإيمان بلاهوت المسيح. فكان من المفروض أن يُحرّفوا جميع الأمور المذكورة في الإنجيل قبل تحريف غيرها لو أنهم حَرّفوا شيئا منه، ولكنهم لم يحرفوا تلك الكلمات وبالتالي لم يحرفوا منه شيئا ولم يزيدوا كلمة[734]».

مازال الافتراض الثالث: ربما لَعِبوا بالإنجيل وسائر الكتب المقدسة لكي يختَلقوا ناموسا سهلا يسيرا يُلبّي حاجياتهم وغرائزهم. لكن هذا لم يحدث اطلاقا. فعلا، لو كان قصد النصارى إلى هذا «لافْتَعَلوا ناموسا يَسيرًا سهلا، حلوة أوامره، ثم لحرّفوا الوصايا الشاقة ولبَدّلوا العسير يسيرا، والمُرّ حلوا والثقيل خفيفا، ولكن ليس كذلك وإنما وصايا الإنجيل عسيرة وثقيلة، مثل الوصية بمحبّة أعدائنا كما يقال في انجيل متّى في الفصل التاسع ولوقا في الفصل العشرين: "أنا أقول لكم أحبوا أعداءكم واحسنوا إلى من أبغضكم"، ثم الوصية باستحقار الأموال كما في متّى في الفصل الحادي والستين وفي مرقس في الفصل الثاني والثلاثين وفي لوقا في الفصل الخامس والستين .. ثم الوصية بالاصطبار على الكراهيات: "من لطمك على خدك اليمنى فحوّل له الأخرى"، ثم الوصية باحتمال الصليب: "من أراد أن يتبعني فليكفر بنفسه ويحمل صليبه ويتبعني"[735]». إن هذه الأحاديث وما شابهها الشديدة العسيرة يقول كوادانيولو تُبيّن جهرة وعلانية «أن الكتب المقدسة لم تُغيّر لأجل ذلك[736]».

الافتراض الرابع هو أن المسيحيين حوّروا الانجيل والكتب المقدسة «ليتيسّر قبولها عند الناس في العالم[737]». لكن المسيحيين فعلوا العكس إذ لو كان هذا قصدهم «لحرّفوا عن الانجيل الأحاديث التي يَعسر الإيمان بها وغيّروا الأعلى بالأدنى ولسَطّروا ما هو مقبول لآذان الناس وما كان عادة لهم أن يسمعوه وحرّفوا الغير مقبول لهم، وما لم يكن عادة أن يحدث عند الناس ... فأما نحن نتلوا في الانجيل أحاديث كثيرة لم يكن عادة الناس أن يسمعوها وما لم تتعوّد آذانهم به وما هو فوق الطبيعة، مثل أن الله واحد مثلث أي مثلث بالأقانيم وواحد بالطبيعة، وأن المسيح إله وإنسان وواحد بالأقنوم وقائم في طبيعتين أي في الطبيعة الإلهية وفي الطبيعة الإنسانية، وأن مريم أم المسيح هي أم معا وعذراء. وهذه جميعها وغيرها الشبيهة لها يعسر الايمان بها وليس يتيسّر. فإذن لم يُغيّر الانجيل ليُتقبّل عند الناس[738]».

كوادانيولو، يلح على المسلمين أن يجيبوه: إذا بطلت كل الذرائع المذكورة أعلاه، فما السبب الذي حدا بأهل الكتاب تحريف كتبهم؟ «ما الغاية التي لأجلها غيّر النصارى الانجيل والكتب المقدسة؟ وما قصْدهم من تغييرها؟ وأيّ نيّة كانت لهم في تحويلها؟ إذا بطل قصدهم تقبّلها عند الناس، أو أن يختلقوا لهم شريعة سهلة أو لإعلاء المسيح إلى الله؟[739]».

لم يبق لهم من مخرج إلاّ التذرّع بأن المقصد الأخير لتحوير المسيحيين كتُبهم هو خُبثا منهم وبُغضا وحقدا على تلك الكتب. لكن هذا غير صحيح لأن ليس هناك من أناس «أكْرَموا وأحبّوا الانجيل كما يحبّ المتّقون كتاب الله. ولو كان أحد حوّل الانجيل غضبا أو حسدا أو بُغضا فلا يمكن أن يكون إلاّ واحد أو اثنين أو ثلاثة وليس كثيرا، وبالتالي ستكون نسخة واحدة أو نسختين أو ثلاث قد حُوّرت ولم يحوّر جميع النَّسخ ... فالنَّسخ الأخرى بقيتْ صالحة سالمة بغير تحوير[740]».

لكن ثمة سببا فيلولوجيا رشيقا يجعل من القرآن شاهدا على صحة كتب اليهود والمسيحيين ونجده في بداية سورة البقرة حيث يقول: "ذلك الكتاب لا ريب فيه"، فاستعمال اسم الاشارة "ذلك" له دلالة مميّزة، لأن القرآن عادة ما يستعمل "هذا" للإشارة إلى نفسه. وقد تفطّن كوادانيولو إلى هذه اللطيفة وركّز عليها لإثبات أطروحته: «في سورة يونس يقول: "وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين". فإذا ما قال في سورة البقرة: "ذلك الكتاب لا ريب فيه" فهذا يعني أن القرآن يقول ذلك عن التوراة والانجيل ولا يقصد به القرآن «لأن اسم الاشارة "ذلك"، كما يقول فقهاء النحو، يُرينا البَعيد والمفارق للمرء المشير بذلك. ولو كان مُراد القرآن أن يعني القرآن عينه لما قال "ذلك" وإنما "هذا"، الذي هو اسم الاشارة للقريب الحاضر. فلم يكن المعنى عن القرآن الذي قيل فيه ذلك القول، أو الكتاب الذي يتكلم بذلك، ولكن كان المَعني به كتاب غير القرآن، وهذا لا يكون إلاّ كتاب الله الذي لليهود وللنصارى وهو التوراة والانجيل[741]».

ولتدعيم حجّته يضيف كوادانيولو مقاطع أخرى تُثبت أن القرآن حينما يقصد نفسه فهو يستعمل جهرة اسم الاشارة "هذا" وليس "ذلك". لدينا في سورة الاحقاف "ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا"، وفي سورة يونس قال: "وما كان هذا القرآن ..". ولذلك فإن القرآن حينما يتكلم عن ذاته، ويحتاج اسم اشارة للتدليل عليه، فهو يُدخل اسم "هذا". النتيجة هي أن القرآن إذا قال "ذلك الكتاب" فالمراد من ذلك هو كتاب غير القرآن، ولكن لم يكن في العالم قبل القرآن غير كتاب النصارى، أي غير التوراة والانجيل.

8. سرقات كتابكم

لكن لا يمكن أن تخفى على لاهوتي متبصّر، عليم بالكتب المقدسة، مثل كوادانيولو، الاقتباسات العديدة التي قام بها محمد من التوراة والإنجيل وكيف أدمجَ كثيرا من الأحداث والقصص في قرآنه. وقد خصص لها كوادانيولو صفحات مطوّلة، أكتفي منها بهذه المقاطع: «القرآن نقل الأحاديث عن كتب موسى دفعات كثيرة حتى أنه لا توجد سورة يخلو منها قول وكلام وحديث من سفر الخليقة ومن سفر الخروج ومن سفر اللاويين ومن سفر العدد ومن سفر التثنية.

فمن سفر الخليقة ذكر القرآن تجربة ابراهيم والفُلك لنوح وخطية آدم وطرده من الفردوس، واسحاق ويعقوب واسماعيل وفرعون ويوسف. ثم من الخروج ذكر القرآن مولد موسى وإلقائه في النهر، وبنت فرعون التي اتخذته ابنا لها والعبودية ومن ثم خلاص بني اسرائيل وانشقاق البحر وطريقه اليابس وغرق فرعون وغمامة البرية والمنّ والسلوى والعجل المسجود له وما إلى ذلك.

ثم من سفر العدد ذكر القرآن ذبيحة البقرة في سورة البقرة ونَقَل ذلك من الاصحاح التاسع عشر؛ وذكر أيضا اخراج الماء من الصخرة الذي قِصُّته في الاصحاح العشرين من سفر العدد والقرآن ذكره في سورة البقرة أيضا. ثم من سفر القضاة ذكر القرآن في سورة البقرة ما يقال في الاصحاح السابع على جند جدعون يغترفون الماء؛ وقول القرآن كالتالي: "فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مُبتَلِيكم بنهر فمَن شرب منه فليس منّي ومن لم يطعمه فإنه مني إلاّ من اغترف غرفة بيده"،

أما قول الكتاب المقدس في سفر القضاة في الاصحاح السابع كالآتي: "وقال الرب لجدعون هذا الشعب الذي معك أيضا كثير، انزلهم إلى الماء وجرّبهم هناك"، ثم بعد قليل قال الكتاب المقدس "وأنزل الشعب إلى الماء وقال الرب لجدعون كل من يشرب الماء بلسانه كما يشرب الكلب فاعزله ناحية، وكل من يجثو على ركبتيه ليشرب، أقِمْهُ ناحِيَةً، وكان الذين يلعقون الماء بأيديهم ثلاثمائة رجل، وباقية الشعب جثوا على ركبهم ليشربوا الماء".

ثم من سفر صموئيل ذكر القرآن، في سورة البقرة، أنّ بَني اسرائيل طلبوا الملك إلى صموئيل؛ وغلبة داود على جالوت الجبار، وأن داود صار ملكا. وفي سورة ص ذكر خطية داود

ومَثَل النعجة للمسكين الذي قاله ناثان النبيّ لداود وتوبة داود. ومن أسفار الملوك ذكر القرآن في سورة الأنبياء حكمة سليمان، وفي سورة النمل ذكر مجيئ ملكة سبأ إلى سليمان، ثم في سورة الصافات ذكر غيرة إلياس قائلا: "وإن إلياس لمن المرسلين إذ قال لقومه ألا تتّقون أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين"، وهذا هو ما قال الكتاب المقدس في الاصحاح الثامن عشر من السفر الثالث من أسفار الملوك.

ومن سفر الملوك الرابع حمد القرآن قُدس اليَسَع في سورة الأنعام، إذ قال "وزكريا ويحيى وإلياس كل من الصالحين واسماعيل واليسع ويونس ولوطا كلا فضلنا على العالمين". وفي سورة الاسراء ذكر القرآن عودة بني اسرائيل إلى بناء الهيكل مجددا، كما قصّ ذلك سفر عزرا ونحميا. ومن سفر استير قال القرآن في سورة القصص وكرر ذلك في سورة العنكبوت أن رجلا اسمه هامان كان منافقا وسيّئا ضد بني اسرائيل، وذلك هو ما قيل في سفر استير.

ومن سفر أيوب، حَمَدَ القرآن مرّات قُدس أيوب، كما قلنا في الاصحاح الأول، وقصّ أيضا القرآن في سورة الأنبياء وفي سورة ص تجربة أيوب وصبره وعزاءه، وتعزيته وعودته إلى فَلاحِه الأوّل وإلى خير منه. وحَمَد القرآن الزّبر أيضا مرّات وقال إنها من داود النبي. وفي سورة الأنبياء قال: "ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون"، وهذا هو ما قيل في المزمور السادس والثلاثين إذ قال داود: "الأبرار يرثون الأرض ويسكنون فيها إلى الأبد". وفي سورة الشعراء عند تمامها قال القرآن أيضا: "إنه لفي زبر الأولين".

ومن أسفار سليمان، فقد حَمَد مرّات كثيرة سليمان في سورة الشعراء قائلا عن الضالّين في جهنّم: قالوا وهم فيها، أي في الجحيم يختصمون "تالله إن كنا لفي ضلال مبين"، وهذا الحديث نقله القرآن عن الاصحاح الخامس من سفر الحكمة، حيث قال سليمان، عن قول الضالين في الجحيم الذي سيقولونه هناك: "لقد ضللنا عن طريق الحق".

ونَقل عن أسفار النبيّين أمورا كثيرة وخاصة عن حزقيال ياجوج وماجوج الذين تكلم بهم حزقيال في الاصحاح الثامن والثلاثين والتاسع والثلاثين، والقرآن ذكرهم في سورة الكهف تمام تلك السورة. ومن سفر نبوّة يونس حَمَدَه القرآن كما ذكرنا في الاصحاح الأول، وفي سورة يونس حدّث القرآن عن إكراز يونس في مدينة نينوى وتوبتهم إلى الله وتوبة الله عليهم[742]». هذه الاقتباسات هي برهان كاف حسب كوادانيولو على أن التوراة حق.

أما اقتباساته من الانجيل فيعدّدها كوادانيولو على الشكل التالي: «ذكر القرآن في سورة الأعراف ما قيل في انجيل متّى في الفصل الواحد والستين، وفي انجيل مرقس في الفصل الثاني والثلاثين، وفي انجيل لوقا في الفصل الخامس والستين. وقال متّى: "أقول لكم إن دخول الجمل في خرم الابرة أسهل من أن يدخل غنيّ ملكوت الله". والقرآن قال: "لا تفتح لهم أبواب السماء ولا

يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط". وما قال متى في الفصل الثاني والخمسين ولوقا في الفصل الرابع والثلاثين، وقال ذلك المسيح: "من أراد أن يتبعني فليكفر بنفسه .. إلخ"، فذكر القرآن وقال في سورة النازعات: "وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى". وما يقال عند متّى في الفصل الثامن والخمسين عن العدد سبعين، وذكر مثله القرآن في سورة التوبة، وقال: "إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم".

وما قال متّى في الفصل الثامن أن المسيح جاء ليتمم الشريعة، وذكرها القرآن في سورة المائدة وفي سورة آل عمران. والمثل الذي قاله المسيح في فصل متّى الرابع عشر وفي الفصل الخامس والثلاثين عن الشجرة الرديئة والشجرة الجيدة ذكره القرآن في سورة ابراهيم وقال: "ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة"، وبهذا القول فقد سمّى القرآن المسيح إلها، إذ قال "ضرب الله مثلا".

وعن انجيل مرقس نقل القرآن المثل في الزرع والسنبل الذي قاله المسيح وقصّه مرقس في الفصل الثالث عشر، فقال مرقس: "هكذا ملكوت الله مثل إنسان يلقي زرعه على الأرض وينام ويقوم ليلا ونهارا والزرع ينمى ويطول وهو لا يعلم أن الأرض وحدها تأتي بالثمرة، أوّلا عشبا وبعد ذلك سنبلا، ثم يمتلئ السنبل، والبواقي". وقال القرآن في سورة الفتح: "ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يُعجب الزرّاع".

وعن إنجيل لوقا نقل القرآن أشياء كثيرة ثم قَدّس أبوي يحيى أي يوحنا المعمدان، وذكره في سورة الأنبياء، وصلوات زكريا والوحي إليه من جبرائيل الملك، وصمت زكريا وميلاد يحيى وقُدسه والسلام لمريم العذراء، والبواقي التي قال لوقا في الفصل الأول والثاني والثالث والرابع والخامس، وذكرها القرآن وبَدّلها بشكل يَسير في سورة آل عمران وفي سورة مريم.

والكلمات التي قالها سمعون لمريم عن يسوع ابنها حينما كان طفلا، وقد قصها لوقا في الفصل السابع أي أن عيسى بن مريم موضوع للعلامة، فذكرها القرآن في سورة المؤمنون وقال: "وجَعلنا ابن مريم وأمّه آية". ومن انجيل يوحنا أقرّ القرآن في سورة النساء بما قاله يوحنا في الفصل الأول أن المسيح هو كلمة الله، وقال القرآن في تمام تلك السورة: "يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلاّ الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه".

ومن جميع الأربعة أناجيل ذكر القرآن عجائب المسيح وآياته، وأيضا في سورة آل عمران وسورة المائدة وفي مواضع كثيرة. وإحياء العازر أقرّه المحمديون كما قصّه يوحنا في الفصل الخامس والعشرين.

ثم ذكر القرآن من رسائل بولس أحاديث عديدة، منها مثلا ما قاله بولس إلى القورنتيين في الفصل الثالث من الرسالة الثانية، قائلا عن الإيمان المكتوب في قلب المؤمن، فذكره القرآن في سورة المجادلة وقال: "كتَب في قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروح منه ويدخلهم الجنة".

ثم من رسالة يوحنا الأولى ذكر القرآن ما قال يوحنا في الفصل الثاني قائلا: "منّا خرجوا لكنهم لم يكونوا منّا"، والقرآن في سورة التوبة قال: "إنهم لمنكم وما هم منكم". وأخيرا من سفر رؤيا يوحنا بعد ما تحدث القرآن عن ياجوج وماجوج في سورة الكهف وفي سورة الأنبياء ثم في سورة الدخان، جاء في الفصل العشرين من رؤيا يوحنا الموتة الأولى والموت الثاني وقال: "إن الصالحين لا يذوقون الموت إلاّ الموتة الأولى"، كما قال يوحنا هناك[743]».

النتيجة حسب كوادانيولو هي أن هذه الكتب التي اقتبس منها القرآن وكأنه يشير إليها بإصبعه، ما كان ليفعل ذلك لو حَسِبها غير مقدسة.

9. هاتوا برهان مُعجزاتكم

في رأي كوادانيولو، نبيّ الإسلام وضع نفسه في ورطة لاهوتية كبرى، وذلك لإقراره بمعجزات الأنبياء السابقين ولكن حينما طُلِب منه أن يعمل هو نفسه آية، عجز عن الاتيان بها. قال كوادانيولو: «إن الناموس الذي أعطاه الله بين يدي موسى والشريعة الانجيلية قد ثبتهما الله بعجائب كثيرة، يقرّ بذا المسلمون والقرآن أيضا، حيث قال إن للمسيح سلطان على إحياء الموتى وعلى إقامة العرج وشفاء البرص بل على خلق الخليقة، ولذلك قال في سورة آل عمران إن المسيح صرّح لليهود بهذا القول: "إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وابرئ الاكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما قد تدّخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ومصدقا لما بين يدي من التوراة ولأحلّ بعض الذي حرم عليكم بآية من ربكم".

فقد أقرّ القرآن هنا بأن المسيح له سلطان على تغيير ناموس موسى وأنه أظهر عجائب الله ليظهر سلطانه على تغيير الناموس. وقص القرآن أيضا عجائب غيرها في سورة المائدة، وما نصّه يوحنا في الفصل الثالث عشر من انجيله أقرّ به القرآن أيضا هناك، وأقر القرآن أيضا والمفسرون بأن للحواريين ولتلاميذ المسيح قدرة على عمل العجائب وأنهم عملوها كما ذكرنا في سورة يس[744]».

إنّ دينا بلا عجائب ما هو بدين، حسب الذهنيّة المسيحية، لكن القرآن نفسه أكد هذا الأمر في غير موضع، وبالتالي فإن تركيزه على هذه النقطة، أي على معجزات الأنبياء السابقين، يمثل تحدّ كبير للإسلام ويفتح ثغرة أمام المجادلين المسيحيين للطعن في مصداقيّته وإثبات كذب نبوّة محمد. ذلك أن الإنسان المَغرور، يقول كوادانيولو، يقدر على القول إنه مبعوث من الله ولكن «لن يقدر على عمل العجائب بإذن الله، وقد أقر القرآن بذلك في تمام سورة غافر: "وما كان لرسول أن يأتي بآية إلاّ بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق"[745]».

كل هذه العجائب التي تثبت صدقية الرسالة لم يأت بها محمد ولم ينصّ عليها القرآن «محمد لم يعمل قط عجيبة بإذن الله والقرآن يقر به، ولذلك فإن كثيرين من أتباع محمد كانوا يَرجعون عنه مُدبِرين لأنه لم يعمل قط عجيبة قُدّامهم ليظهر أنه من الله. فقال في سورة الروم "فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولّوا مدبرين"، حيث عنى أن محمدا لم يفعل عجيبة

ولذلك فإن من آمَنوا به حُمق إن هم لم يَروه يعمل عجائب وبعدما أدركوا أنه ليس له علامة أو آية تدلّ على أنه رسول الله، بعضهم تعقّلوا وكانوا يُهمِلونه ويتركونه كأنه مغرور وخادع لأنه كان يقول إن الله قد أرسله ولم يظهر دليلا يدل على ذلك[746]».

والقرآن نفسه قد نصّ على كل هذه المجادلات، يقول كوادانيولو، ويتساءل: لماذا محمد لم يُحيِ قط ميتا؟ لماذا لم يُسمع قط أصمّا؟ لماذا لم يعمل عجيبة تشبه الأنبياء السابقين؟ وإذا لاحظ أن أتباعه كانوا يتركونه لأنه لم يُرهم عجائب الله، فلماذا لم يثبّتهم بعلامة لو كان له سلطان من الله؟ وهو يقر بأن أولئك يرغبون منه في العجائب والعلامات ليعرفوا أنه فعلا رسول من الله، وجاء في سورة الاسراء: "وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ... الخ". بهذا الكلام فإن هؤلاء يُبدون تَعقّلهم ويُطالبون بالعلامات الظاهرة، يقول كوادانيولو، وبدل أن يستجيب محمد لطلبهم «أجابهم ـ ليس كما كان يقول الأنبياء أو كما في الانجيل ـ أنّ الله قال له: "قل سبحان ربي هل كنتُ إلاّ بشرا رسولا" ..».

لكن هذه الإجابة، يعترض كوادانيولو، لا تفيد شيئا، فهي مصادرة على المطلوب، «لأن هذا ما يطلبونه أي البرهان على أنه رسول». هم يريدون منه «علامة إلهية تدل على أنه نبي الله. وكيف كان يدّعي أنه رسول الله ووزيره إذا لم يظهر صحيفة مكتوبة بيد الله أو مختومة بختم الله ـ فإن خَتْمَ الله هو العجيبة والآية. ولماذا لم يُظهرها محمد إذ قال إن الله أرسله؟ ومَن يُصدّق بقول شخص يقول إن الملك وزّره إذا لم يُظهر رسائله وخواتمه؟[747]».

إن هذا الأمر يُثبت أن محمدا، كما يقول كوادانيولو «يعرف أن عوز العجائب سيكشف افتراءه ويكذّبه، ولئلا ينكشف بسبب نقصان ذلك تفكّر وافتعل حجة واستنبط من عقله ونيّته أباطيل الأقوال. فقال إنه قد عمل عجيبة ولم يرها أحد إلا هو وحده كما في سورة القمر: "اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا أهواءهم". وفي سورة النّجم قَصّ أنه صعد إلى السماء وقرب من الله قاب قوسين[748]».

كان يفتعل دائما حججا واهية، يقول كوادانيولو، ويجتنب مساءلتهم على العجائب «وطلب منهم الايمان بقوله بلا علامة من الله وتفوّه بمعجزات لم يرها أحد كما تصوّرها في باله ودلّسها[749]».

10. الإسلام دين وثنيّ

إن الشارع الحق، يقول كوادانيولو، لا يقدر أن يفرض للناس قوانين جائرة أو يحل لهم عمل الشر الذي هو شر في طبيعته. وقد قال أرسطوطاليس في الفصل الأول من الكتاب الثاني من الإيثيقا أن المشرعين الذين يأمرون رعيّتهم بأعمال جائرة غير مقسطة يصيرون بذلك خطأة وساء فعلهم، ثم في الفصل الثالث من الكتاب السابع من البوليطيقا قال إنه لا سلطان أو قدرة للشارع أن يشرّع أمرا ضد الطبيعة لأن كلما هو واجب للطبيعة بنفسها فينبغي لها دائما أبدا، ولا يمكن أن يصير لها غير واجب لاختلاف المكان أو لتغيير الزمان أو لتحويل الاحوال ولواحقها بل ينبغي لها في كل مكان وفي كل زمان وفي جميع الأمم وفي جميع الدهور، كمثل النار التي تحرق هاهنا وهنالك، عندنا وعند الفرس. فمن كلمات أرسطوطاليس هذه يتبيّن أن الشر بطبيعته لا يحل قط لشارع أن يأمر به رعيّته. ولو تجاسر شارع على الأمر به فهو يصير خاطئا لا شارعا. وقد قال هذا معلّم أرسطو، أفلاطون الفيلسوف الأكبر في محاورة مينوس.

لكن محمدا، يقول كوادانيولو، لا يأمر إلا بالفواحش، وقد فرض للمسلمين عبادة الأوثان أو وصايا تقود إلى عبادة الأوثان كما جاء في كتب السنّة من فرض تقبيل الحجر الأسود[750]. في رأي كوادانيولو محمد كان يحرّم بكلام عامي عبادة الأوثان لكن بأوامره فرض للمسلمين عبادة الأوثان حقا[751].

ليس هذا فقط بل إن محمدا ألّه نفسه في قوله: "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، وعبادة الأوثان هي ليست شيئا آخر غير عبادة المخلوقات، إذ تُعبد عبادة مساوية لعبادة الله «أمّا قول محمد كأنه دليل على العبادة لمحمد، كأنه الله، وكأنه يعني أن محمدا مساوٍ لله، لأن ذلك القول: "لا إله إلاّ الله ومحمد رسول الله" مراده أن يعني أنه ليس اله شخص إلاّ شخص الله ومعه شخص محمد أيضا هو الله [..] وإن لم يقبل المسلمون بذلك المعنى ... لكن محمد اجتهد بأن يتخذ لنفسه كرامة اللاهوت لو أنه استطاع ذلك، وهذا بيّن من دعوته المسلمين أن يقرنوا اسم محمد مع اسم الله دائما ليتراءى مساو لله[752]».

إن تعاليم محمد تبدو، يقول كوادانيولو، على الوهلة الأولى وكأنها «تنبذ الرذائل والقبائح والفواحش بقول عامي فضفاض، ولكن فرائضه الخاصة ترذل الفضائل وتأمر بالفواحش والقبائح

والرذائل. لقد حضّ المسلمين على شرّ أشر من الشرور جميعها، وعلى قبح أقبح من القبائح كلها، أي العبادة للأوثان والمخلوقات، إذ فرض على الناس عِبادةً مثل عبادة الله حتى أنه يأمر مُرائيا بالفضائل والخير بأقوال عامية، ولكنه بالجدّ لم يأمر إلا بشرور وفواحش ورذائل، لأنه كما قال المسيح في انجيل متّى "وجاء بلباس الحملان ومن داخله كان ذئبا خاطفا". فإنما مَدْح محمد للفضائل بأقوال عامية هو لباس الحمل لكن الأمر الخاص وفرض أن يُقَبِّل الحجر ويُولّى الوجه شطر المسجد الحرام حيث كان الوثن وإباحة الشريعة لهوى الجسد وللزنا وللفسق وما إلى ذلك هي أثمار محمد التي يُعرف منها عقل محمد ونيّته وشأنه، إنه شأن ونية ذئب حسبما قال المسيح في الموضع الذي ذكرناه من انجيل متى، إذ قال بعده "من ثمارهم تعرفونهم"[753]».

11. لا خيار للمسلمين إلاّ اعتناق المسيحية

وبالجملة، المسلمون لهم خيار واحد وهو اعتناق الديانة المسيحية والالتزام بشريعة عيسى إن أرادوا خلاص أرواحهم، لأن ما عندهم هو لا شيء، بل هو الشرّ المطلق: «القرآن فيه أباطيل وفواحش كثيرة ونقائض الحق ونقائض العدل ونقائض الدين ونقائض التقوى وضد محبة القريب وضد محبة الله. لقد جدّف عليه سبحانه وسمّى الله ماكرا وخادعا. قال في سورة آل عمران: "ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين"؛ وفي سورة النساء سمى القرآن الله خادعا: "والله خادعهم". وفي سورة آل عمران قال كأنّه متضرّع إلى الله "ربّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا". وفي مواضع غير المذكرة أعلاه قال أيضا إن الله يضلّ البشر وأن الله خادع وماكر[754]».

كوادانيولو قال إنه عرّى الإسلام وكشف أكاذيبه وعيوبه كلها والتي تركزت على وجه الخصوص في القرآن وتعاليمه: «لقد انكشفت أباطيل القرآن وقبائحه وكذبه وتناقضاته في أقوال كثيرة. وأظهرنا أن القرآن ليس كتابا من عند الله بل هو باطل وتخليط من كلام زور .. وثبَتَ أيضا قولنا عن أباطيل القرآن من فساد ونفاق محمد الذي ألّف القرآن، وهو ازداد سوءاً لأنه سَتَر سوءه بتسميته نبيّا[755]».

المجادل المسيحي يَنْعَى لحظّ المسلمين المتشبّثين بالقرآن وبشريعة محمد لأنهم لن ينالوا أي شيء في الدنيا ولهم الخسران في الآخرة «فإن القرآن لا يردّ النفوس إلى الله لكنه يردّها إلى الجحيم والهلاك وأنه ليس أمينا لكنه ماكر ووعوده غير حق، وأنه لا يُعلّم الصغار بل يُجهّلهم ولا يُعلّم بالعدل بل بالجور لفائدة محمد ولهواه. ليست شريعة مضيئة، تضيء العيون بل تُظلِّم العيون وعقل البشر بوصاياها الفاحشة وغير الثابتة، والقرآن ليس ثابتا أو مستقرا بل قلقا ومنزعجا وتائها، وأنه ليس حقا بل باطلا ولا منسجما مع نفسه بل ينقض نفسه بنفسه ... ويدفع النفوس إلى جهنّم بطريق الرذائل[756]».

من الأفضل للمسلمين أن يعتنقوا إذن شريعة المسيح «فهي ليست خادعة بل أمينة، ووعودها حقة وتهدي الصغار صراطا مستقيما وتفرّح القلوب وهي منيرة ومضيئة مقدسة عفيفة ظاهرة[757]». وليس شريعته فقط بل أن يؤمنوا أيضا بما برهن عليه كوادانيولو من أن «المسيح هو الاله، حسبما أوضحناه، بشهادة الله من الكتاب المقدس وبشهادة القديسين وبشهادة جميع الأنبياء والمعلمين[758]»،

وأن يُضيفوا إليها أسرارها وتراثها الكتابي كله، يعني أن يؤمنوا بأنّ «سرّ ثالوث أقانيم الله هو حق مثلما هو حق أيضا جميع ما أكرز به إيمان المسيح وشريعته من أجل أن المسيح قال كذلك، وكذلك أكرز تلاميذ المسيح وكذلك أيضا المجامع المقدسة[759]».

فالدعوة مفتوحة إلى محاوره، ومن خلاله إلى المسلمين، وكوادانيولو يُعْرِبُ عن ذلك دون مواربة: «نحن الآن نجتهد بأن نردّ الضالين الى استقامة الصواب أي إلى الإيمان بالله الحق من ضلالهم وإلى شريعة المسيح من أباطيل محمد ونجتهد بذلك لمحبّتنا التي أحببناهم بها ولذلك ندعوهم إلى المسيح ونَعِظهم على قبول شريعته، تلك الشريعة التي قصدها الله من البدء والتي أعدّ لها طريقها ناموس موسى والتي تنبّأ بها جميع الأنبياء وشرّعها المسيح وأكْرَز بها الحواريون وشهد لها الشهداء وحفِظها القديسون ومَدَحها المُعلّمون وتحدّث بها الانجيليون .. تلك الشريعة التي قال عنها أعداؤها أيضا أنها شريعة من الله مثلما أقرّ بذلك القرآن أيضا والناس أجمعين وإن كانوا غير مؤمنين[760]».

ثم يتوجّه إلى محاوره المسلم، أحمد زين العابدين، ويَودعوه بأن يلتحق بهذا الدين، ويَنبُذ دينه الخرافي: «فارغبْ لذلك إن تنظر أنت إلى حقّ وصواب هذه الشريعة المقدسة، وتتلوها وتَتأنّى عليها، وتصدّقها وتقبلها وتحققها وتقرّ وتعتقد بها، ولا تعتقد أباطيل القرآن مثل أن الشمس تغرب في عين حمئة، وأن البحر أو الأرض مقارن للسماء وأن الأرض على قرن ثور مثلما قالت السنة أو أن الملائكة سيموتون وأن الوحوش سيقومون بعد الموت وأن البهائم تدخل الجنة، واختلاق القرآن وأساطير كتب محمد[761]».

لكن يشترط عليه أن يَتقيّد بدين واحد وأن يَسْتبعد الملل الأخرى كافة، يعني أن لا يعتقد في خلاص أهل الأديان المغايرة كما قال مرّة القرآن إن اليهود والنصارى والصابئين سيدخلون الجنة. بالنسبة لكوادانيولو هذا خلط مريع لأن الطوبى والسعادة «لا يدركها كل الناس مثلما قال القرآن، أي الصابؤون واليهود والمسلمون والنصارى جميعا: فهم ليسوا جميعا بمؤمنين بل ينبغي أن يكون منهم ثلاثة مذاهب غير مؤمنة، لأن بينهم اختلاف في إيمانهم[762]». كوادانيولو يُضيّق نطاق الخلاص من المسيحيّة كلّها إلى ملة الكاثوليك وهكذا فهو ينصح محاوره بأن يتحوّل إلى هذه الملّة وأن يؤمن بأسرارها، لا إلى البروتستانتية أو الإنجليكانية أو الفِرق الأخرى لأن ما عدا الكاثوليك، الكل في ضلال. فعلا، لن يدرك الحياة الأبدية والسعادة الأخروية إلاّ «أولئك الذين يتبعون الحق، لا أولئك الذين يتبعون الباطل، والذين يتبعون الحق وشريعة الله بالحق ليسوا إلاّ النصارى الكاثوليكيين الذين يتبعون الإنجيل وجميع أسفار الكتب المقدسة، ... وحدها الملّة المسيحية الكاثوليكية (nisi sola Christiana Catholica) هي شريعة الله بالحق[763]».

IX

خاتمة
... واخرجْنا منهم سالمين

كيف يَنظر الفيلسوف إلى هذه التّهجّمات المُتبادلة؟ ما حُكمه على عداوات أهل الأديان وحروبها المتواصلة؟ إنها خرافات تُحارب خرافات، لامنطق يُنازع لامنطق، جنون يَطحن جنونا؛ مشهد مؤلم جدا، لكن الخاسر الأوحد فيه هو العقل. كيف لا والدين، كما يقول العظيم دُولباخ، عدوّ للعقل والمَدنيّة والأخلاق، فهو لا يَصنع إلاّ طغاة شرسين، ولا يربّي الشعوب إلاّ على الخنوع والبؤس؛ المبادئ الدينية غرضها الوحيد هو تخليد الطغيان والتضحية بالشعوب وتأبيد شقائها؛ الدين يدمّر أسس الضمير الأخلاقي ويُشجّع على الانحراف والعنف؛ كوارث لا تحصى ولا تعدّ ينتجها الدين الذي لوّث الأخلاق وشوّه كل الأفكار السديدة، ومَسَخَ جميع التعاليم المفيدة؛ كل دين، بما هو كذلك، هو غير متسامح، وبالتالي كل دين يَمنع من فعل الخير؛ الدين يُطلق العنان للرّذائل، ويُضفي الشرعية عليها، ويسمح بكل أنواع الجرائم لتحقيق مخطط الله؛ كلّ أخلاق تتنافى مع المعتقدات الدينية؛ الدين يشلّ الأخلاق ويقضي على الفطرة السليمة. في النهاية، كل هذه الأسباب وغيرها أدّت بالناس إلى الإلحاد، لأن الدين عبثيّ وإله الأديان شرّير ووحشي.

إن هذا التشاحن يذكّرني بالمُجادلين المسيحيين في بعض الفضائيات الذين يَنقدون الإسلام نقدا عقلانيا، باستعمال ترسانة التاريخ النقدي والتحليل الفيلولوجي ومقارنة النصوص، ولكنهم يمتنعون عن إخضاع كتبهم "المقدسة" لنفس العملية النقدية، ويتحصّنون بالأسرار والغيب وما وراء العقل. وفي مقابل ذلك هناك المئات من القنوات الإسلامية التي تُفرز كل ما لديها من تهجّمات ضد المسيحيين وكُتب الأديان الأخرى، ولكنها تُحصّن أساطيرها المضحكة تحت تعلّة الوحي الإلهي وقدسيّة القرآن. يهود، مسيحيون، مسلمون وأهل الملل في العالم يقفون في كفّة واحدة والفيلسوف يَقف في الكفة الأخرى ويُرَجَّح عليهم من جميع الوجوه. لأن الأديان كلها لا تساوي عقل فيلسوف واحد، الكتب المقدسة لا تساوي محاورة واحدة من محاورات أفلاطون.

أهل العقل في راحة، لأنهم خرجوا من هذا النفق المظلم ونَبَذوا نهائيا خرافات الأديان وجُنونها؛ طَلّقوا بلا رجعة آلهتها الاجرامية، شَطبوا من ذاكرتهم كُتبها العنيفة. شعارهم هو: دافعوا عن عقولكم كما لو كنتم تدافعون عن حُصون مدينتكم. وأهل الأديان يعرفون ذلك، وبالتالي من الطبيعي جدا، أن يتربصّوا بهم ويتلاحموا ضدهم وأن يُعلّقوا ظرفيا عداواتهم، لكي يهجموا على العقل. وهجوماتهم متكررة منذ ألفي عام ولكنهم لم يستطيعوا إلى اليوم أن يحققوا نصرا واحدا، أن يخترقوا حصن العقل، وإنما العقل هو الذي اخترقهم ودمّر معالمهم الواحدة تلو الأخرى، ولم يَبق منهم إلاّ مجموعة من المحاربين الهزيلين، وهم في طريقهم إلى التلاشي والاستسلام. والمسألة مسألة وقت. سيأتي يوم تَلعَنُ فيه الأجيال القادمة ذاكرة الأديان وكُتبها، وتقرف من المآسي التي تسبّبت فيها للجنس البشري، وستبقى ذِكْراها المُرّة لبعض الوقت ثم تضمحلّ هي نفسها وتتلاشى في بحر الزمن السرمدي.

لكننا اليوم نعيش لحظة تاريخية عصيبة تُحتّم علينا مواجهة هذه الموجة الصاعدة من اللاعقل، والالتزام بجهد المفهوم لكي نُعرّي هذه الأديان ونتصدى لأكاذيبها ونُوَعّي الشباب بأن وعود الجنان والحوريات هي مَكيدة وأوهام، وأن الخلاص لا يأتي من اعتناق أيّ دين في العالم، بل من نبذ الأديان كلها والتمسك بالعقل وحده.

***

لا يمكن للعاقل أن يُنقذ أي دين أو يَتبنّى أيّ عقيدة من عقائد الأديان التوحيدية لأن تعاليمها تَصْدم عقله وتَجرح إنسانيته؛ أمّا كُتُبها فهي خزّان المفارقات والأساطير والعنف، وكل من أراد انقاذها أو عَقلنتها فهو يتعرّى حتما من صفة الفيلسوف. لقد حاول فيلون الاسكندراني، منذ القرن الأول قبل الميلاد، عَقلنة تعاليم التوراة واجتهد لتَنْقية تاريخ أنبياء بني إسرائيل من الشوائب اللاأخلاقية. فماذا كانت النتيجة؟ خلاصة تأويليّة مؤلمة، مُريعة، ولاأخلاقية.

في كتابه عن حياة النبي موسى، حينما وصل إلى حروبه ضد الكنعانيين قال، بكل أريحية، إن موسى «قضى على الأعداء كلّهم (أبادهم على بكرة أبيدهم "αναιρεθεντων")[764]»، ثم إثر المجزرة أقام احتفالات وقدّم القرابين وصلوات الشكر للإله، و"الفيلسوف" فيلون يسرد علينا هذه الأعمال المروّعة دون أن يَرفّ له جفن، وكأنها فسحة في بستان.

وإنْ أردتم أن تروا نسخة تاريخية عتيقة، ومُعبّرة جدا لما سيحدث للفلسطينيّين بعد ألفي سنة، فاقرؤوا هذا المقطع من فيلون، حيث يستعمل فيه تقريبا نفس العبارات المستخدمة من طرف الصهاينة الحاليّين: في المعركة ضد العموريين، تم القضاء الكلّي على الأعداء، بحيث اختفت تماما من مُدُنهم كل القوى الشبابيّة «وهكذا، أصبحت المدن (πόλεις) في نفس الوقت فارغة وملآنة (κεναί καὶ πλήρεις): فارغة من أولئك الذين سكنوها من قَبل [سكّانها الأصليّين (ἀρχαίων)]، وملآنة [مُحتلّة] من طرف المنتصرين. وبالمثل، حتى المزارع في الحقول، (οἰκητόρων)

أفرغتْ من سكانها، واحتُلّت من قِبَل رجال في منتهى الكمال (ἄνδρας βελτίους τὰ πάντα)«.[765]

مجموعة من الرجال الكاملين، سحقوا حشرات: هذا هو منطق الحكيم الاسكندراني، وهذا هو منطق الصهاينة الذين قتّلوا الفلسطينيّين واحتلّوا أرضيهم في 48.

وفي واقعة أخرى يتحدث، بكل سرور، عن ذبْح بني اسرائيل للفلسطينيّين، وكيف أن المحاربين عادوا إلى قواعدهم سالمين، ولم يُقتَل أو يُجرَح منهم ولو فرد واحد. هؤلاء المحاربون، يقول فيلون، كانوا مُشبّعين بالإيمان بالله (πιστευειν θεω)[766]، وهو سلاحهم وآلَتهم وكل قوّتهم التي بها تغلّبوا على أعدائهم. ورغم ذلك فإنه يزعم بأن كل المجازر التي قاموا بها كانت للدفاع عن دين الله، وأن قائدهم موسى، قبل خوض المعركة، أنبأهم بأن هذه المعركة لا تُشنّ من أجل النفوذ أو للاستحواذ على الأملاك وإنما من أجل الدين الحق (εὐσεβειας) والقداسة (ὁσιότητος)[767].

لكن هذا لا شيء أمام ما سيقوله الآن، ودائما بكل سرور وابتهاج. ضعوا بين أعينكم داعش الصهيونية والتّساحال الصهيونية مربّع: «لقد مَسحوا من على وجه الأرض مُدُنا بأكملها، حرّقوها (εμπιπραντες) أو دمّروها (ηφανισαν)، بحيث إنه لا يمكن أن يُقال عنها إنها كانت مسكونة من قبل؛ ويعتبرون من حقّهم قتل الأسرى الذين قبضوا عليهم بأعداد لا تحصى، رجالا ونساء (ανδρας και γυναικας) ... لكنهم أعفوا الصبيان والفتيات ... وبعد أن استحوذوا على غنائم كثيرة، من منازل الملوك والسكّان، ومن منازل أخرى في الأرياف وَصَلُوا إلى المعسكر مُحمَّلين بكل أنواع الخيرات المسلوبة من الأعداء[768]».

وهكذا بعد أن اقتلعوا المدن من الجذور، وقتلوا الأسرى واستحوذوا على الأسلاب وجلبوا الذراري والفتيات الصغيرات، امْتَنّ لهم قائدهم موسى، وأثنى على شجاعة أتباعه، وشكَرَهم لأمانتهم في المحافظة على الغنائم دون الاستفراد بها. لكنه حَرِصَ على تطهير (καθαραι) القاتلين الذين عادوا من المعركة ملطّخين بالدماء ومُحمّلين بالغنائم والسّبايا. ثم يواصل فيلون، دون خجل، أو وخزة ضمير، قائلا: «إن قتل الأعداء هو عمل مشروع ["مطابق للقانون (νομιμοι)"] [769]، لكن من يقتل إنسانا، حتى وإن كان لسبب مشروع كالدفاع عن النفس أو الرد على العنف، فهو مذنب بحكم القرابة الأصلية والجامعة بين البشر[770]». كيف يتمّ التعامل إذن مع مَن يزهق نفسا بشرية؟ لا حرج عليه، يُجيب فيلون، يكفي أن يَتطهّر، ويتخلّص من عدوى الميّت، حتى يسقط عنه الذنب: «لذلك فإن من يقترف جرما يجب عليه أن يتطهّر، لكي يعوّض ما يُحسَبُ أنه عدوى[771]».

يعني: اقتلوا كما شئتم، المهمّ أن تذهبوا إلى الكاهن كي يُطهّركم من أدران الدماء. وهذا الكلام صادر عن رجل يَدّعي بأنه افلاطوني متشبّع بالفكر اليوناني، وغارق في الروحانيات

العبرية[772].

ولم يَكتف بهذه الوحشية، بل إنه أضاف إليها شُحنة من السخرية، حيث أثنى على موسى لِعَدْلِه في توزيع الغنائم وقال بالحرف: «إن هذا التوزيع كان جميلا جدا، "روعة" (παγκάλη)[773]»؛ ثم أشاد بحِكْمَة هذا النبيّ القتّال وفضائله التي فاق بها جميع الناس في كل العصور. فدخل في نوبة هستيرية من التمجيد، ونسي كل جرائمه التي عدّدها هو نفسه؛ قال إن موسى كان أحسن المشرّعين في العالم أجمع (νομοθετῶν ἄριστος τῶν πανταχοῦ πάντων)، أحسن من مشرّعي اليونانيين والبرابرة، بل إنه أعطى «شرائع جميلة جدا (νόμοι κάλλιστοι) وإلهية حقا (ἀληθῶς θεῖοι)[774]».

لكن أغرب ما نقرأ في نص فيلون، على المستوى اللاهوتي، تصوّره المتناقض للإله، فهو من جهة، يحاكي افلاطون في الاعلاء من شأن الإله، ومن جهة أخرى، مُقيّدا بنصه المقدس، يُنزله إلى الحضيض. فيلون الأفلاطوني هو هذا: «الله هو خالق الكل (ποιητης των ολων)، أب الكون، الذي يرفع ويجمع معا الأرض والسماء والماء والهواء وكل شيء يعتمد على هذه العناصر، هو الذي يرأس الآلهة والبشر... عطوف ورحيم، ينشر في كل أنحاء الكون قوّته المُنعِمة[775]».

فيلون الحشوي هو هذا: الاله الخالق القدير الرحيم، يتحوّل فجأة إلى "القائد الأعلى للقوّات المسلّحة (τῷ συμπάντων ἡγεμόνι)، ويَقتسم الغنائم التي سلبَها موسى وجنوده[776].

أخيرا، لكي يُريح فيلون المسيحيين والمسلمين من أتعابهم ـ قبل أن يُوجَدوا بعد ـ ويَسحَب منهم كل مشروعية مُقبلة، فهو ينبؤهم بأن شريعة موسى «هي شريعة ثابتة، راسخة، لا مُتغيّرة، كما لو أنها خُتمت بِخَاتم الطبيعة ذاتها، وسَتَبقى مَكِينة من اليوم الذي كُتِبتْ فيه إلى يومنا هذا، وستدوم في المستقبل ما دامت هناك شمس وقمر وسماء وكوزموس (κόσμος)[777]».

***

لكن فِيلون الاسكندراني لا يعلم أن بَعده بستّة مائة عام سيَبْرُز دين جديد، في بلاد العرب، يَحمل على كاهله تراث العهد القديم ويُعيد إحياء شريعة الحرب التوراتيّة بكل فظاعاتها: من الإبادة الجماعية إلى قتل الأسرى وسبي النساء وتقاسم الغنائم بين النبيّ والإله ...الخ.

وما كان ليَتوقّع، أعني فيلون الاسكندراني، أن بعده بألفي سنة سيجيئ "فيلسوف" من شمال إفريقيا، درسَ الفلسفة في السّوربون ببلاد الغال (فرنسا) وتشبّع من الروحانيات الاسلامية، وسيَنسج على منواله في تبرير أعمال القتل الجماعي والسطو والسبي والنهب التي ذُكرت في القرآن والسّيرة. الآن عرفتم من هو هذا "الفيلسوف"، إنه يوسف الصّدّيق.

الإبادة الجماعية التي ذكرها فيلون تجدونها حرفيا عند الصدّيق؛ وتجدون أيضا الغنائم والسبايا وكيفيّة تقسيم الأسلاب بين النبي والله والمحاربين، وأشياء أخرى لا تقلّ فظاعة عمّا جاء به "الفيلسوف" اليهودي.

في كتاب "هل قرأنا القرآن؟" يتحدّث بكل أريحية عن «معركة حنين التي خاضتها جيوش النبي محمد نفسه[778]»، ويصفها بأنها حرب إبادة، كما صوّرها المؤرخون العرب القدامى، حيث «أدركت هَوَزان نهايتها[779]».

أن يشنّ المسلمون الحروب وأن يُقاربوا على إبادة قبيلة بأكملها فهذا بالنسبة للسيد يوسف الصّدّيق لا يمثّل أيّ احراج، ولا يثير فيه أيّ تساؤل: مجموعة من الأبطال الغزاة دعسوا حشرات وكفى. لقد نَزلنا مع هذا الرجل إلى الحضيض، بل أعمق وأخطر من الحضيض، إلى الدرك الأسفل من الجحيم؛ جحيم الإرهاب.

ويبدو هذا جليّا من استشهاده بالآيتين من سورة الأنفال، لم يذكرهما حرفيّا في المَتن وإنما أحال عليهما في أسفل الصفحة. الأولى تقول: (يسألونك عن الأنفال، قل الأنفال لله والرسول) والثانية: (واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خُمسه وللرسول ولِذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل).

الأنفال هي أسلاب الحرب، يعني عملية الاستحواذ على ممتلكات الناس ونهبها بعد قتلهم وتشريدهم، واسمها الحقيقي "غنيمة"، جمع غنائم، والقرآن ينصّ على إنّ خُمس الأسلاب تذهب إلى الله والخمس الآخر إلى الرسول، أو أنهما يقتسمان الخمس. تصوّروا هذا الكلام يصدر من إله السماوات والأراضين: إله يَقتسم أملاك الناس المنهوبة هو ونبيّه. لماذا نعيب على فيلون وعلى العهد القديم إذن؟ أنا أشك في أن إنسانا مسالما وذا حس إنساني سيَبقى على إيمانه باليهودية والإسلام، وسيواصل في تقديس التوراة والقرآن بعد أن يقرأ هذه الأشياء. إنه كلام لا يمكن أن يصدر إلاّ من قطاع طرق ولصوص فاقدي العقل والإنسانية.

لكن الصدّيق، بما اشتُهر به من خَور وسفسطة، يُبرّر هذه الأعمال الفظيعة واللاأخلاقية، مُستعينا بالثقافة اليونانية القديمة التي جَعلَها المعيار الأوحد للصواب والمعقولية، ومتّخذا منها سلاحه السرّي كلّما أوصدت أمامه أبواب العقل. قال بكل أريحية: «يذهب خمس غنيمة الحرب ... كما جاء في الوحي المُنزّل، إلى الله ورسوله[780]».

ويجب التذكير أنه كان قد أعلن في الصفحات السابقة أن الرسول جاء ليؤسس مدنية وحياة مستقرة في كنف المواطنة والحرية والسلام. لكنه لم يستطع أن ينكر البداهة لأن القرآن يقهره، فتحدث عن غنيمة الحرب التي جاءت في الوحي المنزّل، ثم مباشرة انتقل إلى «عالم الأنثربولوجيا

والإغريقيات» الفرنسي مارسيل ديتيان، لماذا؟ لكي يسوّغ هذه الأفعال اللاإنسانية المنصوص عليها في القرآن ولكي يميط اللثام، حسب قوله، «عن الأصول البعيدة» لهذا الممارسات، التي لم يشجبها القرآن وإنما «بَعثَها وأرساها وفعّلها القول القرآني (remises à jour, réaménagées ou restaurées par la parole coranique)[781]».

تصوّروا هذا التّنكيل! تصوّروا إلى أي حدّ وصلت الوحشية بهذا الرجل! هكذا لدينا "فيلسوف" عليم بالفلسفة الحديثة وبالثقافة اليونانية القديمة التي من المفروض أن تَقِيَه من النزول في قاع الجحيم، وإذا به يتخلّى عن علمه وينسلخ تماما من إنسانيّته، لكي ينخرط في إضفاء مشروعية على أعمال اجرامية. ولا يخجل من التأكيد عليها والقول بصريح العبارة إنّ القرآن: بعثَ وأرسى وفعّل النهب والسلب. وماذا يفعل الآن الإرهابيون الإسلاميون في سوريا؟ ألم يَبعثوا ويُرسُوا ويُفعّلوا القول القرآني؟ أنا أضع هذا الرجل أمام مسؤوليّته وأنتظر منه أن يُدين أعمال القتل والنهب التي يقوم بها الإرهابيون الحاليون، والغنائم التي يتقاسمونها فيما بينهم، وبالتالي أن يدين القرآن منبع هذه الأوامر والمشرّع الأول لها. أطالبه بأن تكون له الجرأة مرة واحدة ويصرّح بقولة صادقة، ويعترف بأن الغنائم هي عمل مناف للحق والعدل والأخلاق، وأنّ من يقترفها هو اجرامي في حق الإنسانية.

لكنني أشك في أن الرجل قادر على أن يخطو هذه الخطوة وذلك لسبب بسيط وهو أنه يُقدّس القرآن، مثله مثل الإرهابيين، زائد أن مثاله الأعلى، اليونانيين، قد فعلوا ذلك وبالتالي فلا سبيل إلى الاستنكار والشجب. ومع ذلك، فإن هذا الفيلسوف العليم بالتاريخ والضليع في اللغات القديمة، مرّة أخرى، سَفسطَ وبدّع لأن أقرب أناس فعلوا مثل هذه الأعمال هم أنبياء بني اسرائيل الذين أمَرَهم يهوه بأن يقتلوا الناس الآمنين ويغنموا أموالهم، كما رأينا ذلك عند فيلون الاسكندراني، وكيف أن الرب بارك أعمالهم، مثلما باركها إله القرآن. ذلك أن كاتِب القرآن استقى مثاله من العهد القديم، وتشبّع من تعاليمه، وليس من الثقافة اليونانية.

لكن الصديق يهرب من المثال الأقرب إليه ويذهب رأسا إلى مكان قصيّ، إلى عالم الإغريق، مُستعينا بأحدث ما توصّل إليه الأنثروبولوجي الفرنسي مارسيل دِيتْيَان لكي يُلمّع صورة الإرهاب ويُغيّب الشكوك على القرآن في المَوْضع الأكثر ظلاما ولاإنسانية، أعني تقتيل الناس ونَهْب أموالهم. (أسْرد المقطع من دِيتْيَان كما استشهد به الصدّيق): «يُمثّل المحاربون جماعة المتساوين. وتقوم المساواة بينهم على أساسيْ تَقاسم الغنيمة وتقاسم الطعام. ويتحدّد الأوّل بنموذج دائري ومحوري يُشكّل المركز فيه المال المشترك، والأملاك الجماعية، وما يضع الجميع على مسافة واحدة منه وفق علاقة تساوٍ صوري[782]».

لسان حال الصّدّيق يقول: إذا فعلها عصابة اليونان العظماء، فما المانع من أن يفعلها عصابة المسلمين الأوائل (والمُحْدَثين)؟ هذا هو منطق السيّد الصدّيق، هذا هو أقصى ما تمخّض عنه عقله الفلسفي اليوناني: أكثر مَقتا وسخرية وتبريرا للإرهاب، وخورا وسفسطة من هذا، لا يوجد.

أقول مَقتا وسخرية لأنه بعد هذا الكلام الخطير، وعوض أن يخجل من نفسه، ويطلب المعذرة من قرّائه، واصل في الاشادة الهستيرية بالقرآن، كما فعل فيلون اليهودي مع شريعة موسى، وقال إن الوحي قد أتى «في محطّة مناسبة من التاريخ ليشرح قدرة النمط المدني على صهر عناصر الديني والسياسي والاقتصادي، وليُعيد بناءها وترشيدها داعيا إلى فعل التعقّل المتجدد دوما، وإلى التجمّع حول فكرة الله الأوحد والتخلّص من شطط الوثنية[783]».

***

أما من الجانب المسيحي فإن الأمر لا يشهد تحويرا أو اختلافا جوهريا، ذلك أن عبد المسيح الكندي، الذي رأينا أعلاه كيف انتقدَ بشراسة نبيّ الإسلام لحروبه العدوانية، ولِحَمْلِه الناس على الايمان بالسيف، عندما واجَهَه مُحاوِره المسلم باعتراض استقاه من كتابه المقدس، راوغ، ثم التجأ إلى أسهل الحلول: إرادة الله. قال: «إنْ ادَّعيتَ أن موسى ويشوع بن نون، قد حاربا أهل فلسطين، وضربا بالسيف وقتلا الرجال وسبيا الذراري، وأحرقا القرى والمساكن بالنار ونَهَبا الأموال. فلِمَ أنكرتَ على صاحبنا (محمد) أمره وفعله؟[784]». صحيح، كل ما جاء في هذا الاعتراض مذكور حرفيا في العهد القديم، وبصورة تحريضية، وعنيفة جدا. واعتراض المسلمين في حقه، رغم أنه تبريري، لأن صيغته: أنتم فعلتم ونحن فعلنا، لا فارق بيننا، وكلّنا سواسية في الإجرام، ودفَعَ الله ما كان أعظم. إجابة عبد المسيح، فظيعة ولاإنسانية، فقد زعم أن موسى ويشوع «فَعَلاَ ما فعلاه عن أمر الله، لِقِوَامِ ما أراده وقدّره، وإنجاز مواعيده. وفَعَلاَ، ذلك بقوْمٍ كانوا قد طغوا وبغوا وتجاوزوا الحد[785]».

ومن ذا الذي لم يَقل ذلك من المسلمين؟ ألا يقدّم الكتاب المقدس هو بدوره نفس الذريعة للقتل؟ ألا يعتمد اليهود أيضا على التعلّة ذاتها؟ ليس هناك من إنسان دموي في التاريخ لم يتذرّع بالإرادة الإلهية لتبرير أعماله الإجرامية.

أمّا توماس الأكويني الذي شنّع على رسول الإسلام حروبه وغزواته وشهوانيّته، حينما وصل إلى حروب يهوه وأوامره اللاأخلاقية حوّرها إلى أخلاقية، بل إنه استخرج قانونا دمّر به منظومة الأخلاق كلّها بحيث إن الفضيلة أصبحت رذيلة والعكس بالعكس. ولا ينجو من هذا القانون أي فِعلٍ قبيح مُنافٍ للعرف والأخلاق والإنسانية، من قبيل السّرقة والزنا وقتل الأبناء. يقول في الخلاصة اللاهوتية: «لا يُعتبَر ظلما إنزال الموت بكل إنسان، بريئا كان أو مذنبا، وكذلك الفسق (الزنا)، يعني مجامعة امرأة رجل آخر معيّنة له بحسب الشريعة الإلهية. فإذن مجامعة الرجل لأي امرأة كانت بأمر الله ليست فسقا ولا زنى، وكذا يُقال في السرقة التي هي أخذ مال الغير لأن كل ما يأخذه آخذٌ بأمر الله، الذي هو رب الكائنات كلها، ليس يأخذه دون إرادة صاحبه، فلا يكون سرقة[786]».

ماذا ترك للإسلام من رذيلة إذن؟ ما الشيء الذي لم تَفَقْ به هذه الشريعة فظاعة الناموس الإسلامي واليهودي؟ وماذا ترك من حيّز للأخلاق إذا طبّق هذه الشريعة التي تسمح بالقتل وتُبارك الزنى والسطو؟ بالنسبة للأكويني يكفي أن يأمر الله بالقيام بأعمال رذيلة حتى تُنزَع عنها صفة الرّذيلة وتُلبس لبوس الفضيلة، والأمثلة متوفّرة بكثرة من خلال الكتاب المقدس بامتياز: «لهذا لمّا سلبَ بنو اسرائيل أمتعة المصريّين بأمرٍ من الله، لم يكن ذلك سرقة لأنه كان مقتضيا لهم به من الله، وكذلك ابراهيم لما رضي بقتل ابنه ... فإن قتله كان واجبا بأمر الله الذي هو رب الحياة والموت ... فإذا نفّذ الإنسان هذا الحكم بأمر الله لم يكن قاتلا ... وكذلك هوشع لمّا ضاجع امرأة زانية لم يزن ..[787]». تصوّروا مجتمعا تسود فيه مثل هذه القوانين الفصلية، والتي، مثل الهندام، تُلبَس وتُنزع بحسب تقلّبات الطقس ومِزاج الشمس.

والمجادل البارع فيليب كوادانيولو، العليم بالقرآن والتوراة والإنجيل والذي توسّع في مسألة العنف في القرآن وعاب على محمد أعماله الحربية، عندما اسْتَعرَض عليه محاوره المسلم، أحمد زين العابدين، نصوص العهد القديم (رغم أنه لا يؤمن بها) المملوءة عنفا وتقتيلا وحروبا، كرّس نفس الإجابة وتذرّع هو أيضا بإرادة الله، قائلا: « إن يشوع بن نون أرسله الله ليُعذّب شعوب الكنعانيّين من أجل خطاياهم، كما هو بيّن من الكتب المقدسة، حيث أمر الله موسى ويشوع وبني اسرائيل بأن يضربوا ويقتلوا شعوب الكنعانيّين حتى يفنوهم[788]». إن هذه المجزرة الفظيعة، هذا الأمر الإلهي بإفناء شعب كامل، لم تُحرك في هذا المنافح الشرس أية مشاعر إنسانية. الفرق الأساسي بين حروب المسلمين وحروب الإبادة التوراتية، حسب رأيه، هو أن إله اليهود، على عكس إله المسلمين، لم يأمرهم بأن يُرغِموا الكنعانيين على الإيمان، أما الإبادة فلا بأس بها.

وإذا كان الإنجيل بالفعل داعيا للسلام ومربّيا على الفضيلة لماذا حرّق المسيحيون الهراطقة ونصُّ الإنجيل بأيديهم؟ لماذا أدان البابا، ليون العاشر، سنة 1520 الأطروحة 33 من أطروحات مارتن لوثر والتي تقول: "إن حرق الهراطقة هو ضدّ إرادة الروح القدس (Haereticos comburi est contra voluntatem Spiritus)"؟ لو لم تكن بذور هذه الأحكام موجودة في النص لما تجرّؤوا على تنفيذها في الواقع.

***

المُجَادِلون المسيحيون لا يتحدّثون إلاّ على العقل، ولا يقدّمون إلاّ العقل كحجّة ضد خرافات القرآن، والمسلمون بدورهم لا يَحتجّون عليهم إلاّ بالعقل ولا يُعيّرونهم إلاّ بلاعقلانيّتهم، وإسرافهم في الخرافة، لكن العقل بريء منهما، لأن كليهما أشرس أعدائه. وقد رأينا أعلاه، كيف أن ريكولدو وكوادانيولو، يَعيبان على القرآن تعامله مع الشيطان ويستنكران زعمه بأن الحيوانات ستُحاسَب يوم القيامة. وهما لم يُجانبا الصواب، لأن الله، في الميثولوجيا القرآنية، عِوض أن يرمي بالشيطان في

الجحيم، نزلَ عند رغبته، وترك له وسعا من الوقت، وحرّية تامة، هو وأعوانه كي يفعلوا ما يشاؤون، بينما توعّد البشرية كلها بأنه سيقذف بها في النار.

إن هذا التصور العنيف لله ككائن يغوي ويضلّ ويبعث الشياطين على مخلوقاته موجود في القرآن منذ بداية الوحي، ومنذ الفترة التي كان يتكلم فيها كاتب القرآن بنبرة صوفية مستخدما أسلوب السّجع والإيقاع الشعري[789]. وهي احدى الأفكار التي استقر عليها ولم يبدّلها بتاتا: "قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمان مدّا"، وهكذا فإن الله لا يكتفي بتضليل عباده الضّالين، يعني مضاعفة الضلالة، بل إنه يتباهى بتعامله مع الشيطان وإلحاقهم ضلالة بضلالة، وكأن هذا العمل بارّ ومن باب الفضيلة: "ألم تر أنّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزا". فعلٌ لا يليق بالإله إن كانت تعزّ عليه مخلوقاته.

أما الشيطان في العهد القديم فهو المهزلة بعينها: ففي سفر أيّوب (6 - 11)، الرب يتحاور مع الشيطان وكأنه يحاور صديقه أو قريبه، ويسأله حتى، "مِن أين أتيت؟" والشيطان يُجيب، بكل طلاقة، وبشيء من السخرية: "مِن الجَوَلان في الأرض ومن التمشّي فيها (أيوب 1: 7)". وهذا يذكّرني بقولة الرب لموسى: "مَا لك تَصْرُخُ إليَّ؟ (خروج 14: 15)".

أمّا الأناجيل فهي تقول إن يسوع فعل شيئا مشابها لما فعله إله القرآن بالشيطان: تَسامَحَ معه، بل نزل عند رغبته، ولكنه صبّ جام عذابه على حيوانات بريئة. وقد لفتتْ هذه الرواية الانجيلية انتباه الفيلسوف العظيم بُورفير (Porphyre)، واسمه الحقيقي "مالك"، أصيل مدينة صور، وأشْبعها تحليلا ونقدا بصورة تُثلج صدر الإنسان العقلاني، وسأختم بها أقوالي هذه: إن حكاية الشياطين التي تتوسل المسيح كي يطلقها، ثم يُدخلها في قطيع من الخنازير، تهرب للبحر ثم تغرق هناك، هي من أكثر الأشياء قرفا بالنسبة لعقل الفيلسوف؛ سمّاها هُراء رَخيصا (ΰθλος)، حماقات جديرة بالمجانين.

جاء في إنجيل مَتّى أن شيطانيْن اثنين خرجا من المقبرة وقابلا يسوع، ولكن، خوفا منه، دخلا في الخنازير وإذا بمجموعة من الشياطين يَخرجون معهم. أمّا مُرقس فقد تحدّث عن عدد مَهول من الخنازير: "يسوع قال له: أيها الروح النجس اخرج من هذا الإنسان، وسأله يسوع ما اسمك؟ فأجابه اسمي لِجْيون لأننا جيش كبير، وتوسّل إليه أن لا يطرده خارج البلد. وكان هناك قطيع كبير من الخنازير يرعى فتوسّلت إليه الشياطين كي يدخلوا في الخنازير، وعند دخولها في الخنازير، اندفع قطيع الخنازير، كانت ألفين تقريبا من على حافة الجبل إلى البحر، فغرقت فيه. أمّا رعاة الخنازير فهربوا".

إن فيلسوفا عظيما مثل بورفير، متشبّعا بالفكر اليوناني، محيطا بعلم المنطق والرياضيات والميتافيزيقا، أمام هذه الرواية الإنجيلية لم يتمالك من إطلاق صرخة فزع وتعجّب. لم يُصدّق ما

قرأه لأنه وجد نفسه أمام رواية مختلَة، فظيعة، وجارحة حتّى لصورة المسيح ذاته. قال: «يا لها من خرافة، يا له من هراء، يا للمهزلة الكبيرة حقا! قطيعٌ مِن ألفي خنزير تركض نحو البحر وتموت كلها غرقا. أنا لا أدري كيف يمكن لأحد، يَسمع الشياطين تتوسّل إليه بأن لا يرميها في الجحيم، يستجيب لدعواتها؛ وعوض أن يُرسلها إلى الجحيم، يُدخلها في الخنازير. ألا يحق لنا القول: يا للجهل! يا للجنون الكوميدي! أن يُلبِّي أحدهم طَلب أرواح قاتلة سبّبتْ أضرارا كثيرة للعالم، ويسمح لها بأن تفعل ما تريده. فعلا، الشياطين تريد أن ترقص في هذه الحياة (χορεύειν ἐν βίῳ)، وبكلّ نَهَم أن تُحوِّل العالم إلى مكان للتّسْلِيَة؛ تبتغي خلْطَ الأرض بالبحر، وصناعة، مِن هذا الخليط، مَشهدا كئيبًا جِدَادِيّا؛ ترغب في قلب العناصر إلى فوضى وتدمير الكون كله وإحلال الخراب مَحلّه[790].

أليس من الأجدر حقا رَمْي في الجحيم، أولئك الذين توسّلوا المسيح بأن لا يُرسلهم إليه، الذين لديهم استعدادات شرّيرة تجاه الإنسان، أي أُمَرَاء الشرّ، دون أن يُذعن لمُناشداتهم، ويَعْهد لهم بمهمّة أخرى لتحقيقها؟

إذا كان هذا الحادث واقعيا وليس مصطنعا (πλάσμα)، كما نرى نحن، فإن عمل يسوع يُبدي حقا الكثير من القُبح (κακίαν): إخراج الشياطين من رجل، ثم ادخالها في خنازير مَسلوبة العقل، ثم إرعاب الرُّعاة وجعلهم يفرّون بسرعة فائقة فريسةً للهلع، ووضع المدينة في حالة اضطراب وإرباك، هي أعمال لا تليق بالإله. إن العدل (Δίκαιον) لا يتمثّل في شفاء واحد فقط أو اثنين أو ثلاثة أو ثلاثة عشر، وإنما شفاء كل الناس، خصوصا إذا أراد أن يبرهن على أنه جاء للدنيا لهذا السبب. لكن، أن يُخلّص شخصا واحدا من الأغلال اللاّمنظورة، لكي يَنقل خِلسة تلك الأغلال إلى آخرين؛ أن يحرّر في الوقت المناسب بعض الناس من مَخاوفهم، ويشحن البعض الآخر بالمخاوف، فهذا العمل يمكن بحق تسميته عملا شرّيرا وليس خيّرا. ليس هذا فقط، بل إن بقبُوله توسّلات الأعداء والسماح لهم بأن يَسكنوا ويُخرّبوا بلدا آخر، فإنه تصرّف كمَلكٍ يدمّر رعاياه: عاجزا عن اخراج الغريب من بلده، يرسله من مكان إلى مكان، مُخلّصا من الشر جزء من البلد والجزء الآخر يُسْلمه إلى نفس الشر. إذا كان، بالمثل، يسوع نفسه عاجزا عن طَرد الشيطان من بلده، وأرسله إلى قطيع من الخنازير، فهو لم يفعل شيئا معجزا حقا، يمكنه أن يلفت الانتباه، وإنما شيئا مليئا بالخسة. فعلا، هذا العمل وحشي في حد ذاته، وقادر أن يُدنّس أُذُن السامع، جاعلا من هذه الحكاية خزّانا من المعاني الشرّيرة.

إن إنسانا حصيفا، يواصل بورفير، بعد أن يسمع هذه القصة وبعد أن يستقصي مغزاها، سيُدين الحكاية فورا، وقد يصل إلى رأي صائب حول الحدث، بقوله: «إذا لم يُحرّر كل العالم من الشر، وإنما اكتفى بإخراج الأرواح الشريرة من بعض الأماكن، واهتمّ ببعض الأشخاص دون أن يلتفت إلى الآخرين، فليس هناك أي أمَانٍ في الالتجاء إليه والاحتماء به". فعلا، الشخص الذي خُلّص سيُثير الألم في نفس مَن لم يُخلَّص، ومَن لم يُخَلَّص سيصبح مُتِّهما لمن خُلِّصَ. وبالتالي، من هذا

أستنتجُ، أن الحكاية كلها مُختلَقة. وإذا لم تكن مختلقة وإنما شيء شبيه بالحقيقة، فهي حقا جديرة بِنَوبةِ ضَحكٍ[791]».

لكنها غير جديرة بنوبة ضحك، بل مؤلمة وفظيعة اتّهامه لمخاطبيه من اليهود بأنهم أبناء الشيطان، كما جاء في يوحنا (لا يمكنكم أن تفهموا كلامي، لأنكم من أب هو إبليس، وتريدون أن تعملوا شهوات أبيكم)[792]. إن هذه العبارة لا تدخل في ذهنية الفيلسوف، سواء فُهِمتْ بمعنى حرفي أم مجازي، فهي مخالفة للعقلية الهلينستية التي يتكلم منها بورفير، ولذلك سماها: «جملة مسرحية»، وسأل: «قل لنا بوضوح، من هو الشيطان، أب اليهود؟ وكيف يكونون مُخطئين في تنفيذ إرادته إن كان الشيطان أباهم؟ فأولئك الذين يُحققون إرادة الأب يفعلون ذلك احتراما للأب وتعظيما له؛ إذا كان الأب شريرا، فإن تهمة الشرّ لا تسقط على الأبناء. قل لنا: من هو إذن هذا الأب الذي بتحقيق إرادته، لا يستمع إليه أتباع المسيح؟ فعلا حينما يقول له اليهود "نحن لنا أب واحد وهو الله"، يسوع يكذّبهم ويقول لهم: "أنتم لديكم كأب الشيطان"، يعني "أنتم من الشيطان". مَن هو هذا الشيطان وأين يوجد، سابّا من لقّبه بهذا الاسم؟».

الشيطان، يقول بورفير، ليس هو المذنب، لكن المذنب من أقام حافز الشتيمة، كما أن المسؤول الحقيقي هو من يضع في الليل عامودا في الطريق وليس من يمشي ويتعثّر فيه، هكذا فإن يسوع عوض أن يعيب عليهم كان من الأجدر به أن يغفر لهم، إن كانوا بغير إرادتهم وقعوا تحت سلطة الشيطان[793].

***

خلاصة القول: لا تطلبوا العقلانية والإنسانية من أيّ دين على وجه الأرض، ومن أي كتاب دُعيَ، زورا، مقدّسا، وبالتالي ـ وهذه نصيحتي ـ لا تقربوا الأديان ولا تقرؤوا كُتبها إلاّ ومِطرقة النقد والتّهديم بأيديكم.

المراجع

- ابن سينا، الأضحوية في أمر المعاد، تح حسن عاصي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1984.
- ـــــــــــ، الشفاء ـ الالهيات، الجمهورية العربية المتحدة [د. ت].
- ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، دار الكتب العلمية، بيروت 1999.
- أبو حاتم الرازي، أعلام النبوة. الرد على الملحد أبي بكر الرازي، دار الساقي، بيروت 2003.
- الأنبا بيشوي، الرد على البهتان في رواية يوسف زيدان، دار انطوان بشبرا 2009.
- التفسير المسيحي القديم للكتاب المقدس: العهد الجديد، انجيل لوقا، نقله إلى العربية الاب ميشال نجم، منشورات جامعة البلمند 2007.
- توما الأكويني، الخلاصة اللاهوتية، المطبعة الأدبية، بيروت 1908.
- ثيودور أبو قرّة، مجادلة أبي قرّة مع المتكلمين المسلمين في مجلس الخليفة المأمون، تقديم وتحقيق الأرشمندريت أغناطيوس ديك، حلب 2007.
- حسن حنفي، "الاغتراب الديني عند فيورباخ"، عالم المعرفة، المجلد العاشر ـ العدد الأول ـ أبريل ـ مايو ـ يونيو 1979، صص، 41 ـ 68.
- ـــــــــــ، مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة 1991.
- سعد الدين بن كمونة، تنقيح الأبحاث في الملل الثلاث، منشورات الجمل، بيروت 2013.

- سعيد ناشيد، الحداثة والقرآن، دار التنوير، تونس ـ لبنان ـ مصر 2016.
- السموءل المغربي، بذل المجهود في افحام اليهود، دار القلم ـ دمشق، الدار الشامية ـ بيروت 1989.
- سيد القمني، شكرا ... بن لادن، دار مصر المحروسة، القاهرة 2004.
- عبد المسيح الكندي، "رسالة عبد المسيح الكندي في الرد على عبد الله الهاشمي"، ضمن: رسالتان في الحوار والجدل بين المسيحية والإسلام، منشورات أسمار باريس 2011.
- فخر الدين الرازي، عصمة الأنبياء، دار الكتب العلمية، بيروت 1988.
- ـــــــــــــ، مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت 1981.
- فيليب كوادانيولوس، إجابة القسيس الحقير فيليبس كوادانيولوس إلى أحمد الشريف بن زين العابدين الفارسي الأصبهاني، روما 1637.
- جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج. 1، بغداد 1993.
- محمد الطالبي، أمّة الوسط، دار سراس للنشر، تونس 1996.
- ـــــــــــ، عيال الله، دار سراس للنشر، تونس 1992.
- ـــــــــــ، ليطمئن قلبي، دار سراس للنشر، تونس 2007.
- محمد المزوغي، الاستشراق والمستشرقون في فكر هشام جعيّط، منشورات الجمل، بيروت 2016.
- ـــــــــــــ، منطق المؤرخ، منشورات الجمل، بيروت 2014.
- محمد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم. ج. 1، في التعريف بالقرآن، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2006.
- محمد نور الدين أفاية، في النقد الفلسفي المعاصر: مصادره الغربية وتجلياته العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2014.
- يوسف الصديق، الآخر والآخرون في القرآن، دار التنوير، تونس 2015.

- ـــــــــــــ، هل قرآنا القرآن؟ أم على قلوبهم أقفالها، دار محمد علي للنشر، تونس 2013.
- يوسف زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف، دار الشروق، القاهرة 2010.
- ـــــــــــــ، شجون مصرية، دار نون، مصر 2015.
- ـــــــــــــ شجون عربية، ن. للنشر والتوزيع، الجيزة 2016.
- ـــــــــــــ، عزازيل، دار الشروق، القاهرة، 2014.

مراجع أجنبية

- Bareille, G., « Ébionites », in Dictionnaire de théologie catholique, ed. G. Vacant – E. Mangenot, Paris, Letouzey et Ané Éditeurs, 1910.
- Batsch, C., La guerre et les rites de guerre dans le judaïsme du deuxième Temple, Brill, Leiden-Boston 2005.
- Bayle. P., Dictionnaire historique et critique, t. 11, Paris, Desoer, 1820.
- D'Aquino. T., Somma teologica, UTET, Torino 1975.
- De Lange, N., Origen and the Jews, Cambridge University Press, Cambridge 1978.
- D'Holbach. B., Le bon sens, Londres, 1774.
- Da Montecroce. R., I Saraceni, a cura di Giuseppe Rizzardi, Nardini Editore, Firenze 1992.
- ------------------------.‚ Liber peregrinationis, in J.C.M. Laurent, Peregrinatores Medii Aevi Quatuor, Lipsiae 1864.

- Propugnaculum fidei toti christianae ,.------------------------ .religionis, Venetiis, apud Domenicum de Imbertis 1607
- Di Alessandria. F., Mosè, a cura di Paola Graffigna, Rusconi, .Milano 1998
- Epiphanius of Salamis, The panarion. Book I (Sects 1-46), trans. .F. Williams, Brill, Leiden – Boston, 2009
- Explication suivie des quatre Évangiles par le docteur angélique .saint Thomas d’Aquin, t. 5, Paris, Librairie de Louis Vivès Éditeur, 1869
- Eusèbe de Césarée, La préparation évangélique, t. I., Paris, .Gaume, 1846
- Gardenal, G., L’antigiudaismo nella letteratura cristiana antica e .medievale, Morcelliana, Brescia 2001
- Goldsack, W., Muhammad and the Bible. An inquiry into the allegation that certain passages of the Bible foretell Muhammad, The .Christian Literature Society for India, 1915
- Guadagnolo. P., Apologia pro Christiana Religione, Romae, Typis .(Sac. Congreg., de Prop. Fide. MDCXXXI (1631
- Inowlocki, S., Eusebius and the Jewish Authors, Brill, Leiden. .Boston 2006
- .Justin, Dialogue avec Tryphon, Paris, Picard, 1909
- Michel, A., art. Trinité, in Dictionnaire de théologie catholique, t. .XV, 2 partie, Paris, Librairie Letouzey, 1950
- Novum Testamentum Greace et Latine, curavit Eberhard Nestle, .Editio decima, Stuttgart 1930

- Origène, Traité des principes, trad. H. Crousel et M. Simonetti, .Pars, Les Editions du Cerf, 1978
- .Porfirio, Contro i cristiani, Bompiani, Milano 2009
- Rizzardi, G., Isa ibn Maryam. Lo sguardo dell'Islam su Gesù, .Centro ambrosiano, Milano 2007
- Seddik, Y., Nous n'avons jamais lu le Coran, Tunis, Med Ali .(Editions, 2015. (Editeur Original, L'Aube, Paris, 2013
- The Jewish Encyclopedia, vol. V, Funk and Wagnalls Company, .New York and London 1903
- .Verrecchia. A, Giordano Bruno, Donzelli, Roma 2002

Notes

[1←]
ني بالدرجة الأولى الديانات التوحيدية، ولكن لا أستثني أيضا الديانات الأخرى.

[2←]
H. D'Holbach, Le bon sens, ou idées naturelles opposées aux idées surnaturelles, Londre
.1774, § 127

[3←]
حاتم الرازي، أعلام النبوة. الرد على الملحد أبي بكر الرازي، دار الساقي، بيروت 2003، ص، 15.

[4←]
ازي، ن. م، ن. ص.

[5←]
سف زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف، دار الشروق، القاهرة 2010، ص، 27.

[6←]
م، ن. ص.

[7←]
م، ن. ص.

[8←]
م، ص، 28.

[9←]
م، ن. ص.

[10←]
تراف نسبي، لأنها تسمّي كتاب اليهودية: عهدا قديما، أي عهدا عفى عليه الزمن، وفقد من فاعليته بعد مجيء العهد الجديد.

[11←]
م، ص، 23.

[12←]
م، ن. ص.

[13←]
م، ص، 24.

[14←]
م، ص، 24.

[15←]
م، ص، 25.

[16←]
م، ص، 58.

[17←]
م، ص، 59.

[18←]
م، ن. ص.

[19←]
م، ن. ص.

[20←]
م، ص، 82.

[21←]
م، ن. ص.

[22←]
م، ن. ص.

[23←]
م، ص، 83.

[24←]
م، ص، 84.

[25←]
م، ص، 84.

[26←]
م، ن. ص.

[27←]
م، ن. ص.

[28←]
م، ص، 84 - 85.

[29←]
م، ص، 85.

[30←]
م، ص، 87.

[31←]
م، ص، 88.

[32←]
م، ن. ص.

[33←]
م، ن. ص.

[34←]
م، ص، 90.

[35←]
م، ن. ص.

[36←]
م، ص، 91.

[37←]
ِاد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج. 1، بغداد 1993.

[38←]
سف زيدان، اللاهوت العربي، م. س، ص، 92.

[39←]
م، ن. ص.

[40←]
م، ن. ص.

[41←]
م، ن. ص.

[42←]
م، ن. ص.

[43←]
م، ص، 93.

[44←]
م، ن. ص.

[45←]
م، ن. ص.

[46←]
م، ص، 94. الاستشهاد من متى المسكين، شرح انجيل مرقس، ص 74.

[47←]
ـهوت العربي، ن. م، ص، 94.

[48←]
م، ص، 95.

[49←]
م، ن. ص.

[50←]
م، 96.

[51←]
م، ن. ص.

[52←]
سف زيدان، عزازيل، دار الشروق، القاهرة 2014، ط 28، ص، 42.

[53←]
م، ص، 59.

[54←]
م، ن. ص.

[55←]
م، ص، 61.

[56←]
م، ص، 67.

[57←]
م، ص، 113.

[58←]
م، ص، 121.

[59←]
م، ،. ص.

[60←]
م، ص، 126.

[61←]
م، ص، 126.

[62←]
م، ص، 139.

[63←]
م، ص، 140.

[64←]
م، ص، 141.

[65←]
م، ن. ص.

[66←]
م، ص، 142.

[67←]
م، ص، 146.

[68←]
م، ص، 146.

[69←]
م، ص، 147.

[70←]
م، ص، 148.

[71←]
م، ص، 153.

[72←]
م، ص، 154.

[73←]
ما رأيتُ الأسقف [كيرلس]، استغربتُ واحترتُ، لأنه أطلّ علينا من مقصور مذهّبة الجدار بالكامل، هي شرفة واحدة، فوقها صليب ضخم من الخشب، معلّق عليه تمثال يسوع المصنوع من الجصّ الملوّن. من جبهة المسيح المصلوب ويديه وقدميه، تتساقط الدماء الملوّنة بالأحمر القاني. نظرتُ إلى الثوب الممزّق في تمثال يسوع، ثم إلى الرداء المُوَشّى للأسقف! ملابس يسوع أسمال بالية ممزقة عن صدره ومعظم أعضائه، وملابس الأسقف مُحلاّة بخيوط ذهبيّة تُغطيه كله، بالكاد تُظهر وجهه. يد يسوع فارغة من حطام دنيانا، وفي يد الأسقف صولجان أظنّه، من شدة بريقه، مصنوعا من الذهب الخالص. فوق رأس يسوع أشواك تاج الآلام، وعلى رأس الأسقف تاج الأسقفية الذهبي البرّاق .. بدا لي كيرلس مقبلا على الامساك بأطراف السماوات والأرض». ص، 182.

[74←]
ذا نص الخطبة التي سمعها: «أبدأ بهذا، لأذكركم بأننا نعيش زمن الفتن، ومن ثم فنحن في زمن الجهاد. لقد انتشر نور المسيح حتى يكاد اليوم يغطي الأرض، ويبدد ظلامها الذي طال .. غير أن الظلمات مازالت تُعشّش هنا وهناك، وتطلّ على أرض الله بوجه الفتن والهرطقات التي تنخر في قلوب الناس .. ولن يهدأ جهادنا لها، ما دمنا أحياء ... لقد وهبْنا أنفسنا لربنا يسوع المسيح، فلنكن جنود الذين لا يرضون إلاّ بإكليل النصرة السماوية، ولنكن المخلصين لدين المخلص،

حتى نلحق بالشهداء والقديسين، الذين عبروا الدنيا ليلحقوا بالمجد السماوي والحياة الأبدية». وهكذا لدينا خطاب جهادي من فم أسقف مسيحي، وبالتالي لا يجب أن نعيب على الإسلاميين أعمالهم الإرهابية الفظيعة. هذه هي الرسالة التي يريد أن يوصلها للقارئ.

[75←]
م، ص، 301.

[76←]
م، ن. ص.

[77←]
م، ص، 302.

[78←]
م، ن. ص.

[79←]
م، ص، 303.

[80←]
م، ن. ص.

[81←]
م، ص، 305.

[82←]
م، ص، 307 - 308.

[83←]
م، ص،308.

[84←]
م، ص، 306.

[85←]
كى عن فتى قابله في الصحراء قصّ عليه مغامراته الجنسية مع عنزة ومع أمّه. اقرؤوها لو أردتم في الصفحة 323 وما بعدها.

[86←]
م، ص، 331.

[87←]
م، ص، 331.

[88←]
م، ص، 384.

[89←]
ظلتُ استماعي مستمتعا بملمس الثوب المخملي الملتصق بجسمها، وبجانب وجهي .. ومن دون تدبير، وضعتُ يديّ على طرف خصرها. جذبتها برفق نحوي، فمالت حتى لمستُ مؤخرتها صدري. وضعتْ هي باطن كفّيّ وأخذتها ليلتقيا عند سرّتها. ضغطت على يدي، فضغطتُ على بطنها ... ارتفعتُ بيدي وقد غطّتها يداها، حتى لمستُ صدرها بيديها يديّ، فعصرتُ ما تحتها، لحظتها اندفقتْ أنهاري الكامنة كمثل شلال آت من أزمنة سحيقة، ليروي أرضا تشققتْ جفافا عشرين عاما. ارتجفت مرتا تلك الرجفة التي عاينتها قبل عشرين عاما، في قبو النبيذ. لكن ارتجافة مرتا كانت أحلى، وأدل على الارتواء». ص، 387.

[90←]
م، ص، 99.

[91←]
م، ص، 400.

[92←]
م، ص، 402.

[93←]
م، ص، 403.

[94←]
م، ص، 407.

[95←]
م، ص، 409.

[96←]
م، ص، 413.

[97←]
سف زيدان، اللاهوت العربي، م. س، ص، 98.

[98←]
م، ص، 97.

[99←]
م، ص، 98.

[100←]
م، ص، 99.

[101←]
م، ص، 99.

[102←]
م، ن. ص.

[103←]
م، ص، 139.

[104←]
P. Bayle, « Nestorius » in Dictionnaire historique et critique, t. 11, Paris, Desoer, 1820, p. 11
suiv.

[105←]
Du Pin, Bibliothèque des Auteurs ecclésiastiques, t. III, part. II, p. 287, édition de Hollanc.

[106←]
P. Bayle, Nestorius, etc., op. cit., p. 11.

[107←]
Baillet, De la dévotion à la Sainte Vierge, p. 3 et.

[108←]
Baillet, De la dévotion à la Sainte Vierge, p..

[109←]
P. Bayle, Nestorius, ibid, p. 123-12.

[110←]
ىف زيدان، اللاهوت العربي، م. س، ص، 139 - 140.

[111←]

ـينما يصف القرآن ما يقدّمه من سِيرِ للأنبياء، بأنه أحسن القصص، مستخدما في ذلك أفعل التفضيل، فإن ذلك يشير بالضرورة إلى قصص آخر، أقلّ حسنا. وما القصص الآخر، فيما أرى، إلاّ الحكايات التوراتية عن الأنبياء، والروايات الإنجيلية عن السيد المسيح». ص، 140.

[112←]
م، ص، 140.

[113←]
م، ن. ص.

[114←]
ن في محاضراته الأخيرة بدأت تصدر منه بعض الإشارات في هذا الاتجاه، والتي وصلت به إلى حد القول إن المسجد الأقصى لا يوجد في القدس. ويبدو أن هذه القولة مقصودة، ربما وراءها أطراف أخرى لتمرير فكرة تصبّ في مصلحة اسرائيل. ومَن يلقي نظرة على فيديوهات بعض الكتّاب المصريين الحاليّين وغيرهم في العالم العربي، يلاحظ تصاعد هذه الموجة المكثفة من مراجعة تاريخ فلسطين، مع التشكيك في مشروعية الدولة الوطنية الموحّدة. وأكثرهم تطرّفا في هذا الشأن هو سيّد القمني الذى أنكر القضية الفلسطينية، وبَرّر سياسة إسرائيل الاستعمارية، وقال إن الصهاينة ليسوا غاصبين للأرض وإنما اشتَرَوْها بالتّراضي مع المُلاّك الفلسطينيين. وهذه مِنّة من السماء نزلت على العدو الصهيوني، وهي الحلم الذي يراوده من زمان، أي تدجين المثقفين العرب وغرس تبريراته الاستعمارية في مجتمعاتنا العربية بفضل شرذمة من المثقفين الذين باعوا أنفسهم للشيطان. هكذا، بكل خساسة، يأتيك مثقف عربي، ألهب مشاعر الشباب، بجرأته على نقد الموروث الديني، وجرّ وراءه آلافا من الأتباع في كامل الوطن العربي، وإذا به يكشف عن وجهه الحقيقي، وراء برقع الكلمات الرنانة، وهو إيجاد مشروعية تاريخية وإيديولوجية للعدو الصهيوني، ومباركة احتلال العراق وتمزيقه، والتكهّن بتقسيم العالم العربي إلى دويلات متناحرة. وقد قالها بالحرف في كتابه "شكرا بن لادن"، وربما لم يتفطّن إليها القراء، حيث اشتغل هناك كنذير شؤم، وقال إنه بعد 11 سبتمبر: «ستتغيّر جغرافية بلدان وتَضيع أوطان وتتخلّق أوطان وتتغيّر ثقافات وتزول ثقافات (سيد القمني، شكرا بن لادن، دار مصر المحروسة، القاهرة 2004، ص، 231). وكأن لديه استعلامات مسبقة بما سيحدث من دمار للعالم العربي، وكأنما أخبروه أن عالمنا العربي مُقْدِم على التفتيت والتقسيم، وسوف لن يبقى منه شبر واحد سليم. وقد تحقق بالفعل جزء لا يستهان به من هذا المخطط، ولكن لم نسمع منه اطلاقا أية عبارة إدانة أو تأسّف على هذا الخراب. وكيف له أن يأسف والطامة التي حلّت بنا جاءت مصدّقة لتنبؤاته؟ أنا لا يهمّني دين القمني ولا معتقد زيدان أو مجدي خليل، أنا يهمني وطنية المفكر ووعيه بأن هناك مؤامرة شيطانية تُحاك ضدنا وسيكون لها تأثير على الأجيال اللاحقة ولمدة قرون.

ـعد مرور اثني عشر سنة على تلك النبوءة المشؤومة، ينتصب، سيد القمني، في احدى محاضراته في بروكسيل، هذه السنة (2016)، ويقول "ليت الاستعمار يعود"، "ليت الغرب يحتل البلاد العربية ويعلّمنا الحضارة". وقد وضع المشرفون على موقع "أدهوك"، المنظمة التي ألقى فيها مداخلته مع أدونيس، المقطع الذي يدعو فيه الغرب إلى استعمارنا من جديد، وكتبوا حرفيا بالإنجليزي: (Sayyed Al Qemany. European occupation should come back to Arab country). ما ترجمته: " سيد القمني: الاحتلال الأوروبي يجب أن يعود للبلدان العربية"، لكنهم حذفوا هذه العبارات من الموقع بالعربي (انظر موقع أدهوك [http://theadhoc.org/en/?cat=16]). إذن، سيّد القمني، لا يكفيه مآسي احتلال فلسطين، وتشتيت الشعب الفلسطيني، ولم يَتَّعِظ من تجربة احتلال العراق وتدميره الممنهج، وقتل مليوني عراقي من طرف الأمريكان، كل هذا الدمار لا يكفيه، بل يريد المزيد ويتمنّى من كل قلبه أن يُعيد الأمريكان تجربة الاستعمار على نطاق واسع، كي تشمل العالم العربي بأسره. ثم بعد أن ضرب القوى اليسارية، واستهزأ بعبد الناصر وبالثورة الاشتراكية، يتباكى علينا، ويقول تضامنوا معي ضد الإسلاميين، ويُريد منا أن نَنسى تصريحاته الهستيرية، ونَقبل بالاستعمار الجديد، ونُطَبّل للأمريكان، ونُقنع الفلسطينيين أن الأرض ليست أرضهم، وأن عليهم أن يُغادروا المكان، أو ينتحروا.

ـا وضعية بائسة، تعيسة جدا وفي غاية الخطورة، لأن بفضل مثقفين من أمثال القمني، الذي يدعو للاستعمار صراحة، ويُمجّد اسرائيل، نما، في المدة الأخيرة، هذا التيّار الصهيوني بين بعض المثقفين العرب، وأصبحوا يُجَاهرون بتَصَهْيُنهم، ويقدّمون الولاء والطاعة للمستعمر. والحال أنهم لا يدرون أن اسرائيل تستخدمهم لمآربها العدوانية، نظرا لشعبيّتهم ومَقْدرتهم على استقطاب شباب متعطّش لخطاب فكري جديد، مضادّ للدين ومناهض للايديولوجيا الإسلاموية.

وأظن أن المسألة هي مسألة تقسيم أدوار: الإرهابيون تَستَعملهم اسرائيل للهجوم على الجيشِ المصري وعلى المسيحيين، والعلمانيون لإيجاد مشروعية فكرية وتاريخية لسياستها الاستعمارية، وهكذا تُغلَق الدائرة ويتمّ تطويق القضية الفلسطينية من كل الجهات، ويساهم الجميع، إسلاميون وعلمانيون، في تَمتِين الكيان الصهيوني وترسيخ قدميه على أرض الشعب الفلسطيني.

[115←]
لر الطريقة التي عرض بها هذه المسألة وكيف يتنرفز ويؤنب المسلمين على جهلهم: «وُصف النبي محمد في القرآن مرّتين بأنه (النبيّ الأمّي) فظنّ الأكثرية من المسلمين أنه أمي، بمعنى الجهل بالقراءة والكتابة! وثبتَ هذا الوهم في أذهانهم طيلة تاريخهم، وصار الذي ينفي عن النبيّ صفة الجهل بالقراءة والكتابة كافرا. مع أن المقارنة بين الآيات القرآنية، تظهر بوضوح أنه، صلى الله عليه وسلم، أمي بمعنى الانتساب إلى أمم (غير اليهودية) والانتساب إلى مكة التي وصفها القرآن بأنها أم القرى». يوسف زيدان، اللاهوت العربي، م. س، ص، 141.

[116←]
سف زيدان، اللاهوت العربي، ن. م، ص، 141.

[117←]
ـهوت العربي، ص، 141.

[118←]
م، ن. ص.

[119←]
م، ص، 143.

[120←]
م، ص، 143. «حتى عندما قصّت الآيات قصة يوسف النبي ابن يعقوب، وما كان من مكر اخوته به، وجريمتهم معه، فكأنه يبرئهم على نحو خفي، وحين حكى القرآن ما كان من محاولة امرأة العزيز غواية النبي يوسف، جاءت الصيغة القرآنية في سورة يوسف، وقورة: (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلّقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون. وقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين. واستبقا الباب)». الأمر مختلف بالنسبة للتوراة التي حسب قوله: «ذكرت هذه الواقعة، مترعة بلفظ الاضطجاع الدال مباشرة على الاتصال الجنسي الفج».

[121←]
ر الدين الرازي، عصمة الأنبياء، دار الكتب العلمية، بيروت 1988، ص، 77.

[122←]
ـسمة الأنبياء، م. س، ص، 82.

[123←]
م، ن. ص.

[124←]
م، ص، 84.

[125←]
سف زيدان، اللاهوت العربي، م. س، ص، 144.

[126←]
م، ص، 145.

[127←]
م، ن. ص.

[128←]
م، ن. ص.

[129←]
م، ن. ص.

[130←]
م، ص، 146.

[131←]
م، ن. ص.

[132←]
م، ص، 147.

[133←]
م، ن. ص.

[134←]
م، ن. ص.

[135←]
م، 148.

[136←]
وسف زيدان، شجون مصرية، دار نون، مصر 2015، ص، 117.

[137←]
م، ن. ص.

[138←]
ن حنفي، "الاغتراب الديني عند فيورباخ"، عالم المعرفة، المجلد العاشر ـ العدد الأول ـ أبريل ـ مايو ـ يونيو 1979، ص، 67.

[139←]
م، ن. ص.

[140←]
سن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة 1991، ص، 129.

[141←]
. م، ن. ص.

[142←]
. م، ن. ص.

[143←]
. م، ص، 130.

[144←]
. م، ن. ص.

[145←]
. م، ص، 131.

[146←]
. م، ص، 132.

[147←]
. م، ن. ص.

[148←]
. م، ن. ص.

[149←]
. م، ن. ص.

[150←]

ـهوت العربي، ص، 220. والفهم الصحيح لعلاقة الدين بالسياسة الذي ارتآه زيدان هو الفهم الاخواني الذي لا يرى سياسة من دون دين، وهذا الفهم الاخواني الذي ما زالت تتخبط فيه مصر إلى اليوم والذي جرّ عليها وعلى العالم العربي كل الويلات، هو ما يريد أن يعمّمه زيدان ويصبّه في عقول الشباب. فعلا، يقول حرفيا: "الفهم الذي ندعو لتعميمه، والتفهّم الذي ننادي بتعميمه"، يتلخّص في هذا التحذير شديد اللهجة لرجال السياسة: "لا يظنّن (السياسي) أن مجالات عمله وفعاليّته التفصيليّة القائمة على قاعدة الإمكان هي بديل مُغْنٍ عن النوازع المطلقة التي يتبنّاها الدين ويؤكدها بمختلف السبل [...] السياسة لن تقوم بذاتها بديلا عن الدين، فما يحقّقه الدين ليقين الفرد، لا يمكن للسياسة أن تقوم به [...] السياسة لا يجوز لها أن تسعى لنفي الدين لصالحها". وهذه رسالة واضحة بعثها منذ 2009، إلى الحاكم للتنبيه، وللشبان الإسلاميين للتذكير بأنه لا يؤمن بالفصل بين الدين والسياسة، وأن الحال يجب أن تبقى كما هي: الأزهر من جهة، والدولة الخاضعة له من جهة أخرى. لأن قاعدة: "اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله"، التي يتهكّم عليها الاخوانجية، ويعتبرونها خاصة بالمسيحية فقط، لأن الإسلام يعتبر ما لقيصر هو لله، يعني لا فصل بين الديني والدنيوي، فإن زيدان مستغلا الدرس الاخواني يحاول هو نفسه أن يعارضها وتقديم البديل عنها. يقول إنه يجب فهم هذه القاعدة فهما صحيحا "لا يقتصر على التقابل الساذج الظاهري بين (قيصر، الله)، وإنما يصل إلى وعي وإدراك عميق لطبيعة التداخل بين العملية السياسية والخبرة الدينية (ص، 222)". التهديد المباشر للدولة يتمثل في القول، دائما من رحم الفكر الاخواني، أن السياسي يجب أن يترك الحركات الإسلامية تشتغل بحرية، وإلاّ فإن وأدها، فستعود عليه بالوبال وسيستشرى العنف وبالتالي الأفضل تركها في حالها. وقد عبّر عن خواطره هذه، كما قلت، ذات المنبع الاخواني، بطريقة مجردة نوعا ما لكن يمكن المسك بمعناها إن نزعنا عنها قشرتها الخطابية: "وقد آن الأوان، لتفهّم الظواهر الدينية الوليدة، ذات الطابع الانبثاقي، والكف ف عن محاولة وأدها بقوّة في مهدها. لأن الذي يحدث عادة، هو أنه من بين بضعة انبثاقات يتم وأدها سياسيا بنجاح مُتخيّل، تفرّ موجة دينية وليدة، وتتسلّح بميراث دفين من القهر المتوالي للموجات السابقة والانبثاقات الموؤودة، فيتضاعف عندها الحقد تجاه المجتمع، مجتمع الساسة والعوام، وتتأكد لديها الرغبة التدميرية والازاحة التامة للسلطة القائمة، التي تراها الجماعات الدينية المحصورة والمحظورة، ممثلة للشيطان. فيدور العنف، ويصير كفاحا ورغبة في الاستشهاد ... ". الدولة يجب عليها أن ترفع يدها عن الدين وإلاّ فإن الوبال والثبور لكم، هذا شعار زعيم الارهابيين في تونس، راشد الغنوشي، صرّح به في 2016.

[151←]

نبا بيشوي، الرد على البهتان في رواية يوسف زيدان، دار انطوان بشبرا 2009، ص، 18.

[152←]

ـرها الأنبا بيشوي، في المرجع أعلاه، ص، 22 - 23.

[153←]

ـم، ص، 18.

[154←]

ـكن الاطلاع على هذه الكلمة وعلى المحاضرة التي ألقاها زيدان في بيروت بتاريخ 24 مايو 2013، على يوتوب.

[155←]

ـا عبد العليم، يوسف زيدان يتحدى: بن لادن لم يكن ارهابيا وابن تيمية عالم كبير، "اليوم السابع" السبت 14 مارس 2015.

[156←]

ـ الصفحة 203 من كتاب اللاهوت العربي وفي جملة واحدة كتب مرتين الإسكندرية بدل السّكندرية: "انسياب قمح المصريين ونبيذهم، عبر بوّابة الإسكندرية التي تسيطر عليها اسقفية الإسكندرية"، ثم في الصفحة الموالية، تذكر اسمها المنحوت من طرفه وكتب: "الشمّاس السكندري المرافق للأسقف ... البابا السكندري"، وفي الصفحة التالية عاد لصورته الأولى فكتب: "الرئيس الديني للإسكندرية وتوابعها ... أسقف الإسكندرية"، الخ. من المحتمل أنه استمدها من

رأفت عبد الحميد المؤرخ الذي استشهد به طوال عمله. لكن هذا المؤرخ الاسلاموي، هو نفسه يراوح بين الكلمتين، ويكتب في نفس الصفحة الأولى والثانية. انظر: رأفت عبد الحميد، الفكر المصري في العصر المسيحي، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة 2000، ص، 21. (فيلوبونوس السكندري ... الفلسفية في الاسكندرية)، ص، 28 (الأسقف السكندري ... في الإسكندرية ومصر بالتالي)، ص، 32 (أوريجين السكندري ... حديثه إلى السكندريين)، ص، 33 (الأديب السكندري)؛ ص، 44 (كان لفلسفة الإسكندرية طابعها الخاص)؛ ص، 50، (رجل الإسكندرية)؛ ص، 51 (ساكاس سكندري المولد .... أفلوطين السكندري)؛ ص، 63 (الكنيسة السكندرية ... أسقف الإسكندرية ... كيريلس السكندري ... مدرسة الإسكندرية ... بطريرك الاسكندرية)، وهكذا دواليك حتى آخر صفحة.

[157←]
سف زيدان، شجون عربية، ن. للنشر والتوزيع، الجيزة 2016، ص، 59.

[158←]
م، ص، 86.

[159←]
سف الصدّيق، الآخر والآخرون في القرآن، دار التنوير، تونس 2015، ص، 42.

[160←]
م، ن. ص.

[161←]
م، ص، 43.

[162←]
م، ن. ص.

[163←]
م، ص، 44.

[164←]
م، ص، 45.

[165←]
ـاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مج. 26، الدار التونسية للنشر، تونس 1984، ص، 204.

[166←]
م، ن. ص.

[167←]
م، ص، 205.

[168←]
سف الصديق، الآخر والآخرون، م. س، ص، 46.

[169←]
م، ن. ص.

[170←]
م، ص، 47.

[171←]
م، ن. ص.

[172←]
م، ص، 47.

[173←]
م، ن. ص.

[174←]
م، ص، 47 - 48.

[175←]
سف الصديق، الآخر والآخرون في القرآن، م. س، ص، 67

[176←]
م، ص، 68.

[177←]
م، ن. ص.

[178←]
م، ص، 69.

[179←]
م، ن. ص.

[180←]
سف الصديق، الآخر والآخرون في القرآن، ن. م، ص، 26.

[181←]
م، ن. ص.

[182←]
م، ن. ص.

[183←]
ذا لم تكن هذه الرسالة قادرة على إقناع الناس في كامل الكرة الأرضية، فليس لها معنى». وهذا يذكرني بما قاله القرضاوي من أن لولا حد الردة لانقرض الإسلام.

[184←]
م، ص، 28.

[185←]
م، ن. ص.

[186←]
م، ص، 30.

[187←]
م، ص، 30.

[188←]
م، ص، 37.

[189←]
م، ن. ص.

[190←]
م، ص، 37 - 38.

[191←]
م، ص، 38.

[192←]
م، ن. ص.

[193←]
م، ن. ص.

[194←]
م، ن. ص.

[195←]
ـد الدين بن كمونة، تنقيح الأبحاث في الملل الثلاث، منشورات الجمل، بيروت 2013، ص، 170 - 171.

[196←]
م، ص، 171.

[197←]
ـسف الصديق، الآخر والآخرون، م. س، ص، 40.

[198←]
م، ص، 72.

[199←]
م، ص، 73.

[200←]
م، ن. ص.

[201←]
م، ص، 74.

[202←]
م، ن. ص.

[203←]
م، ن. ص.

[204←]
م، ن. ص.

[205←]
م، ن. ص.

[206←]
ـ، حسب شهادته الشخصية: «لقد كانت تلك الحصة الاذاعية مهمّة واقتنع مَن بالإذاعة، ومَن استمع إلى ذلك الحوار، أن هذه الآية مرتبطة بظرف تاريخي محدد، وبوضع اقتصادي خاص وقانون معيّن». ص، 75.

[207←]
يد ناشيد، الحداثة والقرآن، دار التنوير، تونس ـ لبنان ـ مصر 2016، ص، 12.

[208←]
سف الصديق، الآخر والآخرون في القرآن، م. س، ص، 75.

[209←]
م، ن. ص.

[210←]
م، ن. ص.

[211←]
م، ن. ص.

[212←]
م، ن. ص.

[213←]
م، ن. ص.

[214←]
م، ص، 75 - 76.

[215←]
م، ص، 78.

[216←]
م، ص، 78.

[217←]
ه هي الرواية التي اعتمدها الصديق: «منذ أسر الشعب اليهودي وخروجه من مصر وطرده إلى بابل في 500 قبل المسيح ضاعت التوراة، لمّا عادوا من المنفى إلى بلاد الرافدين، عادوا إلى فلسطين وكانوا تحت السلطة الفارسية سلطة قروش، اندلعت ثورة سياسية في فلسطين فما كان من الامبراطور إلاّ أن أمر ولاّته في فلسطين وهما (Loemie) و (Ezdra) بإيجاد حل لهذه القلاقل. انتهى الأمر ببيان أن سبب هذه الحرب الأهلية أنهم يفتقدون الكتاب المنزّل. وبحكم أنهم نسوا الكتاب أصبح كل واحد منهم يدّعي معرفته بالكتاب وحفظ صفحات منه، ولكن الخصام تواصل لعدم اتفاقهم في ما يروى، فألزمهم قروش بأن يأتوه بالكتاب المنزل في أجل قصير وإلا فإنه سيعزل ولاّته ويقمع الثورة هو بنفسه أي بجنوده. يقال إن الوالي أزدرة رأى في المنام أنه أنزل إليه الكتاب كما أنزل على موسى حرفيا. حدث هذا في ما بين القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد ونادى على الكتبة في اليوم نفسه عندما استيقظ ليكتبوا ما جاء إليه من التوراة كما أنزلت على موسى. وكتبوا وكانت هذه هي التوراة المستعادة ذاكرة من قبل أزدرة». ص، 78.

[218←]
م، ص، 78.

[219←]
ناك من ذهب، مثل محمود سيد القمني إلى أن الكعبة مصطبة بالمعنى الفرعوني للكلمة، وأن ابراهيم حسب رواية العهد القديم قد زار مصر، بينما القرآن يتعدّى الحكاية ويجعله زار مكة أما عن حلوله ببلاد كنعان المذكور في سفر التكوين، فلم يورد القرآن عنه شيئا، فنحن لم ندرس هذه النقطة. فهل ترى عزير هو فعلا باللغة الهيرالدية المصرية اسمه أزير لأن أوزيريس كلمة يونانية واللاحقة إيس هي ضمن استملاك الكلمة في اللغة اليونانية كما يقال (Londres) عوض (London). وقرينته الإلهيّة إيزيس التي لا يمكن أن تكون إلاّ ما استملكه العرب في لفظة العزّى إلهة المعبد العربي قبل الإسلام». ص، 79.

[220←]
م، ص، 80.

[221←]
م، ص، 80.

[222←]
م، ن. ص.

[223←]
م، ن. ص.

[224←]
موأل المغربي، بذل المجهود في افحام اليهود، دار القلم ـ دمشق، الدار الشامية ـ بيروت 1989، ص، 111.

[225←]
م، ص، 124.

[226←]
م، ص، 125.

[227←]
م، ن. ص.

[228←]
م، ص، 127.

[229←]
م، ص، 134.

[230←]
م، ن. ص.

[231←]
ـد بن منصور بن كمّونة، تنقيح الأبحاث، م. س، ص، 78.

[232←]
م، ص، 79.

[233←]
م، ن. ص.

[234←]
م، ن. ص.

[235←]
م، ن. ص.

[236←]
م، ص، 80.

[237←]
م، ن. ص.

[238←]
م، ص، 81 - 82.

[239←]
Esdras", in The Jewish Encyclopedia, vol. V, Funk and Wagnalls Company, New York and
.London 1903, pp.219-222

[240←]
ـف الصديق، الآخر والآخرون في القرآن، م. س، ص، 80.

[241←]
م، ص، 86 - 87.

[242←]

م، ص، 87. وقد اعترف بانتقائيته في اختيار الأحاديث، تماما مثلما يفعل السفليون وشيوخ الأزهر والإسلاميون المحدثون. رفض حديث الفرقة الناجية، وهذا لم ينفرد به وحده وإنما قال به الجابري والشرفي ومئات المفكرين المسلمين، لكن نظرا إلى أنه لا يخدم مصالحه فقد دعا المسلمين إلى رفضه والقيام بعمل كان قد حطم به المسلمون حيواتهم من قبل: «وجب من جديد إعادة النظر في مدوّنة الحديث وخاصة في رواتها ومنهم من اتهم بالكذب من الصحابة أنفسهم نقصد أبا هريرة، ومنهم من كان طفلا زمن الرسول، ابن عباس، ومازال هؤلاء الرواة عُمدة خطباء صلاة الجمعة في مساجدنا» قال أيضا: «من المسائل المهمة المتعلقة بضرورة تجديد الفكر الديني مسألة الأحاديث النبوية. ففي نظري يجب غربلة كل ما هو حديث من جديد وربما أيضا، علينا أن نعتقد بأن ما دوّن من أحاديث مغلوط، منذ بداية الرواية زمن الشفوية إلى عصر التدوين، وخاصة تلك الأحاديث التي جُمعت في عهد معاوية الخليفة الأموي. إنه لا يمكن لي أن أعتمد ـ ولو بشكل مؤقت ـ كل ما دوّنه الشيخان (مسلم والبخاري) من أحاديث، وعليّ نقدها وغربلتها بمقاييس البخاري نفسه، وهي معايير احترمها لأنها معايير علماء مجتهدين. وأخيرا ليس لي أن آخذ من الحديث ما ينتهي بي إلى نتيجة حاسمة أو حتمية».

[243←]
م، ص، 87.

[244←]
م، ص، 39.

[245←]
م، ص، 76.

[246←]
م، ص، 76.

[247←]
م، ص، 76.

[248←]
سف الصديق، هل قرأنا القرآن؟ م. س، ص، 144.

[249←]
م، ن. ص.

[250←]
م، ن. ص.

[251←]
م، ن. ص.

[252←]
م، ن. ص.

[253←]
م، ص، 145.

[254←]
م، ص، 145.

[255←]
م، ن. ص.

[256←]
م، ن. ص.

[257←]
م، ن. ص.

[258←]
م، ص، 146.

[259←]
م، ص، 147.

[260←]
م، ن. ص.

[261←]
م، ن. ص. هامش: 2.

[262←]
م، ن. ص.

[263←]
م، ص، 147 - 148.

[264←]
م، ص، 148. هامش: 2.

[265←]
م، ص، 148.

[266←]
سف الصديق، الآخر والآخرون في القرآن، م. س، ص، 76.

[267←]
م، ص، 81.

[268←]
م، ص، 85.

[269←]
م، ص، 86.

[270←]
م، ص، 86.

[271←]
م، ص، 76.

[272←]
م، ص، 76 - 77.

[273←]
م، ص، 77.

[274←]
م، ص، 90.

[275←]
م، ص، 91.

[276←]
م، ص، 92.

[277←]
ـاطرة استوحيتها من المفكر الايطالي، أناليكتا فريكيا، وردت في كتابه: جوردانو برونو، روما 2002، ص، 8.

.A. Verrecchia, Giordano Bruno, Donzelli, Roma 2002, p.

[278←]

م، ص، 93. لقد استبدت به كلمة ثقفتموهم وبدأ يفسرها بطريقة تنسي القارئ الأمر القرآني بقتل الناس الآمنين: «ومن تجليات حضور الكلمة أيضا، أنها مرتبطة باسم قبيلة "ثقيف"، تلك القبيلة التي أنتجت سياسيّين كبارا وعلماء محترمين، وشعراء متميّزين (أمية بن أبي الصلت) ولعلّ اسم الحجاج بن يوسف الثقفي من أبرز من يستشهد به في هذا المجال. ولقد كانت قبيلة ثقيف قبيلة مزارعين مهرة، وكانوا مؤسسين لحضارة مهمة، ولكن بعد هزيمتهم ـ هزيمة هوزان كلها، في حنين ـ اندثر اسمهم شيئا فشيئا وقُبر مشروعهم». وهكذا واصل طوال صفحتين، دون أن يعرّج على الكلمات الأولى من الآية: واقتلوهم.

[279←]
مد نور الدين أفاية، في النقد الفلسفي المعاصر: مصادره الغربية وتجلياته العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2014، ص، 160.

[280←]
م، ص، 164.

[281←]
م، ن. ص.

[282←]
مد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، ج. 1، في التعريف بالقرآن، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2006، ص، 20. أفضلية القرآن على الانتاجات العربية الأدبية تتجلى إذا قارناه بالشعر الجاهلي: «وقد يصدق هذا على النصوص الأدبية الأخرى، بل لربما يُصدّق أيضا على أمّهات الكتب أيضا».

[283←]
خل إلى القرآن، ن. م، ن. ص.

[284←]
م، ن. ص.

[285←]
م، ن. ص.

[286←]
م، ن. ص.

[287←]
م، ص، 21.

[288←]
م، ن. ص.

[289←]
م، ن. ص.

[290←]
م، ن. ص.

[291←]
م، ن. ص.

[292←]
م، ن. ص.

[293←]
م، ص، 22، ملاحظة 4.

[294←]
م، ص، 28.

[295←]
م، ن. ص.

[296←]
م، ص، 33.

[297←]
لر بخصوص الردّ على ادعاء المسلمين تنصيص على محمد في التوراة والأناجيل (المحرفة طبعا): القمص سرجيوس، هل تنبّأ التوراة أو الإنجيل عن محمد؟، مصر، [د. ت]. وانظر أيضا:

W. Goldsack, Muhammad and the Bible. An inquiry into the allegation that certain passages o the Bible foretell Muhammad, The Christian Literature Society for India, 1915.

[298←]
ن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، دار الكتب العلمية، بيروت 1999، ج. 1، ص، 122.

[299←]
م، ن. ص.

[300←]
م، ص، 227.

[301←]
م، ن. ص.

[302←]
م، ص، 231.

[303←]
م، ص، 228.

[304←]
Justin, Dialogue avec Tryphon, Paris, Picard, 1909, p. 51-5.

[305←]
Ibid, 2 – XI, 3., p. 5.

[306←]
G. Archambault, in Justin, Dialogue avec Tryphon, ibid., p. 5.

[307←]
Justin, Dialogue avec Tryphon, Ibide.

[308←]
Ibid., p. 5.

[309←]
Ibide.

[310←]
Eusèbe de Césarée, La préparation évangélique, t. I., Paris, Gaume, 1846, VII – 5, p. 2.

[311←]
لر:

S. Inowlocki, Eusebius and the Jewish Authors, Brill, Leiden. Boston 2006, pp. 109-11.

[312←]
Justin, Dialogue avec Tryphon, Ibid., VII-.

[313←]
Ibid., p. 32.

[314←]
G. Gardenal, L’antigiudaismo nella letteratura cristiana antica e medievale, Morcellian .Brescia 2001, p. 28

[315←]
ا التمييز بين اليهود والعبرانيين نجده أيضا عند أوريجينس، فهو بدوره يرى أن العبرانيين هم الأسلاف الروحانيون للكنيسة المسيحية، ورمزيات الخروج من مصر هي بنفس القدر من الأهمية سواء للمسيحيين أو لليهود. لكن العبرانيين الحقانيين هم المسيحيون. انظر:

.N. De Lange, Origen and the Jews, Cambridge University Press, Cambridge 1978, pp. 41-4

[316←]
.Eusèbe de Césarée, La préparation évangélique, op. cit., p. 32

[317←]
.Ibid., p. 32

[318←]
.Ibid., p. 33

[319←]
.Ibid., 33

[320←]
.Justin, Dialogue avec Tryphon, op. cit., 3 – XIII, p. 5

[321←]
.Ibid., p. 7

[322←]
.Ibid., p. 7

[323←]
.Ibid., 1-XVII, p. 80-8

[324←]
ابري، مدخل إلى القرآن، م. س، ص، 34.

[325←]
م، ص، 38.

[326←]
م، ص، 38.

[327←]
م، ن. ص.

[328←]
م، ص، 39.

[329←]
ن نتحاور بعديا مع فكره وليس مع شخصه، لأن كما هو معلوم الجابري توفي سنة 2010.

[330←]
م، ص، 39.

[331←]
م، ص، 39 - 40.

[332←]
م، ن. ص.

[333←]
م، ن. ص.

[334←]
م، ن. ص.

[335←]
م، ن. ص.

[336←]
م، ن. ص.

[337←]
م، ص، 41.

[338←]
م، هامش 41.

[339←]
م، ن. ص.

[340←]
سابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة، ترجمة القمص مرقس داود، مكتبة المحبة، القاهرة 1998(3)، ص، 256.

[341←]
م، ص، 272.

[342←]
Eusèbe, Histoire ecclésiastique, traduction française par Émile Grapin, Paris, Alphonse Pica
.et fils Éditeurs, 1911, VI, 33, 1, p. 239

[343←]
Cfr., Origène, Entretien d'Origène avec Héraclide, introduction, texte, traduction et note
.Jean Scherer, Paris, Cerf, 1960

[344←]
.Eusèbe, Histoire ecclésiastique, VI, 33, 2, p. 245-24

[345←]
يجانس، في المبادئ، عرّبه وقدّم له الأب جورج خوّام البولسي، منشورات المكتبة البولسية، بيروت 2002، ص، 66.

[346←]
لر الترجمة الفرنسية:

Origène, Traité des principes, trad. H. Crousel et M. Simonetti, Pars, Les Editions du Ce
.1978, p. 111

[347←]
يجانس، في المبادئ، م. س، ص، 83.

[348←]
م، ص، 84.

[349←]
م، ص، 85.

[350←]
م، ن. ص.

[351←]
م، ص، 86.

[352←]
م، ن. ص.

[353←]
م، ص، 87.

[354←]
م، ن. ص.

[355←]
م، ص، 91.

[356←]
م، ص، 94.

[357←]
م، ص، 102.

[358←]
م، ص، 103 - 104.

[359←]
م، ص، 422.

[360←]
م، ص، 41 - 42.

[361←]
م، ص، 42.

[362←]
A. Michel, art. Trinité, in Dictionnaire de théologie catholique, t. XV, 2 partie, Paris, Librair Letouzey, 1950, col. 1571.

[363←]
ـابري، مدخل إلى القرآن، م. س، ص، 42.

[364←]
م، ن. ص.

[365←]
م، ص، 43.

[366←]
م، ن. ص.

[367←]
م، ص، 43.

[368←]
G. Bareille, « Ébionites », in Dictionnaire de théologie catholique, ed. G. Vacant – E. Mangenot, Paris, Letouzey et Ané Editeurs, 1910, p. 1987.

[369←]
Epiphanius of Salamis, The panarion. Book I (Sects 1-46), trans. F. Williams, Brill, Leiden-Boston, 2009, p. 131.

[370←]
Ibide.

[371←]
ف وصل الجابري إلى هذه المحطة؟ وما الوازع الذي دفعه إلى الانهماك في الكتابة عن القرآن؟ الاجابة نجدها عنده. فهو يقصّ على القارئ ديناميكية انتاجه العلمي ومصادفته للمواضيع التي تناولها تباعا. العملية، كما يرويها، هي في غاية البساطة: كلّ مرة ينهي كتابا إلاّ وتبزغ فكرة جديدة في رأسه، إلاّ ووجد موضوعا يتطلب البحث والتمحيص، والسلسلة متواصلة: «عندما أخذتُ في كتابة مقدمة له [كتاب: نحن والتراث] فاجأتني فكرة تأليف كتاب في نقد العقل العربي...ولم أكد أمسك القلم عند الانتهاء من كتابة خاتمة هذا الأخير حتى وجدتني أمام موضوع جديد يستحثني بل يستفزني، موضوع العقل السياسي العربي. وبينما أنا منهمك في مراجعته ـ المراجعة الأخيرة ـ وقفت الأخلاق أمام ناظري منادية...انتهيتُ من العقل الأخلاقي العربي ... وإذا ببعض الأصدقاء يُمطرونني بأسئلة من نوع: وماذا بعد؟ الاقتراحات توالت، والجابري بقي يفتّش عن موضوع ويصغي لمطالب الأصدقاء، وفي الأخير استقرّ به الأمر عند اقتراح يقصه الجابري ذاكرا تفاصيل الواقعة محددا الزمان والمكان والوضع: «اقترحَ صديق من السعودية، ونحن على سيارته مُتوجّهين إلى "عزيمة" عشاء في منزل صديق مشترك بالرياض، اقترح قائلا: "لماذا لا يكون الكتاب المقبل في القرآن؟"». هذا الموضوع ليس بجديد عن بال الجابري ولكنه أجّله إلى حين تفرّغه من كتابة أعمال أخرى من بينها "العقل الأوروبي". لكن الشرارة انقدحت في صيف 2001، أي مع أحداث سبتمبر، وما تلا ذلك من أحداث مأساوية «وردود فعل غاب فيها العقل، من جميع الأطراف». كان على الجابري أن يكتب كتابا في السياسة المعاصرة ويغوص في تاريخ الاشكالية التي أدت نتيجتها إلى تلك الحادثة، معرّجا على أسباب ذاك الانسجام الذي بدأ منذ السبعينات بين الحركات الإسلامية، وبين السياسة الأمريكية. كان عليه مثلا أن يبيّن المأزق الكبير للفكر الليبرالي وكيف هجم على الاشتراكية عن طريق التهويل وخلق الأكاذيب وترويجها في العالم ثم هجمته ضد أسس التحرر والعلمانية في العالم العربي الشيء الذي أفضى إلى تغليب الاسلاميين على غيرهم ونزع القاعدة الشعبية للفكر الثوري اليساري، لإحلال محله قوالب الفكر المتدين وكسبه إلى جنبه للإجهاز على ما تبقى من جيوب العلمانية. لكن الجابري لم يفعل ذلك واتجه مباشرة إلى موضوع آخر، أي إلى دراسة القرآن «مدفوعا في ذلك برغبة عميقة في التعريف به، للقراء العرب

والمسلمين وأيضا للقراء الأجانب. إذن الجابري يتوجّه إلى القراء العرب، أي المثقفين ذوي مستوى عال أو متوسّط، ولديهم اطلاع على تاريخ الفلسفة، ومعرفة كافية بآليات التأويل عامة وتأويل النصوص الدينية خاصة، ولديهم إلمام مقبول بأعمال المستشرقين. أما القراء الأجانب فإنهم قلّة قليلة جدّا، ومن المحتمل أن ينحصر الاطلاع على زمرة مضيقة من الدارسين: لا يستطيع أن يطّلع على ذاك الكتاب الضخم إلاّ مستشرقا متمرّسا بالإسلاميات ومتمكّنا للغاية من اللغة العربية القديمة والحديثة. لكن الجابري يعترف بأن الدافع الذي حركه للخوض في هذا الموضوع هو دافع المنافحة عن الدين الإسلامي وعن القرآن، من حيث إيضاح اللبس ودرء الفهم الخاطئ المنجرّ عن التعامل مع ما يجهله الناس. لكنه رأى أن مهمّته لن تكتمل إذا لم يخض معركة عقائدية حاسمة مع اليهودية والمسيحية، والتركيز على نقائص هذين الدينين بالمقارنة مع صفاء الإسلام، وهكذا فهو لم يخرج عن قانون المجادلين المسلمين القدامى الذين يختمون مؤلفاتهم بنقض الفرق الأخرى، خصوصا الدينين السابقين، اليهودية والمسيحية. انظر، الصفحات 13 و14.

[372←]
م، ص، 44.

[373←]
م، ص، 44.

[374←]
قد ازدهر هذا التيار التوفيقي في مدرسة الاسكندرية خاصة وقد ذكرنا أن من أبرز من قام بذلك الأسقف الفيلسوف أوريجينس». ن. م، ص، 44.

[375←]
م، ص، 45.

[376←]
م، ن. ص.

[377←]
م، ن. ص.

[378←]
م، ص، 46. وكالعادة لم يذكر الجابري أي اسم من هؤلاء الباحثين الغربيين.

[379←]
م، ص، 47.

[380←]
م، ص، 48.

[381←]
م، ص، 48.

[382←]
م، ص، 72.

[383←]
م، ن. ص.

[384←]
م، ص، 72 - 73.

[385←]
مسألة بالنسبة للجابري هي كلها يقينيات غير قابلة للشك نظرا إلى أنه حلها بحشد من الأدلة التاريخية، التي كما قلنا سابقا، وكما يستطيع القارئ أن يتثبت بنفسه، قابعة في الهواء ونستغرب كيف ينهي مفكر مرموق حياته بالغرق في مثل هذه السفاسف. يقول الجابري: «لقد اتّضح الآن أن المسألة لم تكن مجرد تبشير بالأمي الذي اسمه أحمد أو محمد بل إن المسألة كانت تتعلق في الواقع بوجود تيار ديني توحيدي قام في وجه نظرية التثليث التي رسمتها المجامع الكنسية برعاية أعلى السلطات الامبراطورية البيزنطية، تيار توحيدي اكتسى طابع المعارضة الفكرية والسياسية، وبالتالي الدينية، لدولة الاحتلال البيزنطي ومذهبها الديني، من طرف شعوب الضفة الجنوبية والشرقية للبحر الأبيض المتوسط». ن. م، ص، 73.

[386←]
م، ص، 73.

[387←]
م، ص، 76.

[388←]
م، ن. ص.

[389←]
م، ن. ص.

[390←]
م، 413.

[391←]
م، 415.

[392←]
م، ص، 416 - 417.

[393←]

مة حسن بن عثمان، لكتاب: عيال الله لمحمد الطالبي، دار سيراس للنشر، تونس 1992، ص، 3.

[394←]
م، ن. ص.

[395←]
م، ن. ص.

[396←]
مد الطالبي، عيال الله، ن. م، ص، 24.

[397←]
م، ص، 57.

[398←]
م، ص، 58.

[399←]
مد الطالبي، أمّة الوسط: الإسلام وتحديات المعاصرة، دار سراس للنشر، تونس 1996، ص، 22.

[400←]
م، ن. ص.

[401←]
م، ن. ص.

[402←]
م، ص، 23.

[403←]
م، ن. ص.

[404←]
م، ن. ص.

[405←]
مد الطالبي، ليطمئن قلبي، دار ساراس للنشر، تونس 2007، ص، 102.

[406←]

م، ص، 104.

[407←]
م، ص، 100.

[408←]
م، ن. ص.

[409←]
م، ص، 104.

[410←]
م، ص، 108.

[411←]
م، ص، 108.

[412←]
م، ن. ص.

[413←]
م، ص، 109.

[414←]
م، ص، 109.

[415←]
م، ن. ص.

[416←]
م، ن. ص.

[417←]
صوص هذه المسألة أحيل على كتابي: منطق المؤرخ، منشورات الجمل، بيروت 2014، وأيضا: الاستشراق والمستشرقون في فكر هشام جعيط، منشورات الجمل، بيروت 2016.

[418←]
مد الطالبي، ليطمئن قلبي، م. س، ص، 204.

[419←]
م، ص، 204.

[420←]
م، ن. ص.

[421←]
م، ص، 205.

[422←]
م، ص، 205.

[423←]
م، ن. ص.

[424←]
م، ن. ص.

[425←]
م، ص، 206.

[426←]
م، ن. ص.

[427←]
م، ن. ص.

[428←]
م، ن. ص.

[429←]
م، ن. ص.

[430←]
م، ن. ص.

[431←]
م، ن. ص.

[432←]
م، ص، 207.

[433←]
م، ن. ص.

[434←]
لمئن قلبي، م. س، ص، 81.

[435←]
م، ص، 82.

[436←]
Novum Testamentum Greace et Latine, curavit Eberhard Nestle, Editio decima, Stuttgart 193.

[437←]
البي، ليطمئن قلبي، م. س، ص، 82.

[438←]
Explication suivie des quatre Évangiles par le docteur angélique saint Thomas d'Aquin, t. Paris, Librairie de Louis Vivès Éditeur, 1869, p. 555.

[439←]
AUG. De Verb. Dom., serm. 20, in Explication suivie, ibide.

[440←]
CHRYS. In Cat. Gaecorum Patrum, in Ibid., p. 55.

[441←]
AUG. De Verb. Dom., serm. 27, in Ibide.

[442←]
BASIL. Constit., monast., cap. 1, in Ibide.

[443←]
CYRIL. In Cat. Graecorum Patrum, in Ibide.

[444←]
AUG. De Verb. Dom., serm. 27, in Ibide.

[445←]
البي، ليطمئن قلبي، م. س، ص، 82.

[446←]
م، ن. ص.

[447←]
.GREG. NYSS., In hom. de muliere peccatrice, in Explication etc, t. 5, p. 36

[448←]
.GREG. In hom. 32, in Evang, in Ibid, p. 36

[449←]
.GREG. NYSS. In hom. de muliere peccatrice, in Explication etc, p. 36

[450←]
.CHRYS. Hom. 6, in Matth, in ibid, p. 36

[451←]
.GREG. In hom. 32, in Evang, in ibid, p. 36

[452←]
سير المسيحي القديم للكتاب المقدس. العهد الجديد، انجيل لوقا، نقله إلى العربية الاب ميشال نجم، منشورات جامعة البلمند
2007، ص، 218.

[453←]
.CHRYS. Hom. 6, in Matth, in ibid, p. 37

[454←]
.GREG. In hom. 33, in Evang, in ibid, p. 37

[455←]
.CHRYS. Hom. 68, in Matth, in ibid, p. 37

[456←]
.GREG. In hom. 33, in Evang, in ibid, p. 37

[457←]
.Explication suivie des quatre Évangile, Ibid, p. 37

[458←]
.Ibid, p. 37

[459←]
.Ibid, p. 37

[460←]
.Ibid, p. 37

[461←]
الطالبي، ليطمئن قلبي، م. س، ص، 81.

[462←]
م، ن. ص.

[463←]
م، ن. ص.

[464←]
م، ن. ص.

[465←]
م، ن. ص.

[466←]
م، ن. ص.

[467←]
م، ن. ص.

[468←]
محمد الطالبي، عيال الله: أفكار جديدة في علاقة المسلم بنفسه وبالآخرين، دار سراس للنشر، تونس 1992، ص، 137.

[469←]
م، ن. ص.

[470←]
م، ن. ص.

[471←]
م، ن. ص.

[472←]
م، ن. ص.

[473←]
م، ص، 138.

[474←]
لمئن قلبي، م. أ، ص، 201.

[475←]
م، ن. ص.

[476←]
م، ن. ص.

[477←]
م، ص، 203.

[478←]
جب أن نفرّق، وبالنسبة إلينا القرآن هو الفرقان، بين النبي عيسى ـ عليه السلام! ـ وبين يسوع، وألاّ نطلق أبدا اسم الأول على الثاني». ن. م، ص، 204.

[479←]
م، ص، 208.

[480←]
م، ن. ص.

[481←]
م، ن. ص.

[482←]
م، ص، 209.

[483←]
م، ن. ص.

[484←]
م، ص، 210.

[485←]
ل الطالبي بكل غبطة ووثوق: «أما فيما يخص الأناجيل في حد ذاتها، فإن البحث الحديث المستقل الذي يعرف باسم النظرية الوثائقية (la doctrine documentaire)، لم يبق من الاعتقادات المسيحية فيها شيئا. الأناجيل الأربعة المدعوة بالصحيحة، إجمالا، لا ثقة فيها البتة، التناقضات والافتراءات والتحريفات فيها عديدة، كلها كُتبت في أزمنة مختلفة ومتأخرة، بعدما دمّر الروم القدس وقضوا على كنيستها التي احتفظت برسالة عيسى؛ وشتتوا اليهود وغلبت على المسيحية الاعتقادات التي بثها الرسول بولس المتأثر بالميثات اليونانية، وقد بلغت الشكوك فيها إلى حد أن البعض من أشهر أهل الاختصاص لا يحتفظ منها إلاّ بنزرٍ قليل مما يثبتُ أمام النقد. ومما لا شك فيه تاريخيا، وعليه الإجماع، حتى من قبل كل الكنائس. هو أن الصحاح الأربعة جمعت لأول مرة بدعوة من البابا داماز الأول 366 - 384، جمعها له القديس جيروم، وذلك بعد ما أعلن الامبراطور قسطنطين الأكبر بقرار رسمي أن العقيدة التي صادق عليها لأوّل مرة المجمع المسكوني المنعقد بنيقية سنة 325، هي عقيدة الدولة الرسمية، كل الأناجيل التي فرضتها الكنيسة، وأعلنت أنها هي الصحيحة دون غيرها، تعكس هذه العقيدة، بينما كانت الأناجيل تعدّ بالعشرات، والعقائد كثيرة ومتعددة، ومنها عقائد النزورية والأبيونية التي تؤمن بعيسى نبيا ولا زيادة، نحن نعرض الأناجيل على فرقان القرآن». ن. م، ص، 210.

[486←]
م، ص، 210 - 211.

[487←]
م، ص، 211.

[488←]
م، ن. ص.

[489←]
م، ص، 219.

[490←]
م، ص، 220.

[491←]
م، ن. ص.

[492←]
م، ن. ص.

[493←]
م، ص، 211.

[494←]

م، ن. ص.

[495←]
م، ص، 212.

[496←]
م، ص، 213.

[497←]
م، ن. ص.

[498←]
م، ص، 214.

[499←]
م، ص، 215. مع تحوير بسيط لكن يتفق مع السياق. جملة الطالبي على هذا الشكل: «وهنا لا بدّ أن نبيّن الفارق الشاسع بين تفاهة شخصيّة يسوع وقلّة إيمانه بمهمّته السماوية الكونيّة؛ وبين قوّة شخصية أي مناضل عادي يناضل اليوم، من دون أن يكون إلها، من أجل قضية أرضيّة عادلة، ويجد قوّته في إيمانه بها وبعدالتها... ولا نتحدّث عن الفدائيّين الذين يسمّيهم الغرب إرهابيّين، والذين يُضحّون اليوم بنفوسهم من أجل الدفاع عن أوطانهم المغتصبة، ومن أجل الكرامة، ومنهم النساء والفتيات في مقتبل العمر، بجلد ورباطة جأش وشعور بالاعتزاز، لا يبكون ولا يتأوّهون، ولا يسيل عرقهم شبيها بقطرات دم تنزل على الأرض من شدة الخوف والوجل. ومنهم العديد من نالهم وينالهم العذاب ومنهم من عرفناهم».

[500←]
م، ن. ص.

[501←]
م، ن. ص.

[502←]
م، ن. ص.

[503←]
ـادلة أبي قرّة مع المتكلمين المسلمين في مجلس الخليفة المأمون، تقديم وتحقيق الأرشمندريت أغناطيوس ديك، حلب 2007، ص، 69.

[504←]
ـادلة أبي قرّة، م. أ، ص، 70.

[505←]

م، ص، 71.

[506←]
م، ن. ص.

[507←]
م، ص، 104.

[508←]
م، ص، 104.

[509←]
م، ص، 72.

[510←]
م، ن. ص.

[511←]
م، ص، 81.

[512←]
م، ص، 89.

[513←]
م، 103.

[514←]
م، ص، 103 - 104.

[515←]
م، ص، 118.

[516←]
رسالة عبد المسيح الكندي في الرد على عبد الله الهاشمي"، ضمن: رسالتان في الحوار والجدل بين المسيحية والإسلام، منشورات أسمار باريس 2011، ص، 174.

[517←]
م، ص، 175.

[518←]
م، ن. ص.

[519←]
م، ص، 178.

[520←]
م، ص، 180.

[521←]
م، ن. ص.

[522←]
م، ن. ص.

[523←]
م، ص، 191.

[524←]
م، ن. ص.

[525←]
م، ص، 194.

[526←]
م، ص، 194 - 195.

[527←]
م، ص، 199.

[528←]
م، ص، 200.

[529←]
م، ص، 215.

[530←]
يهودية هي ديانة الحكم الطبيعي: «والشريعة القائمة في العقل، الجاري مع الغريزة، والملائمة للإنسانية، وهو ما جاء به موسى النبي بقوله: "العين بالعين، والسن بالسن، والنفس بالنفس، والجراح قصاص". فهذا حكم الطبيعة الداخل في

قانون العقل، وهو حكم العدل والنصفة، أن تأتي الناس بمثل ما أتوا به إليك، وتفعل بهم كما فعلوا بك، إن كان خيرا فخيرا أو شرا فشرا. وليس ذلك مُضاهيا للحكم الإلهي ولا ممّا يشابه أفعال الرب الرحيم المتفضّل الرؤوف بخلقه». ص، 216 - 217,

[531←]
سيحية دين الحكم الإلهي على أساس أنه «فوق الطبيعة وأشرف منها، فهو التفضّل الذي جاء به المسيح، مخلّص العالم وسيّد البشر، الذي أقرّ به صاحبك وشهد له إذ يقول: "الإنجيل فيه هدى ونور". وذلك أن المسيح قال في إنجيله الطاهر: "غالبوا الشرّ بالخير، وأحسنوا إلى من أساء إليكم، وتفضّلوا على الناس جميعا، وباركوا من لعنكم، وادعوا لمن أذنب إليكم، وآتوا الجميل والمعروف إلى من شتمكم، لتُشبهوا في ذلك أبيكم الذي في السماء، فإنه يجود بوابله على الأبرار والفجّار، ويشرق شمسه على الأخيار والأشرار". فهذا الحكم الالهي وشرائعه فوق الطبيعة وأعلى من العقل الإنساني، وهو حكم التفضّل والرحمة، والعفو والتشبّه بفعل الله تبارك وتعالى الرؤوف الرحيم». ص، 216.

[532←]
م، ص، 217.

[533←]
م، ن. ص.

[534←]
م، ص، 219.

[535←]
م، ن. ص.

[536←]
م، ص، 219 - 220.

[537←]
م، ص، 222.

[538←]
م، ن. ص.

[539←]
م، ص، 238.

[540←]
م، ن. ص.

[541←]

م، ن. ص.

[542←]
م، ص، 238 - 239.

[543←]
م، ص، 239.

[544←]
م، ص، 239 - 240.

[545←]
م، ص، 240.

[546←]
م، ص، 241.

[547←]
م، ن. ص.

[548←]
م، ن. ص.

[549←]
م، ص، 242.

[550←]
م، ص، 242.

[551←]
م، ن. ص.

[552←]
م، ن. ص.

[553←]
م، ن. ص.

[554←]

م، ص، 247.

[555←]
م، ص، 247 - 248.

[556←]
م، ص، 249.

[557←]
م، ص، 249 - 250.

[558←]
م، ص، 272.

[559←]
م، ن. ص.

[560←]
م، ن. ص.

[561←]
م، ص، 274.

[562←]
م، ص، 273.

[563←]
م، ن. ص.

[564←]
م، ص، 328.

[565←]
م، ن. ص.

[566←]
م، ن. ص.

[567←]

م، ص، 329.

[568←]
م، ن. ص.

[569←]
م، ص، 229 - 230.

[570←]
م، ص، 230.

[571←]
م، ص، 331.

[572←]
Fratris Ricoldi de Monte Crucis, Liber peregrinationis, in J.C.M. Laurent, Peregrinatores Med
Aevi Quatuor, Lipsiae 1864, p. 135.

[573←]
Ibidem, p. 12.

[574←]
Ibid, p. 12.

[575←]
Ibid., p. 131. « In eadem civitate, scilicet Baldaco [Baghdad], fuit sedes et principalit
Sarracenorum quantum ad studio et religionem et quantum ad dominium ».

[576←]
Ibid., p. 131. « et obstupuimus quomodo in lege tante perfedie poterant opera tante perfection
inveniri ».

قد كنا مندهشين لرؤيتنا كيف أن، بشريعة في غاية القبح، يمكن أن نجد أعمالا جليلة".

[577←]
Ibide.

[578←]
Ibide.

[579←]
.Ibid., p. 13

[580←]
.« Ibidem. « cum per experientiam et vidi et proba

[581←]
.Ibid., p. 13

[582←]
.Ibid., p. 13

[583←]
.Ibid., p. 13

[584←]
.Ibide

[585←]
.Ibide

[586←]
.Ibid., p. 13

[587←]
.Ibide

[588←]
Magistro Ricoldo, Propugnaculum fidei toti christianae religionis, Venetiis, apud Domenicu de Imbertis MDCVII, p. 2. « … surrexit contra Ecclesiam Dei et contra veritatem quidem draco diabolicus, homo lubricus et obscenis actibus, nomine Mahumetus, qui consilio illius et auxilio qui mendax est et pater eius, legem mendacissimam et nephariam composuit, quasi ex ore Dei; quam legem appellavit Alchoranum; quasi collectarium praeceptorum .«Dei. Hic Mahumetus super alios, qui unquam fuerunt, persecutus est Ecclesiam Dei

[589←]
Ibidem. «… modo per tyrannidem saeviendo, modo per legem seducendo, modo p .«hypocrisim simplices subvertendo

[590←]

Ibid, p. 2-3. « Ego igitur, frater Ricoldus minimus in ordine fratrum praedicatorum, de tan damnatione condolens cogi appellavitavi vias antiqua et converti pedes meos ib testimonia Dei. Unde cum transissem maria et deserta et pervenissem ad famosissimam civitatem sracenorum Valdacum, ubi generale ipsorum et solemne habetur studium, ibi pariter linguam et litteram arrabicam didici et legem eorum diligentissime relegens et studiose in scholis et cum magistris ipsorum frequenter conferens; magis ac magis per experientiam apprehendi perversitatem predictae legis et cum incepissem in latinum transferre, tot inveni fabulis, falsitates et blasphemias, et eadem per omnia in locis creberrimis repetita quod tunc attaediatus dismisi. Et in attritione de praedictis blasphemiis scripsi quasdam epistolas .«ad Ecclesiam triumphantem per modum querelae amaricati animi

[591←]
.« Ibid, p. 5. « In hoc primo capitulo signatur principales errores legis Saracenoru

[592←]
R. da Montecroce, I Saraceni, a cura di Giuseppe Rizzardi, Nardini Editore, Firenze 1992, 62-63. ID, Propugnaculum fidei toti christianae religionis, Venetiis, apud Domenicum de .Imbertis MDCVII, p. 5

[593←]
Cfr. G. Rizzardi, Isa ibn Maryam. Lo sguardo dell’Islam su Gesù, Centro ambrosiano, Milar .2007, p. 11

[594←]
.Ibide

[595←]
.Ibide

[596←]
بة إلى القديس أوغسطينوس.

[597←]
.Ibid., p. 1

[598←]
Ibidem. « Quae quidem olim diaboli machinatione concepta, primo per Arrium seminat deinde per istud Satanam, scilicet Machumet, provecta, per Antichristum, vero ex toto (secundum diabolicam inventionem complebitur (in Bibl. Patr., ediz. di Lione, XXII, 1031 «

[599←]

.R. Da Montecroce, I Saraceni, ibid, p. 6

[600←]
.Ibid, p. 7

[601←]
.Ibid, p. 7

[602←]
.Ibid, p. 7

[603←]
.Ibid, p. 8

[604←]
.Ibid, p. 8

[605←]
تشهد بأخلاق نيقوماخوس لأرسطو، 1، 8، 1089.

[606←]
.Ibid, p. 8

[607←]
م، ص، 88.

[608←]
م، ص، 88.

[609←]
رة 258، 264؛ آل عمران 86؛ المائدة 51، 68، 108؛ الأنعام 104، الخ.

[610←]
ائدة 16؛ ابراهيم 1، 5؛ الأحزاب 43.

[611←]
ضحى 6.

[612←]

كولدو، ضد شريعة المسلمين، ص، 89.

[613←]
أ 28.

[614←]
سف 2؛ طه 113؛ فصلت 3؛ الخ.

[615←]
ترة 62.

[616←]
عمران 19.

[617←]
نكبوت 46.

[618←]
ربة 29.

[619←]
نكبوت 28؛ الأعراف 80.

[620←]
ترة 133.

[621←]
نعام 14.

[622←]
كولدو، ص، 91.

[623←]
ـعراء 214؛ السجدة 32؛ سبأ 44؛

[624←]
سف 2؛ الرعد 37؛ النحل 103؛ طه 113؛ الشعراء 195.

[625←]

كولدو، ص، 93.

[626←]
م، ص، 94.

[627←]
سراء 59.

[628←]
صص 48.

[629←]
.T. D’Aquino, Somma teologica, UTET, Torino 1975, p. 7

[630←]
كولدو، ص، 96.

[631←]
كولدو، ص، 96.

[632←]
ما يقصد ابن سينا الذي استعمل هذه العبارة في الرسالة الاضحوية.

[633←]
كولدو، م. س، ص، 100.

[634←]
م، ص، 101.

[635←]
م، ص، 102.

[636←]
سطو، أخلاق نيقوماخوس 1152 ب، 15 - 18.

[637←]
كولدو، ضد شريعة المسلمين، م. أ، ص، 103.

[638←]

م، ن. ص.

[639←]
م، ص، 104.

[640←]
م، ص، 104.

[641←]
م، ص، 105.

[642←]
رة، 213.

[643←]
م، ن. ص.

[644←]
رة، 190 - 193.

[645←]
ل، 104.

[646←]
نفال، 15 - 16.

[647←]
كولدو، م. س، ص، 106.

[648←]
م، ص، 106.

[649←]
م، ص، 107.

[650←]
م، ص، 108.

[651←]

حنا 17: 3.

[652←]
سطو، الأخلاق، 10، 1177أ، 1 - 5.

[653←]
كولدو، م. س، ص، 111 - 113.

[654←]
كوين، 2: 16.

[655←]
كولدو، م. س، ص، 113.

[656←]
م، ص، 114.

[657←]
غسطينوس، الرسائل، 28، 3.

[658←]
كولدو، م. س، ص، 115.

[659←]
م، ص، 115.

[660←]
ائدة، 18.

[661←]
كولدو، م. س، ص، 117.

[662←]
ربة، 30.

[663←]
كولدو، ن. م، ص، 118.

[664←]

م، ص، 120.

[665←]
م، ص، 121.

[666←]
S. Tommaso, Summa Theol. III, 32, 1, arg.

[667←]
كولدو، م. س، ص، 124.

[668←]
كولدو، ن. م، ص، 125.

[669←]
م، ص، 127. النص اللاتيني، ص، 36.

[670←]
كولدو، نقض القرآن، النص اللاتيني، ص، 46.

[671←]
م، ص، 128.

[672←]
يب كوادانيولوس، إجابة القسيس الحقير فيليبس كوادانيولوس إلى أحمد الشريف بن زين العابدين الفارسي الأصبهاني، روما 1637، ص، 49 - 50. هذه ترجمة عربية قديمة مختلة نوعا ما ولذلك لم أتقيّد بها ورجعت للنص الأصلي باللاتينية وقارنتها بالترجمة العربية، وأجريت عليها بعض التحويرات:

P. GUADAGNOLO, Apologia pro Christiana Religione, Romae, Typis Sac. Congreg., de Pro (Fide. MDCXXXI (1631

[673←]
ظر: ابن سينا، الإلهيات، المقالة التاسعة، الفصل السابع، حيث يرى أن فكرة السعادة عند الحكماء هي في الطرف النقيض لما يعتقدُه المتديّنون، بل إنهم يحتقرون مثل تلك السّعادة الحسية ولا يعيرونها أية أهمية، حتى وإن وُعِدوا بها في القرآن: «والحُكماء الإلهيون رَغبتُهم في إصابة هذه السعادة أعظم من رغبتهم في إصابة السّعادة البَدنيّة، بل كأنهم لا يَلتَفِتُون إلى تلك، وإن أعْطوها، لا يَستَعْظِمُونَها في جنْبَة هذه السعادة التي هي مُقاربة الحقّ الأوّل» (ابن سينا، الشفاء ـ الالهيات، الجمهورية العربية المتحدة [د. ت]، ص، 423). في الاضحوية يقول ابن سينا: «ومَنْ قَوِيَ سُلطانُ نفسِهِ النُّطْقِيّة في هذا العالَم جعل يحسّ ويشعر بشيء من تلك اللذة على التّفاوتِ ... وأما على الإطلاق فلا سبِيل إليها إلاّ في الآخرة. فالسّعادة الأخرويّة عند تخلّص النفس عن البدنِ وآثار الطبيعة وتَجرُّدِه كامل الذات نَاظِرا نَظَرا عقليّا إلى ذاتِ مَنْ له المُلك الأعظم وإلى الرّوحانيّين الذين يَعبُدونَه، وإلى العالَم الأعلى وإلى وصول كماله إليه. واللذة الجليلة عند ذلك والشّقاوة الأخيرة ضدّ ذلك».

[674←]
م، ص، 405.

[675←]
م، ص، 501.

[676←]
م، ص، 501.

[677←]
م، ص، 502.

[678←]
م، ص، 503.

[679←]
م، ن. ص.

[680←]
م، ص، 504.

[681←]
م، ص، 357.

[682←]
م، ص، 358.

[683←]
م، ص، 359.

[684←]
م، ن. ص.

[685←]
م، ص، 360.

[686←]
م، ص، 352.

[687←]
م، ن. ص.

[688←]
م، ص، 354.

[689←]
م، ص، 397 - 398.

[690←]
م، ص، 402.

[691←]
م، ص، 428.

[692←]
م، ص، 474 - 475. النسخة اللاتينية، ص، 244 - 245.

[693←]
م، ص، 429.

[694←]
م، ص، 430.

[695←]
م، ص، 496 - 497.

[696←]
م، ص، 497.

[697←]
م، ص، 497 - 498.

[698←]
م، ص، 498.

[699←]
م، ص، 498 - 499.

[700←]
م، ص، 456.

[701←]
م، ص، 457.

[702←]
م، ن. ص.

[703←]
م، ص، 459.

[704←]
م، ص، 460.

[705←]
م، ص، 461 - 462.

[706←]
م، ص، 462.

[707←]
م، ص، 463.

[708←]
م، ن. ص.

[709←]
لبري، جامع البيان، ص، 39.

[710←]
P. Guadagnolo, Apologia pro Christiana Religione, p. 2.

[711←]
Apologia pro Christiana Religione, p. 311-3.

في الترجمة العربية فالنص كالآتي: «يتبيّن منه جهرة أنه قد اتّخذ لنفسه امرأة غيره وتبدلها من زوجها وباشرها لأنه قال بالحرف "من بعد" أي بعد ذلك الزمان، لأنه قد تبدل قبل ذلك امرأة من زوجها إذ أعجبه حسنها ولو لم يفعل ذلك قط لما قال بالحرف "من بعد"، كأنه قائل: قد كان لك حلالا مرة واحدة أن تباشر زوجة غيرك وأن تتزوج بها لكن لا يليق لك

من بعدها مرة أخرى. فبيّن أن محمدا أحل لنفسه مباشرة جميع النساء أي كانت لأن شهوته وهواه اشتدّ غاية ما يكون فوجب لشد هواه».

[712←]
.Ibid, p. 312-31

ـجمة العربية لهذا النص كالآتي: «في سورة النساء لماذا نهى عن مباشرة الأقرباء واعتبرها القرآن فاحشة وساء سبيلا. وإن كانت فاحشة وطبيعتنا تعلمنا بأن تلك المباشرة هي فاحشة وحسبما قال أرسطوطاليس في الكتاب السابع من الإيثيقا فواحش جسدنا لهي قبح من القبائح، فنهى محمد لغيره عن مباشرة أقربائهم لأنها كانت فاحشة، لماذا اتخذ لنفسه وحده تلك الفاحشة والسبيل الذي هو ساء سبيلا. وإن كان ساء سبيلا لغير محمد لماذا هو نعم سبيل لمحمد وحده؟ وعسى سيُجيبنا قائل من المسلمين يقول لنا إن لمحمد ليس بفاحشة ولا ساء سبيلا له لأنه نبيّ وشارع الشريعة. فأعجب بهذه الإجابة التي تبيّن لنا أكثر ممّا قد بان ثقل خطية محمد. إنما لو كان نبيا ورسول الله وشارع الشريعة وطاهرا وخاتم الأنبياء .. فكان واجب عليه أن يُظهر قدسيته بالعفة أو بحفظ فروجه، حينئذ فعلا أنه خاتم الأنبياء. لكن مباشرته نسوة الغير وأقربائه، وهواه وشهوة النساء ترينا أنه كان خاتم الفاسقين لا خاتم الأنبياء، وخاتم الزنا ولا خاتم النبيّين»، كوادانيولو، م. س، ص، 579.

[713←]
م، ص، 466.

[714←]
م، ص، 467.

[715←]
م، ص، 467 - 468.

[716←]
م، ص، 469.

[717←]
م، ص، 412.

[718←]
م، ص، 417.

[719←]
م، ص، 526.

[720←]
م، ص، 527.

[721←]

م، ن. ص.

[722←]
م، ن. ص.

[723←]
م، ص، 528.

[724←]
م، ص، 425.

[725←]
م، ص، 425 - 426.

[726←]
م، ص، 12.

[727←]
ں، 14.

[728←]
م، ص، 17.

[729←]
م، ن. ص.

[730←]
م، ص، 18.

[731←]
م، ص، 55 - 56.

[732←]
م، ص، 58.

[733←]
م، ص، 62.

[734←]

م، ص، 63.

[735←]
م، ص، 68 - 69.

[736←]
م، ص، 69.

[737←]
م، ن. ص.

[738←]
م، ص، 70.

[739←]
م، ص، 71.

[740←]
م. ن. ص.

[741←]
م، ص، 83.

[742←]
م، 28 - 30.

[743←]
م، ص، 35 - 36

[744←]
م، ص، 332 - 333.

[745←]
م، ص، 332.

[746←]
م، 337.

[747←]

م، ص، 340.

[748←]
م، ص، 341.

[749←]
م، ص، 346.

[750←]
م، ص، 607.

[751←]
م، ن. ص.

[752←]
م، ص، 509.

[753←]
م. 610.

[754←]
م، ص، 553 - 554.

[755←]
م، ص، 1156.

[756←]
م، ص، 554.

[757←]
م، ن. ص.

[758←]
م، ص، 1157.

[759←]
م، ن. ص.

[760←]

م، ص، 1158.

[761←]
م، ص، 1159.

[762←]
م، ص، 1160.

[763←]

[764←]
F. di Alessandria, Mosè, a cura di Paola Graffigna, Rusconi, Milano 1998, p. 11.

[765←]
Ibid., p. 12.

[766←]
Ibid., p. 11.

[767←]
Ibid., p. 14.

[768←]
Ibid, p. 14.

[769←]
Ibide.

[770←]
Ibide.

[771←]
Ibid, p. 14.

[772←]
لر:

Batsch, C., La guerre et les rites de guerre dans le judaïsme du deuxième Temple, Brill, Leiden Boston 2005, pp. 41-44.

[773←]

.F. di Alessandria, Mosè, Ibid, p. 14

[774←]

.Ibid., p. 15

[775←]

.Ibid., 23

[776←]

.Ibid, p. 14

[777←]

.Ibide

[778←]

سف الصدّيق، هل قرأنا القرآن، م. س، ص، 57.

[779←]

م، ن. ص.

[780←]

م، ص، 214.

[781←]

م، ن. ص. في النسخة الفرنسية من كتابه هذا، الذي ألفه بالفرنسية للفرنسيين، كي يُعلّمهم القرآن، وعنوانه: "نحن لم نقرأ القرآن أبدا (Nous n'avons jamais lu le Coran)"، كتب هذه الجملة الفظيعة كما يلي:

Techniquement, dans les commentaires et le vocabulaire de la jurisprudence islamique, il s'agit de la cinquième part (le khumus) du butin de guerre qui doit revenir – c'est la parole coranique qui le précise – à Dieu et à son Envoyé. Or il suffit de reproduire ces notes de l'anthropologue helléniste Marcel Détienne pour lever le voile sur les profondes et lointaines origines des pratiques institutionnelles remises à jour, réaménagées ou restaurées par la parole coranique ». Y. Seddik, Nous n'avons jamais lu le Coran, Tunis, Med Ali .Editions, 2015, p. 272

[782←]

سف الصديق، هل قرأنا القرآن؟ م. س، ص، 214 - 215.

[783←]

م، ص، 215.

[784←]
الة عبد المسيح، م. س، ص، 206.

[785←]
م، ص، 207.

[786←]
ما الأكويني، الخلاصة اللاهوتية، مج. 5، طبع المطبعة الأدبية، بيروت 1908، المسألة 94، فصل 6، ص، 13.

[787←]
لاصة اللاهوتية، ن. م، المسألة 100، فصل 8، ص، 97.

[788←]
ادانيولو، إجابة ..، م. أ، ص، 361.

[789←]
أجمل اعتراض قرأته على هذه الرواية الميتولوجية في القرآن هو ما أورده الرازي في تفسيره، وقد استخرج من هذه الأسطورة مصادرة قبيحة ولاأخلاقية، مفادها أن إمهال الله لإبليس يبرهن برهانا ساطعا أن الله غير ملزم برعاية مصالح العبد في دينه ولا في دنياه. وهذا في الحقيقية يتماشى مع تصوّر الأديان لله على أنه الشرّ المحض. تمعّنوا جيدا في أقوال الرازي، فلا مناص من الخروج بهذا الاستنتاج. قال: «إن ابليس استمهل الزمان الطويل فأمهله الله، ثم بيّن أنه إنما استمهله لإغواء الخلق وإضلالهم، وإلقاء الوساوس في قلوبهم، وكان تعالى عالما بأن أكثر الخلق يطيعونه ويقبلون وسوسته، كما قال (ولقد صدق عليهم ابليس ظنّه فاتّبعوه إلاّ فريقا من المؤمنين). فثبتَ بهذا أن إنظار ابليس وإمهاله هذه المدة الطويلة يقتضي حصول المفاسد العظيمة والكفر الكبير، فلو كان تعالى مُراعيا لمصالح العباد لامتنع أن يُمهله، وأن يُمكّنه من هذه المفاسد. فحيث أنظره وأمهله، علِمنا أنه لا يجب عليه شيء في رعاية المصالح أصلا». السؤال: لماذا خلقهم إذن؟ لماذا أحدث كل هذه الزوبعة، وقلب نظام الكون محوّلا الصلصال إلى كائن حيّ متنفّس، ثم يفشل في مبتغاه؟ أما كان من الأفضل له أن يبقى في توحّده وسعادته بدل أن يتأسف ويتحسّر على عباده الذين، بعد أن أغدق عليهم كل الخيرات، أهانوه وعبدوا أوثانا؟ ليس هذا فقط، بل ثمة دليل آخر، يثبت أن هذا الاله عبثيّ شرّير. يقول الرازي: «ومما يقوّي ذلك أنه تعالى بعث الأنبياء دعاة إلى الخلق، وعلم من حال ابليس أنه لا يدعو إلاّ إلى الكفر والضلال، ثم إنه تعالى أماتَ الأنبياء الذين هم الدّعاة للحق، وأبقى إبليس وسائر الشياطين الذين هم الدعاة إلى الكفر والباطل. ومن كان يريد مصالح العباد امتنع عن أن يفعل هذا». انظر: فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ج. 14، دار الفكر، بيروت 1981، ص، 42.

[790←]
.Porfirio, Contro i cristiani, Bompiani, Milano 2009, fr. 49, p. 2

[791←]
.Porfirio, Contro i cristiani, ibid, p. 3

[792←]
يرات المؤوّلين المسيحيين لهذه الجملة هي بدورها فظيعة. بالنسبة لكريزوستوم اليهود ليسوا أبناء الله بل أبناء زنى، لأن العلاقات الغير شرعية متفشّية فيهم، وأغلبهم لقطاء. لكن المخلص، يقول كريزوستوم، لم يعب عليهم ذلك وإنما حرص على التأكيد أنهم ليسوا من الله، لأنهم لو كانوا منه لآمنوا به. أوغسطينوس اتخذها ذريعة لنقض المانويين الذين حسب

رأيه «يعتقدون بوجود مبدأ الشر، وأمّة الظلمة مع زبانيّتها، ومنها استمد الشيطان منشأه، ومنها يستمد جسدنا وجوده. ولكي يثبتوا هذا الرأي استدلوا بقولة المسيح "أنتم لديكم كأب الشيطان"، يعني أنهم أشرار بالطبيعة، لأنهم يستمدون وجودهم من أمة الظلام المعادية لله (Aug., tract. 42, in Joan)». لكن أوغسطينوس تكرّم على اليهود بالقول، على خلاف المانويين، أن اليهود هم أبناء الشيطان بالمحاكاة والتقليد وليس بالولادة (Judaei filii erant diaboli imitando, non nascendo)؛ نفس التفسير تقريبا ورد عند كريزستوم، حيث قال إن يسوع لم يقل لهم: "أنتم تفعلون" وإنما قال "أنتم تريدون أن تحققوا شهوات أبيكم"، لكي يعبر عن ميلهم العنيف للقتل الذي يسيطر عليهم، على مثل الشيطان. أوغسطينوس في موضع آخر، عمم اسم الشيطان، وجعله مفهوما كليا: «الشيطان هنا ليس اسما خاصا، وإنما اسم عام، يمكنك أن تطلقه على كل إنسان تجد فيه أعمال الشيطان، لأنه اسم ينطبق على الأفعال بدل الطبائع. سيدنا أراد أن يقول إن اليهود لهم كأب قابيل، لأنهم يريدون أن يحاكوه بقتل يسوع .. وبما أن قابيل كان محاكيا للشيطان، فأبوه هو الشيطان، الذي حاكى أفعاله». وفي موضع آخر حاول أن يكون أكثر تفلسفا موعزا إلى أن اليهود هم من الشيطان وليسوا من الشيطان في نفس الوقت، باعتبار تخريب الطبيعة وليس الطبيعة. قال إن: «اليهود كانوا من الله ولم يكونوا من الله (sunt ex Deo, et non sunt ex Deo)؛ طبيعتهم تأتي من الله (nartura ex Deo)، رذيلتهم لا تأتي من الله (vitium non ex Deo) [يعني بطريقة غير مباشرة، رذيلتهم من الشيطان]. والمخلص يلقي بهذه القولة ليس فقط على أولئك الذين كانوا مخطئين (فهذا عام للجميع) وإنما أيضا على أولئك الذي تنبأ بأنهم سيرفضون الايمان، الذي هو الوحيد بمقدوره أن يخلصهم من قيود خطاياهم».

لر:

Explication suivie des quatre Évangiles par le docteur angélique saint Thomas d'Aquin, t. .op. cit, pp. 510-517

[793←]

.Porfirio, Contro i cristiani, op. cit., p. 34